

المسالك والممالك

تأليف

أبي عُبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري

المتوفى ٤٨٧ هـ

حققه ووضع فهارسه

الدكتور جمال طلبة

الجزء الثاني

منشورات محمد علي بيضون



الطبعة الأولى
٢٠٠٣م - ١٤٢٤هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3948-7



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر بلاد العراق والمشهور من مدنها

حده ما بين الخزر إلى السواد[١]، فسواد الكوفة: كَسْكَر إلى الزاب إلى عمل حلوان إلى القادسية، وسوادُ البصرة: الأهواز وفارس ودهشنان، وهذه كلها من العراق.

وإنما سُمِّى العراقُ مأخوذ من عَرَاقى[٢] الدلو وعراق القربة، والكوفة والبصرة تسمى بالعراقين.

فطول أرض السواد من حد أرض أَثُور[٣] - وهى الموصل - من قرية تسمّى العَلْث[٤] من طسُّوج بُزُرْجَسَابُور، وقرية تعرف بجَرْبَا[٥] من طسُّوج مَسْكن بينهما عرض دجلة إلى آخر الكورة، وهو الموضع المعروف بَبهْمَن أَرْدَشير[٦]، وهى من فرات البصرة حتى تبلغ جزيرة منها متصلةً بالبحر تعرف بَميَان رُوذان، يكون ذلك بالفراسخ مائة وخمسة وعشرين فرسخًا.

وعرضُه من عقبة حُلْوان إلى العُذَيب مما يلى البادية، وذلك بالفراسخ ثمانون فرسخًا.

---

(١) السَّواد: قلب العراق، اثنتا عشرة كورة، كل كورة إستان وطساسيجه ستون طسُّوجًا.
الإستان: إحازة، والطسوج: ناحية.
المسالك والممالك لابن خرداذبة ١٨ والأعلاق النفيسة ١٠٧.

(٢) انظر: الروض المعطار ٤١٠.

(٣) معجم البلدان (أثور) ١/ ٨٢-٨٣.

(٤) العَلْث: قرية على دجلة بين عُكبرا وسامراء. وذكر الماوردى فى الأحكام السلطانية: أن العَلْث: قرية موقوفة على العلويين، وهى فى أوَّل العراق فى شرقى دجلة. معجم البلدان (العَلْث) ٣/ ٣٤٩.

(٥) جَرْبا: مقصور، والعامة تلفظ به مُمَالاً، بُلَيدةٌ فى أقصى رُجَيل بين بغداد وتكريت، مقابل الحظيرة، تنسج فيها الثياب القطنية الغليظة وتُحمل إلى سائر البلاد. معجم البلدان ٢/ ١٣٢.

(٦) بَهْمَن أردشير: كورة واسعة بين واسط والبصرة، منها ميسان والمَذَار، وتسمى فرات البصرة، والبصرة منها تُعَدُّ. قال حمزة الأصبهانى: بَهْمَنشير: تعريب بَهْمَن أردشير، وكانت مدينة مبنية على عِبْر دجلة العوراء فى شرقيها تجاه الأبلة خرِبت، ودرس أثرُها وبقى اسمُها. معجم البلدان (بهمن أردشير) ١/ ٤٠٦.

وقال أبو عبيدة: إنَّ حَدَّ السواد الذى مسح عثمان بن حُنَيْف[١] وهو من لدن تخوم الموصل مادًا إلى ساحل البحر من بلاد عبادان من شرقى دجلة طولاً، وعرضه من منقطع الجبل من أرض حلوان إلى منتهى طرف القادسية مما يلى العُذَيب من أرض العرب.

وعن الشَّعْبِى أَنَّ عمر بن الخطاب بعث عثمان بن حُنَيف، فمسح السواد فوجده ستة وثلاثين ألف ألف جريب[٢]، يعنى موضعَ الغلّة منه[٣].

وأما على تكسير الذرع الذى ذكرناه من الطول والعرض فإنه مائتا ألف ألف وخمسة وعشرون ألف ألف جريب، يوضعُ منها بالتخمين آكام وآجام وسباخ وطرق وصحارٍ وأنهار، ومواضع المدن والقرى الثلث، ويبقى بعد ذلك مائة ألف ألف وخمسة وسبعون ألف ألف جريب، يزاح منها النصف لما فيها من النخيل والكرم والشجر، ويعمَّر النصف وذلك خمسة وسبعون ألف ألف جريب، فيكون قيمة ما يلزم كل جريب من الخراج على التخمين درهمين، وذلك أقل من العشر على أن يضرب ما يوجد فيها من الخراج بعضه ببعض مع خراج أهل الذّمة، ويبلغ ذلك ورقًا مائتى ألف ألف وخمسين ألف ألف درهم.

واختلف فيما وضع عمر بن الخطاب رضى الله عنه على كل جريب، فقيل: وضع عليه درهما واحدًا وقفيزًا، وقيل: إنه وضع على جريب الحنطة نصف

(١) عثمان بن حُنيف: بالمهملة والنون مصغّر ـ الأنصارى، شهد بدرًا، وقال الجمهور أول مشاهده أُحُد.

وروى ابن أبى شَيْبَة من طريق قتادة عن أبى مجلز قال: بعث عمرُ عثمان بن حُنيف على مساحة الأرض، يعنى بعد أن فُتحت الكوفة.

وفى البخارى: أن عمر قال له ولعمارة: أتخافان أن تكونا قد حملتما الأرض ما لا تطيقه.

روى عنه ابن أخيه أبو أسامة بن سهل وطائفة، ومات فى خلافة معاوية.

ترجمته فى: الإصابة ٢/ ٤٥٩ ورقمها ٥٤٣٥.

(٢) الجَرِيب: المزرعة، ومكيال قدر أربعة أقفزة، وجمعه أَجْرِبَةٌ وجُرْبان. المعجم الوسيط (جرب) ١/ ١١٤.

وقدَّره محمد ضياء الدين الريِّس فى كتابه «الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية» ص ٣٠٠ بـ: ١٣٦٦ مترًا مربعًا.

(٣) انظر: الخراج لقدامة بن جعفر ٢٢١، والمسالك والممالك لابن خرداذبة ٢٧.

قفيز، وعلى جريب الشعير أربعة أقفزة، وعلى جريب الكرم والتمر أربعة.

وختم على خمسمائة ألف إنسان للجزية على الطبقات، فجبى عمر السواد من الورق مائة ألف ألف درهم.

وجباه عمر بن عبد العزيز مائة ألف ألف وأربعة وعشرين ألف درهم، وجباه الحجاج لظلمه وعسفه ثمانية عشر ألف ألف ليس فيها مائة ألف ألف، (وأسفلهم ألفى) ألف، فحصل له ستة عشر ألف ألف[1].

ومنع أهل السواد من ذبح البقر ليكثر الحرث والزرع، فقال الشاعر فى ذلك: [من متقارب]

شكونا إليه خراجَ السواد فحرَّم فينا لحوم البقر
وكان كما قال من قبلنا أُريها الشمس وترينى القمر[2]

قال عمرو بن بحر: قال أبو الحسن وأبو عبيدة: بُصِّرت البصرة سنة أربع عشرة، وكذلك قال غيره، وكُوِّفت الكوفة[3] سنة سبع عشرة.

والطسوج ترجمته الأقاليم، والإستاق ترجمته الأحواز، والسَّواد الاثنتا عشرة كورة.

قالوا: وارتحل سعد من المدائن بالناس حتى عسكر بالكوفة فى المحرم سنة سبع عشرة، وكان بين وقعة المدائن ونزول الكوفة سنة وشهران.

وقيل إن عمر كتب إلى سعد: نَبِّئنى ما الذى غير ألوانَ العرب ولحومَهم؟

فكتب إليه: إنَّ العرب غيَّر ألوانها وُخومَة المدائن ودجلة.

فكتب إليه أنّ العرب لا يوافقها إلا ما يوافق إبلها من البلاد، فابعث سلمان وحذيفة ـ وكانا رائدى الجيش ـ فليرتادا منزلاً بريًّا بحريًا ليس بينى وبينكم فيه بحر ولا جسر[4].

(١) الخراج لقدامة ٢٢١ وفتوح البلدان ٣٧٥.
(٢) المسالك والممالك لابن خرداذبة ٢٨ وفيه (فحرَّم جهلاً) مكان (فحرَّم فينا).
(٣) فتوح البلدان ٣٨٧.
(٤) انظر: فتوح البلدان ٣٨٨.

فبعث سعدٌ حذيفةَ وسلمان حتى أتيا الأنبار، فسار سلمان[١] فى غربى الفرات لا يرضى شيئا حتى أتى الكوفة، وسار حذيفة[٢] فى شرقيه حتى أتى الكوفة.

فأتيا عليها وفيها ديارات ثلاث: دير حرقة، ودير أم عمرو، ودير سلسلة وقصاص خلال ذلك، فأعجبتهما البقعة فنزلا وصليا وقال كل واحد منهما: اللهم رب السموات وما أظلّت، ورب الأرضين وما أقلّت ورب الرياح وما أذرت، ورب النجوم وما هوت، والبحار وما جرت، بارك لنا فى هذه الكوفة واجعلها منزل ثبات، ثم رجعا إلى سعد ـ رضى الله عنه ـ بالخبر.

واستقر أيضا بأهل البصرة منزلهم اليوم بعد ثلاث ترحيلات فى المحرَّم سنة سبع عشرة.

* * *

---

(١) سَلْمَان الفارسىّ: صحابى من مقدميهم كان يُسَمِّى نفسه سلمان الإسلام، أصله من مجوس أصبهان، قرأ كتب الفرس والروم واليهود وقصد بلاد العرب، فلقيه ركب من بنى كلب فاستخدموه، ثم استعبدوه وباعوه فاشتراه رجلٌ من قريظة فجاء به إلى المدينة، وعلم سلمان بخبر الإسلام، فقصد النبىَّ ﷺ بقباء وسمع كلامه ولازمه أيامًا، وأبى أن يتحرَّر بالإسلام، فأعانه المسلمون على شراء نفسه من صاحبه، فأظهر إسلامه، وكان قوى الجسم، صحيح الرأى، عالمًا بالشرائع وغيرها، وهو الذى دَلَّ المسلمين على حفر الخندق فى غزوة الأحزاب، حتى اختلف عليه المهاجرون والأنصار، كلاهما يقول: سلمان منَّا، فقال رسول الله ﷺ سلمان منَّا أهل البيت، وجُعل أميرًا على المدائن، فأقام فيها إلى أن تُوفى.
وكان إذا خرج عطاؤه تصدَّق به، ينسج الخوص ويأكل خبز الشعير من كسب يده، له فى كتب الحديث ستون حديثًا.
الأعلام ٣/ ١١٢ وانظر: طبقات ابن سعد ٤/ ٥٣ ـ٦٧ وحلية الأولياء ١/ ١٨٥ وصفة الصفوة ١/ ٢١٠ ومحاسن أصفهان ٢٣ والذريعة ١/ ٣٣٢ـ٣٣٣.

(٢) حُذَيفة بن اليمان، صحابى من الولاة الشجعان الفاتحين، كان صاحب سرِّ النبىِّ ﷺ فى المنافقين، لم يعلمهم أحدٌ غيره. ولمّا وُلّى عمر سأله: أفى عمالى أحد من المنافقين؟ قال: نعم، واحدٌ ولاّه عمر على المدائن بفارس، وتوفى فيها، له فى كتب الحديث مائتان وخمسة وعشرون حديثًا، توفى سنة ٣٦هـ.
الأعلام ٢/ ١٧١ والإصابة ١/ ٣١٧ وحلية الأولياء ١/ ٢٧٠ وصفة الصفوة ١/ ٢٤٩ وتهذيب التهذيب ٢/ ٢١٩.

استئذان عمر ـ رضى الله عنه ـ فى البنيان

ثم إنَّ القوم استأذنوا عمرَ ـ رضى الله عنه ـ فى بنيان القصب فقال: العسكر أجدُّ لحربكم وأذكى لكم، وما أُحِبُّ أن أخالفكم. وما القصب؟ قالوا: العنقر إذا روى أخصب فصار قصبًا.

قال: فشأنكم، فابتنى أهلُ المصرين بالقصب، ثم إنَّ الحريق وقع بالكوفة والبصرة، وكان أشدهما حريقًا الكوفة، احترق فيها ثمانون عريشا ولم يبق فيها قصبة.

فبعث سعد إلى عمر منهم نفرا يستأذنونه فى البناء باللَّبِن ويخبرونه عن الحريق فأذن لهم وقال: ولا يزيدنَّ أحدُكم على ثلاثة بيوت ولا تطاولوا فى البنيان وألزموا السنَّة تلزمكم الدولة.

وعهد عمر إلى الناس وتقدم إلى الوفد أن لا يرفعوا بنيانًا فوق القدر.

قالوا: وما القدر؟ قال: ما لا يقربكم من السرف ولا يخرجكم عن القصد.

فكان على تنزّل الكوفة أبو الهياج(١) بن مالك، وعلى تنزّل البصرة أبو الجرباء عاصم بن الدلف(٢).

وكتب عمر أن يكون الطريق أربعين ذراعًا وما بين ذلك عشرين، والأزقَّة سبع أذرع وليس دون ذلك شىء، والقطائع ستين ذراعًا.

فاجتمع أهل الرأى فى التقدير، حتى إذا أجمعوا على شىء قسم أبو الهياج عليه. فأول شىء خطّه بالكوفة المسجد، فوضع فى موضع التّمارين من السوق.

ثم قام رجل فى وسطه رامٍ شديد النزع، فرمى عن يمينه وعن يساره وبين يديه ومن خلفه، وأمر من شاء أن يبنى وراء موقع السهام، وترك المسجد فى مربّعة غلوتين فى غلوتين، وبنى فى مقدمته ظلّة من مائتى ذراع على أساطين من رخام،

---

(١) هو أبو الهياج الأسدى عمرو بن مالك بن جنادة فتوح البلدان ٣٨٨.

(٢) فتوح البلدان ٣٨٨.

وكانت للأكاسرة أسماؤها كأسمية الكنائس الرومية.

قال أبو عبيدة: لما بلغ عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أنَّ سعدًا وأصحابه قد بنوا بالمدَرِ، قال: قد كنت أكره لكم ذلك، فأمّا إذ فعلتم فعرّضوا الحيطان، وأطيلوا السمك وقاربوا الخشب.

وقصر سنداد بظهر الكوفة وهو الذى ذكره الأسود بن يعفر(١).

قال اليعقوبى: أهل الكوفة على قِلة أموالهم أَهْلُ تَحَمُّلٍ وتستُّرٍ وكفافٍ وعفافٍ، ليس فى أهل البلدان أشدّ عفافًا منهم، ولا أشدّ تحملا.

وهى طَيِّبةُ الهواء عذبةُ المياه، وهى دار العرب ومادّة الإسلام، وهى معدنُ العلم، وفقهاؤُها الفقهاءُ الذين عليهم المُعْتَمَد، وهم أهل العلم بالعربية وفصيح اللغة؛ لأنَّ أهلها عرب كلُّهم لم يخالطهم الأنباط ولا الفرس ولا الخزر ولا السند ولا الهند، ولا تناكحوا فيهم(٢).

ومن رواتهم ساروا إلى أهل البصرة وغيرها؛ لأن أهل الحيرة كانوا أَوَّل من دون الشعر وكتبه فى أيام آل المنذر اللَّخْمِيِّين ملوكها، وكانت شعراء الجاهلية تَفِدُ عليهم مثل الأعشى والنابغة وعَبيد بن الأبرص وبشر بن أبى خازم وعمرو بن كلثوم والحارث بن حِلّزة والمتلمس وطرفة وغيرهم.

---

(١) الأسود بن يَعْفُر، وقيل يُعْفُر بضم الياء، ابن عبد القيس بن نهشل بن دارم بن مالك بن حنظلة بن زيد مناة بن تميم النهشلى، أعشى بنى نَهْشَل، جمع شعره جايار مع ديوان الأعشين. وكان سيِّدًا جوادًا، له أخبار فى الجود.

ترجمته فى: شعراء النصرانية ٤٧٥ـ٤٨٥ ومنتهى الطلب ١/ ٨١ والمؤتلف والمختلف ١٨ والشعر والشعراء ١/ ١٧٦.

* وقال فى قصر سنداد:

مـــاذا أُؤَمِّلُ بعـــدَ آل محرِّق	تركوا مَنَازلهم وبَعْــــدَ إيادِ
أَهْلَ الخَـوَرْنَقِ والسدير وبارق	والقصر ذى الشرفات من سندادِ

وانظر أيضا: معجم ما استعجم (أنقرة) ١/ ١٨٨ (بتحقيقنا) والمفضليات ١/ ١٧ وكتاب الاختيارين للأخفش ٥٦٢ وصفة جزيرة العرب ١٧١ وديوانه ٢٩٦ والحماسة البصرية ٢/ ٤١٢ والروض المعطار ١٢١ ومعجم البلدان (أنقرة) ١/ ٣٢٣ والأغانى ١٣/ ٢٠ والعين ١/ ٢٠٧ ومنتهى الطلب ١/ ٨١ والمعجم الكبير ـ حرف الهمزة ١/ ٥٦٤.

(٢) مختصر البلدان ١٥٤ ـ ١٥٧.

وكان آل المنذر يأمرون كتابهم من أهل الحيرة أن يكتبوا أشعارهم، فأخذها الناس عنهم.

وَخُصَّت الكوفة بصنعة الوَشْيِ الرفيع الذى يبلغ ثمنه ما لا يبلغُه ثوبٌ من ثياب الدنيا؛ لجودةِ صنعته، والدقة والإتقان، وصحة تأليف عيونه.

وربما بلغ الثوبُ منه عشرةَ آلاف دينار، ولا يكون فيه ذهب ولا حجارة فأما ما يُبَاعُ بألف دينار فمن لبسِ العوام.

وخُصَّت بالأَدْهانِ الجيدة مالم يخصّ به بلدٌ لا سيما دهن البنفسج، ودهن الخيرى، ودهن البانَ الخالص الذى يقال له دهن الغالية، وهو الدهن الذى لا أفاويه فيه.

* * *

الأنبار

بينها وبين مدينة السلام اثنا عشر فرسخًا، وسميت ذات العيون(1).

* * *

واسط(2)

سميت واسط بموضع بقرب منها كان يقال له واسط القصب، فلما بُنيت سُمِّيت به، وقيل: لتوسطِها بين المِصرين: البصرة والكوفة؛ لأن منها إلى الكوفة والبصرة خمسين فرسخًا.

---

(1) الأنبار سُمِّيت بهذا الاسم تشبيها لها ببيت التاجر الذى ينضد فيه متاعه، وقيل الأنبار بالفارسية الأهراء، لأن أهراء الملك كانت فيها ومنها كان يرزق رجاله، وفيها بويع بالخلافة لأبى جعفر المنصور، يوم مات السفاح أخوه. انظر الروض المعطار ٣٦ وفتوح البلدان ٢٤٦.

(2) سأل الحجاجُ ابنَ القِرِّيَّة فى وصف واسط: أخبرنى عن واسط؟ قال: جَنَّة بين حَمَاة وكَنَّة تحسدانها، ودجلة والفرات يتباريان عليها. مختصر كتاب البلدان ص ٩٠.

وقيل إنَّ الحجاج رأى راهبًا قد أقبل على أتان له وعبر دجلة، فلما كان بموضع واسط تفاجّت الأتان وبالت، فنزل الراهب فاحتفر موضع ذلك البول وحمله حتى رماه فى دجلة، وذلك بعين الحجّاج، فقال: عَلَىَّ بالراهب، فلما أتاه قال: ما حملَك على ما صَنَعْتَ؟ قال: إنَّا نجد فى كتبنا أنه يُبْنَى فى هذا الموضع مسجدٌ يُعْبَدُ اللهُ فيه ما دام فى الأرض أحد، فاختطَّ الحجَّاجُ مدينة واسط، وبنى المسجد فى ذلك الموضع، فهى على حافتى الدجلة.

وخراج واسط ثلاثة وثلاثون ألف درهم.

ومن الكوفة إلى بغداد ثلاثون فرسخا، ومن الأنبار إلى بغداد ثلاثون فرسخا، ومن المدائن إلى بغداد ثمانية عشر فرسخًا.

* * *

المدائن

والمدائن مدينة عظيمة على حافتى دجلة: بَهُرَسير[1]، وهى المدينة الدنيا، وهى على أحد جانبيها مما يلى الشرق، وقصر كسرى وهو الإيوان، وهى المدينة القصوى، وهو القصر الأبيض الذى أخبَر به النبى ﷺ وبه كان مقام الأكاسرة.

وتلقاء مقعد الملك من سقف الإيوان حلقة من ذهب كان يعلق التاج فيها بسلسلة من ذهب، وحِذَاء الإيوان شجر السدر، ومن الجانب الآخر بيت النار.

* * *

(١) بَهُرَسير: من نواحى سواد بغداد قرب المدائن، ويقال بَهُرَسير الرُّومَغان وقال حمزة: بُهْرَسير: إحدى المدائن السَّبع التى سُمِّيت بها المدائن، وهى مُعَرَّبة من دِه أرشير. وقال فى موضع آخر: معرَّبة من بِه أردشير كأنَّ معناه خير مدينة أردشير، وهى فى غربى دجلة.
وقد خُرِّبت مدائن كسرى، ولم يبق ما فيه عمارة غيرها، وهى تجاه الإيوان لأن الإيوان فى شرقى دجلة، وهى فى غربيه، والشعر فى ذكرها كثير. معجم البلدان (بهرسير) ١/ ٤٠٥.

الأهواز[1]

فأما الأهواز فإن من أقام بها حولا ثم تفقَّد عقله فإنه يجد فيه نُقْصَانًا بيِّنًا.

والأهواز تقلّب كل من ينزلها من الأشراف إلى طبائع أهلها، ولا يُوجد بها أحدٌ له وجنة حمراء، والحُمَّى بها دائمةٌ.

وكان صاحب الأهواز الهرمزان، وفتحها وما يليها حرقوص بن زهير السعدى[2] وكانت له صحبة بعث به عتبة بن غزوان من البصرة بأمر عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ

* * *

ذكر البصرة

واختطت البصرة فى موضعها اليوم على اختلاف الناس فى وقت ذلك كما تقدم فى ذكر الكوفة، فبنوا بالقصب ومكثوا كذلك يسيرًا حتى أذن لهم عمر فى البناء باللَّبِن.

وأول ما بنى بالبصرة سبع دساكر منها الخريبة اثنتان، والزابوقة واحدة، وفى بنى سليم اثنتان، وفى الأزد اثنتان، وبُنى مسجدها بالقصب، ثم بناه ابن عمر باللَّبن لعثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ ثم بناه زياد بالآجرّ لمعاوية ـ رضى الله

---

(١) انظر: الروض المعطار ٦٢.

(٢) حُرْقوص بن زهير السعدى، الملقب بذى الخويصرة: صحابىٌّ من بنى تميم. خاصم الزبير فأمر النبىُّ ﷺ باستيفاء حقِّه منه وأمره عمر بن الخطاب بقتال «الهرمزان» فاستولى على سوق الأهواز ونزل بها. ثم شهد صفّين مع علِىّ، وبعد الحكَمين صار من أشدِّ الخوارج على علِىّ، فقتل فيمن قُتِل بالنهروان سنة ٣٧هـ. وفى سيرته اضطراب.
وإياه عنَى أحد شعراء الخوارج، بقوله من أبيات رواها المبرد:

وأسأل الله بَيْعَ النفس مُحْتَسِبًا   حتى أُلاَقى فى الفردوسِ حُرْقوصا

الأعلام ٢/ ١٧٣ والاستيعاب ١/ ٣٢٠ والكامل للمبرد ٥٩٥.

عنه ـ وبنى جنبتيه وأتمه عبد الله بن زياد[١].

ويذكر أن المسجد الحرام أكبر من مسجد البصرة ببضع عشرة ذراعًا.

وكُسِّرت البصرة أيام خالد بن عبد الله القسرى[٢]، فوجد طولها فرسخين فى مثلها، والكوفة مثل ثلثى البصرة.

وأوّل مولود ولد فيها عبد الرحمن بن أبى بكرة[٣]، فنحر يومئذ جزورا، فأطعم أهلها وكانوا نحو ثلاثمائة.

ولأهل البصرة ثلاثة أشياء ليس لأحد من أهل البلدان أن يدعيها عليهم ولا يشاركهم فيها وهى: النخل والشاء والحمام الهدّى.

فأما النخل فهم أعلم قوم به وأحذقهم بتربيته وإصلاحه، وإصلاح عللها وأدوائها وأعرفهم بأحوالها من حين تغرس إلى أن تكمل وتستوى، وأبصرهم بالتمر وخرصه وتمييزه وجزره وخزنه وهى تجاراتهم العظمى وغلتهم الكبرى.

وفى البصرة من أنواع النخل ما ليس فى بلد من بلاد الدنيا.

وأما الشاء: فإنها عندهم: العبديّة المنسوبة إلى عبد القيس.

وذكروا أن رجلاً من وفد عبد القيس يقال له عبادة بن عمرو الشنى قال للنبى ﷺ عند وفادتهم عليه ودعائه لهم: يا رسول الله إنّى رجلٌ أحبُّ الشاء، فدفع إليه رسول الله ﷺ فحلا فعيلاً جليلاً من المعز وقبض بيده على أصل أذن ذلك الفحل حتى استدارت أصابعه فصار فى أذنه كالسِّمة[٤]، فقدم به عبادة بلاده،

---

(١) الروض المعطار ١٠٦.

(٢) خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد القسرى، من بجيلة، أبو الهيثم: أمير العراقين، وأحد خطباء العرب وأجوادهم، يمانى الأصل، من أهل دمشق، ولى مكة سنة ٨٩هـ، للوليد بن عبد الملك، ثم ولّاه هشام العراقين (الكوفة والبصرة) سنة ١٠٥هـ، فأقام بالكوفة. وطالت مدّته إلى أن عزله هشام سنة ١٢٠هـ وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفى وأمره أن يحاسبه، فسجنه يوسف وعذّبه بالحيرة، ثم قتله فى أيام الوليد بن يزيد، وكان خالد يُرْمَى بالزندقة، وللفرزدق هجاء فيه. الأعلام ٢/ ٢٩٧ والأغانى ١٩/ ٥٣ـ٦٤ وتاريخ ابن خلدون ٣/ ١٠٥.

(٣) عبد الرحمن بن أبى بكرة الثقفى: من أعيان التابعين، استخلفه زياد (أمير البصرة) على بعض أعمالها، وتوفى فيها سنة ٩٦ هـ الأعلام ٣/ ٣٠٢ والإصابة ـ الترجمة ٦٦٧٢ ومختصر كتاب البلدان ١٧٣.

(٤) راجع: الروض المعطار ١٠٧.

فأطرقه شياهه، فجاءت بالشاء العبديّة حملها أهل البصرة من البحرين.

فهم يذكرون أنَّ ما من شاة موصوفة كريمة منها إلا وفى أصل أذنها حلقة كالسمة، فإذا وجدوها كذلك رغبوا فيها وغالوا فيها حتى تبلغ الشاة منها خمسين ديناراً، وإذا كانت فى التَّيْسِ مثل ذلك تُنُوفِسَ فيه وبلغ عدة دنانير.

قال: وأخبرنى يحيى بن الفضيل أنه رأى تيسًا بالبصرة عظيمًا قد حملت عليه مزادة ماء، وهى التى تسميها العامة الراوية التى تحملها البغال، فبلغ بها منزل صاحبه فاشْتُرِى بأربعمائة دينار.

وللشاء عندهم أنسابٌ معروفة، ويستشهد على ذلك العدول فى الصحف فتقول: شاة بنى فلان أمها الفلانة شاة آل فلان، وأبوها تيس آل فلان وجدّتها الفلانة، ويوصف مقدار ما تحلب من اللبن بالغداة والعشى.

فأما الحمام فإن الأمر بالبصرة فيه جَلَلٌ وتجاوز الحدّ، وبلغت الحمام عندهم فى الهداة أن جاءت من أقاصى بلاد الروم، ومن مصر إلى البصرة، وتنافسوا فى اقتنائها ولهجوا به حتى بلغ ثمن الطائر منها سبعمائة دينار، وهذا ما حضرتُه ورأيته وشهدته.

وقيل إنه بلغ بالبصرة ثمن طائر منها جاء من خليج القسطنطينية ألف دينار، وكانت تباع البيضَةُ من الطائر المشهور بعشرين ديناراً.

وعندهم دفاتر بأنساب الحَمام كأنساب العرب!

وكان الحمام عندهم مُتَّجراً من التجارات لا يرون بذلك بأسًا.

❊ ❊ ❊

ذكر بغداد [(١)]

قال أحمد: بعث المنصور رجالاً سنة خمس وأربعين ومائة يطلبون له موضعًا يبنى فيه مدينة، فطلبوا فلم يرضوا له موضعًا حتى جاء فنزل على البئر الذى بالصراة، فقال: هذا موضعٌ أرضاهُ، تأتيه المِيرةُ من الفرات ودجلة والصَّرَاة[(٢)].

قال: ووجَّه المنصور[(٣)] فى حشر الصناع والفعلة من الشام والموصل والجبل والكوفة وواسط والبصرة وأمر باختيار قوم من أهل الفضل والعدالة والفقه والأمانة والمعرفة بالهندسة، وكان فيمن أحضر: الحجّاج بن أرطأة[(٤)] وأبو حنيفة فكان أول من ابتدئ بنيانها فى سنة خمس وأربعين ومائة.

ثم قسم الأرض أربعة أقسام وقلّد القيام بكل ربع رجلا من قواده، ورجلاً من مواليه ورجلا من المهندسين.

قال أحمد بن أبى الطاهر: وحدثنى أبو محمد عبد الله بن إسماعيل بن أبى سهل بن يشجب عن جده قال: لما أراد المنصور بناء بغداد أمرنى أن آخذ الطالع، فنظرنا فى طالعها فكان المشترى فى القوس، فأخبرته بما تدل عليه النجوم من طول ثباتها وكثرة عمارتها وانصباب الدنيا إليها، ثم قلت: يا أمير المؤمنين وخلة أخرى نجدها فيها على ما تدل عليه النجوم: لا يموت فيها خليفة، فرأيته يبتسم، وقال: الحمد لله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ولذلك قال بعض شعرائهم وقد مدح المنصور وهنَّأه حلول قصر مدينة السلام: [من الخفيف]

إنَّ خير القصور قصر السلام ... إذا به حَـلَّ سَائِسُ الإسـلامِ

(١) انظر: الروض المعطار ١٠٧.

(٢) الصَّرَاةُ: نهران ببغداد، الصراة الكبرى والصراة الصغرى.
قال ياقوت: ولا أعرف أنا إلاَّ واحدة، وهو نهرٌ يأخذ من نهر عيس من عند بلدة يُقال لها المُحَوَّل بينها وبين بغداد فرسخ. معجم البلدان (الصَّراة) ٣/ ١٨٣.

(٣) الأعلاق النفيسة ١٠٨.

(٤) هو حجَّاج بن أرطأة بن ثور النخعى: قاض من أهل الكوفة كان من رواة الحديث وحفاظه، استُفتى وهو ابن ست عشرة سنة. وولى قضاء البصرة. توفى بخراسان، أو بالرى. وكان تيّاها معجبًا. الأعلام ٢/ ١٦٨.

منـزلٌ لا يزالُ من حَـلَّ فيـه ... آمنا من حـوادثِ الأيَّامِ[(١)]

واسمها الأول عند الناس الزَّوْرَاء، وكان سفيان[(٢)] يكره أن يقال مدينة السلام، وسميت مدينة السلام لأن دجلة كان يقال لها وادى السلام، فلما كان فراغ المنصور من بنائها ونقل الخزائن إليها والدواوين وبيوت الأموال سنة ست وأربعين ومائة، وكان استتمامه لجميع أمر المدينة سنة تسع وأربعين[(٣)].

قال أحمد: قال الهيثم بن عدى عن أبى عياش: لما جلس المنصور فى قصره بباب الذهب أذن لرسل الملوك فدخلوا عليه، فقال لرسول ملك الروم: هل ترى عيبا؟ قال: نعم عيوبا ثلاثة، قال: ما هى؟ قال: النفس خضراء فلا خضرة عندك، والحياة فى الماء ولا ماء عندك، وعدوُّك مُغَالطُك ومُطلع على سرّك، قال: أما الماء فحَسْبى منه ما بلغ الشَّفَة، وأما الخُضْرَةُ فَللجدّ خُلقت لا للَّعب، وأما السوق فما أبالى عَلِمَ سرِّى رعيَّتى أو ولدى وخاصَّتى، فأمسك الرُّومى عن الكلام.

ثم تعقَّب أبو جعفر الرأى، فرأى أن القول ما قال، فاتخذ العباسية وأجرى الماء فى القناة من دجلة وأخرج السوق عن المدينة.

وعن الربيع قال: لما نقل أبو جعفر السوق عن المدينة وجلس فى قصره بالخلد فنظر إلى التجار من البزَّازة والصيرفى والقصاب وطبقات السوقة تمثل بهذين البيتين: [من الوافر]

كمـا قال الحمـار لسهم رام ... لقد جُمّعت من شتَّى لأمْرِ

جَمَعْتَ حديدةً وجَمَعْتَ نَصْلاً ... ومن عقـب البعير وريش نَسْرِ[(٤)]

---

(١) البيتان بلا نسبة فى الروض المعطار ١١٠.

(٢) هو سُفيان بن عيينة بن ميمون الهلالى الكوفى، أبو محمد (١٠٧ـ١٩٨هـ) مُحَدِّث الحرم المكى، من الموالى، ولد بالكوفة، وسكن مكّة، وتوفّى بها، وكان حافظًا ثقة، واسعَ العلم كبير القدر، قال الشافعى: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز، وكان أعور، وحجّ سبعين سنة، له «الجامع» فى الحديث، وكتاب فى «التفسير».

الأعلام ٣/ ١٠٥ وتذكرة الحفاظ ١/ ٢٤٢ وصفة الصفوة ٢/ ١٣٠ ووفيات الأعيان ١/ ٢١٠ وميزان الاعتدال ١/ ٣٩٧ وحلية الأولياء ٧/ ٢٧٠. وانظر: تاريخ بغداد ٩/ ١٧٤.

(٣) تاريخ بغداد ١/ ٧٨.

(٤) الروض المعطار ١١٢.

ثم قال: يا ربيع إن هذه العامة تجمعها الكلمة وترأسها السفلة، فلا أرينَّك مُعْرِضا عنها، فإن إصلاحها يسير، وإصلاحها بعد فساد عسير فاجمعها بالرهبة واملأ قلوبها بالهيبة، وما استطعت من الرفق بها وإحسان إليها فافعل.

* * *

ذكر خواص أرض فارس [١]

منها كورة سابور برستاق يعرف بالعردحان: بئر بين جبلين يخرج منها دخان فيتعالى كثيرا ولا يمكن أحد أن يقربها، فإذا طار عليها طائر سقط فيها ويرى احتراقه قبل أن يغيب فيها.

وفى بعض كورأرجان فى نواحى صاهك بئر لا قعرلها، وبناحية كان فيروز بالقرية المعروفة بالورجان: كهف بين جبال شاهقة فيه جزر على قدر العضاة الكبيرة يقطر فيه من أعلى ذلك الكهف ماء.

وزعم قوم أن له طلسما، فإن دخل ذلك الكهف رجل أحد أخرج من الماء ما يكفيهم[٢]، وكان بالفارسية المعدن.

وبناحية دار ابن بهرام ماء عذب حسن القوام واللون بنهر الحسين يشرب منه ويسقى الأرض، فاذا غمست فيها الثياب خضّرها.

وبكورة أرد شير شيراز عين ماء يشرب لتشفية الجوف كما يشرب الدواء فإن شرب منه قدحا أقام له مجلسًا، وإن زاد فلكل قدح مجلس.

وبقرب برقويه تلال رماد كالجبال العظام يكون فى صعود التل وهبوطه الميل أكثر، وزعم قوم أنها نار نمرود، وهو خطأ؛ لأن نمرود كنعانى ومساكنهم بابل.

ومثل هذه الجبال من الرماد وأعظم منها على نهر الزاب الكبير الجائى من نواحى أرمينية وبلد مراش.

---

(١) كور فارس خمس كور: أصطخر وسابور وأَرْدَشير خُرَّة ودرابجرد وأرجان وفشا، وهى مائة وخمسة وخمسون فرسخًا فى مائة وخمسين فرسخًا. المسالك والممالك لابن خرداذبة ٥١.

(٢) انظر: مختصر كتاب البلدان ١٨٦١.

وبناحية إصطخر تفاح يكون بعض التفاحة الواحدة صادق الحلاوة، وبعضها حاز الحموضة.

وبناحية كورا تين أخضر كالسلق، وفى داخله كعين النرجس سواءً.

وممَّا يحمل من فارس ماء الورد الذى بكورا وجور، يجلب إلى بلاد الهند والصين ومصر والمغرب واليمن وسائر البلاد، وليس يعدل به ماء ورد فى الآفاق.

ومن فارس ترتفع أنواع الثياب إلى أقطار البلاد، وبها ثياب الوشى التى ليس بسائر الآفاق كهيئتها إذا كان مُذَهَّبًا.

وبقرية من قرى دارا بجرد الموميا التى تحمل إلى الآفاق، وهو ملك السلطان يوجد فى غار فى جبل قد وكّل به من يحفظه، وهو مغلق الباب والمدخل مختوم عليه بعلامات كثيرة لمن يحضره عند فتحه يفتح فى كل سنة فى وقت معروف، وهو الموميا الصحيح وما عداه فمزوّر، وهذا الموضع لا يفتحه إلا العدول وثقات السلطان من الحكام وأصحاب البرد والمعدّلين ويرضخ للذين حضروا بالشىء منه.

وبناحية دارا بجرد جبال من الملح الأبيض والأسود والأصفر والأحمر ومن جميع الألوان، وهو صلب تنحت منه الموائد والعظام، والآنية المستظرفة وتحمل إلى سائر البلدان.

وبفارس هذه كل شىء من الذهب والفضة والحديد والصفر والكبريت والنفط والزئبق وغيرذلك.

* * *

ذكر بابل [١]

وكانت بابل من استعظامها واستشناع أمرها لا تكاد تجعل من عمل الآدميين، وهى المذكورة فى قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾ [٢].

وكانت مدينة ضاحكة المنظر جميلة المنصب زاهرة البناء واسعة الفناء، جمعت إلى حسن المنظر من كل جانب رصانة البنيان وبهاء المنصب، وكانت سهلة بطحاء، ديمومة فيحاء مربعة، لها فى كل تربيع حصنان عظيمان، وسائر ذلك من سورها لا يكاد سامع خبرها يصدق بصره لكثرة ارتفاعه وفرط إتقانه، وكان خمسين ذراعًا عرضًا فى ارتفاع مائتى ذراع فى دور أربعة وستين ميلاً، مبنيًا بالآجر المُرَصَّص، وقد خَنْدَق حوله خندق يجرى فيه الفرات، وفيه مائةُ باب من نحاس، وسعة السور فى أعلاه كسعته فى أسفله، وقد بنى فى أعلاه مساكن للمقاتلة والحراس متصلة فى جميع دوره.

وقد زعموا أن أقدم بناءٍ بُنِىَ بعد الطوفان، وأنَّ منها تفرَّق ولد نوح عليه السلام، وأن الذى هدمها كسرى الأول وهو الذى سمّى ملك الفرس لما تغلَّب على أرض بابل.

والجزيرة ما بين دجلة والموصل [٣].

* * *

(١) انظر فى (بابل): الروض المعطار ٧٣ ومراصد الاطلاع ١/ ١٤٥ ومعجم البلدان (بابل).

(٢) سورة البقرة آية ١٠٢.

(٣) الروض المعطار ١٣٤.

ذكر خراسان [١]

وخراسان تشتمل على كور عظام وأعمال جسام، وكانت خراسان تسمى فى القديم: بلد إشيرية، سميت بآشور بن سام بن نوح، وهو أول من اعتمر ذلك الصقع بعد الطوفان.

وحَدُّها الذى يحيط بها: من شرقها سجستان وبلد الهند الذى ضمًّها إلى سجستان وما يتصل بها من ظهر الغور كله إلى الهند، وخطتا ديار الخليج فى حدود كابل ووخان على ظهر الختل كله وغير ذلك من ناحية بلد الهند، وغربها مفازة الغزية،ونواحى جرجان، وشمالها ما وراء النهر وشىء من بلاد الترك يسير على ظهر الختل، وجنوبها مفازة فارس وقومس إلى نواحى جبال الديلم مع جرجان وطبرستان والرى وما يتصل بها.

فجعلناه كله إقليمًا واحدًا وضمنا الختل إلى ما وراء النهر، وهى أقرب إلى بخارا منها إلى خراسان.

وكور خراسان وأعمالها التى يتفرق فيها الحكام وأصحاب البرد نيف وثلاثون عملاً.

* * *

(١) انظر فى ذلك: الروض المعطار ١١٤ـ١١٥ ومعجم البلدان (خراسان).

ذكر ما وراء النهر

من خراسان: من ذلك القواذيان[١]، والصغانيان[٢]، والتِّرمْذ[٣]، وكش ونسف وبخارا[٤]، وإصطخر، وسَمَرْقَند[٥]، وخُجَنْد، وأُشْرُوشنه[٦]، والشاش[٧]، وفرغانة[٨]، وبابات، وكلساوان[٩] وما والاها واتصل بها.

فأما بلخ[١٠]، وطخارستان، والباميان[١١]، وخوارزم[١٢] وما ذكرنا أنه يتصل بها فهى مما دون النهر.

---

(١) قُوَاديان: مدينة وولاية على جيحون فوق التِّرْمذ، بينها وبين الخُتَّل، مجاورة للصغانيان. مراصد الاطلاع ٣/ ١١٣٠.

(٢) صَغَانِيان: ولاية عظيمة واسعة بما وراء النهار، أعمالُها مُتَّصلة بترمذ فيها جبال وسهول. والعجم يقولون: جغانيان. مراصد الاطلاع ٢/ ٨٤٢.

(٣) التِّرمِذ: مدينة من أمهات المدن المشهورة، راكبة على جيحون من شرقيّه متَّصِلة العمل بالصغانيان، يحيط بها سور، وأسواقها مفروشة بالآجر ولهم شرب من الصغانيان لأن جيحون يستقل عن شرب قراهم. مراصد الاطلاع ١/ ٢٥٩.

(٤) بُخَارى: مدينة قديمة نَزِهة البساتين، وبينها وبين سمرقند سبعة أيام، واسمها أبو محلب، وهى على أرض مستوية. مراصد الاطلاع ١/ ٢٦٩.

(٥) سَمَرْقَنْد: قصبة الصّغد، وهى مدينة عظيمة يقال إن لها اثنى عشر بابا، بين كل بابين فرسخ، وهى من حديد، وداخلها مدينة أخرى لها أربعة أبواب، وفيها نهر ماء يجرى فى رصاص، لأن وجه النهر رصاص كله، وقيل إنه من بناء ذى القرنين بما وراء النهر. مراصد الاطلاع ٢/ ٧٣٦.

(٦) أُشْرُوسنة: بلدة كبيرة بما وراء النهر من بلاد الهياطلة بين سيحون وسَمَرْقَنْد، بينها وبين سمرقند ستة وعشرون فرسخًا. وقال الأصطخرى: هو اسم الإقليم، وليس بها مدينة ولا مكان بهذا الاسم. مراصد الاطلاع ١/ ٨١.

(٧) انظر فى ذلك: مراصد الاطلاع ٢/ ٧٧٤.

(٨) انظر فى ذلك: مراصد الاطلاع ٣/ ١٠٢٩.

(٩) انظر فى ذلك: مراصد الاطلاع ٢/ ٨٨٠.

(١٠) بَلْخ: مدينة مشهورة بخراسان، من أجلّها وأشهرها ذكرا وأكثرها خيرًا وبينها وبين ترمِذ اثنا عشر فرسخًا. مراصد الاطلاع ١/ ٢١٧.

(١١) انظر فى ذلك: مراصد الاطلاع ١/ ١٥٧.

(١٢) خوارزم: اسم لناحية كبيرة عظيمة قصبتها الجرجانية، أهلُها يسمونها كُركانْج وهى ولاية =

وفيما وراء النهر من معادن الذهب والفضة والزئبق مالا يقاربه معدن فى سائر البلاد كثيرة، وليس فى الأقطار مثل نشادر عندهم. وبصقلية نشادر لا يعدل به ولا يدانيه.

وإليهم يصل مسك التُبَّت ومن عندهم يرفع، وهو يفوق كل مسك طيبا ويدنى عليه ثمنًا، ويرفع من الصغانيان من السمّور والسنجاب وسائر الأوبار ما لا يرفع من سائر البلاد.

وما وراء النهر أخصب الأقاليم والصلاح على أهله غالب، والخير فيهم فاش، ولهم الغناء والثروة والوفر والجدة وليس بينهم فى شىء من ذلك تنافس ولا يتحرفون به تحرف أهل زمانهم فمن همته دنيا ينالها ولذة يبلغها، بل يصرفونها إلى قرى الأضياف، ومواساة الناس، وسبل الجهاد، وعمارة الطرق، والمنازل، وتعاهُد المراحل والمناهل.

والصخرة فى قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾[1] هى صخرة شَرْوَان والبحر بحر جيلان، والقرية قرية باجروان، والغلام من جيلان، ومجمع البحرين فارس والروم[2]، قاله قتادة وعن ابن عباس عن أبى إفريقية.

وخرق الخضر السفينة فى بحر رادس والملك الجلندا ابن الجلندا، وقتل الغلام بطنبدة، وهى التى تسمى المحمدية، وأقام الحائط ببرقة، ومن ذلك الموضع فارق موسى.

ومن عجائب أرمينية[3] وادٍ لا يقدر أحد أن ينظر إليه ولا يشرف عليه ولايدرك ما فيه، وإذا وضعت القدر على شفيره غلت ونضج ما فيها.

وبأرمينية ماء حامض يعرف بالحمض، إذا أخذ ورفع فى إناء عذب وشرب.

وشروان المذكور فيها الصخره فى قصر أرمينية.

= متّصلة العمارة، متقاربة القرى، كثيرة البيوت المفردة والقصور فى صحاريها وأكثر ضياعها مدن ذات أسواق، وهى على جيحون، قيل ثمانون فرسخًا فى مثلها، وكلهم معتزلة. مراصد الاطلاع ١/ ٤٨٧.

(١) فى قصة موسى قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ [الكهف: ٥٠].

(٢) مختصر كتاب البلدان ٢٦٤.

(٣) انظر فى عجائب أرمينية: مختصر كتاب البلدان ٢٧٠.

ذكر كرمان [١]

وحدّ كرمان فى الشرق أرض مكران ومفازة بين مكران والبحر من وراء القلوص، وفى الغرب أرض فارس، وفى الشمال مفازة خراسان وسجستان، وفى الجنوب بحر فارس، ولها من حدود الشيرجان دخلة وهى فى حد فارس مثل الكم.

والغالب على أهلها نحافة الجسم والسُّمرة لغلبة الحرّ.

* * *

حدّ بلاد البارز

فأما حد بلاد البارز فإنها سبعة أجبال فى نهاية الامتناع والخصب، وقربها من جَيْرُفت[٢] على خمسه فراسخ موضع يسمى ميزان، فمنه يحمل الثلج والفواكه إلى جيرفت وفيه الكروم وأشجار جميع الفواكه خلا النخل.

* * *

(١) ذكر الحميرى فى الروض المعطار ٤٩١ أن أرض كرمان مُتَّصِلَةٌ بأرض فارس وبأرض مكران، قالوا: وهى خمسون فرسخًا فى مثلها.

(٢) جَيْرُفت: بفتح أوله وفتح الرّاء المهملة، بعدها فاء وتاء معجمتين باثنتين من فوقها، موضع معروف من بلاد فارس، وهناك اختلفت كلمة الخوارج وقاتل بعضهم بعضًا. معجم ما استعجم ٤٩/٢.

ذكر البجاناكية[١]

وأما البجاناكية فالطريق إلى بلادهم من الجرجانية تسير اثنى عشر فرسخا إلى جبل يقال له جبل خوارزم، وعلى رأسه منارة وفى سفحه مساكن قوم من الجرجانية لهم بها مزارع.

وهم قوم سيَّارة يتبعون مواقع القطر والكلأ، وطول أرضهم مسيرة ثلاثين يوما فى مثلها، ومنهم فى الشمال بلاد جفجاخ ويقال قفجاق، وفى الجنوب بلاد الخزر، وفى المشرق بلاد الغزية، وفى المغرب بلاد الصقلب،

وهذه الأمم جميعها دون البجاناكية ويغزونهم، ولهم ثروة ودواب وسوائم وآثاث من ذهب وفضة وسلاح، ولهم مناطق محلات وأعلام وبوقات بدل الطبول وبلاد البجاناكية سهول محلها لا جبل فيها ولا معقل لهم فيلجئون إليه.

وحدث جماعة مِمَّن أسر بالقسطنطينية من المسلمين أن البجاناكية كانوا على دين المجوسية، فوقع عندهم بعد أربعمائة من الهجرة أسير من المسلمين فقيه عالم عرض على طائفة منهم الإسلام، فأسلموا وصحّت نياتهم، وانتشرت دعوة الإسلام فيهم، وأنكر ذلك عليهم سائرهم ممن لم يسلم آل أمرهم إلى الحرب فنصر الله المسلمين عليهم وكانوا فى نحو اثنى عشر ألفا والكفار فى أضعاف عددهم فقتلوهم وأسلم باقيهم، فجميعهم اليوم مسلمون، وعندهم العلماء والفقهاء والقراء، وهم يسمون اليوم من وقع اليهم ممن استرق صاحب القسطنطينية أو غيرهم الخوالص، ويخيرونهم فى البقاء عندهم على أن يغنوه كأحدهم ويتزوج عندهم من شاء منهم.

* * *

---

(١) البجناك: قوم من التُرك فى الإقليم السادس فى شماليه قرب صقلية.
وهم قومٌ طوال اللِّحى أولو أَسْبِلَة طويلة، عندهم كثرة وقوة ومَنَعَة، لا يؤدون الخراج إلى أحدٍ أصلاً، ويغير بعضُهم على بعض كالسِّباع ويفترشون نساءهم بمرأى الناس لا يستقبحون ذلك كالبهائم، ومأكولهم الدخن وبلادهم مسيرة اثنى عشر يومًا. آثار البلاد ٥٨٠.

ذكر الخزر[1]

وتسير من بلاد البجاناكية إلى بلاد الخزر عشرة أيام فى مشاجر ومفاوز على غير طرق مسلوكة إلى بلاد الخزر، وهى بلاد عريضة ويتصل بها من إحدى جنباتها جبل عظيم يمد إلى بلاد تفليس، وتفليس أول حد أرمينية وأغنامهم تضع فى العام مرتين.

والخزر اسم الإقليم، ومدينتهم العظمى قطعتان على الشرقى والغربى من نهر إثل وهو نهر يخرج إليهم من الروس ويفيض فى بحر الخزر، وهاتان المدينتان تسمى إحداهما بارغيش، والأخرى حثلغ، والغربية أكبرهما.

ويحيط بالمدينتين سور واحد ولهما أربعة أبواب، ولهم حمامات وأسواق ومساجد وأئمة ومؤذنون.

وجملة الخزر مسلمون ونصارى، ومنهم عبدة الأوثان، وأقل الفرق منهم اليهود، وملكهم على دين اليهودية[2]، ومسكنه فى قصر على البعد من النهر.

وإنما كان سبب تَهَوُّدِ ملك الخزر، وكان مجوسيا ـ أنه تنصّر فرأى فساد ما هو عليه، فأخذ فيما غمه من ذلك مع بعض مرازبته فقال له: أيها الملك: إن اصحاب الكتب ثلاث طوائف، فأرسل إليهم واستخبر أمرهم واتبع صاحب الحق منهم، فأرسل إلى النصارى فى أسقف، وكان عنده رجل من اليهود ذو جدال فناظره، فقال له: ما تقول فى موسى بن عمران والتوراة المنزلة عليه؟ قال له: موسى نَبِىّ والتوراة حق. فقال اليهودى للملك: أيها الملك قد أقر بحقيقة ما أنا عليه، فسله عما يعتقد. فسأله الملك فقال له: أقول إن المسيح عيسى ابن مريم هو الكلمة، وإنه المبين عن الله عز وجل بالسرائر، فقال اليهودى لملك الخزر: إنه يدعى دعوى لا أعلمها وهو مقر بما عندى، فلم يكن للأسقف كبير حجة.

(١) انظر فى ذلك: المسالك والممالك لابن خرداذبة ١٠٩ والأصطخرى ١٢٨ ـ ١٣٢ ومختصر كتاب البلدان ٢٦٣.

(٢) المسالك والممالك للأصطخرى ١٢٩.

وأرسل إلى المسلمين فأرسلوا إليه رجلا عالما عاقلاً عارفا بالجدل، فدسَّ اليهودى عليه من سمَّه فى طريقه فمات، فاستمال اليهودى الملك إلى مِلَّته فتهوَّد. ولا يكون مقامهم فى المدن إلا فى الشتاء، وفى سائر العام يكونون فى المزارع والبساتين، ولهم فواكه ونَعَمٌ كثيرة.

وللخزر جمال فائق وحسن ظاهر، والذى يقع من رقيق الخزر هم أهل الأوثان الذين يستجيزون بيع أولادهم واسترقاق بعضهم بعضا.

وليس لملكهم من طاعتهم إلا الدعوة، ومدار أمرهم على إيران شاه وهو الذى يقود جيوشهم ويملك طاعتهم، وإذا خرجوا فى وجهه خرجوا بأسلحة كاملة ودروع حصينة وجواشن محكمة وأعلام رفيعة، ولا يخرج أحد من أهل عسكرهم إلا ومعه عدة أوتاد طول كل وتد ذراعان، فإذا نزلوا غرز كل واحد منهم بحياله تلك الأوتاد وشدوا إليها الأترسة فيصير حول العسكر فى ساعة واحدة جدار من التراس.

والغالب على قوتهم الأرز والسمك، ولبساهم القواطن والأقبية.

ولسان الخزر غَيْرُ لسان الترك والفرس وهى لغة لا تشاركها لغة من لغات الأمم.

وللملك سبعة حُكَّامٍ من اليهود والنصارى والمسلمين وأهل الأوثان، وهم ينتهون فى مشتبهات أمورهم إلى عظيمهم المسمى خاقان خزر وهو أجل عندهم قَدْرًا من الملك.

* * *

ذكر برداس (١)

وأما بلاد برداس فهى ما بين الخزر وبلكار، بينها وبين بلاد الخزر مسيرة خمسة عشر يومًا، وهم حرب لبلكار والبجاناكية ودينهم شبيه بدين الغزية، ولهم أرض واسعة سهلة ومتاجر كثيرة، وأرضهم مسيرة نصف شهر فى مثلها، وينتهى عددهم نحو عشرة آلاف فارس.

(١) انظر: الروض المعطار ٢١٩ ومراصد الاطلاع ١/ ١٨٤ وفيه (برطاس).

وأكثر أشجارهم الخلنج، وأكثر أموالهم العسل والوبر من الدلق، ولهم سوائم كثيرة من البقر والغنم، ومزارع واسعة.

وطائفة منهم يحرقون موتاهم، وأخرى تدفنها، وإذا أدركت الجارية عندهم ولم يكن لأبيها عليها حكم تختار لنفسها من شاءت من الرجال.

* * *

ذكر بلكار(١)

وبلاد بلكار متاخمة لبلاد برداس، وبين بلاد بلكار وبلاد برداس مسيرة ثلاثة أيام، ومنازلهم على شاطئ نهر إثل، وهم بين برداس والصقلب.

وهم قليلو العدد نحو خمسمائة أهل بيت وملكهم يسمى المس، وهو ينتحل الإسلام، والخزر تتاجرهم، وتبايعهم وكذلك الروس.

* * *

ذكر بلاد المجغرية

وهم بين بلاد الباجاناكية وبين بلاد أسكل من البلكارية، والمجغرية عبدة أوثان وسمة ملكهم كندة، وهم قوم ذوو قباب وخيام يتبعون مواقع القطر ومواضع العشب.

وعرض بلادهم مائة فرسخ فى مثلها، وحَدٌّ من بلادهم يتصل ببلاد الروم، وفى آخر حدهم مما يلى المفازة جبل ينزله قوم يقال لهم أبين، ولهم كراع ومواشٍ ومزارع.

وأسفل من هذا الجبل على ساحل البحر قوم يقال لهم أوغونة وهم نصارى، ومتاخمون لبلاد الإسلام المنسوبة إلى بلاد تفليس، وهو أول حد أرمينية، ويمتد هذا الجبل إلى أن يصير إلى أرض الباب والأبواب ويتصل ببلاد الخزر.

(١) وهم البلغار، انظر: الأصطخرى ١٣٦.

بلاد السرير[1]

تسير من بلاد الخزر اثنى عشر يومًا فى الصحراء حتى تنتهى إلى جبل شامخ، فتصعده وتسير فيه ثلاثة أيام حتى تنتهى قلعة ملك السرير وهى على رأس جبل ويحيط به سور.

وللملك سرير من ذهب كان لملوك الفرس.

ولملكهم عشرون ألف شعب بها أصناف من الناس يعبدون رأسًا يابسًا.

وعلى يسار قلعة ملك السرير طريق يسلكه السالك فى جبال ومروج حتى يصل بعد ثلاثة أيام إلى بلاد ملك اللاَّن، وهم نصارى، وعامة أهل مملكته يعبدون الأصنام.

* * *

ذكر برجان[2]

فأما بُرْجَان فهم بعدُ ولد يونان بن يافث وهم على المجوسية، ومملكتهم واسعة، وهم يحاربون الروم والصقلب والخزر والترك، وأشدُّهم عليهم الروم لقربهم منهم، وإنما بين القسطنطينية وحَدّ بلد برجان خمسة عشر يومًا.

ومملكة بُرْجَان[3] عشرون يوما فى ثلاثين يومًا، وهم لا يركبون الدواب إلا عند الحروب، وإذا صالحهم الروم أدوا إلى الروم الخراج: جوارى وغلمانا من سبى الصقلب.

---

(١) الأعلاق النفيسة ١٤٧ والروض المعطار ٣١٤.

(٢) انظر فى ذلك: آثار البلاد ٦١٢.

(٣) بُرْجان: بلاد غائطة فى جهة الشمال ينتهى قصر النهار فيها إلى أربع ساعات والليل إلى عشرين ساعة وبالعكس.
أهلها على المِلّة المجوسية والجاهلية، يحاربون الصقالبة، وهم مثل الإفرنج فى كثير من أمورهم، ولهم حذق بالصناعات ومراكب البحر. آثار البلاد ٦١٢.

ومن سنتهم إذا مات لهم مَيِّت يجعلوه فى ناووس عميق وينزلونه فيه وينزلون معه امرأتَه وخَدَمَهُ، فيبقون هناك حتى يموتوا، ومنهم من يُحْرَقُ مع الميِّت.

* * *

ذكر سد يأجوج ومأجوج[١]

فأمَّا سَد يأجوج ومأجوج فإن بينه وبين آخر حدود بلاد الخزر مسيرة شهر أو أزيد.

وذكر قتادة قال: قال رجل للنبى ﷺ إنى رأيت السدّ، قال: كيف رأيته؟ قال: كأنه حبرة. قال: فقد رأيته[٢].

وقال وهب بن مُنَبِّه: إن ذا القرنين انصرف إلى ما بين الصَّدَفين، وهو فى منقطع أرض الترك مما يلى الشمال، فذرع ما بينهما فوجد مائة فرسخ، فحفر له أسًا حتى بلغ الماء ثم جعل عرضه خمسين فرسخًا، وجعل حشوه الصخور، وطينه النحاس يذاب ويُصَبُّ عليه، ثم علاه على الأرض بزُبر الحديد والنحاس المذاب، وجعل خلال ذلك المدة من نحاس أصفر، فصار كأنه برد محبر من صفرة النحاس وحمرته وسواد الحديد.

وذكر ابن عفير: أن معاوية بن أبى سفيان أرسل خمسة وعشرين رجلا إلى سد يأجوج ومأجوج ينظرون كيف هو، وكتب إلى ملك الخزر أن يجوزوهم إلى من خلفه وأهدى إليهم هدايا، ففعل ذلك حتى انتهوا إلى الجبلين فرأوا بينهما مثل البصيص، وهو بريق الصفر فى الحديد، وسمعوا جلبة من داخل السد ورأوا أدراجا يرقى إلى أعلاه، فصعد فيه رجل منهم، فلما بلغ وسطه تحير فسقط ومات، فانصرفوا بقطعة مسحاة وجدوها عند السد، فأرسل معاوية إلى رجل خبير عالم فسأله، فقال يرسل ملك جنده إلى السد فيهلك واحد منهم ويأتون بحديدة

---

(١) انظر: آثار البلاد ٥٩٦-٥٩٩ والروض المعطار ٣٠٨-١١١ ومعجم البلدان (سدّ يأجوج ومأجوج)، وراجع: تفسير القرطبى ١١/٢٢ والثعلبى ٣٦٥.

(٢) الأثر فى: تفسير القرطبى ١١/٢٢ وتفسير الثعلبى ٣٦٥ والروض المعطار ٣٠٩.

فيجمعهم على مائدة فيها طعام، فوافى العالم وهم على تلك المائدة قد جمعهم عليها معاوية وخلطهم بغيرهم فقال: هؤلاء هم، فعجب معاوية من ذلك.

وقال ابن خرداذبة[١]: حدثنى سَلاَّم الترجمان، وكان هو الذى يترجم كتب الترك التى كانت ترد على الواثق، قال: ولما رأى الواثق فى المنام كأن السد الذى بناه ذو القرنين مفتوح، وَجَّهنى وضم إِلَىَّ خمسين رجلاً، وقال لى: عَايِنْهُ وجئنى بخبره، ووصلنى بخمسة آلاف دينار وعشرة آلاف درهم، وأعطى كل رجل من الخمسين ألف درهم ورزق سنة، وأعطانى مائتى بغل أحمل عليها الزاد والماء، وكتب إلى إسحاق بن إسماعيل صاحب أرمينية وهو بتفليس فى إنفاذنا، فشخصنا إليه من «سُرَّ من رأى»، فكتب إسحاق إلى صاحب السرير وكتب لنا صاحب السرير إلى ملك اللاَّن، وكتب ملك اللاَّن إلى فيلان شاه وهو ملك ما يلى الباب والأبواب من خارج، وكتب فيلان شاه إلى طرخان ملك الخزر، فوجَّه معنا ملك الخزر خمسة أَدِلاَّء، وسرنا من عنده خمسة وعشرين يوما حتى انتهينا إلى أرض سوداء منتنة الرائحة، وكنا قد تحملنا شيئًا نشمه ونحجب به نتن ريحها عند دخولها، فسرنا نحو عشرة أيام حتى أفضينا إلى مدن خراب، فسألنا عنها، فأخبرنا أن يأجوج ومأجوج خرَّبوها، فسرنا فيها سبعة وعشرين يومًا، ثم أفضينا إلى حصن يقرب من الجبل الذى هو أحد الصَّدَفَيْنِ، تتصل به حصون فيها قوم يتكلمون بالعربية والفارسية، مسلمون يقرءون القرآن، ولهم مساجد، فسألونا من أين أقبلنا، فأخبرناهم أنا رسل أمير المؤمنين، فجعلوا يتعجبون ويقولون: أمير المؤمنين؟ فنقول: نعم. فيقولون: شيخ هو أم شاب؟ فقلنا: شاب. فعجبوا أيضًا فقالوا: أين تكون؟ قلنا: بالعراق فى مدينة يقال لها سُرَّ مَنْ رَأى[٢]. فيقولون: ما سمعنا بهذا قط.

ثم سرنا إلى جبل أملس يكاد البصر ينبو عنه، وإذا جبل مقطوع بواد عرضه مائة وخمسون ذراعًا، فإذا عضادتان مبنيتان مما يلى الجبل من جَنَبَتَى الوادى عرض

---

(١) المسالك والممالك لابن خرداذبة ١٤١.

(٢) سُرَّ مَنْ رأى: هى المدينة التى بناها المعتصم بالعراق سنة عشرين ومائتين، ونزلها بأتراكه. معجم ما استعجم ٣/ ٢٤.

كل عضادة خمس وعشرون ذراعًا فى سمك خمسين ذراعًا وعتبة الباب السفلى عشر أذرع فى بسط مائة ذراع سوى ما تحت العتبتين، والظاهر منها خمس أذرع، وهذه الذراع بذراع السواد، وإذا دَرْوَنْد حديد طرفاه على العضادتين طوله مائة وعشرون ذراعًا، قد ركب على كل واحدة من العضادتين مقدار عشر أذرع، وفوق الدروند بناء بلبن الحديد فى النحاس إلى رأس الجبل، وارتفاعه مدى البصر، وفوقه شرف حديد، فى طرف كل شرفة قرنان تنثنى كل واحدة منهما على الأخرى.

وللباب مصراعان معلقان عرض كل مصراع خمسون ذراعًا فى ثخن خمس أذرع وقائمتاها فى دوارة على قدر الدروند[1]، وعلى الباب قفل طوله سبع أذرع فى غلظ باع فى استدارة، وارتفاع القفل من الأرض خمس وعشرون ذراعًا، وفوق القفل بقدر خمس أذرع غلق طوله أكثر من طول القفل، وعلى الغلق مفتاح معلق طوله ذراع ونصف.

وله اثنتا عشرة دَنْدانكة[2]، كل دندانكة منها كرستج هاون أعظم ما يكون من الهواوين، معلق فى سلسلة طولها ثمانى أذرع فى استدارة أربعة أشبار، والحلقة التى فيها السلسلة مثل حلقة المنجنيق[3].

ومع هذا الباب حصنان عظيمان يكون كل واحد منهما مائتى ذراع فى مثلها بينهما عين عَذبة، وفى أحد الحصنين بقية من آلة البنيان التى بنى بها السد من قدور الحديد، ومغارف الحديد. والديدكانات، وعلى كل ديدكان أربعة قدور مثل قدور الصابون، وهناك بقايا من لبن الحديد قد التصق بعضها ببعض من الصدأ، واللبنة ذراع ونصف فى سمك شبر.

قال: ورئيس تلك الحصون يركب فى كل جمعة فى عشرة فوارس، مع كل فارس مرزبة حديد فيها خمسة أمنان فيضربون القفل بتلك المرازب ثلاث مرات، يسمع من وراء الباب الصوت، فيعلمون أن هنالك حفظة، ويعلم هؤلاء أن أولئك

---

(١) الدروند: العتبة العليا.

(٢) الدنداكة: كل شىء شبيه بالأسنان مثل أسنان المنشار.

(٣) المسالك والممالك لابن خرداذبة ١٦٥-١٦٦.

لم يحدثوا شيئًا فى الباب، فإذا ضرب أصحاب الحصن القفل وضعوا آذانهم فيسمعون دويًا.

وبالقرب من هذا الموضع حصن كبير عشرة فراسخ فى مثلها تكسير مائة فرسخ.

قال: وسألت من هناك: هل رأوا أحدًا من يأجوج ومأجوج، فذكروا أنهم رأوا مرة عددًا منهم فوق الشرف فهبت ريح سوداء فألقتهم إلى جانبهم وكان مقدار الرجل منهم فى رأى العين شبرًا ونصف قال: فلما انصرفنا أخذنا الأدلاء وأخرجونا إلى ناحية خراسان حتى وصلنا إلى ناحية سمرقند، وقد كان أصحاب الحصون زودونا ما كفانا.

ثم سرنا إلى عبد الله بن طاهر[1]، قال سلام: فوصلنى بمائة ألف درهم ووصل كل رجل معى بخمسائة درهم وأجْرى علينا حتى وصلنا إلى الرَّى فوصلنا إلى سُرَّ من رأى لثمانية وعشرين شهرًا من يوم خرجنا منها.

قال ابن خرداذبة[2]: فحدثنى سَلاَّم الترجمان بجملة هذا الخبر، ثم أملاه علىَّ من كتاب كان كتبه إلى الواثق، وكتبناه نحن منه فوجدته موافقًا لما حدثنى به.

وفى بعض الأخبار أن الرجل الواحد من يأجوج ومأجوج لا يموت حتى يولد له ألف ولد.

وقد أتينا على ما أردنا ذكرَهُ من المَمَالِك المُصَاقِبة لخراسان وما والاها من الأمم درجة بعد درجة وحالا بعد حال، على حَسب اتصالها وبعض المسافات المشهورة.

* * *

(١) عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق الخزاعى، بالولاء (١٨٢ـ٢٣٠هـ) أبو العباس أمير خراسان، ومن أشهر الولاة فى العصر العباسى. أصله من «باذغيس» بخراسان. وكان جده الأعلى «زريق» من موالى طلحة بن عبد الله المعروف بطلحة الطلحات، ولى إمرة الشام، ثم مصر ثم الدينور، ثم ولاَّه المأمون خراسان، وكان كثير الاعتماد عليه. الأعلام ٤/ ٩٣ـ٩٤ والمحبر ٣٧٦ ووفيات الأعيان ١/ ٢٦٠ وتاريخ بغداد ٩/ ٤٨٣.

(٢) المسالك والممالك لابن خرداذبة ١٤٥.

العواصم

فلنرجع إلى ذكر المدن والكور بالعواصم وقنسرين المتصلة بأرض الجزيرة وقد ذكرنا أنها كانت من أرض الجزيرة حتى جَنَّدها يزيد بن معاوية فى تجنيد الشام، ثم نصل ذلك بذكر بلاد الشام إن شاء الله تعالى.

فمن مدنها: قنسرين وحلب ومَنْبج[١] ودلوك[٢] ورعبان[٣] وقورس وتيزين ومعرة النصرين، ونصرين جبل مطل عليها، ومعرة النعمان[٤] وكَفْر طاب[٥] والحربية وخناصره، ونقابلس ورصافة هشام والجرثومية على جبل آكام والأسكندرية وأنطاكية وبطنان حبيب.

وهى كلها مدائن جليلة، فأما معرة النعمان فسميت بذلك لأن الجبل المطل عليها سمى النعمان، وللمدينة سبعة أبواب، وعلى ميل منها دير سمعان وفيه قبر عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه -:

ويذكر أن قبر شيث بن آدم عليه السلام عند الباب المنسوب إليه منها.

وداخل مدينة المعرة قبر يوشع بن نون، وله يوم جعل فى كل عام يقصد إليه من الأقطار.

وظهر بالمعرة بعد أربعمائة وثلاثين من الهجرة رجل أعمى يكنى أبا العلاء وهو أحمد بن سليمان بن عبد الله المعرى، وكان لغويا شاعرًا بليغا فصيحًا تضرب إليه آباط الابل من الآفاق، ويزعمون أنه منتحل لمذهب البراهمة مُصِرٌّ على اعتقادهم، وفى أشعاره وأسجاعه ما يدخل القلب منه بعض الريب.

---

(١) قنيج: من جُند قِنّسرين، وهو اسم أعجميّ تكلمت به العرب معجم ما استعجم ٤/ ١٢٠.

(٢) دَلُوك: بلد من الثغور المتصلة ببلاد الروم وراء الفرات. معجم ما استعجم ٢/ ١٧٤.

(٣) رَعْبَان: على مثال فَعْلان، موضعٌ من عمل مَنْبِج من الثغور الجزرية. معجم ما استعجم ٢/ ٢٥٤.

(٤) معرة النعمان: بليدة بين حلب وحماة، كثيرة التين والزيتون، ينسب إليها أبو العلاء المصرى الضرير المشهور بالذكاء. آثار البلاد ٢٧٢.

(٥) كَفَرْ طاب: من كفور الشام المشهورة. آثار البلاد ٢٤٨ ومعجم ما استعجم ٤/ ٢٢.

وبين قنسرين والعواصم، وبلاد الشام، وهى كلها منضافة إلى الشام: بلد الخولان والعواء وبترة بنى أسد والبثنية وجبل حوران وقرى بنى هلال وسائر حوران من بلد بنى مالك، وبصرى وإقليمها والقرية وإقليمها والسويداء وإقليمها وأذرعات وإقليمها، وسمسكين وإقليمها، وذرع وإقليمها وبصرى، وهو الموضع الذى فيه قبر اليسع عليه السلام.

وهذه البلاد كلها التى سميناها بنيانها بحجارة، وسقوفها حجارة، والأبواب التى تردف على بيوتها ودورها، وطاقتها كلها حجارة، وكلها صحارى.

وعلى الجملة: فلا يحيط بوصف البلاد والمدن وغير ذلك من الأمور إلا الله تعالى.

وإنما ذكرنا ما ظهر لنا شهرته، وتكرر سماعه، وما لم نذكره أكثر.

* * *

ذكر الشام

وإنما سميت الشام، لأنها على شمال الكعبة[1]، وقيل لشامات فى أرضها سود وبيض، وقيل سميت بسام بن نوح لأنه أول من نزلها فتطيّرت العرب لما سكنتها من أن تقول سام فقالت شام، وقيل إن أوّل من سكنها من الخلفاء سماها بهذا الاسم، وإنها سرور لمن رآها.

وقسمت الأوائل الشام خمسة أقسام[2]:

الشام الأول: فلسطين، وأول حدود فلسطين من طريق مصر أَمَج، ثم يليها غزة، ثم الرملة رملة فلسطين.

والشام الثانية: مدينتها العظمى الطبرية، والغور واليرموك وبيسان فيما بين فلسطين والأردن.

والشام الثالثة: الغوطة ومدينتها العظمى دمشق، ومن سواحلها أطرابلس.

---

(١) مختصر البلدان ٨٩.

(٢) المسالك والممالك للأصطخرى ٤٣.

والشام الرابعة: أرض حمص.

والشام الخامسة: قنسرين ومدينتها العظمى حلب، وساحلها أنطاكية مدينة عظيمة على ساحل البحر، وقالوا: كل شيء عند العرب من قبل الشام فهو أنطاكية.

ويقال: ليس فى أرض الإسلام، ولا أرض الروم مثلها، والنصارى يدعونها مدينة الله، ومدينة الملك، وأم المدائن، لأنها أول بلد أظهر فيه دين النصرانية، وبها كرسى بطرس، ويسمى سمعون وسمعان، وهو خليفة يشوع الناصرى المرأس على تلاميذه الاثنى عشر والسبعين وغيرهم.

وفى داخلها البساتين والمزارع، ويقال إنها مدينة حبيب النجَّار.

ومن ثغور الشام الخامسة: المصيصة وطرسوس ونهر جيحان.

ومن مدن الشام حِمْص[1]، يقال إنها مدينة حبيب النجار وهى من قصور الشام.

ويقال إن أول من ابتدع الحساب فى سالف الأزمان أهل حمص، لأنهم كانوا تجارًا يحتاجون إلى الحساب فى أرباحهم.

ولا يدخل مدينة حمص حَيَّةٌ ولا عقرب، وليس لها سور، وفى وسطها حصن مستدير، وأكثر حمص اليوم خراب.

وعن قتادة أنه نزل حمص خمسمائة من أصحاب رسول الله ﷺ.

وعن جرير بن عثمان أن حمص نزلها من بنى سُليم ممن صحب النبى ﷺ أربعمائة، ومدينة حماة، وتَدْمُر[2] مدينة أَوَّلية.

وجبل لبنان بقربه، ذكر الهيثم بن عدى أنَّه وجد فى جبل لبنان غارًا وهو فى

(١) قال الأصطخرى فى المسالك والممالك ٤٦ «حِمْص: من أَصَحِّ بلدان الشام تربةً، فى أهلها جمال مفرط، وليس بها عقارب ولا حيّات، ولها مياه وأشجار وزروع كثيرة».

(٢) تَدْمُر: من مدن الشام بالبريّة، أَوَّلية، يقال إنَّ الجِنَّ بَنَتْها لسليمان عليه السَّلام.
وكانت الزباء الملكة تصيف بتدمر وتربع بالنجار، وسمِّيت بتدمر بنت حسَّان بن أذينة، وهى بَنَتْها وفيها قبرها، وإنما سكنها سليمان بعدها. الروض المعطار ١٣١ ومعجم ما استعجم (تدمر) ١/ ٢٧٦ (بتحقيقنا).

زمن الوليد بن عبد الملك فدخل، فإذا فيه رجل مُسَجًّى على سرير من ذهب، وعند رأسه لوح من ذهب مكتوب فيه بالرومية: أنا سبأ بن نواس بن سبأ، خدمت عيصو بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرب الديان الأكبر، وعشت بعده دهرًا طويلا، ورأيت عجبًا كثيرًا، ولم أر فيما رأيت أعجب من غافل عن الموت وهو يرى مصارع آبائه، ويعلم أنه صائر إليهم لا محاله فلا يتوب، والذى بعد الموت من حساب الديَّان الأعظم، ورَدِّ حقوق المظلومين يومئذ أعظم وأقطع حقًا. أقول لقد حضرت غارى، هذا أغدو وأروح إليه، أبكى على نفسى، وقد علمت أن الأجلاف الحفاه سينزلوننى عن سريرى هذا، ويتموَّلونه، ويخرجوننى من غارى، وهم يؤمنون بربوبية الديان الأعظم، وذلك حين يتغيَّر الزمان، ويتأمر الصبيان ويكثر الحدثان، فمن أدرك ذلك الزمان عاش قليلاً ومات ذليلا.

وفى لبنان البرباريس، وهناك أطيب ما يكون.

* * *

ذكر دمشق

ومن مدنها دمشق، وقيل إنها إرم ذات العماد، وقيل: هى كانت دار نوح عليه السلام فيما ذكروا. والله أعلم.

وقال قتادة فى قوله عز وجل: ﴿والتِّين والزيتون﴾[1]: التين الجبل الذى عليه دمشق، والزيتون الجبل الذى عليه بيت المقدس[2]، وقيل: التين مسجد دمشق، والزيتون بيت المقدس.

وقال الضحَّاك: التين والزيتون مسجدان بالشام[3].

وقال مجاهد وعكرمة: التين والزيتون هما المأكولان[4].

---

(١) سورة التِّين آية (١).

(٢) الدر المنثور ٨/ ٥٥٤.

(٣) الدر المنثور ٨/ ٥٥٥.

(٤) الدر المنثور ٨/ ٥٥٦.

وقيل: التين مسجد أصحاب الكهف والزيتون مسجد إيليا.

ومسجدها جليل فيه غرائب من الأعمال يطول وصفها، بناه الوليد بن عبد الملك سنة ثمان وثمانين، وهو داخل المدينة مفروش بالرخام الأبيض مختم بالأزرق، وحيطانه منجدة بالفسيفساء، وسقفه لاخشب فيه، وهو مُذَهَّبٌ كله، وله ثلاثة مناور: المنار الواحد فى مؤخر المسجد مُذَهَّبٌ كله من أعلاه إلى أسفله ذهبا وفسيفساء[١].

ولها كور جليلة منها جودان، والسمه ومدنها بصرى وأذرعات والبلقاء وذمار وعمان وجبال وشراط ومأرب وتنوفة والغور وبعلبك وبيروت وهى قرية الأوزاعى، وأطرابلس ووجه الحجر وأجنادين واليرموك ومرج الصفر والجابية ومرج راهط.

* * *

ذكر مدن فلسطين [٢]

سُمِّيت فلسطين لأن أوّل من نزلها فلستين بن كيسوحين يقطن بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام، وهى مدينة بيت المقدس بينها وبين الرملة[٣] ثمانية عشر ميلا صحارى ووهادًا، ويقال إن الرَّمْلَة أربعة آلاف ضيعة.

وبيت المقدس كان دارَ مُلْكٍ لسليمان عليه السلام وولد سليمان بعده.

---

(١) انظر: المسالك والممالك للأصطخرى ٤٥.

(٢) من هنا تبدأ نسخة القدس.

(٣) الرَّملة: تعتبر مدينة الرَّملة المَمَرّ أو الجسر الذى يصل يافا ـ الساحل بالقدس ـ الجبل، وبالغور، شرقى الأردن، كما تصل شمال السهل الساحلى، بجنوبه.
اختطَّها المسلمون العرب، رغم وجود اللّد بجواره، لأن اللُّدَّ بلدة رومية فى سُكَّانها وعاداتها، ولموقع الرملة الحربى الخطير كانت هى وجوارها ميدانًا للمعارك التى حدثت بين الدول العربية التى ظهرت فى الشام ومصر.
وكانت عاصمة فلسطين إلى أن احتلها الفرنجة سنة ١٠٩٩ وقيل سُمِّيت الرَّملة لكثرة الرَّمل بها، وقيل: اسم امرأة «رملة» وجدها سليمان بن عبد الملك فى بيت من الشَّعر، وهو يرتاد الأمكنة، فأكرمها، فسمَّاها باسمها. معجم بلدان فلسطين ٤١٧ـ٤١٨.

ومن بيت المقدس إلى مسجد إبراهيم عليه السلام[١] وقبره هناك مما يلى القبلة ثمانية عشر ميلا.

وبلد يهودا بن يعقوب بن فلسطين وفى وسطه بيت إيليا، وكان يُسَمَّى فى أوَّل كنعانيةٍ باسم كنعان بن حام.

وبلاد النبط ما بين يهودا وبلاد العرب.

ومن مدن فلسطين غزة[٢]، وشنشط ونابلس واللُّد[٣].

واللُّد: منزل جميل فيه ناس يعمرونه، وفيه تنزل الرفاق الواصلة من الشام إلى مصر والقافلة من مصر إلى الشام، وفيه كنيسة عظيمة محكمة البناء واسعة الفناء عليها للنصارى أوقاف كثيرة.

وفى لُد عجائب: قال رجل: قلت لأهل لُدّ: هذه بَنَتْهَا الشياطين.

قال: أنتم إذا جلَّ فى صُدوركم بنيانٌ أو عملٌ أضفتمُوه إلى الشياطين، لقد بُنِى هذا البنيان قبل مولد سليمان عليه السلام بمثل ما بيننا وبين سليمان.

وفى الخبر المرويّ «أنَّ المسيح عليه السَّلام يَقْتُلُ المسيحَ الدَّجال بباب لُدّ»[٤].

ومدينة نَابُلُس[٥] كثيرة اليهود، وهم سامرية، وهى بلد السامرية وكذلك

---

(١) انظر فى ذلك: معجم بلدان فلسطين ٣٥٥ـ٣٥٩.

(٢) انظر فى ذلك: معجم بلدان فلسطين ٥٦٧ـ٥٦٩.

(٣) اللُّد: بلدة رومية فى سكانها وعاداتها، وكانت اللُّد عاصمة جند فلسطين إلى أن بُنيت الرَّملة. معجم بلدان فلسطين ٦٣٨.

(٤) الخبر فى النهاية (لدد) ٤/ ٢٤٥ ومعجم ما استعجم (لد) ٤/ ٣٨ (بتحقيقنا).
والمسيح سُمِّى به عيسى لأنه كان لا يمسحُ ذا عاهةٍ إلا بَرِئَ وقيل: لأنه خرج من بطن أُمِّه ممسوحًا بالدُّهن، وقيل لأنه كان يمسح الأرض، أى يقطعها، وقيل: المسيح الصِّدِّيق.
وقيل هو بالعبرانية: مَشِيحا، فَعُرِّب.
وأمَّا الدَّجَّال فَسُمِّى مسيحًا؛ لأن عينه ممسوحة. وقيل لأنه يمسَحُ الأرض، أى يقطعها.
انظر: النهاية ٤/ ٣٢٦ـ٣٢٧ وراجع: سنن أبى داود ـ كتاب اللاحم (ح) ٤٣٢١ حـ٤/ ١١٥ وسنن الترمذى ٣٤ كتاب الفتن ـ باب ٦٢، (ح) ٢٢٤٤ جـ٤/ ٥١٥.

(٥) نَابُلُس: مدينة كنعانية من أقدم مدن العالم، فتحها العرب والمسلمون فى عهد أبى بكر الصدِّيق بقيادة عمرو بن العاص. =

سَمَرْقَنْد سامريَّة كُلُّهم، ويقال إنه بلغ عددهم فى هذين الموضعين نحو ثلاثة آلاف.

وفى الدرب الذى يدخل من الأردن إلى أرمينية غَريبةٌ، وذلك ماءٌ من أعلى جبلٍ، فإذا نزل فى أسفله صار حجارة وصفائح.

فإذا أُخِذَ منه فى إناءٍ صار مثل الدم ولم ينعقد.

وفى الجبل الذى ينبع منه الماء علمٌ عليه كتابة بالمسند «خلف دينك وادخل».

* * *

مدينة إيليا (١)

هى مدينة مُصِّرت فى مفازة من الأرض والجبال محيطة بها، والمدينة فى عربى المسجد.

وماء إيليا من الأمطار، ولداود عليه السلام بها حياض مُصَهْرجة فيها مياه الأمطار للشفاء، وخارجها بساتين ومزارع وأشجار وكرم وزيتون، وليس بها من شجر النخل إلا واحدة ويقال إنها المذكورة فى التنزيل فى شأن مريم، وهى منحنية، ويقال إنها غرست منذ زيادة على ألف سنة.

(٢) [والأرض المقدسة أربعون ميلاً فى مثلها، فأما البيتُ المقدَّسُ فإن أول من بناه وأرى موضعه يعقوب، وقيل داود على اختلاف من الناس، وكان من بناء داود عليه السلام له إلى وقت تخريب بخت نصر إياه وانقطاع دولة بنى إسرائيل

= عرفت نابلس منذ القدم بمياهها الجارية وزيتونها الوافر، وخيراتها الكثيرة حتى سُمِّيت دمشق الصغرى.

وتبعد مدينة نابلس عن القدس ٦٩ كيلو متر وعن عمان ١١٤ كيلو متر وعن البحر المتوسط ٤٢ كيلو متر.

ومن أشهر صناعاتها الصابون «والزيت والكنافة النابلسية وهى من أشهر الحلويات فى الوطن العربى. معجم بلدان فلسطين ٦٩٧-٦٩٨.

(١) راجع للمزيد: الروض المعطار ٦٨.

(٢) من هنا يبدأ الحميرى فى النقل عن البكرى ص٦٨.

أربعمائة سنة أربع وخمسون سنه، فلم يزل خرابا إلى أن بناه ملك من ملوك طوائف الفرس يقال له كوشك، ثم تغلبت ملوك غسان على الشام بتمليك ملوك الروم لهم ودخولهم فى نصرانيتهم إلى أن جاء الله بالإسلام، وملك الشام منهم جبلة بن الأيهم، ففتح الله الشام على المسلمين زمن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وكان أبو عبيدة قد كتب ألى بطارقة إيليا يدعوهم إلى الإسلام أو أداء الجزية فَالْتَوا عليه، فنزل عليهم وحاصرهم حصارًا شديدًا، فلما رأوا ذلك سألوه الصلح على الجزية، فأجابهم إلى ذلك.

قالوا: فأرسل إلى خليفتك عمر فيكون هو الذى يعطينا العهد ويكتب لنا الأمان فإنا لا نرضى إلا به، فاستوثق منهم أبو عبيدة بالأيمان المغلظة إن قدم أمير المؤمنين فأعطاهم الأمان ليقبلوا ذلك منه][1]، وخاطب عمر ـ رضى الله عنه ـ بما دعوا إليه وباستيثاقه منهم، قال: ثم سار عمر.

فخرج إليه أبو الجعيد فصَالحه، وكتب لهم عمر كتابا أَمَّنهم فيه على أنفسهم وذراريهم ونسائهم وأموالهم وكنائسهم واشترطوا أن لا يساكنهم اليهود فيها[2].

فلما قبضوا كتاب الصلح فتحوا للمسلمين أبواب إيليا، فدخل عمر ـ رضى الله عنه ـ والمسلمون معه، وسخر عمر ـ رضى الله عنه ـ أنباط أهل فلسطين فى كنس بيت المقدس وكانت فيه مزبلة عظيمة.

وجاء عمر ومعه كعب فقال: يا أبا أسحاق أتعرف موضع الصخرة؟ فقال اذرع من الحائط الذى يلى وادى جهنم كذا وكذا ذراعًا ثم احضر فإنك تجدها.

قال: وهى يومئذ مزبلة، قال فحفروا فظهرت، فقال عمر لكعب: أين ترى أن نجعل قبلة المسجد؟ قال: اجعلها خلف الصخرة فتجمع القبلتين قبلة موسى وقبلة محمد ﷺ. قال: يا أبا أسحاق: ضاهيت اليهود، خير المساجد مقدمها. قال: فبنى القبلة فى مقدم المسجد.

ثم بنى عبد الملك بن مروان مسجد بيت المقدس سنة سبعين وحمل إلى بنيانه خراج مصر لسبع سنين، وبنى القبة على الصخرة وجعل فى أعلى القبة ثمانية

(١) ما بين المعقوفين زيادة عن الروض المعطار ٦٨.

(٢) فتوح الشام ١/ ١٥١ـ١٥٥ والروض المعطار ٦٨.

آلاف صفيحة من نحاس مطلية بالذهب فى كل صفيحة سبعة مثاقيل ونصف من ذهب، وأفرغ على رءوس الأعمدة مائة ألف مثقال ذهبا وخارج القبة كلها صفائح الرصاص وعليها صفيحة[1].

وهى ثلاث قباب متجاورة: قبة الصخرة وقبة السلسلة التى كانت فى زمن داود عليه السلام، وفيها قال الشاعر: [من السريع]

مضى مع الوحى زمان العلى وارتفع الجـــود مع السلسلة

ويقال: إن الذى بنى قبة بيت المسجد وجددها سعيد بن عبد الملك بن مروان، وكان يعرف بسعيد الخير، وهو الذى حفر نهر سعيد بالفرات، وعليه قرى كثيرة.

وطول مسجد بيت المقدس بالذراع الملكى ويقال إنه ذراع سليمان عليه السلام - وهو ثلاثة أشبار - سبعمائة وخمس وخمسون ذراعًا وفيه من الخشب السقف.

وفيه خمسون بابًا منها باب محمد ﷺ، وفى المسجد سبعة محاريب منها محراب مريم، ومحراب يعقوب، ومحراب زكريا الذى بشرته فيه الملائكة.

وفيه كرسى سليمان الذى يدعو عليه، وفيه من الصهاريج أربعة وعشرون صهريجًا للماء، وفيه من سلاسل النحاس للقناديل: وفيه خمسة آلاف قنديل توقد فيه ليلة كل جمعة، وفى السلاسل ثلاثة وأربعون رطلا بالشامى، والرطل بالشامى أربعة أرطال وأربع أواق بالفلفلى.

* * *

---

(١) الروض المعطار ٦٩ وانظر: معجم بلدان فلسطين ٦٦٢.

فضائل بيت المقدس ثلاث

إنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تُشَدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدى هذا، ومسجد إيليا»[١].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص فى هذه الآية ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ﴾[٢]. قال: هو سور بيت المقدس.

وعن عبد الله بن عمر[٣] قال: سمعت النبى ﷺ يقول: لما فرغ سليمان بن داود من بنيان بيت المقدس سأل الله ثلاث خصال: سأل الله أيما عبد خرج من بيته لا يعمد إلا الصلاة فى هذا المسجد أن يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فنرجو أن الله قد أعطاه ذلك، وسأله حُكما يوافق حكمه فأعطاه ذلك، وسأله ملكا لا ينبغى لأحد من بعده فأعطاه.

وعن كعب قال: من أتى بيت المقدس فصلى عن يمين الصخرة وشمالها ودعا عند موضع السلسلة وتصدق بما قل أو كثر استجيب دعاؤه وكشف عنه حزنه وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

وعن أبى العالية ﴿إِلَى الأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾[٤] قال: من بركتها أن كل ماء عذب إنما يخرج من أصل صخرة بيت المقدس يعنى عين سماميح.

والله إن مخرجها لمن تحت صخرة بيت المقدس وهى عين فى وسط البحرين.

وسئل عبادة بن الصامت ورافع بن حريج وكانا عقبتين بدرقين، فقيل لهما:

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الصلاة فى مسجد مكة ١و٥٦ وكتاب الصيد ٢٦ والصوم ٦٧ ومسلم ـ كتاب الحج، حديث ٤١٥و٥١١ والترمذى فى جامعه كتاب الصلاة ١٢٦ والنسائى فى سننه، مساجد ١٠ وابن ماجه، كتاب الإقامة ١٩٦ والدارمى كتاب الصلاة ١٣٣ وأحمد فى المسند ٢/ ٢٢٤ و٢٧٨ و٥٠١ و٣/٢٤٧. وانظر: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى ٢/ ٢٣٤.

(٢) سورة الحديد آية ١٣ .

(٣) الدر المنثور ٨/٥٦ .

(٤) سورة الأنبياء، آية ٧١ .

أرأيتما ما يقول الناس فى هذه الصخرة؟ أشىء له أصل فنأخذ به أم شىء إنما يؤخذ من أهل الكتاب فندعه؟ فقال كلاهما: سبحان الله فمن يشك فى أمرهما؟ إن الله تعالى لما استوى إلى السماء قال: بصخرة بيت المقدس هذا مقامى وموضع عرشى يوم القيامة ومحشر عبادى، وهذا موضع جنتى عن يمينها، وهذا موضع نارى عن يسارها، وأنا ديان الدين، ثم استوى العرش إلى عليين، وفيها أخبار كثيرة يطولُ وصفها.

وعبد الملك بن مروان هو الذى بنى القبة فى أعلى الصخرة، فأبرز الأموال ووكَّل على ذلك رجاء بن حَيْوة ويزيد بن سلام، وحشر لذلك الصناع وأمرهم أن يفرغوا عليها المال إفراغا دون أن ينفقوه إنفاقا. وتبقى من المال بعد بنائها مائة ألف، فأمر بها عبد الملك جائزة لهما فكتبا إليه: نحن أولى أن نزيده من حُلِيّ نسائنا فضلاً عن أموالنا، فَصَرِّفها فيما شِئْتَ، فكتب إليهما: تسبك وتفرغ على القبة، فما كان يقدر أحد إن يتأملها لما عليها من الذهب وكان لها خفاءان: خفاء من لبود وخفاء من أدم من فوقه تلبسها فى الشتاء والصيف، لتكنَّها من الأمطار والرياح والثلوج.

***

طول بيت المقدس

. . .[1] ذراعًا بذراع الملك وهو ست قبضات، وعرضه. . .، ويسرح فيه من القناديل. . ، وعدد أبوابه. . ، وعددها فيه من الآباط والعمد. . ، وعدد العمد التى فى داخل الصخرة. .وقناديلها. . من نحاس وعشرة من فضة كبار، وكل واحد عمل عند النبى ﷺ وفى وسط القبة حبل معلق فيه قنديل من فضة بعضها منظومة بالجوهر.

وهذه صفته[2]:

(١) كذا فراغ بالأصل.

(٢) فى صفة المسجد الأقصى نقلاً عن محمد محمد شرَّاب فى معجمه عن بلدان فلسطين: «يقع =

وبإيليا الكنيسة العظمى التى وسطها صِهْيَوْن[1]، وهى العتيقة، وهى التى يتعبد فيها داود، وفى وسطها قبر المسيح بزعمهم، فإذا كان يوم عيدهم ويوم السبت الكبير يخرج الناس من موضع القبر إلى الصخر، وحوالى السطح درابزين من أبنوس يشرفون منه على موضع القبر، وكلهم يتضرعون إلى الله عز وجل من

= المسجد الأقصى جنوبى جامع الصخرة وطوله ٨٠ مترًا وعرضه ٥٥ مترًا عدا ما أضيفَ إليه من الأبنية، وأول ما يقابلك فى هذا المسجد عند مدخله من الجهة الشمالية رواق كبير أنشأهُ الملك المعظم عيسى صاحب دمشق سنة ٦٣٤هـ، وجدد من بعده، وهو مؤلف من سبع قناطر عقدت على ممشى ينتهى إلى سبعة أبواب، كل باب يؤدى إلى كور من أكوار المسجد السبعة. وللمسجد عشرة أبواب، والبناء قائم على خمسة وأربعين عمودًا والغالب أن هذه الأعمدة قديمة نُقلت من أنقاض أبنية متنوعة أقدم عهدًا من الحرم. وفوق الأعمدة قناطر يربط بعضها ببعض أخشاب ضخمة مستطيلة، وفوق القناطر صفان من الطاقات، ويتألف باطن السقف من عوارض كلها من الخشب. وعدَّة ما فى المسجد من السوارى أربعون، وهى ضخمة مربعة الشكل مبنيَّة بالحجارة. وبأقصى الباب من جهة الجنوب قبَّة مرتفعة مزينة بالفصوص الملونة المذهبة. وهى مَّما رَمَّمه صلاح الدين (٥٨٤هـ) كما رَمَّ أكبر جناحى المسجد، والقُبَّة والجناح على الغالب إنما صُنِعا فى خلافة المهدى بعد تَهدُّم المسجد بفعل الزلازل، وهى كقبة الصخرة من خشبة مكسوة بصفائح الرصاص من ظاهرها وبالفص المذهَّب من باطنها. ومجدّد هذه الزينات هو الناصر محمد بن قلاوون سنة (٧٢٨هـ)، وهناك آيات قرآنية كُتبت بالخطّ الكوفى على جانبى المحراب. والمحراب قائم على أعمدة لطاف من المرمر وبجانبه المنبر وهو من الخشب المرصَّع بالعاج وآبنوس، عُمِل فى عصر نور الدين زنكى، ويقابل المنبر دكّة المؤذنين، وهى على عمد من رخام.

ومن داخل المسجد من جهة الغرب جامع النساء أو الجامع الأبيض، وهو عبارة عن عشر قناطر على تسع سوارفى غاية الإحكام، بناه الفاطميون ومن جهة الشرق جامع عمر، وهو معقود بالحجر والجير، سمّى بذلك لأنه بقيَّة من الجامع الذى بناه عمر رضى الله عنه حين الفتح. وإلى جانب هذا البناء إيوان كبيرٌ معقود يُسَمَّى مقام، وبه باب يُتَوصَّل منه إلى جامع عمر، وبجوار هذا الإيوان من الشمال إيوان لطيف به محراب يُسَمَّى محراب زكريا، وهو بجوار الباب الشرقى. وفى صحن المسجد الأقصى شمالاً بركة مستديرة من رخام سُوِّرت بالقُضُب الحديدية يقال لها الكأس، يأتيها الماء بأنابيب خاصة من عيون جارية بالقرب من برك المرجيع المسَّماة ببرك سليمان، أهمها عين عطاب ووادى الآبار. معجم أسماء فلسطين ٦٦٨ـ٦٦٩.

(١) صهيَوْن: كنيسة فى أعلى مدينة بيت المقدس، جليلة حصينة فيها العلبة التى أكل فيها المسيح مع تلامذته. انظر: الروض المعطار ٣٧٠ ومراصد الاطلاع ٢/ ٩٥٨ ـ ٨٥٩ وفى معجم البلدان «صيهون» ٣/ ٣٢١.

وقت الأولى إلى المغرب، والإمام الذى يؤم بالناس فى المسجد الجامع قاعد مع الأمير، فهم على هذا حتى يروا نارًا. بيضاء تخرج من جوف القبر، فيفتح السلطان الباب عن القبر ويدخل وفى يده شمعة فيوقدها فى تلك النار فيرفعها إلى الإمام فيأتى الإمام بتلك الشمعة إلى المسجد الجامع فيشعل بها القناديل، فإذا تداولت تلك الشمعة ثلاث أيد اتّقدت كلها وصارت نارًا للعالمين.

ويكتب الأمير بخبر ذلك إلى السلطان ويعلمه أن النار نزلت فى وقت كذا وكذا من يوم كذا، فإذا نزلت تلك النار وقت الأولى من ذلك اليوم كان دليلا على أن السنة تكون خصيبة، وإذا تأخرت ونزلت وقت العصر دلت على أن السنة تكون قحطة. وهذه النار تنزل فى يوم فِصْحِهم.

قال المؤلف[1]: هكذا نقل بعض المؤرخين وهو أمر غير صحيح، وإنما كانت هذه حيلة وناموس عمل من نواميس أسقف بيت المقدس، فكان يعمد إلى خيط إبريسم رقيق طويل فيدخله من وراء الحائط إلى القبر، ويخرج من القبر إلى سرج الثريا وهو مدهون بالبلسان، وتشتعل النار فيه من وراء الحائط بغلافين قد اتخذهما لأصبعين من خشب نورى، وتسرى النار فى البلسان حتى يتقد منها السراج، ففضحه على بن إبراهيم الوزير أيام كونه هناك وكشف للناس وجه حيلته وضرب فى عنقه فبطلت النار من ذلك الوقت.

ويتصل بهذه الكنيسة كنيسة يقال لها كنيسة قسطيص، وبغربيها كنيسة يقال لها الحسمانية، وعلى فرسخ منها مما يلى قبلتها فى مستو من الأرض بيت لحم[2]، وبه ولد المسيح عليه السلام، وبه النخلة التى ساقطت على مريم رطبا جنيا، والسرى الذى جعله الله تحتها فشربت منه وتطهرت والمهد الذى جعلت فيه المسيح، وهو

---

(١) أبو عبيد البكرى.

(٢) بيت لحم: نسبة إلى «لخمو الكنعانى» وهى بالسريانية، بمعنى بيت الخير وسكنها الكنعانيون سنة ٢٠٠٠ ق.م، وتوالت عليها الأحداث، وكانت فى العصور القديمة قرية متواضعة تكتنفها الأودية العميقة من جهاتها الثلاث، وكانت خصبة الموقع تنتشر فيها حقول القمح.
وقد استمدت بيت لحم شهرتها العالمية الكبرى من مولد المسيح فيها وتقوم المدينة على جبل مرتفع قرابة (٧٨٠) متر عن سطح البحر، وتبعد عن القدس ١٠ كم، جنوبى مدينة القدس، وتبعد عن الخليل ٢٧ كم معجم بلدان فلسطين ١٩٩ـ٢٠٠.

حوض أبيض غسلته فيه، وهو قريب من العين.

وعلى فرسخ من مدينة الطبرية[١] قرية يقال لها المجدل[٢] فيها كنيسة مريم فيها السبعة المجانين الذين أبرأهم المسيح عليه السلام يقال لها الطابقان، وهناك بارك عيسى عليه السلام على خمسة أرغفة وسمكتين، وأطعم منها خمسة آلاف من أصحابه، وفضل منه اثنا عشر زنبيلاً.

ومنها على فرسخ مسجد الخضر[٣]، وتحته قناة ماء يجرى حتى ينصب فى البحيرة ومنها على أربعة فراسخ مسجد بناه عمر بن عبد العزيز رحمه الله وتحته الجُبّ الذى ألقى فيه يوسف عليه السلام.

ومنها على فرسخين مدينة يقال لها بانياس، وهاهنا ينبع ماء نهر الأردن وعليه الأرحاء، ويذكرون أنها كانت تقف يوم السبت فلا تطحن، وكان انخسف نصفها، وتعلق الناس بالمسيح أن ترفع، فأبى ورفع رجله حتى انخسف نصف الأرحاء.

وفيها أحيا المسيح بنت أدران الملك بعد عشرة أيام، وعمل العجائب فى تلك المدينة.

* * *

---

(١) طبرية: مدينة تقع فى الشمال الشرقى من فلسطين، على شاطىء بحيرة طبرية الغربى، على بعد ٢٠ كم إلى الجنوب من مصب نهر الأردن فى بحيرة طبرية.
بُنيت عام (٢٢)م وسميت باسم «طيباريوس» الأمبراطور الرومانى، وفتحها شراحبيل بن حسنة سنة ١٣ـ هـ، وصارت عاصمة (جُنْد الأردن) وزاد من أهمية تلك المدينة أنها كانت تقع على طريق القوافل بين دمشق ومصر، وفى سنة ٣٠ هـ أرسل الخليفة عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ مصحفًا إلى طبرية. ومن أشهر معالمها الحمّامات المعدنية على بعد ٢ كم إلى الجنوب من المدينة. معجم بلدان فلسطين ٤٩٨ـ٤٩٩.

(٢) المجدل: قرية فى قضاء طبرية. فى الشمال الشرقى من مدينة طبرية على ساحل بحيرة طبرية الغربى، على مسافة ٥ كم شمال مدينة طبرية.
عرفت فى العهد الرومانى «تاريشيا» وهى مدينة قديمة ذكرت فى الإنجيل باسم المجدل. وإليها تنسب مريم المجدلية، التى تذكر الأناجيل أنها كانت مع السيد المسيح وقت الصّلب والدفن. معجم بلدان فلسطين ٦٤٤.

(٣) انظر: معجم بلدان فلسطين ٣٤٢.

ذكر بلاد الروم وجملة من أخبارهم

كانت رومة دار مملكتهم ونزلهم من ملوكهم تسعة وعشرون ملكا، ثم نزل نُقْمُودِيّة[١] منهم ملكان، ثم انتقلت مملكتهم إلى رومة فنزلها ملكان، ثم ملك بها قسطنطين الأكبر فانتقل إلى بزنطية وبنى عليها سورا وسماها القسطنطينية ولها نحو مائة باب، وطولها من الباب الشرقى إلى الباب الغربى ثمانية وعشرون ميلا، وقيل اثنا عشر فرسخًا فى مثلها، وفرسخهم ميل ونصف، ودور قصر الملك فرسخ يحيط به سور منيف وله ثلاثة أبواب.

وعلى مقربة منه كنيسة الملك، لها عشرة أبواب أربعة منها ذهب وستة من فضة، وفى المقصورة التى يصلّى فيها الملك موضع أربع أذرع فى أربع أذرع مرصع بالدر والياقوت.. والأرقنا آلة من خشب مربعة على هيئة المعصرة يغشى بأدم وثيق، ثم تجعل فيه ستون أنبوبة قد غشيت تلك الأنابيب بالذهب فوق الأدم لا يتبين منها إلا اليسير، وهى على مقادير مختلفة فى الطول ليست متساوية، وتوضع ثلاثة صلبان فوق الآلة: صليب فى طرفها، وصليب فى وسطها، وصليب على الطرف الثانى.

وفى جانب هذه الآلة المربعة ثقب يجعل فيه منفخ مثل كور الحدادين ورجلان ينافخان ذلك المنفخ لا يفتران، ويقوم الأستاذ فيحسب على تلك الأنابيب، وهذه الآلة من أجل ما عندهم، تسمع منها أصوات غريبة مطربة ومتحدثة وملوكهم لا يستغنون عنها فى أكثر أحوالهم وهى من الغريب المتعذر، والله أعلم.

وإذا أراد الملك الخروج إلى هذه الكنيسة العظمى فرش له فى طريقه من باب القصر إلى الكنيسة حصر، وفوق الحصر ضروب الرياحين الطيبة، وتزين حيطان دور المدينة يَمْنَةً ويَسْرَةً بالديباج وضروب ثياب الحرير.

ويخرج بين يديه عشرة آلاف شيخ عليهم كلهم ديباج أبيض، ثم يخرج بعدهم عشرة آلاف خادم عليهم ديباج فى لون السماء فى أيديهم الطبرزينات الملبسة

(١) المسالك والممالك للأصطخرى ٩٣.

بالذهب، ثم يخرج بعدهم خمسة آلاف من فتيان الصقالبة أوساط عليهم ملاحم خراسانية بيض بأيديهم كلهم صلبان الذهب، ثم يخرج من بعدهم عشرة آلاف غلام أتراك وخزر عليهم أقبية مُذَهَّبة، بأيديهم رماح وأترسة ملبسة بالذهب، ثم يخرج بعدهم مائة بطريق عليهم ثياب منسوجة بالذهب فى يد كل واحد منهم قضيب من ذهب، ثم يخرج مائة غلام عليهم ثيابة مشهرة مرصعة باللؤلؤ يحملون تابوتا من ذهب فيه كسوة الملك لصلاته، ثم يخرج رجل بين يديه يقال له الرحوم يسكت الناس، ثم يخرج شيخ بيده طست وإبريق من ذهب مرصعان بالدر والياقوت ثم يخرج الملك ماشيا وعليه ثياب الأكسيمون، وهو ثياب من الإبريسم منسوجة بالجوهر كلها، وخُفُّهُ مُرَصَّع بالدرّ والياقوت، وفى يد الملك حقة من ذهب فيها تراب، فكلما خطا خطوة يقول له الوزير بلسانهم: من رموت نسابطر، تفسيره: اذكر الموت والبلى، فإذا قال له ذلك وقف الملك وفتح الحق ونظر إلى التراب وقبله وبكى، فيسير كذلك حتى ينتهى إلى باب الكنيسة فيقدم الرجل الطست والإبريق فيغسل الملك يده ويقول للوزير: إنى برىء من دماء الناس كلهم، والله لا يسألنى عن دمائهم وإنى قد جعلتها فى عنقك.

ويخلع ثيابه التى عليه على وزيره ويقول له: دِنْ بالحق، ويأمر فيه أن يدار به على أسواق القسطنطينية ويقال له: دِنْ بالحق كما قال لك الملك.

ويلبس الملك الثياب التى يدخل بها الكنيسة، ويأمر بإدخال أسارى المسلمين الكنيسة فينظرون إلى تلك الزينة فينادون: أطال الله بقاء الملك سنين كثيرة، ويقولون ذلك ثلاث مرات.

ويساق خلف الملك ثلاثة من الخيل تقاد، ويقول بعضهم: إنها لا تكون إلاّ شهباء، يقال إنها من نسل خيل كانت للإسكندر، توارثها ملوك اليونانيين ثم ملوك الروم لما غلبوا على المملكة، عليها سروج قرابيسها من الزمرد الأخضر والياقوت الأحمر، وركبها وألبابها وما اتصل بها مرصّعة من الحجارة بمثل ذلك، وأجلتها من الديباج المرصع بالدر والياقوت، فيدخلونها الكنيسة ولها بها لجام معلق، وهم يقولون: إنّ دابّة منها متى أخذت تلك اللجام فى فيها ظفروا ببلاد الإسلام، فتجىء الدابة منها فتشم اللجام ثم تقهقر ولا تقدم عليه.

ويقال إنها من نسل دواب كانت لأوقنطاب.

قال أبو سعيد الفارقى: رأيتهم يحملون بين يدى الملك سيوفًا عدة تنسب إلى الإسكندر طول كل سيف منها ثمانية أشبار وهى مرصعة كلها بنفيس الجوهر، فإذا انقضت نواميس شرعهم عاد الملك على الهيئة الأولى إلى قصره.

وباب الذهب منها فى الجانب الجنوبى ومنه يأخذ إلى رومية.

وفيها عجائب يكاد السامع أن لا يقبلها، وفيها من الذهب والجواهر فى أبوابها وأسرتها وجميع أمورها.

* * *

ذكر مدينة روما (١)

[ومدينة رومة فى سهل من الأرض تحيط بها الجبال على بعد، والمطل عليها منها جبل غودية بينه وبينها ستة أميال.

ودور مدينة رومة أربعون ميلا، وقطرها اثنا عشر ميلاً يشقها نهر يسمى تبيروس وينقسم قسمين، ثم يلتقيان آخرها.

وفى وسط مدينة رومة حصن يقال له منت أرقوط فى صخرة مرتفعة منيعة ولم يطق بهذا الحصن عدو قط.

ورومة قد تغلب عليها مرات، وبين رومة والبحر الشامى اثنا عشر ميلا، وكذلك بينها وبين البحر الجوفى.

وأهل مدينة رومة أجبن خلق الله، ويدبر أمورهم برومة البابه، ويجب على كل ملك من ملوك النصارى إذا اجتمع بالبابه أن ينبطح على الأرض بين يديه، فلا يزال يقبِّل رجل البابه، ولا يرفع رأسه حتى يأمره البابه بالقيام.

وكانت رومة القديمة تسمى رومى باكية أى عجوز، وكان النهر يعترضها، فبنى يوانش الأسقف خلف الوادى مدينة أخرى، فلذلك صار النهر يشقها، وفرش

(١) انظر فى ذلك: المسالك والممالك لابن خرداذبة ١٠٤ والروض المعطار ٢٧٤ ـ٢٧٥.

النهر عين الصفر، وألصقه بالقصدير والرصاص، وألبست حيطانه بمثل ذلك.

وفى داخل مدينة رومة كنيسة شنتا باطر، وفيها صورة قار له من ذهب بلحيته وجميع هيئته، وهو فى خلق عبوس قد رفع عن الأرض فى خشبة مصلوبا، وفى وسط الكنيسة صورة أخرى لبعض ملوكهم من ذهب أيضًا.

ولهذه الكنيسة أربعة أبواب من فضة سبكًا واحدًا، كلها مسقفة بقراميد الصفر ملصقة بالقصدير، وحيطانها كلها نحاس أصفر رومى، وأعمدتها وأساطينها من بيت المقدس، وهى فى غاية من الحسن والجمال.

ويزار فى هذه الكنيسة مخلبان من مخالب العنقاء. وهم يسمونها الغريقة - طول كل مخلب اثنا عشر شبرا، وداخل هذه الكنيسة بيت بنى باسم بطرس وبولس الحواريَّين، وطول هذه الكنيسة ثلاثمائة ذراع وسمكها مائتا ذراع][1].

* * *

ذكر شيء من سِيَر الروم وأخبارهم ومذاهبهم

[وأهل رومة أجمعون يحلقون لحاهم كلها، ويحلقون أوساط هامهم، ويزعمون: أن كل من لم يحلق لحيته لم يكن نصرانيًا خالصًا، ويقول علماؤهم إن سبب ذلك: أن شمعون الصفا جاءهم والحواريون وهم قوم مساكين ليس بيد كل واحد منهم إلا عصا وجراب، قالوا: ونحن ملوك نلبس الديباج، ونقعد على كراسى الذهب، فدعونا إلى النصرانية فلم نجبهم، وأخذناهم وعذبناهم، وحلقنا رءوسهم ولحاهم، فلما ظهر لنا صدق قولهم حلقنا لحانا كفارة لما ركبنا من حلق لحاهم.

وإنما صار النصارى يُعَظِّمون يومَ الأحد؛ لأنَّهم يزعمون أَنَّ المسيح قام فى القبر ليلة الأحد، وارتفع إلى السماء ليلة الأحد بعد اجتماعه مع الحواريين.

وهم لا يرون الغسل من الجنابة، ولا وضوء عندهم للصلاة، وإنما عبادتهم النية، ولا يأخذون القربان حتى يقولوا: هذا لحمك ودمك، يريدون المسيح،

(١) إلى هنا النقل عن البكرى فى الروض المعطار فى مادة «رومية» ٢٧٥.

وليس بخمر وليس بخبز.

والسكر عندهم حرام، ولا يتكلم أحد إذا أخذ القربان حتى يغسل فمه، وإذا تقربوا قبَّل بعضهم بعضا وتعانقوا.

ولا يتزوج أحد منهم أكثر من امرأة واحدة، ولا يتسرَّى عليها، فإن زنت باعها، وإن زنى باعته، وليس لهم طلاق.

ويورثون النساء جزءين والذكور جزءًا، ومن سنتهم ألا يلبس الخفاف الحمر إلا ملك.

وهم يخففون فى الحكم على الشريف، ويثقلون على الوضيع حتى يبلغ به البيع ومن أحكامهم أن من زنى بأمة غيره فلا شىء عليه إذا زنى بها خارج الدار كأنه لم يأت بريبة، وإن زنى بها فى دار سيدها فعليه حد معروف، ومن أولد عندهم أمة، فولده زنيم، ولا يجوز لذلك الولد عندهم رتبة القسيسة، ولا يرث أباه إذا كان له ولد من حرة وولد الحرة يحيط بميراثه، وإن لم يكن له ولد غير ولد الأمة ورثه.

وهم يفطرون فى صومهم فى كل جمعة يومين، وهما يوم السبت ويوم الأحد، وأمر الصوم عندهم خفيف ليس بالشديد اللزوم، وإنما أصله عندهم الصوم الذى صامه المسيح بزعمهم استدفاعا لإبليس، وكان صومه أربعين يومًا كاملاً، موصولة بلياليها فى قولهم، وهم لا يصومون يومًا كاملاً ولا ليلة كاملة، ومن كان بين المسلمين منهم يؤخر الفطر حياء منهم، وهم فى موضع مملكتهم لا يصومون إلا نصف النهار أو نحوه.

والمواظب منهم للصلاة والجماعات من شهد الكنيسة يوم الأحد وليلته وأيام القرابين السبعة، ولو غاب عنها عمره كله ولم يطعن بذلك عليه طاعن ولا عابه بذلك عائب.

وليس يشتمل مصحف النصارى الذى هو ديوان فقههم وكنز علمهم، وعليه معولهم فى أحكامهم، واعتمادهم فى شرائعهم إلا على خمسمائة وسبع وخمسين مسألة، ومن هذه المسائل على قلتها مسائل موضوعة لا معنى لها، ولا حاجة بهم إلى تفسيرها، لم يقع فى سالف الزمان ولا يقع فى غابره.

وليست سنتهم مأخوذة من تنزيل ولا رواية عن نبىّ، وإنما جميعها عن ملوكهم، وإيمانهم الذى لا يعدونه بالله الذى لا يعبد غيره، ولا يدان إلاّ له، وإلا فخلع النصرانية، وبرىء من المعمودية، وطرح على المذبح حيضة يهودية وإلا فلعنه البطريق الأكبر والشمامسة والديوانيون وأصحاب الصوامع ومقربة القربان، وإلا فبرىء من الثلاثمائة والثمانية عشر أسقفا الذين][1] خرجوا من بيوتهم حتى أقاموا دين النصرانية، وإلا فشق الناموس وطنح به لحم حمل، وأكله يوم الإثنين مدخل الصوم، وإلا فلقى الله بعمل إسحاق طهربا اليهودى. أكمل ثلث الديوان والحمد لله.

* * *

جزيرة قبرص[2]

سميت بذلك لمدينه هناك تسمى قبرو.

وجزيرة قبرس كانت معظمة فى القديم للوثن المسمى فانوس وهو على اسم ذو الزهرة وأهل قبرص موصوفون بالغناء والجدة، وبها معادن الصفر، وفى جزيرة قبرص اللادن ولا يجمع فى غيرها، والذى يجمع منه على الشجر خاصة يحمل إلى ملك القسطنطينية أفضله؛ لأنه يعادل الألنجوح القمارى طيبا، وسائر ما يجمع مما يسقط على وجه الأرض هو الذى يستعمله الناس.

* * *

(١) النقل هنا عن البكرى فى كتاب الروض المعطار ٢٧٦.

(٢) انظر: المسالك والممالك للأصطخرى ٥١ وصورة الأرض ١٨٤.

جزيرة إقريطش (١)

لها اثنا عشر ميلا، وقيل: دور إقريطش ثمانمائة ميل.

سميت برجل من المجوس يقال له قراطى، ويسمى أيضًا إقريطش البتر بلش وترجمته مائة مدينة، وكذلك كان بها مائة مدينة.

وباقريطش أول ما استنبطت صناعة الموسيقى.

وهى كثيرة المعز، وليس بها إبل ولا سبع ولا ثعلب ولا غيرهما من الدواب الدابة بالليل ولا فيها حية، وإذا دخلت فيها ماتت فى ذلك العام.. وهى كثيرة الكروم والأشجار، ومراسيها من ناحية الشرق: مرسى الفتوح وهو مرسى مشتى حسن لا نظير له فى موضع، ومراس كثيرة لا حاجة إلى ذكرها.

* * *

جزيرة صقلية (٢)

وجزيرة صقلية سميت باسم شيقلوا أخى إيطال الذى به سميت إطالية.

وطولها من جبل بلرمة إلى جبل بحيشة؟ وعرضها من جبل بحيشة إلى جبل أليبو؟ عند مرسى على، ويذكر أنها مثلثة الشكل.

وقال بعضهم: لا أدرى جزيرة فى البحر أكثر منها بلادًا ولا عمارة أقطار، فالثلث الشرقى منها من مسينى إلى جزيرة الأديب مائتاميل، ومن جزيرة الأديب إلى طرابنش أربعمائة ميل وخمسون ميلاً(٣)، وهو الوجه الجنوبى، والوجه الثالث من طرابنش إلى الحراش اثنان وخمسون ميلاً.

وهى كثيرة الزرع والضرع والفواكه.

---

(١) وهى الآن جزيرة كريت، انظر المسالك والممالك للاصطخرى ٥١ وصورة الأرض ١٨٤.

(٢) راجع: الروض المعطار ٣٦٧ وصورة الأرض ١٨٤.

(٣) المسالك والممالك للأصطخرى ٥١.

وبلرمة قاعدتها فى شمال الجزيرة على سبع ليال من المجاز.

وبجزيرة صقلية البركان العظيم الذى لا يعلم فى العالم أشنع منظرا منه ولا أغرب جبلاً، وهو فى جزيرتين شمالاً من هذه الجزيرة، وإذا هبت الريح الجوفية سمع له دوى هائل كالرعد القاصفى.

وكان قوفوريوس الفيلسوف قد شخص من مدينة صور إلى صقلية لينظر إلى البركان، ويعاين فعل الطبيعة هناك، ويخبر عنه وعن العاقبة بقول واضح، فمات بها وقبره معروف، وقبر جالينوس أيضًا هناك معلوم، وكان قد شخص من مدينة رومة يريد الشام ليلقى أصحاب عيسى عليه السلام.

وبصقلية مياه حامضة وبها معدن الكبريت الأصفر(١).

وبجزيرة صقلية آبار ثلاث عند قلعة مينا من إقليم سرقوسة يخرج منها فى وقت معلوم من السنة زيت النفط، وذلك فى شهر شباط وشهرين بعده.

وذكر بعض المؤرخين أن جزيرة صقلية كان يسكنها فى قديم الدهر أمة مهملة تأكل الناس، ويقال إنه كان فيها جنس من المسوخ بعين واحدة فى وسط جباههم يسمون حقلوفس.

ولم تزل صقلية على قديم الدهر كثيرة الفتن والحروب، وفى السنة التى بويع فيها على بن أبى طالب رضى الله عنه صار قسطنطين بن هرقل فى ألفى مركب يريد بلاد المسلمين، فسلط الله تعالى عليهم عاصفا من الريح فأغرقهم فنجا بنفسه قسطنطين فلما أتى صقلية صنعوا له حمامًا ودخله وقتلوه فيه.

ولصقلية مدن كثيرة ونهران يطردان من عين واحدة يقال لأحدهما طوشرم وللآخر القارم.

وبصقلية جزيرتا البركان الواحدة كبيرة والأخرى صغيرة، وفى هاتين الجزيرتين تتقد النار أبدًا، فيرى فيهما لهب النار بالليل ودخانه بالنهار.

ومن العجائب أن النار فى إحدى الجزيرتين حديثة ولم تكن بها من قبل.
وهاتان الجزيرتان ومايليهما تسمى جزائر أوليا، سميت باسم أوليس بل بكيو الذى ذكرت فلاسفة الجاهلية أنه كان أميرًا لتلك الجزائر، وكان يعلم أهلها بما يحدث فى

(١) الروض المعطار ٣٦٧.

الرياح لتجارب حفظها، فاتخذوه إلها، وبصقلية غرائب يطول ذكرها.

[وفى سنة اثنتى عشرة ومائتين فزع فيمة البطريق النصرانى قائد صاحب صقلية إلى زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب، فقرب عليه أمر صقلية والظفر بها فولى زيادة الله أسد بن الفرات القاضى الفقيه على جيش إفريقية من قريش والعرب والبربر وغيرهم وأقره على القضاء مع القيادة.

وخرج أسد فى حفل عظيم وجمع كثير وعدة كاملة، وذلك فى شهر ربيع الأول من العام المذكور، وكان فصوله من مدينة سوسة فى سبعين مركبًا يوم السبت للنصف من شهر ربيع الآخر، ووصل إلى مرسى مازر يوم الثلاثاء بعده، وكانت طريقه من المرسى على قلعة بلوط، ثم على قرى الريش ثم صار إلى قلعة الدب، سميت بذلك لأنهم أصابوا فيها أنيسا، ثم إلى قرية الطواويس، وسميت بذلك لأنهم أصابوا فيها طاوسًا، ثم إلى معركة بلاطة، وهناك ظهر لهم جمع الروم فنازلهم فانهزم المشركون وأصيب لهم كراع وسلاح، ولذلك سميت معركة بلاطة، وهو اسم ملك النصارى، ثم رحل إلى حصون الروم وقراهم يغير ويسبى، وبث الثرايا فى جميع الجزيرة وكثرت المغانم عند المسلمين وصاروا فى رغد من العيش، وسارع الناس إلى إمدادهم من إفريقية والأندلس، وحاصر أسد مدينة سرقوسة، وقاتلهم برًا وبحرًا وأحرق مراكبها، وقتل جماعة من أهلها.

ومات أسد بن الفرات رحمه الله سنة ثلاث عشرة ومائتين وهو محاصر لسرقوسته، ووقع الموتان على عسكر المسلمين][(١)].

وولوا على أنفسهم ابن الجوارى وأمدتهم مراكب من إفريقية فيها رجل يسمى عمروس، فخرج إليهم قسطنطين صاحب صقلية وهو نازل بلرمة فى عسكر جرار، فحفر لهم المسلمون حفرًا وغيبوها بالكلأ والعشب، ثم استطردوا لهم عند اللقاء حتى تساقطوا فى تلك الحفر، فكان ممن سقط منهم قسطنطين وابنه، فأسر قسطنطين وقد أثخن جراحًا، ففدى من المسلمين بفداء جزيل فأحمله أهله فمات بالحمة، فحملوه ودفنوه بمرس الطين، وبنوا على قبره الكنيسة التى بالمرسى.

وكان بعد ذلك فيها ولايات كثيرة، وحروب مع الروم يطول ذكرها.

---

(١) النقل هنا عن البكرى فى الروض المعطار ٣٦٦.

ذكر جزيرة مالطة[١]

ومن الجزائر المشهورة التى تلى صقلية جزيرة مالطة فى القبلة منها بينهما مجرى واحد، وفيها مراس منشأة للسفن، وأشجارها الصنوبر والعرعر والزيتون.

وطولها ثلاثون ميلاً، وفيها مدينة من بنيان الأول، وكان يسكنها الروم، وغزاها خلف الخادم مولى زيادة الله بن إبراهيم عند قيام أبى عبد الله محمد بن أحمد[٢] ابن أخى زيادة الله على يد أحمد بن عمر بن عبد الله بن الأغلب، وهو الذى شقى فى أمرها.

وخلف هذا هو المعروف ببناء المساجد والقناطر والمراجل، فحاصرها ومات وهو محاصر لها، فكتبوا إلى أبى عبد الله بوفاته، فكتب أبو عبد الله إلى عامل جزيرة صقلية، وهو محمد بن خفاجة، أن يبعث إليهم داليا فبعث إليهم سوادة بن محمد، ففتحوا حصن مالطة وظفروا بملكها عمروس أسيرًا، فهدموا حصنها وغنموا وسبوا ما عجزوا عن حمله، وحمل لأحمد من كنائس مالطة ما بنى به قصره الذى بسوسة داخلاً فى البحر، والمسلك إليه على قنطرة، فبقيت بعد ذلك جزيرة مالطة خربة غير آهلة، وإنما كان يدخلها النشاؤون للسفن، فإن العود فيها أمكن أن يكون والصيادون للحوت لكثرته فى سواحلها والشائرون للعسل، فإنه أكثر شىء هناك.

فلما كان بعد الأربعين والأربعمائة من الهجرة عمرها المسلمون وبنوا مدينتها ثم عادت أتم مما كانت عليه، فغزاها الروم سنة خمس وأربعين وأربعمائة فى مراكب كثيرة وعدد فحاصروا المسلمين فى المدينة واشتد الحصار عليهم وطمعوا فيهم، فسألهم المسلمون الأمان فأبوا إلا على النساء والأموال، فأحصى المسلمون عدد المقاتلة من أنفسهم فوجدوهم نحو أربعمائة، ثم أحصوا عبيدهم فوجدوهم أكثر

(١) انظر: آثار البلاد ١٥٧ والروض المعطار ٥٢٠ وصورة الأرض ١٨٤.

(٢) أبو عبد الله محمد بن أحمد، هو المشهور بأبى الغرانيق توفى سنة ٢٦١. نهاية الأرب ٨١/٢٢.

عدداً منهم فجمعوهم وقالوا لهم: إنكم إن ناصحتمونا فى قتال عدونا وبلغتم من ذلك مبلغًا وانتهيتم حيث انتهينا فأنتم أحرار، نلحقكم بأنفسنا وننكحكم بناتنا ونشارككم فى أموالنا، وإن أنتم توانيتم وخذلتمونا لحقكم من السباء والرّق ما يلحقنا، وكنتم أشدّ حالاً منا، لأن أحدنا قد يفاديه حميمه، ويخلصه من الأسر وليه، ويتما لأعلى استنقاذه جماعته، فوعد العبيد من أنفسهم بأكثر مما ظنوا بهم، ووجدوهم إلى مناجزة عدوهم أسرع منهم.

فلما أصبح القوم من اليوم الثانى غاداهم الروم على عادتهم، وقد طمعوا فى ذلك اليوم فى التغلّب عليهم وأَسْرِهم، والمسلمون قد استعدّوا فى أكمل عُدَّة للقائهم، وأصبحوا على بصيرة فى مناجزتهم، واستنصروا الله عز وجل عليهم وزحفوا وثاروا نحوهم دعسًا بالرماح وضربًا بالسيوف غير هاربين ولا معرجين، واثقين بإحدى الحسنيين. من الظفر العاجل أو الفوز الآجل.

فأمدهم الله تعالى بالنصر وأفرغ عليهم الصبر، وقذف فى قلوب أعدائهم الزعر، فولوا منهزمين لا يلوون واستأصل القتل أكثرهم، واستولى المسلمون على مراكبهم فما أفلتهم منها غير واحد، ولحقوا عبيدهم بأحرارهم ووفوا لهم بميعادهم،

وهاب العدوّ بعد ذلك أمرهم، فلم يعترضْهُم أحدٌ منهم إلى حين.

* * *

ذكر جزيرة قوْصرة[1]

ويلى جزيرة مازر من صقلية جزيرة قوصرة، بينهما مجرى واحد.

والجزائر بتلك الناحية كثيرة.

* * *

---

(١) قَوْصَرَة: بالفتح ثم السكون والصاد مهملة، جزيرة فى بحر الروم بين المهدية وجزيرة صقلية، خربت. مراصد الاطلاع ٣/ ١١٣٣.

ذكر مجدونية

فأما مجدونية[١] فهى قاعدة الروم الأغريقيين، ومنها أرسطاطاليس فيلسوف الروم وعالمها، وهو معلم الإسكندر الأكبر وله رسائل عجيبة.

وقد حددها الكندى عند ذكر ممالك صاحب القسطنطينية، وكانت مجدونية تسمى فى القديم مارية مشتقة من اسم ملكها ماريش.

* * *

ذكر طراقية

فأما بلد طراقية فحدها من المشرق مدينة القسطنطينية، ومن ناحية الجوف يمتد إلى ناحية الأشبان، ومن ناحية القبلة معظم البحر، ومن ناحية المغرب يتصل ببلد مجدونية، ويتصل به بلد طشالية، وزعموا أن أهلها أول من عمل اللُّجُم للخيل، وأنهم ابتدعوا رياضة الخيل والبيطرة.

* * *

ذكر طشالية[٢]

أرض بين الروم والترك فيها عينان تجريان ويكون عنهما نهران، إن شربت الماشية من إحداهما اسودت ووضعت سودًا، والأخرى إن شربت منها الماشية وضعت أولادها بُلْقًا، وبطشالية استنبط ضرب الدنانير من الذهب.

* * *

(١) فى مراصد الإطلاع ٣/ ١٢٣٠ (مَجذُنّية).

(٢) انظر: الروض المعطار ٣٩٦.

ذكر بلاد الأنقلش[1]

وهم جنس من الأتراك نزلوا مصاقبين للصقالبة، وحد بلدهم فى الغرب بلد بويرة وبلد بويصلاد، وفى الجوف منهم الروس، وفى الشرق منهم البجناك وقفار لا تسكن هى بين بلد البجناك وبين بلد البلقارين من الصقالبة، وفى القبلة بعض بلاد البلقارين، ومسافة قفار لا تسكن.

* * *

ذكر الروس[2]

وأمَّا بلاد الروس فهم فى جزيرة حواليها بحيرة، وطول جزيرتهم مسيرة خمسة أيام وفيها مشاجر وغياض.

وملكهم يقال له خاقان روس، وهم فى نحو مائة ألف إنسان، وهم يغزون الصقالبة فى السفن، وبلكار تبع للروس وموافقون لهم.

وليس للروس مزارع ولا كسب إلا بسيوفهم، وقيل هم ثلاثة أصناف: صنف منهم ينزل ملكهم مدينة كويابة، وهى أقرب من بلقار، وهم أقرب الروس إلى بلقار، وصنف آخر يسمون الصلاوة، وصنف ثالث يسمون الأوثانية وملكهم مقيم بأوثان، والتجار إليهم لا يتجاوزون كويابة.

فأما أوثان فلم يخبر أحد أنه دخلها؛ لأنهم يقتلون كل من وصل إليهم من الغرباء والله أعلم.

* * *

(١) الروض المعطار ٣٠.

(٢) راجع: مروج الذهب ١/١٨٨ ـ ١٩٠.

ذكر جملة من القول فى الأمصار ومساحات الممالك

ذكر أن عمر لما استفتح البلاد من العراق والشام ومصر كتب إلى بعض حكماء العصر يسأله عن البلاد وتأثير أهويتها وتربتها فى سكانها، فكتب إليه: أما الشام فَتَحْتَ ركام وبحّ عُمام، تضفى الألوان، تُرْطبُ الأجسام وتبلد الأفهام.

وأما أرض مصر فهواؤها راكد وحَرُّها مُتَزَايد، تطول الأعمار، وتسوّدُ الأبشار، وتبلّد الفِطن، وتُذْكى الإِحَن.

وأما أرضُ اليمن فتُضْعِفُ الأجسام، وتهذب الأحلام، مغايضها خصبة وأطرافها جدبة.

وأما الحجاز: فهواؤه حرور، وليله بهور، يشجع القلوب وينحف الجسوم وفى أهله غدر، ولهم خب ومكر، ولديارهم فى آخر الزمان نبأ عظيم وخطب جسيم من أمور تظهر، وأحوال تبهر.

وأما العراق: فقلب الأرض ومسلك النور وقرارة النظارة، ولأهله أعدل الألوان وأصفى الأذهان.

وأما الجبال: فتخشن الأجسام، وتبلد الأفهام وتميت الهمم، وتفسد الشيم.

وأما خراسان فتعظم الأبدان وتكبر الهام، وتلطف الأفهام، ولأهلها غوص وتفكير، ورأى وتدبير.

وذكر أن معاوية سأل عبد الله بن الكواء[1] فقال: أخبرنى عن أهل البصرة فقال: يقاتلون معًا ويدبرون شتّى.

قال: فأخبرنى عن أهل الكوفة فقال: أنظر الناس فى صغيرة وأوقعهم فى كبيرة.

قال: أخبرنى عن أهل المدينة، قال: أحرص الناس على فتنة وأعجزهم عنها.

قال فأخبرنى عن أهل مصر قال: لقمة لأكل.

---

(١) النص فى مختصر البلدان ١٢٨.

قال: فأخبرنى عن أهل الحيرة. قال: كناسة بين حديقتين.

قال: فأخبرنى عن أهل الموصل قال: قلادة وليدة فيها من كل خرز.

قال فأخبرنى عن الشام، قال: جنة أمير المؤمنين ولا أقول فيهم شيئًا.

قال: لتقولن. قال: أطوع الناس لمخلوق وأعصاهم لخالق، ولا يحسبون للسماء ساكنا.

وروى أن عمرو بن العاص قال: أهل الحجاز أسرع الناس إلى فتنة وأعجزهم عنها، وأهل العراق أطلب الناس لعلم وأعلمهم بخلافة، وأهل مصر أعقل الناس صغارًا واحمقهم كبارًا، وأهل الشام أطوع الناس لمخلوق وأعصاهم لخالق.

وقال سليمان بن موسى: إذا كان الرجل علمه حجازى، وسخاؤه عراقى، واستقامته شامية فقد كمل.

وقال بعض الحكماء: أهل الحجاز أهل لهو ومعازف ومداعبة وتأنيث، وأهل اليمن أهل غفلة وخفة ولين، وأهل العراق أهل فكرة وفطنه وغدر وخبث وحيل وكثرة كلام، وأهل الشام أهل غفلة وسلامة صدور وعون للظلمة، وأهل مصر أهل غفلة ولين وقلب فطن، وأهل خراسان أهل غفلة وحرص وبخل وشجاعة، وأهل الهند أهل حكمة وشجاعة وحسن سيرة ولين وأهل الصين أهل طيش وخفة وجبن.

وقال بكر بن وائل عن محمد بن سلم يرفعه: قسم الحظ عشرة أجزاء فتسعة فى الترك وجزء فى سائر الناس، وقسم البخل عشرة أجزاء فتسعة فى فارس وجزء فى سائر الناس، وقسم الكبر عشرة أجزاء فتسعة فى الروم وجزء فى سائر الناس وقسم السخاء عشرة أجزاء فتسعة فى السودان وجزء فى سائر الناس، وقسم الشبق عشرة أجزاء، فتسعة فى الهند وجزء فى سائر الناس، وقسم الحسد عشرة أجزاء فتسعة فى العرب وجزء فى سائر الناس.

وقال أيضًا بعض الحكماء: لا ترى أمة أكمل من كوفية، ولا أظرف من مدنية ولا أبرع كمالاً من رومية، ولا أحسن من أندلسية، ولا أسحر بعينها من حبشية ولا أحسن قواما من سندية، ولا أنجب للولد من خوشية، ولا أعسر قفرًا من خزرية.

فلما أراد عمر النهوض إلى العراق سأل كعب الأحبار[١] عنها فقال: يا أمير المؤمنين، لما خلق الله الأشياء لحق كل شىء بشىء، فقال العقل: إنى لاحق بالعراق. فقال العلم وأنا معك. فقال المال: فإنى لاحق بالشام، فقالت الفتن، وأنا معك، قال الخصب: إنى لاحق بمصر. قال الذل: وأنا معك، قال الشقاء: إنى لاحق بالبوادى قالت الصحة: وأنا معك.

وقال الحجاج: لما تبوأت الأمور منازلها قالت الطاعة: أنزل الشام قال الطاعون وأنا معك قال النفاق: وأنا أنزل العراق قالت النعمة: وأنا معك.

قالت الصحة: أنزل البادية. قالت الشقوة: وأنا معك.

وما خص به العراق[٢] مادّة الرافدين وهما دجلة والفرات، وكانت الأوائل تشبهه من العالم بالقلب من الجسد؛ لتوسطه الأرض، ولأنه من إقليم بابل الذى سبقت الآراء عن أهله بحكمة الأمور كما تكون الحكمة من القلب وأشرف هذا الإقليم مدينة السلام.

وقالوا: العراق لا جبلية ولا بحرية، ولا شتاء كشتاء أرمينية ولا صيف كصيف عدن، ولا صواعق كصواعق تهامة، ولا جرب كجرب اليمن، ولا طاعون كطواعين الشام، ولا طحال كطحال البحرين، ولا حمى كحمى خيبر، ولا زلازل كزلازل صبرة، ولا دمامل كدمامل الجزيرة، ولا جنون كجنون حمص، ولا هواء يختلف كهواء مصر التى لم يجعل الله عز وجل فى أرزاق أهلها وأقواتهم نصيبًا من الرحمة التى نشرها على عباده بالغيث الذى جعله عمارة لبلاده.

وقال ابن الزبير[٣]: ليس الناس بشىء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم.

وقالت الحكماء: عمر الله البلدان بحب الأوطان.

وقال أبقراط: يداوى كل عليل بعقاقير أرضه، فإن الطبيعة تتطلع إلى هوائها وتسرع إلى غذائها.

وقال أفلاطون: غذاء الطبيعة من أنفع أدويتها.

---

(١) النص عن مروج الذهب ٢/ ٧٠.

(٢) مروج الذهب ٢/ ٧١.

(٣) مروج الذهب ٢/ ٧١.

وزعم الفزارى: أن عمل أمير المؤمنين من أقصى خراسان ـ وهو مزغانه ـ إلى طنجة بالمغرب ثلاث آلاف فرسخ فى سبعمائة فرسخ، وعمل الصين فى المشرق واحد وثلاثون ألف فرسخ في أحد عشر ألف فرسخ، وعمل الهند فى المشرق أحد عشر ألف فرسخ فى سبعة آلاف فرسخ، وعمل تبّت خمسمائة فرسخ فى مائتين وثلاثين فرسخ، وعمل كابل شاه أربعمائة فرسخ فى ستين، وعمل الترك ألف فرسخ فى خمسمائة فرسخ، وعمل الخزر واللان سبعمائة فى خمسمائة، وعمل برجان ألف وخمسمائة فى سبعمائة، وعمل الصقالبة ثلاثة آلاف وخمسمائة فى أربعة وعشرين، وعمل الأندلس ثلاثمائة فرسخ فى مائة فرسخ، وعمل رومة ثلاثة الآف فرسخ فى سبعمائة فرسخ، وعمل إدريس الفاطمى ألف ومائتا فرسخ فى مائة وعشرين فرسخًا، وعمل فارس لابن المنتصر أربعمائة فرسخ فى ثمانين فرسخًا، وعمل أنبية ألفان وخمسمائة فرسخ فى ستمائة فرسخ، وعمل غانه بلاد الذهب ألف فرسخ فى ثمانين فرسخًا، وعمل ورام مائتا فرسخ فى ثمانين فرسخًا، وعمل نخلة مائة وعشرون فرسخًا فى ستين فرسخًا وعمل واخ ستون فى أربعين، وعمل البجاة مائتا فرسخ فى ثمانين، وعمل النوبة ألف وخمسمائة فرسخ فى أربعمائة، وعمل الزنخ تسعة آلاف وستمائة فرسخ فى خمسمائة فرسخ، وعمل أسطوا لأحمد بن المنتصر أربعمائة فرسخ فى مائتين وخمسين فرسخًا، فذلك الطول اثنان وسبعون ألف فرسخ وأربعمائة فرسخ وثلاثون فرسخا، والعرض خمسة وعشرون ألفا ومائتان وخمسون فرسخًا.

***

ذكر أقسام إيرانشهر[١]

وهو يشتمل على بلدان مسمَّاة يضم كل بلد عدة كور، فالبلاد: خراسان[٢] وكرمان وفارس والأهواز والجبل وسحيستان وأرمينية وآزربيجان والموصل والجزيرة والشام وسورستان وهى متوسطه لهذه البلاد.

(١) انظر: الأعلاق النفسية ١٠٣ـ١٠٥.

(٢) انظر فى ذلك: صورة الأرض ٣٥٨.

فكور خراسان: الطبسان وقوهستان ونسيابور وهراة وبوشنج وباذ غيس وطوس ونسا وأبيورد وسرخس ومرو الروذ[١] والطالقان[٢] والفرياب[٣] والجوزان والترمذ ومن وراء النهر وبخارى وسمرقند وكش ونسف وأول بلاد الترك وشاش وفرغانة وأشروشنة وخوارزم مضمومة إلى خراسان.

وكوركرمان[٤]: أواس والسيرجان وبردسير وَيَمْ وجيرُفت وهرمز.

وكور فارس[٥]: سابور وإصطخر وأردشير خرة ودارا بجردَ وفسا وأرَجان وشيراز.

وكور الأهواز: سوق الأهواز، وجندى سابور ورامهرمز وسُرَّق وبيذق وتستتر والسوس.

وكور الجبل: ماسبذان ومهرجان وقذق وماه الكوفة، وهى الدينور، وماه البصرة، وهى: نهاوند وهمدان وقم ومما ينسب إلى الجبل من الكور وليس منه ولا من خراسان: الرى وقومس وأصبهان وشهر زور وصامغان وداراباذ وقزوين وأبهر وذنجان وطبرستان وجرجان ودنباوند.

وكورسجستان: زرنج وبُسْت والرُّخخ[٦].

وكور أرمينية: أران وجرذان ونشوى وخلاط ودبيل وسراج وجردبيل وياخس وأرجيش وسيسجان ومدينة الباب والأبواب وهى درجان وكور أذربيجان: أردبيل ومرنج وباجران وورثان والمراغة.

وكور الموصل: الموصل وتكريت وطيرهان والسن والحديثة والمرج وباجلى وباجرمى.

---

(١) انظر فى ذلك: صورة الأرض ٣٦٩.

(٢) الطالقان: مدينة نحو مرو الروذ فى الكبر، ولها مياه جارية وبساتين قليلة، وبناؤها من الطين، وهى أصحّ هواء من مرو الروذ. صورة الأرض ٣٦٩.

(٣) الفرياب: مدينة من الجوزجان أصغر من الطالقان، إلاَّ أنها أكثر بساتين من الطالقان، وبناؤها من طين، وبها مسجد جامع. صورة الأرض ٣٧٠.

(٤) انظر فى ذلك: صورة الأرض ٢٦٨-٢٧٣.

(٥) انظر فى ذلك: صورة الأرض ٢٣٤.

(٦) الأعلاق النفيسة ١٠٤.

وكور الجزيرة[١]: أرزن وميافارقين وآمد وسميساط ودارا ونصيبين ورأس عين وقرقسيا والرقة وسروح وحران والرها وقردى وبازبدى وبلد.

وهذه الكور قسمان: قسم يسمى ديار ربيعة وقسم يسمى ديار مضر؛ فأما ديار مضر منها فإن فى واسطتها الرقة ومنها البيضاء وحران والرها وسميساط وسروج، ومنها رأس كنعان وأنبية بنى تميم والمارجين والمدينتان وعين زَرْبَة وبازبدى وسلقرس.

وقد زعموا أن من أقام بالموصل حولاً فتفقّد عقله وجد فيه نقصانا وإن تفقد قوته وجد منه فضلاً.

ومن كورها: مدينة الحَضْر ونينوى وبادقل وحزة وأنفاس ودقوقا والبواريح وجا محال وقامر وبازبدى وأخشور، وهى كلها متقاربة المسافات فى الفراسخ من سبعة فراسخ إلى اثنى عشر فرسخا.

وكور الجزيرة التى تسمى الثغور: ملطية وزبطرة ومرعش والحدث وحصن منصور.

وكور الشام[٢] حلب وقنسرين وأنطاكية وشيزر وحماة وحمص وفامية وبعلبك والطبرية، وهى الأردن، والرملة، وهى فلسطين وإيلية.

وكور الشام التى تسمى الثغور الشامية: أذنه والمصيصة وطرسوس وعين زربة والهاشمية والكنيسة السوداء والعواصم وأنطاكية وتيراوقورش ومنبج ودلوك وعمان.

وكل ما ذكر من البلاد والكور يشتمل على قواعد جليلة وقرى شريفة لا يحيط بها إلا خالقها.

وجَنَّد عمر ـ رضى الله عنه ـ الشام أربعة أجناد متفرقة فى أيدى عماله وهم خالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبى سفيان وعمرو بن العاص، وبقيت على هذا التجنيد حتى زاد فيها يزيد بن معاوية قنَّسْرِين، وكانت فى أرض الجزيرة.

(١) انظر فى ذلك: صورة الأرض ١٨٧ـ١٨٩.

(٢) انظر للمزيد: صورة الأرض ١٥٨ـ١٦٢.

حكم الخراج فى البلاد المذكورة

وانتهى الخراج بجميع ما ينضاف إليه فى جميع الكور والبلاد بعد سنتين من خلافة الرشيد على ما ذكر ورفعه أبو الوزير بن هانى المروزى ألى يحيى بن خالد ابن برمك من الذهب والفضة على التحميل الفضة ذهبا صرفًا ثلاثة عشر درهمًا بدينار: أربعة وثلاثون ألف ألف دينار ومائة ألف دينار وأربعة ألاف وست مائة وستة وأربعون دينارًا، تكون أرطالاً: تجتمع مائة ألف وخمسة وخمسون ألف ألف ومائتان وستة وخمسون رطلا وتسع أواقٍ غير ربع أوقية.

وتكون قناطير: ثلاثة آلاف قنطار وخمسمائة قنطار واثنان وخمسون رطلاً وتسع أواق غير ربع أوقية سوى حلل الأنبار واليمن وثياب الهند والسند والعود الهندى ورقيقة ونقز فضة خراسان ورقيقهما وثيابهما وإبريسم جرجان وطبرى طبرستان وأكسيةديناوند والرويان ورقيق جيلان ووشى أرمينية وعنبر اليمن وبسط أفريقية وفتياتها ووصائفها.

* * *

القول فى أخبار المغرب وذكر مصر ونيلها وملوكها وبرابيها وأهرامها والمشهور من بلاد المغرب وجمل من أخبارها

وصفها بعض الحكماء فقال: ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء وثلاثة أشهر مسكة سوداء وثلاثة أشهر زُمُرُّدة خضراء وثلاثة أشهر سبيكةُ ذهبٍ حمراء، يريد أنها فى تموز وآب وأيلول يركَبُها الماء، فترى الدنيا بيضاء وضياءها على رواب وتلال كالكواكب قد أحاطت بها المياه فلا سبيل لبعض منهم إلى بعض إلاَّ فى الزوارق، ثم تكون فى تشرينين وكانون بعد نضب الماء عنها مزارع وتربة ندية ذات روائح طيبة تشبه ريح المسك، ثم تكون فى كانون الثانى وشباط وأزار قد اتصلت خضرتها واستوسقت نضرتها، فكانت زمردة خضراء، ثم فى نيسان وأيار وحزيران يدرك الزرع ويتورد العشب فتصير كسبيكة الذهب منظرًا ومنفعة.

والنيل إذا زاد غاضت الأنهار والعيون والآبار، وإذا غاض زادت، وزيادتها من غَيْضه، وَغَيْضُها من زيادته، وهذا عجيب[١]، وليس فى الدنيا نَهرٌ يسمى بحراً ويَمّاً غيره. قال الله تعالى ﴿فَاقْذفيه فى اليَمِّ﴾[٢]، وسَمَّتْهُ العربُ بَحرًا، وليس فى الدنيا نهر يزرعُ عليه ما يُزْرَعُ علىَ النيل، ولا نَهْر يُجْنَى منه إلا جزءٌ مِمَّا يُجْنَى من النيل.

وابتداؤه بالتَّنَفُّسِ فى بقية حُزَيْرَان، فإذا انتهت الزيادة ست عشرة ذراعًا ففى ذلك تمام خَرَاج السلطان وخصب الناس الكافى، وكان المرعى ناقصًا قاصرًا بالبهائم، فإذا بلغ سبع عشرة ذراعًا فذلك الخصب العام، والصلاحُ التَّام فإن زاد إلى ثمانى عشرة ذراعًا اسْتَبْحَرَ من مصر الرُّبع وَأضَرَّ بالضِّياع وأعقب الوباء بمصر، وقد بلغ تسع عشرة ذراعًا سنة تسع وتسعين فى خلافة عمر بن عبد العزيز.

قال عبد الملك بن حبيب: خروجُ النِّيل وجريته من أَوَّل ما يبدأ إلى توقّفه ورجوعه سبعة وثمانون يومًا، أول ذلك لخمسٍ بقين من حزيران وهو بَؤونة.

وذكر أن الله تعالى جَعَل نيلَ مِصْرَ مُعَادِلاً لأنهار الدُّنيا فى المادة ومياهها الجارية، فحين يبتدئ فى الزيادة تنْقصُ كلها، وحين يَبْتَدِئُ بالنُّقْصان تزيدُ بِحَارُها بِمَدِّه لَهَا كما نَقَصَتْ بَجَزْرِه منها.

ومساحة الذراع إلى أن يبلغ اثنتى عشرة ذراعًا ثمانية وعشرون إصبعًا، وما زاد على الاثنى عشر مساحة الذراع أربعة وعشرون إصبعًا، وإذا انْصَرفَ الماء عن ثلاث عشرة ذراعًا إلى أربع عشرة استسْقَى الناسُ بمصر وكان الضَّررُ الشديد.

وهم يُسَمُّون هذين الذراعين مْنكَرًا ونكِيرًا، وفى خمس عشرة ذراعًا لا يُسْتَسْقَى وكان نقصًا من خراج السلطان والغلاَّت.

والمقياس الذى يعمل عليه فى وقتنا هذا هو الذى اتخذه أسامه بن زيد[٣] التنوخى فى خلافة سليمان بن عبد الملك[٤]، وهو أكبر المقاييس ذراعًا، وهذا

(١) صورة الأرض ١٣٩.

(٢) سورة طه آية ٣٩.

(٣) أسامة بن زيد التنوخى وضع مقياسًا بالجزيرة فى خلافة الوليد بن عبد الملك وكان واليًا على خراج مصر. فتوح مصر والمغرب ٣٦ و١٢٤.

(٤) سليمان بن عبد الملك بن مروان، أبو أيُّوب، (٥٤ـ٩٩هـ) الخليفة الأموى، وُلِدَ فى دمشق =

المقياس فى الجزيرة التى تدعى جزيرة الصناعة بين الفسطاط والجيزة، فيعبر من الفُسْطاط إلى الجزيرة على الجسر ومن الجزيرة إلى الجيزة على جسر آخر، والفسطاط على شرقى الجزيرة والجيزة وعلى غربيها.

والعمل عند ترادف الرياح وكبر الموج وكثرة الماء على مقياس آخر لأحمد بن طولون، وقد كان عمر بن عبد العزيز بن مروان لما ولى مصر اتخذ مقياسًا قصير الذراع بحلون[1]، وهى فوق الفسطاط، فكان العمل عليه حتى اتخذ أسامة بن زيد هذا، وكان العمل قبل الإسلام وصدر الإسلام بمقياس صنعه يوسف الصِّدِّيق عليه السلام لَمَّا بنى الأهرام لمعرفة زيادة النيل وكان بَمنْف، ولَمَّا يُبْنَ الفسطاط يَوْمَئذ، وكانت دَلُوكه الملكة[2] وصنعت أيضًا مقياسًا آخر بالصعيد ببلاد أخميم.

والترع التى فى مصر أربع أُمَّهات: تُرْعَة ذَنَب التمساح وتُرْعة بَلْقينة وخليج سَرَدُوس وخليج ذات السَّاحل، وتُفتح هذه التُّرع فى عيد الصليب لأربع عشر من أيلول، وليلة الغُطاس بمصر لعشر يَمْضين من كانون الآخر، وهو أصفى ما يكون النيل، وحينئذ يتّخذ النَّبيذ السوارى بعد الغُطَّاس، ويختزن الماء أهل تنِّيس ودمْياط سائر قرى البُحَيْرة.

ولليلة الغُطَّاس بمصر شَأْنٌ عظيم قال (س)[3]: حضرتها سنة ثلاثين وثلاثمائة وأميرها الإخشيد محمد بن طُغْج[4]، وهو فى داره المعروفة بالمختارة فى الجزيرة

= وولى الخلافة يوم وفاة أخيه الوليد سنة ٩٦هـ وكان بالرَّملة، فلم يَتخلَّف عن مبايعته أحد، فأطلق الأسرى وأخلى السجون وعفاعن المجرمين، وأحسن إلى الناس، وكان عاقلاً فصيحًا، طموحًا إلى الفتح جَهَّز جيشًا كبيرًا بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك لحصار القسطنطينية وفى عهده فتحت جرجان وطبرستان، وكانت فى أيدى التُّرْك، وتوفىَّ فى دابق (من أرض قِنَّسْرين - بين حلب ومَعرة النعمان)، وكانت عاصمته دمشق، ومدة خلافته سنتان وثمانية أشهر إلاَّ أيامًا.

الأعلام ٢/ ١٣٠ وانظر أيضًا: الكامل لابن الأثير ٥/ ١٤ وتاريخ الطبرى ٨/ ١٢٦ وتاريخ اليعقوبى ٣/ ٣٦ وابن خلدون ٣/ ٧٤.

(١) فتوح مصر والمغرب ٣٦.

(٢) حسن المحاضرة ١/ ٣٩ وفتوح مصر ٣٦.

(٣) عن المسعودى فى مروج الذهب ٢/ ٣٥٧.

(٤) هو محمد بن طُغج بن جفّ، أبو بكر، المُلَقَّب بالإخشيد: مؤسس الدولة الإخشيدية بمصر =

الراكبة للنيل والنيل مُطيف بها، وقد أمر فأسرجَ من جانب الجزيرة وجانب الفُسْطاط ألْفَا مِشْعَل سوى ما أَسْرج أَهْلُ مصر من المشاعل والشمع ما لا يُحْصَى عَدَدُهُ.

وقد حضر النيل فى تلك الليلة آلاف الآلاف من البشر، منهم فى الزوارق، ومنهم فى الدُّور الرَّاكبة للنيل ومنهم فى الشطوط، وقد أظهروا كُلَّ ما فى إمكانهم إظهاره من الملابس وآلات الذهب والفِضّة والجواهر والملاهى والعزف والقُصف وأحضروا من المآكل والمشارب ما اختلفوا فيه، وهى أحسن ليلة تكون وأجلّها سرورًا، ويَغطُس أكثر الناس فى النيل، ويزعمون أن ذلك أمانٌ من المرض ونُشْرَةٌ من الدَّاء.

وكتب عمر إلى عمرو بن العاص[1]: «إنَّ أرْضَك وَاسعَةٌ رفيعة، وقد أعطى الله أهلها جلدًا وقوة فى برٍّ وبحر، وعالجتها الفراعنة، وعملوا فيها عملاً محكمًا مع شدة عتوهم، فَاكْتُب إلَىَّ بصفة أَرْضِ مصرَ حتّى كَأنّى أنظرُ إليها والسلام».

فكتب إليه: إنَّ أَرْضَ مصْرَ تُرْبَةٌ سوداء وشجرة خضراء بين جبل أَغْبَر ورَمْل أعفَر، وَخطُّها مسيرةُ راكبٍ شهرًا، كأنما بين جَبَلها ورَمْلها بَطْنٌ أَقَبّ أو ظَهْرٌ أَخَبّ، فيها نهرٌ مُبَاركٌ يَسيل بالذَّهَب على الزيادة والنقصان كمجارى الشمس والقمر تَمدُّهُ عيونُ الأرض ويَنَابيعها مأمورةٌ بذلك، حَتّى إذا طفحت لجحُهُ واعْلَوْلَى عُبَابُه كانت القرى مِّما أَحاط بها منه، لا يُوصَلُ من بعضها إلى بعض إلاَّ فى السفائن والمراكب، ثم لا يلبث إلاَّ قليلاً حتى تَنْقُصَ جرِيْتَه وتَسْتَبين مُتُونُ

= والشام، والدعوة فيها للخلفاء من بنى العباس. تركى الأصل، مستعرب، من أبناء المماليك. ولد ونشأ ببغداد، وظهرت كفايته، فتقلَّب فى الأعمال إلى أن ولى إمرة الديار المصرية واستقرَّ بها سنة ٣٢٣ هـ بعد حروب وفتن، وكانت بينه وبين سيف الدولة الحمدانى وقائع، واصطلحا على أن تكون لسيف الدولة حلب وأنطاكية وحمص، وللإخشيد بقيَّة بلاد الشام، مضافًا إلى مصر، وتوفى بدمشق سنة ٣٣٤هـ، ودفن فى بيت المقدس، وكانت عدة جيوشة أربعمائة ألف، وموكبه يُضاهى موكب الخلافة. وهو أستاذ كافور الإخشيدى. قال ابن تغرى بردى: تفسير «الإخشيد»: ملك الملوك.

الأعلام ٦/ ١٧٤ ووفيات الأعيان ٢/ ٤١ والكامل لابن الأثير ٨/ ١٥٠ والوافى بالوفيات ٣/ ١٧١ والمغرب فى حُلى المغرب ١/ ١٤٨ـ١٩٧.

(١) النَّص فى حضارة العرب ٢١١.

أَرْضه، ثُمَّ تَنْتَشِرُ فِيها أُمَّةٌ محصورة قَدْ رُزِقُوا على أرضهم جَلَدًا وقُوَّةً، فأثَارُوا سَهْلَ الأَرْض ورَوَابيها، وبَذَرُوا فيها من الحبِّ مَا يَرْجُون به التمام من الشرب حتى تبدو طَوَالعُه وتظهرَ قنواته، يسقيه من تحته الثرى ومن فوقه النَّدا، فَيَنْتَفى ذُبَابُها وتدرَّ حلاَبُها، فَبَيْنَا هى مَدَرَةٌ سَوْدَاء إذا هى لُجَّةٌ زرْقَاء ثم غَوْطَةٌ خضْرَاء ثُمَّ ديباجةً رَقْشَاء ثم فِضّة بيضاء، فتبارَكَ الله الفَعَّالُ لِمَا يَشَاءُ، فالحمدُ لله يا أميرَ المؤمنين على ما أنْعم به عليك منها، والسلام[١].

وذكر أن مصر مُصَوَّرة فى كتب الأوائل وسائر المدن مادة أيديها إليه تستطعمها وقال عمرو بن العاص[٢]: وِلاَيةُ مِصْرَ تَعْدِلُ الخلافةَ، وجعلها الله متوسّطة للدنيا[٣]، فهى من الإقليم الثالث والرابع، سالمة من حرّ الإقليم الأوّل والثانى ومن برد الإقليم السادس والسابع، فطاب هواؤها وضَعُف حَرُّها وخَفَّ بَرْدُها، فَسَلِم أهلها من مشاتى الجبَال ومَصَائف عُمان وَحَرِّ تَهَامة، وَدَمَاميلُ الجزيرة، وجَرَبُ اليمَن، وَطَواعينُ الشّام وطحَالُ البَحْرَيْن وحُمَّى خَيْبَر، وأَمنُوا من غَارَات التُّرْك والعرَب والدَّيْلَم وأمنوا قَحْطَ الأَمْطَار، فَفِى كُورِها طَرائف وَعَجَائبَ، فصعيدُها أرضٌ حِجَازِيَّةٌ تُنْبِتُ النخل والآراك والقطر والعشر، وأسفل أرضها شامِىٌّ ينبتُ ثمار الشام من الكرم والتين واللوز والجوز وسائر الفواكه من البقول والرياحين، ويقعُ بها الثلج.

وأمر الرشيد فَصُوِّرت له مدائن الدنيا، فما استحسن منها غير عمل أسيوط، فإن مساحته ثلاثون ألف فدان فى دست واحد، لو قطرت فيه قطرة فاضت على جميع جوانبه يبذر فيها جميع الحبوب، فلا يكون على الأرض بساط أعجب منه، من جانبه الغربى جبل أبيض على صورة الطيلسان، ويحيط به من جانبه الشرقى النيل كأنه جدول فضة، لا يسمع فيه الكلام من شدة أصناف أصوات الطير.

ومما ذُمَّت به مصر سوى ما ذكره الجاحظ أَنَّ أهل مصر أعقل الناس صغاراً وأحمقهم كباراً.

---

(١) حضارة العرب ٢١١.

(٢) تحفه الناظرين لعبد الله الشرقاوى ١٣.

(٣) مختصر كتاب البلدان ٦١ وصورة الأرض ١٢٨.

وكان أبو دلامة دخل مصر فلما رجع إلى العراق لقيه الحسن بن هانئ فسأله عن صفة مصر فقال: ثلثها كلاب، وثلثها تراب، وثلثها دواب، قال وأين الناس؟

قال: فى الثلث الأول.

وفى بعض الروايات أن الدجَّال يخرج من موضع يقال له قوس.

والحسد فى أهل مصر كثير، والجهل عليهم غالب.

وقال على بن الحسن العراقى: صلّى عَلَيّ بن أحمد بن أبى شيخمة العيد سنة اثنتين وثلاثمائة بجامع عمرو، ولم يكن يُصَلَّى فيه العيد قَبْلَ ذلك، فخطب خُطْبَةَ العيد فى فتر نظرا، فكان ممَّا قال أو حَدَّثوا عنه: اتقوا الله حَقَّ تُقَاته ولا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وأَنْتم مشركون. فقال شاعرهم: [من السريع]

وقام فى العيـد لنا خـاطبٌ يُحَضِّضُ النَّاسَ على الكُفْرِ

فأمر أمير مصر بضربه، فكُلِّم فيه وتشفّع له حتى تركَهُ.

وأهلُ مصر يُشبْهُ بَعْضُهم بَعْضًا فى الأبدان والأخلاق، وكذلك الصَّقَالبةُ يُشْبه بَعْضُهم بَعْضًا.

ومن العجائب بأرض مصر: فى قرية منها يقال لها بدرسانة القرى كنيسة للروم[١] فيها بيت يصعد إليه الناس نيِّفًا وعشرين مِرْقَاةً، وَهُنَاك سَرِيرٌ عليه صَبِىٌّ مَيِّتٌ، وتحت السرير صورةُ ثور عظيم من رُخَامٍ فى جوفه بَاطيَةُ زجاج فيها أُنبوبةُ نحاس، توضع فيها مثل كتانٍ وَيُصَبُّ عليه يَسِيرٌ من الزَّيت وَيُشْعَل، فلا يلبثُ أن تمتلئ البَاطيةُ وتفيضَ إلى جَوف الثور فيأخذُ قيِّمُ الكنيسة ذلك الزيت فيسرجُ به دائمًا لا ينقطعُ نَماؤهُ وزيادته، فإن أُزيلَ الصَّبِىُّ الميت طُفِيَت تلك النَّارُ ولم يفِضْ الزيتُ، وقد صار إلى هذا الموضع جماعة من الناس ونظروا إليه وفرَغوا البَاطيةَ ثم أَسْرَجُوها يسيرًا من الزيت ففاضت وبَدَا منها ما ذكرنا، ويذكرونَ أنَّ المرأة إذا اتَّهمَتْ نفسها بحمْل أخذت ذلك الصَّبىّ المَيِّت فجعلَتْهُ فى حِجْرِها، فإِنْ كان بها حَمْلٌ تحرَكَّ جَنِينُها فى بطنِها لحِينِه، وإلاَّ لَمْ يتحرك.

وبساحل أبى على بقرية بُوصير الكتَّان[٢] مسجد يسمى مسجد برمنت، فيه حجر

(١) مختصر كتاب البلدان ٢٣٣.

(٢) بُوصير: اسمٌ لأربع قرى بمصر، بُوصير قوريدس، بها قُتِلَ مَرْوان بن محمد، وبُوصير السدر: =

نابتٌ يبض يسيرًا من الماء يُوجَدُ عليه، فإذا شربت منه المرأةُ التى لا تحملُ أقل شىء حملتْ لا يشكُّونَ فى ذلك، ولا يَنْحدِرُ أحدٌ فى النيل من الصَّعيد ولا يَصْعَدُ أحدٌ من مصر إلاَّ أَهْدَى لهذا المسجد مِمَّا يحملُه من الطِّيب والشَّمْعِ وغير ذلك، وعلى بوصير نقب فى صخر بأعلى الجبل يجتمعُ إليه فى كل سنة فى يومٍ بعينه طيرٌ كثير لا يُحْصى كثرةً، فلا يزالُ الواحدُ بعد الواحد يُدْخِلُ رَأْسَهُ فى ذلك النَّقب حتى تعلق واحد منهم ولاَ يُمْكِنُه إِخْرَاجُ رَأْسِه، فإذا كان ذلك انصرفَ الطيرُ كُله وتفرَّق، وإن الناس لم يزالوا يشاهدون ذلك.

وعلى شاطئ النيل بعمل مصر موضع يجتمع إليه فى يوم معلوم من السنة سمكٌ كثير يتعمَّد إليه أهل ذلك الموضع فيصيدونه بأيديهم، لا يمتنعُ عليهم ولا ينفرُ منهم، حتى إِنَّ الرَّجُلَ ليأخذُ منها الألفَ وأكثرَ، فإذا غابت الشمسُ من ذلك اليوم لم يقدروا منها على سمكةٍ واحدة.

وبصفح جبل من أَرْضِ مِصْرَ كَنِيسَةٌ فيها عينُ ماءٍ عذبٍ، مَتى مَسَّهُ جُنُبٌ أَوْحائِضٌ غَارَ من سَاعته، وأَنتن جميعُ ما قد حصلَ فى الحوض منه حتى يُغْرَفَ ماء الحوض ويُغسلَ ويُغْرَفَ مَا بَقى فى العين منه، فيعودَ فيجرى على عادته.

وقيل: نِعْمَ بلاد مصر، يُغْزى منها بدرهمين، ويُحَجُّ بدينارين، يريدون الحج فى بحر القلزم والغزو إلى الإسكندرية[١].

ولما أهدى المقوقس إلى رسول الله ﷺ عند كتاب رسول الله ﷺ إليه أهدى إليه ما أهدى من الثّياب والكراع والجاريتين القبطيتين، كان فى هديّته تلك عَسَلٌ، فقال رسول الله ﷺ: من أين هذا العسل؟ قيل من قريةٍ بمصر يقال لها بَنها. فقال: اللَّهُمَّ بارك فى بَنْها وَعَسلِها»، فعسلها إلى يومنا هذا أحلى عسل مصر وأكثره[٢].

= بُلَيْدَةٌ فى كور الجيزة، وبوصير دفدنو: من كورة الفيوم، وبُوصير بَنَا: من كورة السمنودية. مراصد الاطلاع ١/ ٢٣٠.

(١) فى تحفة الناظرين فيما ولى مصر من الولاة والسلاطين ١٤ قال أبو الربيع السائح: نعم البلدُ مصر، يُحَجُّ منها بدينارين ويُغْزَى منها بدرهمين، يريد: الحج من بحر القلزم والغزو إلى الإسكندرية. وانظر: فتوح مصر ٢٣ وحسن المحاضرة ١/ ١٣.

(٢) فتوح مصر ٢٣ وحسن المحاضرة ١/ ١٣.

قيل: وصاهر إلى القبط ثلاثة من الأنبياء عليهم السلام: إبراهيم الخليل تسرَّر بهَاجر، ويوُسف عليه السلام تزوّج زليخا ابنة صاحب عين شمس، وهى التى نَصَّ الله تعالى حديثها معه، ومحمد ﷺ تَسَرَّر مارية القبطية[١].

***

الشيخ القبطى

وبلغ أحمد بن طولون[٢] صاحب مصر فى سنة نيف وستين ومائتين أن رجلاً من الأقباط بأرض الصعيد. أعالى بلاد مصر - له ثلاثون ومائة سنة ممن عنى بالعلم من لدن حداثته، والإشراف على الآراء والنحل من مذاهب المتفلسفين وغيرهم من أهل الملل، وأنه علاَّمة بالممالك والملوك وذو معرفه بهيئات الأفلاك والنجوم، وكان نقراسًا على مذهب اليَعْقُوبيّة، فبعث ابن طولون إليه قائدًا من قواده فحمله فى النيل مكرما، وكان الشيخ قد انفرد عن الناس فى بنيان قد اتخذه سكنا وسكن فى أعلاه، وقد رأى الولد الرابع عشر من ولَدِ ولَده.

فلما بلغ إلى أحمد أسكنه بعض مقاصيره ومَهد له، وحمل إليه لذيذ المآكل والمشارب، فأبى الشيخ أنْ يتوطّأ شيئا من ذلك، وأنْ يتغذّى إلا بما حمل مع نفسه من كعك وسويق ونحوهما، وقال: هذه بنية قوامها ما ترون من الغذاء واللبس فإن أنتم سُمتمونى النقلة عن العادة كان ذلك سبب انحلال البنية، ثم أحضر ابن طولون أهل الدّراية، وصرف همَّته إليه وأخلى له نفسه أياما وليالى يسمع كلامه، فممّا سأله عنه بحيرة تنِّيس ودمياط المتقدّم ذكرهما.

فقال: كان موضع البحيرة أرضًا لم يكن أرضٌ مثلها طيب تربة وذكاء رتع

(١) مختصر البلدان ٦٦.

(٢) أحمد بن طولون، أبو العباس (٢٢٠-٢٧٠هـ): الأمير صاحب الديار المصرية والشامية والثغور. تركى مستعرب كان شجاعًا جوادًا حسن السيرة، يباشر الأمور بنفسه، موصوفًا بالشدَّة على خصومه، وكثرة الإثخان والفتك فيمن عصاه بنى الجامع المنسوب إليه فى القاهرة من أثاره قلعة يافا (بفلسطين). الأعلام ١/ ١٤٠ والنجوم الزاهرة ٣/ ١ وبدائع الزهور ١/ ٣٧ والكامل لابن الأثير ٧/ ١٣٦.

وكانت جنانًا مُتَّصلة ولم تكن بمصر كورة تشبهها وقيل ما يشبهها إلا الفيوم وحدها، وكانت أكثر فاكهة ورياحين من الأصناف الغريبة.

ومعنى الفيوم ألف يوم[١] لأن أول من نزلها جارية من الروم اسمها ألف يوم.

وكان الماء منحدرًا إلى قرى موضع البحيرة صيفًا وشتاء يسقون منه متى شاءوا وفضلة الماء تصب فى البحر فى الموضع المعروف بالأشتوم.

وكان فيما بين العريش وقبرس طريقة مسلوكة فى اليبس، وبَيْنَها وبين قبرس اليوم مسيرٌ طويل فى البحر، فلما مَضى من ملك رُقْلطيانُس مائتان وإحدى وثلاثون سنة، وذلك قبل استفتاح مصر بمائة سنة، طغى الماء من البحر وزاد فأغرق القُرَى التى كانت فى موضع البحيرة، وآثارها كان منها فى البقاع باقية قد أحاط بها الماء.

والأكوام التى بتَنِّيس التى يُسَمُّونها بأبى الكوم إنما هى قبور أهل تلك القُرَى، وهى تِلاَلٌ مُنَضَّدةٌ بالناس من صغير وكبير وذكر وأنثى كالجبال.

قال: وعند هذه الزيادة التى ذكرتها من طغيان البحر، علا الماء على القنطرة التى كانت بين الأندلس وبين الموضع الذى يسمى الخضراء، وهو قريب من فاس المغرب وطنجة، وهى قنطرة فاس وهى قنطرة مبنية بالحجارة تَمرُّ عليها الإبل والدواب من ساحل المغرب إلى الأندلس، وماء البحر تحت تلك القنطرة خلجان وكان طولها نحو اثنى عشر ميلاً فى عرض واسع وسُمُوٍّ بَيِّنٍ، وربَّما بدت هذه القنطرة لأهل المراكب تحت الماء فعرفوها.

وسئل عن ممالك الأحابيش التى على النيل فقال: لقد لقيت منهم سِتِّين ملكًا كُلُّ ملكٍ منهم ينازعُ من يليه. قال: ولاستحكام النارِية فى بلادهم تغيَّرت الفضة

---

(١) فى المسالك والممالك للاصطخرى ٤٠ وليس بأرض مصر مدينة يجرى فيها الماء دائمًا غير الفيوم، هذه مدينة وسطة، يقال إن يوسف النبى اتخذ لهم مجرى يدوم لهم فيه الماء، وقوّم بحجارة وسماه اللاهون».

وفى الموسوعة المصرية ١/ ٣٢٣ «الفيوم إقليم جغرافى متميزٌ له شخصيته الخاصة وطابعه الفريد، ففيه تلتقى الحياة النيلية المستقرة بالحياة الصحراواية البدوية. وقد جاء الاسم فى النصوص المتأخرة من العهد الفرعونى «بايوم» بمعنى البحيرة أو الماء، ثم ورد فى القبطية «فيوم» وفى العربية «الفيوم» بعد إدخال أداة التعريف.

ذهبًا لحرارة الشمس ويبسها، وقد يطبخُ الذهب المَغْرِبىّ بالملح والزَّاج والطوب فيرجع فضة خالصة بيضاء.

وَسُئِلَ عن منتهى النيل فى أعلاه فقال: البحيرةُ التى لا يُدْرَكُ قَعْرُها وطولُها وعَرْضُها وهى تحت الموضع المُسَمَّى بالفلك المستقيم من الأفلاك، وهى الأرض التى الليل والنهار فيها متساويان الدهر كله.

وسئل عن الأهرام[١] فقال: إنها قبور الملوك، كان الملك إذا مات وُضِع فى حوض من حجارة، ثم يطبق عليه ويبنى له هرمٌ على قدر ما يريدون ويوضع الحوض فى وسط الهرم، ويضعون باب الهرم تحت الحوض، ثم يحفر له طريق فى الأرض يعقدونه أزجًا.

فقيل له: كيف بنيت هذه الأهرام المملسة وكيف كانوا يصعدون إليها وعلى أى شىء كانوا يحملون هذه الحجارة التى لا يقدر أهل زماننا أن يزحزحوا منها حجرًا؟ فقال: كانوا يبنون الهرم مُدَرَّجًا ذا مَرَاقٍ، فإذا فرغوا منه نحتوه، ومع هذا كان لهم صَبْرٌ وجَلَدٌ ليس لمن بعدهم.

قيل له: فما بال هذا القلم الذى على الأهرام والبرابى لا يفهم؟ فقال تداول أهل مصر الأمم بعد الأمم فدرست كِتَابتُهم الأولى.

قيل: فمن كان أول من سكن مصر؟ قال: مِصْرُ بن بَيْصَر وبه سميت وهو ابن حام بن نوح.

وناظر هذا الشيخ القبطى بحضرة أحمد بن طولون جماعة من أهل الديانات[١] والنِّحل، فممَّا قال لليهود: أنتم تزعُمون أنَّ الله خلَق آدَمَ على صورته وأن البَارِئ تعالى أَبْيضَ الرأس واللِّحْية، وأَنَّ الله تعالى قال: أَنَا النَّارُ المحْرقة والحمى الآكلة، وفى تَورَاتِكُم أَنَّ بَنَات لُوط سَقَيْنَهُ الخمر حتى سكر وَزَنَى بهنّ وَحَمْلَن منهَ وَولَدْنَ وأَنَّ مُوسى رَدَّ على الله الرِّسالةَ مرَّتين حتى اشْتَدَّ غَضَبُ الله، وأَنَّ هَارُون صَنَعَ العجَل الذى عَبَدَه بنو إسرائيل، وتقولون فى يوم عيد الكفور، وهو لعشر خَلَوْنَ من تشرين الأول: أن الربَّ الصغير ـ ويسمونه ميططرون ـ يقوم فى هذا اليوم

(١) انظر عن الأهرام: الموسوعة المصرية، تاريخ مصر القديمة وآثارها ١/ ٢٠٥، ٣٩٧ ـ ٤٠٤ مادة (هرم). ومختصر كتاب البلدان ٦٨ـ٧٠.

ويقول: وَيْلى إِذًا خَرِبَتْ بَيْتى وأيتمتْ بنتى وينتفُ شعرهُ - تَعَالى الله عَمَّا يقول الظالمون علوا كبيرًا.

وأقام هذا القبطىُّ عند ابن طولون نحو سنة، فأجازه وأعطاه، فأبى قبول شىء من ذلك، وردَّهُ إلى بلده مكرمًا.

* * *

اللهون والفيوم

وحجر اللهون بالفيوم من عجائب الدنيا، واللهون[1] قرية من قرى الفيوم، وهذا الحجر شاذروان بين قبتين مدرج على ستين درجة فيه فوارات للماء، يدخل الماء منها إلى الفيوم بوزن بقدر ما يكفيها، وهو من أحكم البناء بالهندسة عمل وبالفلسفة أتقن وفى السعود نُصِب.

وذكر كثير من الناسِ أن يوسف عمله بالوحى ولم تزل الملوك من الأمم تقصد هذا الموضع وتتأمّله، لما قد نَمَى من أخباره وصار فى الخليقة من عجيب إتقانه.

وهو من البناء الذى يبقى على غابر الزمان ولا يتغيّر، ويقال إنه عمل من ثلاثة أشياء: الفضة والنحاس والزجاج، وفى أعلى الحجر بناءٌ مُتْقَن، وفى الضفة الغربية منه مسجد يقال له مسجد يوسف، وقد ذكرنا شيئًا من أمره عند ذكر النيل.

وليس على الأرض مثل أربع كور مصر ولا تحت السماء لهن نظير: كورة الفيوم وهى أفضلها، وكوره أتريب وكورة سمنود وكوره صا.

والفيوم فيها ثلاثمائة قرية وستون قرية على عدد أيام السنة لا تقصر أبدا عن الرى للحكمة فى شربها، فإذا نقص النيل سنة من السنين مارت كل قرية منها مصر يومًا، ولو ناسبوا أنهار الفيوم بأنهار البصرة ودمشق لكانت أنهار الفيوم أفضل وأكثر.

ولقد رام جماعة من أهل العقل والفضل والمعرفة إحصاء مرافقها وغلتها وخيرها وفوائدها، فأعجزهم ذلك ولم يدركوه.

---

(١) مروج الذهب ٢/ ٣٦٠.

وأنزل يوسف[١] الفيوم من كل كورة مصر أهل بيت، فكانت قرى الفيوم على عدد كور مصر، وصيَّر لكل قريةٍ من الماء ما يروى أرضها من غير زيادة ولا نقصان وصَيَّر لكل قريةٍ شربًا فى زمانٍ، لا ينالهم الماء إلاَّ فيه، وصيرً مطأطئًا لمرتفع ومرتفعا لمطاطئ، ولا بعض يأخذ دون حَقِّه ولا يزداد فوق قدْرِه، وإنما فعل ذلك لفرعون حين أراد اختبار علمه على ما قدَّمنا عند ذكره.

وكانت الفيوم قبل ذلك مغايض ماء النيل، وأمره فرعون بعمارة غامرها، وإحياء مُوَاتِها لبنته، فلما أظهرَ من الحكمة الوحية العجيبة فى ذلك ما أظهر ونظر إليه فرعون قال: هذا من ملكوت السماء.

وكانت أوَّل قرية عمَّرها بالفيوم قرية يقال لها شانة، وهى القرية التى كانت تنزلها ابنة فرعون، ومن ذلك الوقت حدثت الهندسة ولم يكن الناس يعرفون قبل ذلك[٢].

وقد ذكرنا لِمَ سُمِّيت الفيُّوم، وقال عبد الملك بن حبيب غير ذلك، قال: إنَّما سُمِّيت الفيوم لأنها تُؤَدى منها إلى السلطان كُلَّ يوم ألف دينار.

وخليج الفيوم يسقى أعلاها ووسطها وأسفلها بماءٍ واحد، ولا يعدم بها التمر الرطب شتاء ولا صيفًا.

وإذا كان يوم سَدِّ حَجَرِ اللَّهُون أتى أميرُ الناحية وعُدُولُ الناس وأهل الهندسة يشهدون سده، فلم يكن لمن يدعى نقصا من الماء عذر، ويحضر ذلك أمير الفيوم بالبنود والطبول ويكتب بالبشارات إلى مصر.

ويزرع أهل الفيوم فى العام مرتين، وذلك إذا حمل النيل أولا، وهى تشرب من ذراع اثنتى عشرة، وليس من أرض مصر موضع يشرب من هذا الذراع غير الفيوم؛ لأن سائر أرض مصر أنما تشرب من ست عشرة، وإذا زاد الماء على اثنتى عشرة قطع أهل الفيوم جريانه فسد لهم هناك عنده وضع يعرف بالشجرة، وهى شجرة جميز عظيمة، فيزرعون والماء بات فى سائر الأرض، فيكون الحصاد عند أهل الفيوم وجميع من على أرض النيل لم يتم حرثه، فإذا كان أول حصاد أهل

(١) مروج الذهب ٢/ ٣٦٦ وموسوعة تاريخ مصر القديمة ١/ ٣٥٢.
(٢) من هنا النص عن فتوح مصر ٣٦ وانظر: حُسْن المحاضرة ١/ ٣٩.

مصر كان ذلك أول السقية الثانية لأهل الفيوم، وحينئذ يسد حجر اللهون ويزرعون فى السقية الثانية القمح والشعير والأرز.

والفيومُ وسط بلاد مصر، ومصر وسط البلاد، ولا يُؤْتَى إليها من ناحية من النواحى إلا من صحراء أو مفازة.

وذكر ابن عفير[١] وغيره أنَّ عمرو بن العاص لما فتح مصر أقام المسلمون بعد ذلك سنة لم يعلموا بالفَيُّوم ولا مكانها حتى بعث عمرو بن العاص قيس ابن الحارث إلى الصعيد فسار حتى أتى القيسيين فنزل بها وبه سميت، وأبطأ على عمرو خبره فقال ربيعة بن حبيش: أكفيك فركب فَرَسًا له أنثى فجاز عليها النيل من ناحية الشرقيه ومشى حتى انتهى إلى الفيوم، ثم أتى عمرًا بخبرها وخبر قيس.

ويقال إن عمرًا بعث جَرَائِد خيل إلى ما حول مصر فأخبرهم رَجُلٌ بأمر الفيوم فسار معه فى جريدة من الخيل عمرو بن ربيعة بن حبيش بن عرفطة الصدفى، فلما سلكوا فى المجابة لم يروا شيئًا وهمُّوا بالانصراف، فلم يسيروا إلا قليلا حتى طلع لهم سواد الفيوم.

* * *

فرس النيل [٢]

ومن عجائب النيل الفرسُ الذى يكون فيه، فإنه إذا خرج من الماء وانتهى وطؤه إلى بعض المواضع علم أهل مصر أن النيل يخرج إلى ذلك الموضع بعينه غير مقصِّرٍ عنه ولا زائد عليه، وهى تَضُرُّ بالزرع ضررًا شديدا؛ لرعيها له، فإذا كثر ذلك منها طرح لها التُّرْمس فى المواضع التى خرج فيها فتأكله، ثم تعود إلى الماء فيربو فى أجوافها حتى تنشقّ فتطفو على الماء ميِّتة.

وهى على صورة الفرس إلاَّ أنَّ زَنَبَهُ وحافره بخلافه وجبهته أوسع، والموضع الذى يكون فيه هذا الفرس لا يكاد يُرَى فيه تمساح.

---

(١) هو سعيد بن كثير بن عفير، كان كثير العلم، من مؤرخى مصر.

(٢) مختصر البلدان ٦٢-٦٤.

ملوك مصر بعد الطوفان

وذكر جماعة من الشرعيين أن بَيْصَر بن حام[١] بن نوح لما انفصل عن أرض بابل بولده وكثير من أهل بيته سار نحو مصر فنزل موضعًا يقال له مَنْف، وكذلك يسمى إلى الآن، وكان عددهم ثلاثين فسِّميت بهم كما سميت مدينة ثمانين ببلاد الجزيزة والموصل، وقد تقدّم ذكرها.

وأوصَى بَيْصَر إلى الكبير من ولده وهو مصرايم فتملَّك من أسوان إلى العريش طولاً والعريش آخر أرض مصر والفرق بينها وبين الشام، ومن أيْلَة ـ وهى بتخوم الحجاز ـ إلى برقة عرضا، وهى آخر أرض مصر.

ويقال إنَّ هذا الحد جزء من ستين جزءًا من أرض السودان، وأرض السودان جزء من ستين جزءًا من معمورة الأرض.

وأوصى مصرايم[٢] إلى الأكبر من ولده وهو قفط، ومن ولده جميع القبط، وقد دخل فى أنسابهم غيرهم من ولد مصرايم.

ولم يزل الملك فيهم إلى أن ملك أمرهم النساء فدخلهم الهرم، فسار إليهم من الشام ملك من ملوك العماليق يقال له الوليد بن دومع فغلب على الملك فانقادوا إليه.

ثم ملك بعده الريَّان ابنه، وهو فرعون يوسف، ثم ملك بعده دارم بن الريان ثم كامس بن معدان العملاقى، ثم الوليد بن مصعب[٣]، وهو فرعون موسى وقد تنوزع فيه: فمنهم من رأى أنه من العماليق، وقال بعضهم هو من لخم من بلاد الشام، ومنهم من رأى أنه من الأقباط.

وقال المسعودى: سألت جماعة من أقباط مصر والصعيد عن معنى فرعون وتفسيره فلم أجد أحدًا يعرفه، والذى أراه ـ والله أعلم ـ أنه كان سمة لملوكهم

---

(١) مروج الذهب ١/ ٣٧١.

(٢) كان لمصراييم أولاد أربعة وهم: قبط وأشمون وأتريب وصا مروج الذهب ١/ ٣٧٢.

(٣) تحفة الناظرين ٢٦.

بتلك الأمصار.

فلما هلك غرقًا ومن معه، ملك أهل مصر ممن بقى فيها من الذرارى والنساء والعبيد والشيوخ والزَّمْنَى امرأة ذات حزم ورأى وأصالة وعلم يقال لها دلوكة لم ينسبها أحد[١].

قال عبد الله بن عمرو بن العاص: دلوكة ابنة ريَّان[٢].

فبنت على بلاد مصر حائطا يحيط بجميع البلاد، وجعلت عليه المحارس من الرجال متصلة أصواتهم، وأثر هذا الحائط باق إلى اليوم يعرف بحائط العجوز[٣] واتخذت البرابى بمصر وأحكمت آلات السحر، فجعلت فى البرابى صور من يدخل من كل ناحية ودوابهم إبلا كانت أو خيلا، وصوَّرت فيها من يردْ فى البحر من المراكب نحو المغرب والشام، وجعلت ذلك فى أوقات حركات فلكية.

واتصالها بالمؤثرات العلوية، فكان إذا ورد عليهم جيش عورت الصور التى من ناحية الجيش وعلى هيئته، فيتعود ما فى ذلك الجيش وينقطع ناسُه وحيوانه وكذلك لِمَنْ وردَ فى البحر، فهابتها الملوك والأمم وجمعت فى هذه البرابى العظيمة المشيّدة البنيان أسرار الطبيعة وخواص الأحجار والنبات والحيوان فمنها صورٌ إذا صُوِّرت فى بعض الأشياء أحدثت أفعالاً على حسبِ ما رسمت له وصنعت من أجله، والله أعلم بكيفية ذلك.

وعرض الهرم فى الطول والارتفاع أربعمائه ذراع[٤]، وهى خمسة أهرام الثلاثة منها فى الجانب الغربى من النيل وتُرَى من الفسطاط[٥]، وهى على مقدار واحد أوسطها مدرّج الأعلى والأخريان على زاوية قائمة، وهرمان منها بغربى الفسطاط.

---

(١) نسبها عثمان بن صالح أنها دلوكة ابنة زبًا. فتوح مصر ٤٨.

(٢) تحفة الناظرين ٤٣ وفتوح مصر ٤٨.

(٣) تحفة الناظرين ٤٥.

(٤) مختصر البلدان ٦٨.

(٥) فى المسالك والممالك للأصطخرى ٤٠، وبحذاء الفسطاط على نحو فرسخين منها أبنية عظيمة، أكبرها اثنان، ارتفاع كل واحد منهما أربعمائة ذراع وعرضه أربعمائة ذراع، وطوله أربعمائة ذراع، وهو فى صورة العمارة مربع الأسفل، ثم لا يزال يرتفع ويضيق حتى يصير أعلاه نحو مبرك جمل، وملئت بنيانه بكتابة يونانية».

والخواص وأسرار الطبائع فى العالم موجود كثير.

لا يدفع أحد أنَّ فى الأرض مُدُنًا لا يدخلها عقربٌ ولا حيَّةٌ مثل حمص ومعرة وأنطاكية، وقد كانت أنطاكية إذا أخرج الإنسان يَدَهُ خارج السور وقع عليها البقُّ، فإذا جَذَبَها إلى الداخل لم يبق على يده منه شيء إلى أن كسر عمود من الرخام فى بعض المواضع فأصيب فى أعلاه حُقٌّ من نحاس فى داخله نحو كفّ من البقّ مصور فى نحاس، فما كان إلا على الفَوْرِ من ذلك حتى صار البَقُّ يَعُمُّ دُورَهم.

والله عزَّ وجَلَّ قد استأثر بعلم الأشياء، فأظهر لعباده ما شاء قال الله عز وجل: ﴿**وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء**﴾[١].

قال المسعودى[٢]: وأخبرنى غَيْر واحد من بلاد أخميم من صعيد مصر عن ذى النون أبى الفيض الأخميمى الزاهد، وكان حكيما ممن امتحن كثيرًا من أخبار هذه البرابى، قال: رأيت فى بعضها كتابا تدبّرته فإذا هو: احذروا العبيد المعتقين والجند المتعبدين والنبط المستعربين.

قال: ورأيت فى أخرى كتابا تدبَّرته فإذا هو: المقدر يقدر، والقضاء يضحك.

وزعم أنه رأى فى أخرى كتابه فإذا هى: [من الوافر]

تدبّر بالنجومِ ولَسْتَ تَدْرِى وَرَبُّ النَّجْمِ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ[٣]

وقد قيل إن أُمَّة من الأوَّل دَلَّتها أحكام النجوم أن طوفانا سيكون على الأرض، ولم يقطعوا عليه أهو نار أو ماء أو سَيْف، فخافت على دثور العلم وذهابه، فبنت بَرَابى فى حجارة ورسمت فيها العلوم وبرابى طين وقالت: إن كان الطوفان ماء بقيت الحجارة، فإن كان نارًا استحجر الطين وإن كان سيفا بقى النوعان وهذا على زعم من رأى أَنَّ بناءها قبل الطوفان.

وقال بعض من زعم أنَّ علّة هذه البرابى؟ ورأى أن ذلك كان بعد الطوفان الذى كانوا يرتقبونه ولم يعيِّنُوه.

(١) سورة البقرة، آية ٢٥٥.

(٢) مروج الذهب ١/ ٣٧٤ـ٣٧٥.

(٣) بلا نسبة فى مروج الذهب ١/ ٣٧٥.

وقيل: إنه كان سيفا أتى على جميع أهل مصر من ملك غَشِيهم.

وقيل: وَبَاءٌ عَمَّهم بتلال تنّيس ودمياط المتقدم ذكرها منهم، وما يوجد فى بلاد مصر وصعيدها من النواويس والكهوف المملوءة رِمَمًا والبرابى الموصوفة بِربْى الصَّعيد وبربْى أخميم وبربْى بلاد سَمَنّود.

ثم تعاقبت بعد دلوكة العجوز فى ملك مصر الفراعنة نحو ثلاثمائة سنة من ملك دلوكة إلى استيلاء بخت نصر[1] عليها، منهم: فرعون الأعرج الذى غزا بنى إسرائيل وخرب بَيْت المقدس إلى أن سار إليهم بخت نصر على ما قدَّمناه فخرَّب أرضها وقتل رجالها.

واستولى عليها بعد ذلك الروم، فتنصَّر أهلها، إلى أن ملك كسرى أنوشروان، فغلبهم وملكهم نحوا من عشر سنين.

ثم جرت بين الروم وفارس حروب تكافئوا فيها، فكان أهل مصر يؤدون عن بلادهم خراجين خراجا إلى الروم وخراجًا إلى فارس.

ثم ظهرت الروم على مصر والشام، فشملتها النصرانية، وجاء الله بالإسلام وصاحب مصر المقوقس وافتتحها عمرو بن العاص فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وبنى الفسطاط، وهو قَصَبَةُ مصر.

كان المقوقس ينزل الأسكندرية فى بعض الفصول، وفى بعضها منف وفى بعضها قصر الشمع، وهو يعرف بهذا الإسلام إلى اليوم، وهو فى وسط الفسطاط.

* * *

(١) تحفة الناظرين ٤٥.

ذكر بعض عجائب مصر

وبمصر أخبار عجيبة من الدفائن وذخائر الملوك، فمنها ما ذكره يحيى بن بكير قال: جاء رجل إلى عبد العزيز بن مروان[١] وهو أمير مصر وقال له: بالقبّة الفلانية كنز عظيم يوصل إليه بأدنى حفر، أوّل علاماته أنواع من المرمر والرخام الأبيض يفضى إلى باب صفر، تحته عمود من الذهب على أعلاه ديك من ذهب له عينان ياقوتتان لا تعدلهما قيمة.

فأمر له عبد العزيز بنفقة آلاف من الدنانير وشرع فى الحفر، فظهرت الدلائل، فازداد عبد العزيز حرصا وأوسع له فى النفقة إلى أن فتحوا باب الصُّفْرِ وظهر رأس الديك، فبرقَ عند ظهوره لمعانٌ عظيم لشدّة نور الياقوتتين إلى أن ظهرت جناحاه وبدت براثنه، وظهر تحت عمود الذهب قناطر مُقَنْطرة وطاقات على أبواب معقدة ولاحت تحتها تماثيل وأشخاص من الذهب وأَجْرِنَةٌ من الأحجار قد أطبقت عليها أغطيتُها.

فأشرف عبد العزيز على الموضع حين ظهر فيه ما ظهر، وَجَدَّ فى العمل وجمع إليه الناس، فتسرع بعضهم فوضع قدمَه على دَرَج من النحاس ينتهى إلى ما هنالك، فلما استقرّت قدماه على الرابعة ظهر سيفان عظيمان عاديان، سيفٌ عن يمينه وسيفٌ عن شماله، فالتقيا عليه فجزَّياه قطعا وهوى جسمه سفلاً.

فلما مرت ببعض الدرج منه قطعة اهتز العمود وصَفَر الديك صفيرًا عجيبًا أسمعَ من كان بالبُعْدِ وحرّك جناحيه فظهرت من تحتها أصوات غير معهود مثلها وتهافت من كان هنالك من الرجال إلى أسفل تلك الحفرة، وكان فيها ممن يحفر ويعمل نحوًا من ألف رجل فهلكوا جميعًا.

(١) هو عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاصى بن أمية، أبو الأصبغ: أمير مصر، وُلد فى المدينة، وولى مصر لأبيه استقلالاً سنة ٦٥هـ فسكن حلوان وأعجبته، فبنى فيها الدور والمساجدَ، وغرس بها كرمًا ونخيلاً، وتوفى بها، فنقل إلى الفسطاط. كان يقظًا عارفًا سياسة البلاد، شجاعًا جوادًا، وهو والد الخليفة عمر بن عبد العزيز. الأعلام ٤/ ٢٨ وولاة مصر للكندى ٤٩ وتاريخ الطبرى ٨/ ٥٣.

فجزع عبد العزيز وقال: هذا رَدْمٌ عجيبُ الأمر ممنوعُ النَّيْل نعوذُ بالله منه، وأمرَ الناس فردُّوا التراب عليه وعلى من هلك فيه من القوم وصار الموضع قبرًا لهم.

وقد كان وقع إلى بعض من أغرى بحفر الحفائر وطلب الكنوز[1] كتاب بعض الأقلام السالفة، فيه وصف كنز ببلاد مصر على أذرع يسيرة من بعض الأهرام وأخبر الإخشيد محمد بن طُغْج فأذن فى حفره، وذلك سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة، فحفروا حفرة عظيمة إلى أن انتهوا إلى آزاج وأقباء وحجارة مجوفة وصخور منقورة فيها تماثيل قائمة مختلفة الصور منها: على صور الشيوخ والشبان والنساء والأطفال، أجسامها فى نوع من الخشب ووجوهها ذهب وفضة وعيونها من أنواع الجواهر، وكثرت فى أجوافها رِمَمٌ بالية وأجسام فانية، والتمثال على صورة من وضع جوفه على اختلاف أسنانهم وتباين صورهم، وعلى جانب كل تمثال نوع من الآنية كالبرانىّ من الزمرد والجواهر الغالية فيه بقية ما طلى به ذلك الميِّت من الطلاء، دَوَاءٌ مسحوق وأخلاط معمولةٌ لا رائحة لها فإذا وضعت فى النار تَضَوَّعت منها أرياحٌ طيبة مختلفة لا تعرف فى نوع من أنواع الطيب، وقد جعل بإزاء كل تمثال تمثال من المرمر والرخام على هيئة الصنم على حسب عبادتهم للتماثيل.

وعليها أنواع من الكتابات لم يقف على استخراجها أحَدٌ من أهل الملل، وزعم قومٌ من أهل الدراية أنَّ لذلك القلم مذ فقد من أرض مصر أربعة آلاف سنة.

وكان صلحاءُ مصر أعظمَ النَّاس عِلْمًا وأَجَلَّهم بالكهانة حذْقًا، وكان حكماء اليونانيين يصفونهم بذلك ويشهدون لهم بالتقدم فيه، فيقولون: أخبرنا حُكماءُ مصر بكذا واستفدنا منهم كذا[2]، وكانوا يزعمونَ أنَّ الكواكب هى التى تفيضُ عليهم العلوم وتخبرهم بالغيوب، وأنها هى التى علَّمتهم أسرار الطبائع ودلَّتهم على العلوم المكنونة، فعملوا الطلسمات المشهورة والنواميس الجليلة، وولدوا الولادات الناطقة والصور المتحركة وعجائبهم ظاهرة، وحكمتهم واضحة.

وكانت مصر خمسًا وثمانين كورة، فأسفل الأرض خمس وأربعون وبالصعيد أربعون، وكان فى كل كورة رئيس من الكهنة وتحت يد كل واحد منهم عدد عظيم

---

(١) انظر فى دفائن أرض مصر، مروج الذهب ١/ ٣٨٢.

(٢) تحفة الناظرين ١٨.

من السحرة وأهل الحكمة، وهؤلاء الرؤساء الذين عنى الله تعالى فى قصة فرعون لما أشار عليه أصحابه وقالوا له: ﴿وأَرْسِلْ فى المدائنِ حَاشِرِين يَأْتُوك بكل سَحَّارٍ عليم﴾[1].

وكان الذى يتعبّد منهم الكواكب السبعة المدبرة لكل كوكب سبع سنين، فإذا بلغ هذه المنزلة سمى ناظرًا، وكان يجلس مع الملك فى مرتبته، ويصدر الملك عن رأيه ولا يعصى له أمرًا.

وكان من رسمهم أن يدخل إلى الملك كل يوم فيجلس إلى جانبه ويدخل الكهنة وأصحاب الصناعات فيقفون حذاء الناظرين، وكل واحد من الكهنة منفرد بكوكبه يخدمه لا يتعداه إلى سواه، ويسمى عبد كوكب كذا، فيقول الناظر للكاهن: أين صاحبك؟ فيقول فى البرج الفلانىّ فى درجة كذا ودقيقة كذا. فإذا عرف مستقرّ الكواكب من جميع خدمتها قال للملك: ينبغى أن يصنع اليوم بنيان كذا، ويوجّه جيش إلى مكان كذا، ويأكل الملك فى وقت كذا، وجميع مايراه له صلاحًا فى دقيق أموره وجليلها.

والكاتب قائم يكتبُ جميع ما يقوله الناظرون مِمَّا يتَّفقون على إمضائه وتصريفِ فعْلِه، ثم يلتَفُّون إلى أصحاب الصِّناعات فيقولون: انقش أنت صورة كذا وكَذا علَى حجر كذا، وصَوِّر أنت تمثالاً كذا، واغرسْ أنت كذا حتى يأتوا على جميع الأعمال، فيخرجون إلى دار الحكمة ويضعون أيديهم فى تلك الأعمال ويستعمل الملك جميع ما يقوله الناظرون ويؤرّخَ ذلك اليوم فى الصحيفة وتطوى وتُودَع خزائنه.

فعلى هذا أجرت أمورهم، وكان الملك إذا حَزَنَهُ أمرٌ أو هَمَّ به هَمٌّ أَضْمَرَهُ جمعُهم خارج مَنْف، واصْطَفَّ لهم الناس فى الشوارع والطرقات ثم يمرُّون رُكبانًا يقدّم بعضهم بعضًا فيدخل كل واحد منهم بأعجوبه، فمنهم من يعلو وجهه نورٌ مثل نور الشمس ولا يقدرُ أحدٌ أن ينظر إليه، ومنهم من يدخل راكبًا أسدًا، ومنهم من يتوشَّحُ بثعابين عظام، ومنهم من يكون عليه قُبَّةٌ من نور، فى صنوف من العجائب كثيرة، إلا أن كل واحد منهم إنما يصنع ما يدلُّ عليه كوكبه، فإذا دخلوا

(١) سورة الأعراف، الآيتان ١١١ و١١٢.

على الملك قالوا: أرادنا الملك لكذا والصواب فيه كذا.

وروى ابن لَهِيعة قال: كان عدد السحرة[١] الذين حُشِرُوا لفرعون اثنى عشر رئيسا، تحت يد كل رئيس عشرون عَرِيفًا، تحت يد كل عريف ألف من السحرة، وكان عدد السحرة مائَة ألف وأربعين ألفا ومائة واثنين وثلاثين، والله أعلم.

* * *

ذكر ملوك مصر من لدن عمارتها قبل الطوفان وبعده إلى استفتاح المسلمين لها وغريب أخبارهم

الّذى بنى الأهرام والبرابى واستوسقت له مملكة مصر وانقادت له الملوك سوريد ابن سهلون[٢]، وبنى الأهرام صيانة لجثثهم وأجسامهم، وبنى الأفرونيات وبنى البرابى[٣] حفظًا لعلومهم وآثارهم، وذلك لمّا أنذروا له بأمر الطوفان المهلك للعالم.

وكان سوريد قد أوتى من الحكمة والعلم ما لم يسبق إليه وكان يتعاهد من مصالح رعيته ما لم يتعاهد سواه، وكان ينفق على الضعفاء من بيت ماله.

واتخذ مرآة من أخلاط وأقامها على منار فى وسط قصره، وكان ينظر فيها جميع الأمم والممالك والأقاليم وما منها أخصب وما منها أجدب وينظر من قصد ناحيته وما يجرى للأمم من حروب أو غيرها، وتقدم إلى رأس الناظرين، وهم الكهّان، أن ينظر ما يحدث فى كلّ يوم ويجعله فى كتاب.

---

(١) فى فتوح مصر ٢٤: كان جمع السَّحرة مائتى ألف وأربعين ألفًا ومائتين واثنين وخمسين إنسانًا بالرؤساء والعرفاء.

وفى المسالك والممالك للأصطخرى ٤٢: «يقال إن سحرة موسى الذين حشرهم فى يوم موسى من بوصير».

(٢) قال جماعة من أهل التاريخ: الذى بنى الأهرام سُوريد بن سلهوق بن شرباق ملك مصر، وكان قبل الطوفان بثلاثمائة سنة حسن المحاضرة ١/ ٧٠.

(٣) البَرابى: جمع بِربى، وهى كلمة قبطية، قال ياقوت: وَأَظُنُّه اسمًا لموضع العبادة، أو البناء المحكم، أو موضع السِّحر. معجم البلدان (البرابى) ١/ ٢٨٧.

وكان أكثر اهتمامه بعمل الأدوية والعقاقير المؤلّفة والصنعة والنواميس ودفع المضارّ بالطلسمات وكلّ ما كان فيه صلاح للناس.

وعمل صنمًا فى صورة امرأة جالسة فى حجرها صبىّ ترضعه، فمن أصابها علّة من النِّساء فى عضو من بدنها مسحت ذلك المكان من الصنم فزال عنها ما تجده، وكذلك إن قلّ لبنها أو أبطأت حيضتها مسّت فوق ركب الصنم، وإن كثر دمعها مسّت أسفل الركب فينقص، وإن أصاب ولدَها شىءٌ فعلت مثل ذلك بالصبى فيزول عنه، وإن عسرت ولادتها فمسحت رأس الصبى سهلت ولادتها، ولذلك البكر يسهل افتضاضها.

وإذا قربت الزانية من هذه الصورة ووضعت يدها عليها ارتعدت يدها ولا تزال كذلك حتّى تقلع عن فُجورها.

ولم تزل الصورة كذلك حتّى أزالها الطوفان، ويقال إنها وجدت بعد الطوفان وإنّهم عملوا بها بعد ذلك وعُبدت وصورتها موجودة فى جميع برابى مصر باسمها، وكان اسمها بلهوية.

وعمل لهم الصنم الذى يقال له بكرس من أخلاط يدفع الأسقام والعلل بمواضع تغسل منه وتشرب، وبخورات يتبخّر بها ويستنشق، وعمل عجائب كثيرة.

واستخرج زمن أبى سليمان عوف بن سليمان قاضى مصر كتابًا بالقبطية وجد فى قبر ميّت كان فيه، كُتب هذا الكتاب فى أول سنة من ملك دُقْلطيانس من كتاب نُسخ فى أول سنة من مُلك فليبس، وإنّ فليبس اسْتَنْسَخَهُ من صحيفة ذهب بالكتاب الأوّل ترجمهُ له أخوان من القبط ورِثا علم ذلك من أبيهما، وهو رجل من أهل مصر الأوائل لم ينج منها من الطوفان غيره، وكان سبب نجاته أنه أتى نوحًا عليه السلام فآمن به فلم يأته من بلده غيره، وهذا المترجَمُ من الكتاب الموجود:

باسم الباقى بعد الأشياء، إنّ الملك سوريد بن سهلون ملك مصر وأنّه رأى رُؤْيا هالته[1]، فأحضرنا وأمرنا أن ننظر ما تدلّ عليه الكواكب ممّا يحدث فى العالم، فأقمناها فى مراكزها فى وقت مسألته، فدلّت علَى آفة نازلة من السماء وحادثة من

(١) قصة الرؤيا فى حسن المحاضرة ١/ ٧١.

الأرض، فلمّا بان لنا ذلك أخبرناه به فقال: ما هو؟ فنظرنا فى خفى أمورها فوجدنا ماءً يحدث مفسدًا للأرض وأهلها وحيوانها وجميع ما فيها.

فلمّا تمّ التعبيرُ من ذلك أمرنَا ببناء الأفرونيات، وأعلامًا عظامًا تكون له ولأهل بيته قبورًا تحفظُ أجسامهم من الفساد ويبقى علمُهم صحيحًا، وكتب على حيطان الأفرونيات وسقوفها علم غوامض الأمور من دلائل النجوم وعللها وسرائر الطبائع وتكونها والنواميس العظام وعلمها والعقاقير وتأليفها والصنعة وحكمتها وغير ذلك مما ينفع ويضر ملخّصًا مفسرًا لمن عرف كتابنا ولغتنا.

وإنّ هذه الآفة محيطة بجميع أقطار العالم إلاّ اليسير، وذلك إذا نزل قلب الأسد أوّل دقيقة من السرطان وتكون الشمس والقمر فى أول دقيقة من رأس الحَمَل وأقرونس من الحَمَل فى درجة وثمان وعشرين دقيقة، وأرش فى الحوت فى تسع وعشرين درجة وثلاث دقائق، وأفرود يطَى فى الحوت فى ثمان وعشرين درجة ودقائق، وهرمس فى الحوت فى سبع وعشرين درجة ودقائق، والجوزهر فى الميزان، فأوج القمر فى الأسد خمس درجات ودقائق.

فلمّا عرفناه ذلك قال: انظروا هل يكون بعد هذه الآفة كون مضر ـ بالعالم.

فأصبنا الكواكب تدلُّ فى وقت نظرِنا على أنَّ آفةً نازلة من السماء إلى الأرض وأنها ضد الأولى، وهى نارٌ محرقة لأقطار العالم فعرَّفْنَاهُ بذلك فقال: انظروا متى يكون هذا الكون، فوجدناه قد يكون عند نزول قَلْبِ الأَسَدِ آخر دقيقة من الدرجة الخامسة عشرة من الأسد ويكون إيليس، وهى الشمس، معه فى دقيقة واحدة متصلة بقرونوس من تثليث الرامى، ويكون راوس فى الأسد وأرش معه فى دقيقة واحدة متصلة ويكون سلينى، وهو القمر، فى الدلو مُقَابلاً لإبليس والذنب معه، ويكون كسوفٌ مطبق، وتكون أفرود بطى فى بعدها الأبعد من وراء إيليس وهرمس فى بعده الأبعد أمامها مقيمين، أفرود يطى للاستقامة وهرمس للرجعة.

فقال الملك: هل من خبر آخر تُوقفُونا عليه بعد هذه الأمور العظام؟ قالوا: ننظر فى ذلك، فنظروا على عدد السنين وقالوا: وجدنا أنه إذا قطع قلب الأسد ثلثى أدواره، وهو آخر دقيقة من العقرب، لم يَبْقَ من حيوان الأرض متحرك إلاّ تلف، فإذا استتمّ أدواره تحللت عقد الفلك. قال لهم: فأىّ يوم تحلّل فيه عقد

الفلك؟ قالوا: اليوم الثانى من بدء حركة الفلك.

فعجب من ذلك، قال: وزعم آخرون أنَّ قلب الأسد إذا بلغ الدرجة الخامسة عشرة من الأسد كان طوفان نار يحرق العالم بأسره، فلا يبقى على الأرض حيوان وتبقى الأرض خرابًا، ويستأنف البارى تعالى ما أراد من الخلق، وهذا لم يصحّ لأن قلب الأسد كان يرصد سنَةَ أربع عشرة ومائتين فى ثلاث عشرة درجة وثلاثين دقيقة من الأسد، فيجب أن يكون اليوم، وهو إحدى وستّين فى آخر الدرجة السادسة عشرة منه.

وفى كتاب السند هند الذى عُمِلَ المجسطى منه وغيره أنّ دوران الشمس من أول مسيرتها من الحَمل إلى أن ينقضى مسيرتها آخر الأسد على ما حسبوه وأحاطوا علمًا به بزعمهم أربعة آلاف ألف وأربعمائة ألف ألف وعشرون ألف ألف دورة والدورة سنة.

وجمهورُ الناس من المتقدِّمين والمتأخرين يعتقدون أنّ العالم محدث مُنْتَقض إلاَّ ما قاله أرسطاطاليس إنّ الطبيعة قديمة، وإنّ الزمان لا يبيدُ، وإنّه لا أوَّلَ له ولا آخر، وهو قول أهل الهند، وقال نفر من الفلاسفة: العالَمُ مُحْدَثٌ إلاّ أنّه لا يَبِيدُ لأنه حكمة، والحكيم لا يُفْسِدُ صَنْعَتَهُ.

ولّما مات سُوريد بعد أن ملك مائة سنة وسبع سنين دفن فى الهرم الشرقى وملك بعده أخوه هرجيت ثلاثين سنة ودفن فى الهرم الغربى، وملك بعده ابنه مناوش خمس عشرة سنة ودفن فى الهرم الُملوّن بلونين من الحجارة، ولهذه القبور أبواب فى آزاج مبنية بالحجارة فى الأرض، طول كل أزج منها عشرون ذراعًا بذراعهم، له باب من حجر واحد يدور بلولب، فإذا أطبق عليه لا يعرف أنه باب، وصار كالبنيان لا يصل الذر إلى الوصول منه، وفى هذه الأهرام قبون من الذهب والفضة والكيمياء والحجارة من الزبرجد الرفيع والجواهر النفيسة ما لا يحتمله الوصف كثرة.

هذا آخر الكتاب الموجود فى القبر، وترجم هذا الكتاب يوم الأحد أول يوم من توت عند طلوع الشمس سنة خمس وعشرين ومائتين من سنى العرب وانتهى ما تضمنه من التواريخ من لدن أثبت بالخط الأول إلى هذا اليوم أربعة آلاف

وخمسمائة وعشرون وثلث الشمس.

ثمّ نظركم للطوفان إلى هذا اليوم، فوجد اثنين وأربعين وتسعمائة وثلاثة آلاف، فعلم أنّ الكتاب كُتِبَ قبل الطوفان لما بين الجملتَيْن.

وكانت الرؤيا التى رآها الملك على ما أثبت فى المصاحف الموجودة بمَنْف فى خلافة عبد الملك[1] وكانت سبعة مصاحف مترجمة يذكر قيطون بن أمنايوس الكاهن يذكر فيها مبادئ الولادات والخلوق الأوَّلية، ويذكر الملوك والناظرين وما وضعوه من الحكم وعملوه من الطلسمات، وكانت بخطّ أركليوس الكاهن، فحملت إلى عبد الملك مع الحَبْر الّذى كان معها وانعفى أكثرها، ففسّرها له رجل يهودى من أهل الطوارى، فلم تكن بالخط الكاهنى الصورى بل كانت بالخطّ المعروف بالبرسطى، فبذلك قدر على استخراجها، فكشف لهم منها ما أراد وستر ما أراد، وقدر منها على علم كثير وعرف الخبر المشهور وكيف الوصول إليه وأصناف العلوم المقترنة به، وقد كان صدر المصحف الأول الجامع لهذه المصاحف.

باسم الرب المحيط بالأشياء:

أنا قيطون بن أمنايوس الكاهن، كان أبى من خدّام الهياكل النورية والمتكلّمين عندها بكلمة التوحيد والخضوع للآلهة المعطية للعلوم المظهرة وللأرواح الأشباحية لمن كان يتعبد لها ويقوم بقرابينها وبخورها، وكان إليه مع ذلك خدمة نواويس الملوك، وكان من رسم بهاتين الحالتين يومى إليه بالتعظيم ويفضل بالتزكية.

---

(١) عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموى القرشى، أبو الوليد (٢٦ـ٨٦هـ): من أعاظم الخلفاء ودهاتهم، نشأ فى المدينة، فقيهًا واسع العلم متعبِّدًا، ناسكًا وشهد يوم الدَّار مع أبيه. واستعمله معاوية على المدينة، وهو ابن ١٦ سنة وانتقلت إليه الخلافة بموت أبيه (سنة ٦٥هـ) فضبط أمورها، وظهر بمظهر القوة، فكان جبارًا على معانديه، قوى الهيبة، واجتمعت عليه كلمة المسلمين بعد مقتل مصعب وعبد الله ابنى الزُّبير فى حربهما مع الحجاج الثقفى.
ونقلت فى أيامه الدواوين من الفارسية والرومية إلى العربية، وضبطت الحروف بالنقط والحركات، وهو أول من صك الدنانير فى الإسلام، وأوَّل من نقش بالعربية على الدراهم، ونقش خاتمه «آمنت بالله مخلصًا» توفى فى دمشق سنة ٨٦هـ.
ترجمته فى: الأعلام ٤/ ١٦٥ والكامل لابن الأثير ٤/ ١٩٨ وتاريخ الطبرى ٨/ ٥٦ والأعلاق النفيسة ١٩٢.

فلمّا هلك هرمينيوس الملك حفر له فى ناووس المملكة أزجًا وصفحه بالمرمر الأزرق ملوحًا بالذهب اليأكلون، وحفر عند رأس الأزج موضعًا تقام فيه أسطوانة التاريخ فانتهى به الحفر إلى أوعية من رصاص مطبقة فيها مصاحف الكهنة وفيها جثّة أقوريس الكاهن الذى كان فى زمن أسادس، فأخذ أبى المصحف بحقّ كهانته وقيامه على الهياكل والنواويس، فوقف على ما فيها ولم يظهر شيئًا من علومها، فلمّا هلك أبى صارت المصاحف إلَىَّ، فنقلتها بترجمتى لتكون ذخيرة لولدى، وكان أوّل ما ترجمته من تلك المصاحف.

باسم النور الّذى كانت الأنوار كلّها منه وإليه تعود، مطهّر الحكماء ومؤيّدهم بالأشباحية العالية واسم الآلهة.

هذا ما نسخناه ووقفنا عليه من أسرار العلوم والذى قدرنا عليه من كتب ساداتنا للناظرين الهادين إلى طريق الحكمة، ووقفنا عليه من أسرار الخليقة ومفاتيح العلوم وأسرار الولادات.

ثم نرجع إلى ذكر الرُّؤْيا[1]، وكان فى جملة ما ترجم من هذه المصاحف أنّ سوريد رأى الكواكب المعروفة بالبابانية فى صور طيور بيض وكأنّها تخطف العالم وتلقيهم بين جبلين عظيمين، وكان الجبلان انطبقًا عليهم وكانت الكواكب النيّرة مظلمة كاسفة كلّها.

فلمّا أخبره الناظرون بما تقدّم عنهم أمر أن يختار موضعًا لبنيان الأعلام، فاختير موضع بقرب النيل فى الجانب الغربى وبنيت فيه مدينة مرقة أى مطلب الحكمة، وأمر الملك بجمع الناس والفعلة فجمع سبعة آلاف لقطع الحجارة وحملها ومثلهم لهندستها والنقش عليها، وأضعافهم للبناء، وعمل قضبان الحديد، واستخراج معادن الرصاص، فكانوا ينصبون البلاطة ويجعلون فى وسطها عمودًا من حديد قائمًا قد ضبط بالرصاص المسبوك، وتركب عليه بلاطة أخرى فى قدّها وهندستها مثقوبة الوسط بقدر دخول القضيب فيها، ويسبك الرصاص ويصبّ على البلاطتين معًا، حتّى بنى بها بنيانًا طوله مائة ذراع وخمسون ذراعًا بذراعهم ليكون ماء الطوفان مع حافته وهرم البنيان صاعدًا، وجعل رأسه عشرة أذرع فى مثلها،

(١) حسن المحاضرة ١/ ٧١.

وعرض كل حائط من تربيع الهرم مثل طوله مائة وخمسون ذراعًا.

ثمّ أحضرهم فقال: انظروا هل تفسد هذه الأعلام، فنظروها فوجدوها باقية لا تزول.

فقال: انظروا هل يفتح منها موضع، فنظروا فقالوا: نعم يفتح من الجانب الشمالى، فقال: حقّقوا النظر هل تعرفون الموضع بعينه، فعرِّفونى إلى متى يكون ذلك، فأخرجوا الموضع وذكروا أن ذلك يكون لأربعة آلاف دورة للشمس، فقال: انظروا العلّة التى يفتح من أجلها فقالوا: يفتح طلبًا لما فيه من مال.

فقال: هل ينفقون على ذلك شيئًا؟ قال: نعم، قال: هل تقفون على قدره؟ فعرفوه، فقال: اجعلوا فى الموضع الذى يصلون منه إلى داخل الهرم بقدر ما ينفقونه.

وحثّ الأمّة على الفراغ من الأهرام والأفرونيات، ففرغوا من ذلك فى ستين سنة، وعلى الأهرام مكتوب: بنينا هذه الأهرام فى ستّين سنة، فليهدمها من يريد ذلك فى ستّمائة سنة، فإنّ الهدم أهون من البناء.

وذكروا أنّه كانت لهم قراقل من خوص إذا ضربوا بها الحجارة قفزت من أنفسها وطارت، وأنّ ذلك لم يزل متعارفًا عندهم.

قال الوصيفى: وقال لى رجل قبطى يعرف بإبراهيم بن أبراس، وقد أجرينا شيئًا من هذا الذكر، أنّهم أصابوا فى بعض الكنائس فى موضع شبيه بالطاق سفط فيه سلة، ففتحت فوجدوا فيها قرقلة من خوص عجبوا منها ولم يدروا لها معنى، فطرحوها فى النار ليحرقوها، فكانت تثب من النار حتّى تبلغ سقف الكنيسة، فلمّا رأوا ذلك قطعوها بالسكين، ثّم عرفوا الحال فيها فندموا على إفسادها، قال الوصيفى: ولا أدرى أهى من قرافل الحجارة أم من غيرها إلاّ أنّ فى توثُّبها من النار عجبًا.

ولمّا فرغ المأمون من حرب أهل التيماء وأقام بمصر أراد هدم الأهرام، فعرّفه بعض شيوخ المصريين أنّ ذلك غير ممكن ولا يجمل بمثله أن يطلب شيئًا لا يبلغه[1].

فقال: لابدّ لى أن أعلم عِلْم ما فيها، ثمّ أمر أن يفتح من الجانب الشمالى لقلّة

(١) صورة الأرض ١٢٩، وحسن المحاضرة ١/ ٧٢.

دوام الشمس على من يتولّى ذلك.

فكانوا يوقدون النار عند الحجر، فإذا حَمى رشّ عليه خلّ رومى بالمنجنيق حتّى فتحت الثلمة التى يدخل منها إلى الهرم اليوم، فوجد بنيانه على ما ذكرنا من الحديد والرصاص، ووجد عرض الحائط عشرين ذراعًا.

فلمّا وصلوا إلى آخر الفتح وجدوا خلفه مطهرة من حجر أخضر فيها مال على حول الدنانير العراض، وزن كلّ مثقال منها سبعة وعشرون مثقالاً وثلثا مثقال بمثقالنا، فقال: زنوه، فوزنوا الجملة فوجدوا فيها مالاً عظيمًا معلومًا.

وكان المأمون رحمه الله فطنًا فقال: ارفعوا إلىّ ما أنفقتم على فتحه، ففعلوا فوجدوه موازنًا لما وجدوا من المال فتعجب من ذلك ومن معرفتهم بالموضع الذى يفتح منه على طول الزمان، وازداد يقينًا فى علم النجوم، فركب حتى دخله ونظر إلى البيت فوجد فيه صنمًا أخضر مادًا يده وهو قائم، ونظر إلى الزلاقة والبئر، فأمر بنزولهما، فنزلوا من واحدة إلى واحدة حتّى أفضوا إلى صنم أحمر وعيناه مجزعتان سوادًا فى بياض كأنّهما حدقتا إنسان، فهالهم أمره وقدّروا أن له حركة، فخرجوا وعرّفوه الحال وجرأه ذلك علىَ طلب مخاب كثيرة.

ووجد المأمون طول كلّ هرم من الهرمين الكبيرين أربعمائة ذراع[١] بالمالكى وكذلك عرض كلّ حائط من حيطانها، ويقال إنّه ليس على وجه الأرض أرفع بناء من هذين الهرمين وهما غربى وسيم، ولا فى العالم حجر موضوع على حجر أعلَى منهما، ويقال إن عمقهما فى الأرض مثل ارتفاعهما فوق الأرض، وذكر أن أبواب هذه الأهرام لا تفتح إلاّ بكلام وقرابين وبخورات، والصابئة تحجّ إليها من حرّان.

وفى مصحف هرقل ـ وكان تأريخه لستّمائة سنة من الطوفان ـ أنّ سوريد ملك مصر نظر فى النجوم، فرأى أنّ حادثة من السماء تكون مضرّة بالعالم، فأمر ببناء أعلام تكون نواويس لحفظ أجساد الملوك، وكتب على تلك الأعلام أسماءهم وتواريخهم وكثر فيها من فاخر الجوهر والصنعة وطرائف الحكمة، ومن التماثيل والذهب الملّون والتيجان الفاخرة مما يستدلّ به على عظم ملكهم، وجعل على ذلك طلسمات تمنع منها إلى أوقات معلومة تكون ذخيرة لهم.

(١) فى صفة الهرمين الكبيرين انظر: موسوعة تاريخ مصر ١/ ٢٠٥.

ووضع أساسها فى وقت السعادة وجعل فى كل أساس كلّ علم منها صنمًا وكتب فى صدورها رفع المضارّ والآفات عنها، وفى يد كلّ صنم منها كالبوق، وهو واضعه فى فيه، وفى وسط كل علم منها مسارات موجّهة إلى آزاج[1] ضيّقة المنافذ واسعة المداخل يجتذب الرياح إليها على مَرّ الزمان، وتخرج فى وجه الداخل إليها، فإن لم يحسن دفعها أهلكته، ومنها ما ينطبق عليه بحكمة متقنة وأمر مبرم.

وقيل إنّه عمل تحت الأهرام أسرابًا تخرج منها إلى ناحية الفيوم وإلى ناحية المغرب على يوم ويومين منها، وأودعت عجائب كثيرة، وإنّ فى أسفلها مشارب للماء يفيض فيها إلى مصابٍّ تجرى إلى النيل.

وفى خبر آخر أنّه وكل بالأهرام روحانِيِّين[2]، فجعل فى الهرم الغربى روحانيًا فى صورة امرأة عريانة مكشوفة الفرج، لها ذؤابتان، فإذا أرادت أن تستفزّ الإنسان ضحكت إليه واستجرّته إلى نفسها، وقد ذكر ذلك من رآها وقصدها.

ووكل بالهرم القبلى روحانيًا فى صورة غلام أمرد عريان قد رؤى من خارجه مرة بعد مرة ثم تغيّب عنهم.

وفى الهرم الملّون صورة شيخ فى كفّه مجمرة كنائسية كأنه يتبخر وعليه ثياب الرهبان.

وكذلك وكّل لجميع الأفرونيات، حتى إن أهل أخميم لاشك عند جماعتهم أنّ روحانى البربَى[3] الذى بها غلامٌ أسود أمرد معه عصا، ولا يستطيع أحد أن يدخل البربَى من بعد العصر إلى الصبح، ولم يكن أهل سمنّود يشكّون فى أنّ روحانى البِربَى[4] الذى فيها رجل طويل أدم صغير اللحية أشيب.

---

(١) الأزج: ضرب من الأبنية، والجمع آزاج وآزج. انظر الصحاح (أزج) ١/ ٢٩٨.

(٢) حسن المحاضرة ١/ ٧٩ وفتوح مصر ٤٨.

(٣) بربى إخميم: كان فيه صور الملوك الذين ملكوا مصر. قال صاحب مباهج الفكر: وهى مبنية بحجر المرمر، طول كل حجر خمسة أذرع فى سمك ذراعين وهى سبعة دهاليز، ويقال إن كُلَّ دهليز على اسم كوكب من الكواكب السبعة وجدرانها منقوشة بعلوم الكيمياء والسيمياء والطلسمات والطب، ويقال إنه كان بها جميع ما يحدث فى الزمان حتى ظهور رسول الله ﷺ وكان مُصَوَّرًا فيها راكبًا على ناقة. حسن المحاضرة ١/ ٦٥-٦٦.

(٤) بربى سمنّود: قال الكندى: رأيته وقد خزن فيه بعض العمال قُرْطًا فرأيت الجملَ إذا دنا منه =

وأما بِربَى قفط[١] فجارية سوداء معها صبى صغير أسود تحمله.

وأما بِربَى بوصير[٢] ففيها شيخ أبيض عليه زِىّ الرهبان وفى يده مصحف.

ولكل واحد من هؤلاء الروحانيين قربان وكلام يطيع به ويدلّ معه علَى علوم البِربَى وكنوزه.

ويقال إنّ ذا النون الأخميمى إنّما قدر علَى ما قدر من علوم البربى حتّى عمل الصنعة والجوهر وحمل إلى العراق فى ليلة وغير ذلك من العلم، لأنّه خدم راهبًا كان بأخميم يقال له ساس مدّة صباه، فعلّمه الخطّ ودلّه على القربان والبخور واسم الروحانى وأوصاه بأن يكتم ذلك، فلمّا علم ذو النون ما علم طيّن مبنى الحكماء بطين الحكمة الذى لا ينقلع إلاّ مع الحجر ويفسد بقلعه الخطّ المرموز به.

وفى بعض أخبار المصريين أنّ قومًا قصدوا الأهرام فى وقت المتوكّل[٣] وكان على مصر حينئذ ابن المدبّر[٤]، فنزلوا من الزلاقات والآبار وطلبوا أن يدخلوا من تلك المضايق التى تخرج الرياح منها وحملوا سرجهم فى أوانى زجاج، فأتتْهم رياح أخرجتهم وكسرت أوانيهم وأطفأت سرجهم، فأخذوا أحدهم فربطوا وسطه بالحبال وقالوا له: ادخلْ، فإن رأيت شيئًا تكرهه جررناك، ففعل ذلك[٥].

فلمّا دخل وأمعن وزاحم الرياح انطبق عليه ذلك المصب وجذبوه، فانقطعت

= بحملهِ وأراد أن يدخله سقط كل ودبيب من القُرْط، ولم يدخل منه شىءٌ إلى البِرْبى، ثم ضرب عند الخمسين وثلاثمائة. حسن المحاضرة ١/ ٦٥.

(١) فتوح مصر ٤٨.

(٢) فتوح مصر ٤٨.

(٣) جعفر (المتوكل على الله) بن محمد (المعتصم بالله) بن هارون الرشيد، أبو الفضل: خليفة عباسى، ولد ببغداد سنة ٢٠٦ هـ وبويع بعد وفاة أخيه الواثق سنة ٢٣٢هـ، وكان جوادًا ممدحًا محبًا للعمران، من آثارة «المتوكلية» ببغداد، أمر بترك الجدل فى القرآن، وأنَّ الذمَّة بريئة ممَّن يقول بخلقه أو غير خلقه، أقام بسامراء واغتيل فيها ليلاً بإغراء ابنه المنتصر سنة ٢٤٧هـ. الأعلام ٢/ ١٢٧ وتاريخ بغداد ٧/ ١٦٥.

(٤) هو إبراهيم بن محمد بن عُبيد الله بن المدبر ـ أبو إسحاق ـ وزير من الكتاب المترسّلين الشعراء، من أهل بغداد، تولّى ولايات جليلة واستوزره المعتمد العباسى لمّا خرج من سامراء يريد مصر سنة ٢٦٩، وتوفى ببغداد مُتَقَلّدًا ديوان الضياع للمعتضد سنة ٢٧٩هـ. الأعلام ١/ ٦٠ والنجوم الزاهرة ٣/ ٤٣ وتاريخ الطبرى ١/ ٣٤١ وتاريخ ابن الأثير ٧/ ٦١.

(٥) حسن المحاضرة ١/ ٧٩.

حبالهم وبقى الرجل فى ذلك الشقّ لا يقفون له علَى خبر، فاغتمّوا لذلك وصعدوا هاربين حتّى خرجوا من الهرم وجلسوا عند باب الثلمة المفتوحة ينظرون فى أمر ذلك الرجل وأمرهم وما أقدمهم علىَ ما أقدموا عليه، فإنّهم لكذلك إذ انفرجت لهم فرجة من الأرض كالوهدة، فأثارت لهم ذلك الرجل عريانًا مُشوّه الخلق ميّت الدم جامد العينين، وهو يتكلّم بكلام عجيب لا يفقه، فلمّا فرغ من كلامه سقط ميّتًا، فازداد ولههم وتضاعف جزعهم واحتملوه إلَى منزله، فأخذهم الحرس وانطلقوا بهم مع الرجل الميّت إلى ابن المدبّر، فسألهم عن أمرهم فأخبروه، فعجب من ذلك وأمر أن يكتب ذلك الكلام على حسب ما لقنوه، فأقام يطلب من يفسّره إلى أن لقى رجلاً من أهل العلم الأقصَى يعرف شيئًا من ذلك اللسان، فإذا معناه: هذا جزاء من طلب ما ليس له وكشف عمّا يخباه فليعتبر من رآه، فمنع ابن المدبّر من تعرض للأهرام[1].

وفى خبر آخر أنّ جماعة وجدوا فى بعض البيوت والوسطَى زلاقة إلَى بئر، فنزلوها فوجدوا سربًا، فساروا فيه نصف يوم حتّى انتهوا إلى حفير عميق، وفى عدوته باب لطيف يتبيّنون منه شعاع الذهب والجوهر، ومن رأس الحفير ممّا يليهم إلى الباب المحاذى لهم عمود حديد قد ألبس محورًا من حديد يدور عليه ولا يستمسك، فاحتالوا فى وقوفه وذهاب حركته فلم يصلوا إلى ذلك، فربطوا أحدهم فى حبل وتعلّق به ليصل إلى الجانب الآخر، فدار به المحور فتحيّر وسقط ، فخرجوا هاربين لا يلوون.

ودخل نفر بعضَ الأسراب التى فى الهرم فانتهوا إلَى صنم أخضر فى صورة شيخ بين يديه أصنام صغار كأنّه يعلمهم، وساروا فوجدوا فوّارة تحت قبّة يقع فيها ماء من أعلَى تلك القبّة، فيكون له نشيش[2] شديد كأنّه طفى نار ويغوص فيها فلا يتبيّن.

فداروا فوجدوا بيتًا مسدودًا بحجر فيه دوىّ شديد لا يُدرى ما هو، ووجدوا عنده شبيهًا بالمطهرة الكبيرة فيها دنانير عليها صورة أسد من وجه وصورة طير من

---

(١) حسن المحاضرة ١/ ٧٩.

(٢) النشيش: صوت الماء وغيره إذا علا الصحاح (نشش) ٣/ ١٠٢.

وجه، فأخذ بعضهم منها شيئًا، فلم يقدر علَى حركة ولا كلام حتّى طرحها من يده.

وكلما فسد من هذه الأفرونيات وتهدّم وتغير مثل بربَى بوصير وبربى سمنّود وغيرهما من الهياكل يتركهم الاستقصاء فى أخذ الطالع وصحّته قبل وضع الأساس، وكذلك ما بقى منها فلقرب الطالع من الصحة لأن الّذين بنوا هذه البرابى كانوا علَى بعد من الملك ولم يكونوا بحضرته، فيتقنون النظر كما اتّفق فى عمل الأهرام، وهم لا يشكّون أنّهم لما هدموا بربَى سمنّود فحملوا حجارته إلى أشتوم دمياط ووهبوا بقيته لبنى الهندس أنّ اليوم الذى فرغ من هدم الحائط الغربى دخل حباسه الإسكندرية وخربها وكثرت الرمال حتّى انقطع البحر فى شهور الصيف وقلّ زكاء الزرع وكثر الفأر والجراد وأشياء من الفساد كثيرة.

ويتحّدث أهل سمنّود[1] عن هذا البربَى بعجائب كثيرة يطول شرحها، منها أنّ بعض من دخلها كتب علَى كتفه صورة من تلك الصور أعجبته، فانطبقت عينه حتّى أتاه من كتب على كتفه الصورة المحاذية لها فانفتحت عينه.

قال الوصيفى: وأخبرنى من أثق به أنه رأى فيها صورة شيطانين تحوط بهما سلسلة بكتابة، وهما يمسكان طرفيها وبينهما كتابة، فأخذ صورته، فكانت عنده إلى أن عرّفه بعض من رآها عنده أنّها حرز عظيم، وذكر أنّه لو جعل عليها لحمًا وجوع كلبًا أو شيئًا من السباع وخلاه عليه لم يقرب منه، قال: فعجبت منه وامتحنت ذلك فوجدته كما ذكر.

قال الوصيفى: وقد رأيت أنا فى بربَى أخميم[2] صورة عقرب، فألصقت عليها شمعًا وكانت عندى، فلم أتركها فى موضع إلاّ انحاشت إليها العقارب، وإن كانت فى تابوت اجتمعت تحته وحوله حتّى كنت أتجافَى عن حملها، فطلبها بعض إخوانى ودفعتها إليه ورجعت إلى أخميم، فوجدت الصورة قد نقرت وأفسدت.

ومن المتعارف عند أهل أخميم[3] أنّه كان فى البربَى صورة شيطان قائم على

(١) راجع: حسن المحاضرة ١/ ٦٥.

(٢) راجع: حسن المحاضرة ١/ ٦٦.

(٣) انظر: الموسوعة المصرية، تاريخ مصر القديمة ١/ ٨٥.

رجل واحدة وله يد واحدة وقد رفعها الهواء، وفى جبهته وحواليه كتابة وله إحليل ظاهر ملصَق بحائط البِربَى، فكان من احتال علَى ذلك الإحْلِيل حتّى نقب عليه ونزعه من غير أن ينكسر ما دام عليه، وأنّ ابن أبى الغمر لمّا ولّى البلد أخبر بذلك فطلبه، فلم يوجد له غير صورة واحدة كانت قرب السقف، فاحتيل عليها حتَّى أخذ له الإحليل، فكان يستعمله ويخبر بصحته.

وكانت فيها صورة بومة إذا ألصق عليها الشمع وجعل فى موضع لم تقربه بومة.

وكانت فيها صورة شيطان يسوق كبشًا بحبل فى عنقه، فمن صوّره فى صفيحة رصاص وما حوله من الكتابة وحمله معه ومرّ على قطيع من الكباش اتّبعته.

وفى بربَى أخميم فى الباب الّذى يُدخل منه إلَى المصعد فى عقب الباب علَى يسار الداخل منه صورة رأس عظيم بلحية كبيرة وشعر كثير كأنّه رأس رومى بغير جسد، فذكروا أنّ الأوائل كانوا يبخرون ذلك الرأس ببخور لهم معروف، فكلّ مَن بخره وجد عنده دينارًا، فكان ذلك معونة لأهل المسكنة، قال الوصيفى: فتصفّحت موضع الرأس فوجدت آثار البخور والطيب بيّنة فيه وفى القبّة الداخلة الّتى ينزل منها إلى سطح البربىَ المعروفة بقبّة مسمطا سيسيم، ولها بخور وكلام، من تكلّم به وسأل عن كلّ أمر أخبر به من البئر بكلام يسمعه ويفهمه.

وفى بربَى قِفْط[1] صورة رجل جالس فى دائرة وحوله كتابة وعلَى جميع دور الدائرة شياطين قيام بأيديهم حراب، يرمون بها ذلك الرجل، والرجل رافع يده كأنّه يرميهم، فيقال إنّه من صوّر تلك الصورة فى صفيحة ذهب وحملها معه ودخل الحرب لم يضرّه ولا عمل فيه حديد ولا غيره، يعمل ذلك فى أوّل الهلال ويكون المشترى مسعودًا.

وحذاء هذه الدائرة من الجانب الآخر دائرة أخرى فيها رجل مكتوب علَى وجهه وحوله شياطين بأيديهم حراب يضربونه بها، وقد شكّوها فى جسمه، فيقال إنّ من صوّر مثلها فى صفيحة رصاص باسم عدوّ له وبخرها بشعر جمل فى آخر الشهر

(١) قِفْط: مدينة بالصعيد الأعلى، لها مزارع وبساتين كثيرة وفيها النخل والأترج والليمون. مراصد الاطلاع ٣/ ١١١٣.

وزمنها فى ناووس تحت رأس ميّت لحقه كلّ مكروه ولم يزل عدوّه فزعًا ميت القلب، فإن تُركت أكثر من ثلاث خِيفَ عليه الهلاك، فإذا أُخْرِجت وغسلت بماء بئر لا تراها الشمس وجعل ذلك الماء فى إناء مزجج أو فى قدر حديد وشربها الرجل وجرد نقش تلك الصفيحة زال عنه ما يجده.

وعلَى باب بِرْبَى أخميم طلسم: قطعة من حجر فى صورة القلنسوة الطويلة معقفة الرأس كأنها منقار، يقال إنّ تحتها مالاً عظيمًا، فجهد جماعة من الولاة أنفسهم فى قلعها أو كسرها فلم يصلوا إلى، وتكسّرت المعاول عليها ولم يَثْلَم منها شىء.

وأخبرنى رجل بأخميم[1] أنّه رأى هناك صورة استحسنها، وهى صورة إنسان علَى رأسه طائر وإلَى جانبه كلب رابض وتحت رجليه كتابة، وأنّه صورها فى قرطاس كما رآها وحملها فى جيبه، فأقام ثلاثة أيَّام لم يجع ولم يأكل ولا اشتهى شيئًا من الطعام، ولم يدر السبب فى ذلك، ثم إنّه فكّر فى تلك الصورة فنحاها عنه فاشتهَى الطعام وأكل، فحدّث بذلك بعض الولاة فأخذها منه ورجع إلَى البربى يطلبها، فأشكل عليه موضعها ولم يصل إليها إلى أن أخبرنى بذلك.

وحدّث رجل منهم أنّ رجلاً من أهل المشرق نزل عليهم وكان بصيرًا، فتذاكروا أمر البربَى فقال بعضهم: إنّى رأيت صورة إنسان عريانًا مؤتزرًا بمئزر وفى يده اليمنى فأس له رأسان وفيه قفّة معلّقة، فقال الشرقى: إنّ لهذه الصورة عملاً ينتفع به، فانسخه لى وما حوله من الكتابة، وليس يعمل بها إلاّ أن تفسد من البِربَى[2].

قال: فصورّتها له فقال لى: أفسدها أخبرك بنفعها، فأطمعنى فى علم ذلك وأفسدتها وخدّشتها بمنقار كان معى حتّى انطمست وسألته عن العلم، فخلط علىّ وجرى ذكرها، ثمّ إنّى بعد مدّة تذاكرت خبرها مع قوم نزلوا عندنا، فتلهّف أحدهم عليها فسألته عن أمرها فقال إنّها إذا وضعت فى موضع فيه كنز تحرّك ذلك الموضع وارتفع منه كالغبار، فعلم أنّ فيه خبئًا، وهذه دلالة الكنوز فأغنّى إذ كنت أفسدتها.

---

(١) انظر: حسن المحاضرة ١/ ٦٥.

(٢) حسن المحاضرة ١/ ٦٦.

قال الوصيفى: وحدثنى من أثق به أنّهم أصابوا ببعض البرابى أشنانة زجاج أحمر مربّعة العمل موضوعة فى طاق وفيها ماء أصفر، فلم يدروا لم يصلح، فأهرقوه منها وأخذها أحدهم، فأقامت عنده مدة يستعملها، إلى أن رآها عنده رجل غريب نزل عليهم، فاستطرفه فسأله عنها، فأخبره بأمرها والماء الّذى كان فيها، فتلهّف ذلك الرجل علَى الماء وقال: لقد أضعتم علمًا كبيرًا وخيرًا كثيرًا، وقال: إنّكم لو حميتم الفضّة وغمستموها فى ذلك الماء لصارت ذهبًا أحمر يحتاج إلى أزواج كثيرة وأضعافًا كثيرة حتّى يصير ذهبًا حسنًا جيدًا، قال: فندمتُ علَى تفريطنا فى ذلك الماء، فلمّا رأى ندمى ضحك وقال: أتحبّ أن أُريك منها عجبًا؟ قلت: نعم، قال: زنها واعرف وزنها، ففعلت فوجدت فيها أربعة أرطال، فقال: املأها ماءً أو ما أحببتَ، فملأتها فقال لى: زِنْها الآن، فوزنتها فوجدت وزنها وهى ملئة مثل وزنها وهى فارغة أربعة أرطال، لا تزيد ولا تنقص، فعجبت من ذلك وشاع خبرها فاتّصل ببعض الولاة فوجّه إلىّ وأخذها.

* * *

ذكر أوّل من ولى مصر من الملوك

أوّل من ولى مصر عند قسمة الأرض بين ولد آدم زمن أنوش[1] بوصيّة آدم عليه السلام نقراوش الجبّار بن مصريم، ويقال مصرام بن براكيل بن راذيل بن غرناب بن آدم عليه السلام خرج إليها فى خمسة وثمانين من ولد أبيه غرناب، وله حمل من طشهرة ابنة هرم، فولدت له ولدًا سمّاه مصرم باسم أبيه، ومعنى نقراوش الملك على ولد أبيه، وهو لقب واسمه قرناش، وهو أوّل من اتّخذ المصانع وعمل الطلسمات وأقام الأساطين وَرَمزَ عليها التواريخ وبنىَ المدائن، وهو الّذى حفر النيل وكان قبل ينقطع ويستنقع وعمل للتماسيح فى آخر بلاد النوبة صنمين علىَ شرقىّ النيل وغربيّه ورمز فيها رموزًا امتنعت التماسيح أن تنحدر فيه.

وكانت كتابتهم بقلم الخلقطير، وهو قلم آدم عليه السلام، وكان كاهنًا عالمًا

(١) حسن المحاضرة ١/ ٣٠.

لربى من الجنّ من ولد الأسمور يقال له نكور، وكان قد وقع إليه بعض العلوم التّى كان درابيل المَلكَ علّمها لآدم، وعمل عجائب كثيرة منها صورة طير على أسطوانة عالية يصفرّ كلّ يوم مرّتين عند طلوع الشمس وعند غروبها تصفيرًا مختلفًا يستدلّون به علَى ما يكون من الحوادث فيتأهّبون لها، وعمل صنمين من حجر أسود فى وسط المدينة، إذا نظر إليها السارق لم يقدر على الانحياز عنهما حتّى يسلك بينهما فينطبقان عليه.

وعمل فى مدينة برسان أصنامًا موجّهة إلى نواح مختلفة، إذا قصد عليهم قاصد لسوء أرسلن عليه نارًا أحرقته.

وملكهم مائتى سنة وثلاثين سنة، فلمّا مات أقاموا يبكون عليه ويطوفون به علَى أعناقهم ثلاثين سنة.

ثمّ ملكهم بعده ابنه نقراوش(١)، وكان عابدًا لزحل، وحارب أمّة من الجنّ حتّى أدخلها فى طاعته بالعزائم الشداد، فبنى فى صحراء الغرب مدائن معلّقات علَى أساطين تحيط بها مشبكات من الذهب، وجعل فيها خزائن الحكمة، ولها أبواب تحت الأرض لا يوصل إليها إلاّ منها، وجعل لها أقفالاً ومفاتيح مدبّرات.

وكانت ثلاث مدائن فى كلّ مدينة ثلاث خزائن فيها عجائب العلم وطرائف الحكمة، ورموز الصنعة، وأجرام من الماء المعقود لا يتحلّل، ومن الهواء المتجمد لا يضمحلّ، وفيها مطهرة من ماء الحياة الصنعى الإلاهى، وفيها صور الكواكب على أصنافها فى بيوت شرفها وعلَى رؤوسها أكاليل الغلبة وبإزائها صور الحكماء القيّمين بأمورها بأيديهم مصاحف الصنعة وجميع الطلسمات والعلوم.

وذلك كلّه من ضروب الأحجار الرفيعة والجواهر النفيسة والأجرام العجيبة ممّا يطول الكتاب بشرحه ويخرج من حدّ ما ألفناه له باستقصائه.

وجعل تحت الأساطين الّتى هذه المدن عليها خبايا عظيمة من الجوهر النفيس والدرّ الخطير وسبائك الذهب والفضّة والحجارة الرفيعة والبورقات الأصلية والعقاقير المكتومة والأدوية المؤلّفة، وصور هذه الخزائن فى كلّ بربَى من برابى مصر قد رمزوا عليها بخطوطهم المؤلّفة، وخبرها مشهور فى جميع مصاحفهم

(١) حسن المحاضرة ١/ ٣٢.

القديمة وهياكلهم المرسومة.

وبنى نقراوش مدينة عمل فيها الجنّة بزعمه وجعل لها أسرابًا تحت الأرض يوصل منها إلىَ هذه الثلاث مدائن ويوصل من بعضها إلىَ بعض، وملكهم وسنه سبع سنين.

ثمّ ملك بعده أخوه سورث، وكان فيما يقال مؤمنًا موحّدًا فأغلق هياكل الكواكب، وقلّ ماء النيل فرفضه بنو أبيه وخلعوه وملّكوا أمرهم أخاه الأصغر مصرام المتقدم الذكر[1]، وكان جبّارًا يطلب الحكمة، فزاد فى هياكل الكواكب ودخنها وقرابينها واحتفل فى كساها وسدنتها، وذلّل الأسد فركبها.

وكان له ربىّ فأمره أن يحتجب عن الناس وسحره، فألقَى علَى وجهه نورًا لا يتمكّن أحد من النظر إليه، فادّعَى الألوهية ودعا الناس إلَى عبادته، وزعم أنّ الأوطمس ألقَى فيه روحه وأمره بذلك.

وغاب عن الناس ثلاثين سنة واستخلف عليهم رجلاً من قومه يقال له اللهون، وعمل فى غيبته عرشًا عظيمًا من عظام دوابّ البحر ودوابّ ولدها من الوحوش والسباع وعمّره بالأبالسة وركبه، ومضى به الربى حتّى أشرف علَى البحر الأسود، فجعل فى وسطه صنمًا من حجر أبيض وزبر عليه اسمه وجعله قربانًا للشمس.

وعمل قلعة الفضّة الّتى فى البحر الأسود، وذكر ذلك أليوس الكاهن فى سفر ملوكهم، ورمز علَى كلّ صنم هناك: أنا مصرام الجبّار ومدوّخ الأشرار وجامع الأخيار وكاشف الأسرار والعالم القهّار، عرفت حقائق الأشياء وقدرت علَى تشتيت العقاقير ووضعت الطلسمات الصادقة، والصور الناطقة، وأظهرت الحكمة العجيبة، وكشفت الأمور الغريبة، ونصبت الأعلام الهائلة علَى البحار السائلة، وأقمت أصنام القرابين من عظام التّنانين، ليُعلم من بعدى أنّه لا ملك مثلى.

وعمل فى برسان شجرة يؤكل منها كلّ فاكهة، وقبّة من زجاج أحمر على رأسها صنم يدور مع الشمس، ووكل بأقرانها شياطين إذا اختلط الظلام نادى كلّ شيطان منها فى الناحية الّتى تليه: لا يخرج أحد من منزله حتّى يصبح، وإلاّ هلك.

(١) حسن المحاضرة ١/ ٣٢.

وهو أوّل من عمل له الحّمام وركب الوحوش الصعبة وأحبّ الناس أن ينظروا إليه بعد هذه المدّة، فاجتمعوا إلى اللهون ورغبوا إليه أن يسأله ذلك، ففعل فأمر مناديًا أن ينادى فى الناس وأن يوجّه إلىَ جميع النواحى فى حشرهم وجمعهم، فلمّا حضروا جلس لهم فى مجلس عال قد زيّنه بأصناف الزينة وظهر لهم فى صورة هالتهم، وملأت قلوبهم رعبًا، فخرّوا له علَى وجوههم ودعوا وشكروا إيّاه، ومات ولم يعقب.

وبمصرام هذا سُمّيت مصر[١] لمّا دعا الناس إلىَ عبادته بعد الآلهة الّتى كان يتعبد لها، وعلىَ ذلك سمّى مصريم بن بيصر بن حام، وكان اسم مصر قبل ذلك أمسوس، وقيل إنّ اسمها كان مقدونية، وقيل إن اسمها كان فى القديم أباريا وقد قيل إنّ مصرام أوّل من بناها، وهذا لا يصحّ، وبلغ مصرام بسحره وكهانته ما لم يبلغه أحد قبله ولا بعده.

وملك بعده عنقام الكاهن[٢]، فأقام فيهم عادلاً بينهم رفيقًا بهم، وكانت همته الإصلاح والعمارة والإحسان إلَى الناس.

وفى أيامه رُفع إدريس عليه السلام، وحدثت فى وقته نار فى الهواء أقامت ثلاثة أيّام، وملكهم عنقام إحدى وتسعين سنة وهلك، فأمرهم أن يدفنوه فى الهيكل الّذى عمله للشمس فى جرن من حجر أحمر ويلطخوا جسده بالموميا وتكون أكفانه من ثياب عملها من شعور ذبائح القرابين ويجعل معه شىء من عظامها ويدفن معه سيره، وذكر أيّامه فى مصحف اتّخذه من جلود حيوان القرابين وأمرهم أن لا يقرب بشىء من الذهب ولا الطيب.

وملك بعده ابنه عرباق[٣]، وفى وقته نزل هاروت وماروت وعلّماه أصنافًا من السحر وعملا بمصر عجائب كثيرة، وكانا فى بئر هنالك يقال له ربعوة، وقال أكثر المصريين إنّ هبوطهما كان من بعد الطوفان، ثم انتقلا من أرض مصر إلى أرض بابل.

---

(١) انظر: مختصر البلدان ٥٩.

(٢) فى حسن المحاضرة ١/ ٣٢ «عيقام».

(٣) حسن المحاضرة ١/ ٣٢.

فرفض عرباق الهياكل واستخف بالسدنة، وكان منهمكًا فى الشرب والفسوق يشرب كلّ يوم مائتى رطل ويغتصب النساء علَى أنفسهنّ، ولا يسمع بامرأة حسناء إلاّ نقلها إليه، وقتل مَن رادّه فى ذلك، وأقام يسوم قومه كلّ خسف ثمانين سنة، وكان يسكن الجنّة الّتى عملها نقراوش الملك.

فسمّته امرأة من المغتصبات يقال لها شارد، هكذا فى كتاب الوراثة لهود، وفى كتاب المصريّين هرشة.

وملك بعده لوحيم[١] من ولد نقراوش الملك، فأحسن السيرة وأجهد نفسه فى مصالح الرعية وبدأ بإصلاح الهياكل وتجديد المصاحف، وأمر بإحضار الكهنة والعلماء من أصحاب الطبائع والطبّ والصنائع والنجامة والهندسة، فكانوا سبعة آلاف رجل ومائة وأربعين رجلاً، منهم الكهنة ألفان وثلاثمائة، فيهم من الناظرين وهم رؤساء الكهّان ـ سبعمائة، وبقية العدد حكماء فى جميع الأعمال والعلم.

فأمر بإثبات أسمائهم وإجراء ما يكفى كل واحد منهم، وأمر أن يعمل له كل واحد أغرب ما يقدر عليه من الأعمال، وأمر أن يبنى له بناحية رقودة ـ وهى الإسكندرية مدينة، ميلا فى ميل من رخام ملّون مشقوقة بجميع الأنهار، ويقال إنّ هذه المدينة مدفونة تحت الإسكندرية، وفيها حكم عجيبة.

وفى وقته عملت أصنام درج الفلك ثلاثمائة وستّين صنمًا، وسمّاها أرباب الصناعات لأنّ فى يد كلّ واحد منهم صناعة يعالجها.

وفى وقته عمل بيت الموجة، وصوّرت فيه صورة كلّ كوكب فى كلّ درجة من درج الفلك.

وفى وقته عملت المدينة اللطيفة الّتى تدور عن القاصد إليها فلا يقدر علَى دخولها إلاّ بحكمة قد عملت لها وجعلت إلىَ الوصول إليها.

وعمل فى وقته القبّة التّى عليها الأصنام الموجّهة إلىَ جميع الجهات، وفى أعناقها أجراس، فإذا قصد بلدهم قاصد تحرّكت الأجراس الّتى تلى تلك الناحية وعلَى قدر الزيادة والنقصان فى أصواتها يكون ما يتخوفونه من ضرر ذلك الوجه، فيتأهّبون لإزالته عنهم، وما عملوه بتلك الصور لحق من قصدهم من المكروه

---

(١) فى حسن المحاضرة ١/ ٣٢ «الوخيم بن نتراس».

مثله، وعمل مارستانات جعل فيها جميع الأدوية والعقاقير للمرضى، ولم يترك حالة من وجوه البرّ إلاّ عمله.

وخرج إلىَ ناحية المغرب حتّى بلغ وادى الرمل وعمل هناك منارًا، ويقال إنّه قطع الوادى بالحيلة والسحر حتّى أشرف علَى الفُوه الّتى يعتصر ماء البحر فيها وسمع دويًا عظيمًا أجزعه وهاله، فرجع إلَى أمسوس وسكن الجنّة التى عملها أبوه.

وقد كان زوج هرشة الّتى سمّت عرباق، فولدت له كسفون، فقلّده الملك وطاف به على الهياكل وصوّر صورته فيها، ثم استتر يرصد الفلك حتّى رأى مسير الكواكب، ومات فى استتاره، وكان ملكه إلَى أن قلّد ابنه مائة سنة.

فلمّا ملك كسفون لم تكن له همّة إلاّ الأكل والشرب والنساء، واستوزر سبعة من الكهنة يقيمون أمره، فكان أجلّهم عنده رجل يسمى مزنة وكان له روحانى يتبعه، فأمره بوقود النار والتقرّب إليها، فأعلم بذلك كسفون وقال له: إنّ فى ذلك قوام ملكك، فأطلق له فعله فبنيت بيوت النيران، وعظمت وأقيمت لها الأعياد، فكانت تلك النار لا تضرّ البرىء إذا دخل فيها وتحرق المذنب، فكان الناس يتناصفون قبل الوصول إليها.

وفى وقته كانت سمندارة الكاهنة، وكانت تناله بصنم لها يقال له أبرنج، ولها عرش تجلس فيه، فكانت الشمس لا تصل إليه، وكانت تخبرهم بما يعملون فى بيوتهم وما يجرى بينهم. وبين نسائهم وتجترُّ الأشياء إليها بسحرها ولها مع كسفون خبر طويل، وهى الّتى نفخت فى إحليل فتَى كانت تحبّه فهيّمته، وأخرجها قومها من بينهم إلى ناحية الشام.

وهلك كسفون بعد أن ملكهم سبعًا وسبعين سنة من سقطة سقطها من بناء عال فاندقّت عنقه ومات.

وملك ابنه خصليم[١]، وكان أبوه قد شرك فى الملك بينه وبين ابنته أخت

---

(١) حسن المحاضرة ١/ ٣٣.

خصليم من أمه، وكانت من أعقل أهل زمانها، وهى التى عملت علَى حافة النيل بيتًا من رخام وفى وسطه بركة صغيرة وفيها ماء موزون علَى مقدار معلوم، وعلَى البركة طائران من نحاس علَى صورة عقابين ذكر وأنثى، فإذا كان فى أول الشهر الّذى تسميه القبط بئونة . . وهو الشهر الّذى يزيد فيه الماء ـ فتح الباب وأحضر أمناء الكهّان وتكلّموا بكلام لهم، فيصفّر أحد الطائرين، فإذا صفر الذكر كان الماء زائدًا وإن صفرت الأنثى كان الماء ناقصًا، ثمّ يفتقدون الماء، فكل إصبع يزيد علَى الماء الموزون فهو ذراع من زيادة النيل، وكلّ إصبع ينقص من ذلك الماء فهو ذراع ينقص من ماء النيل، فإن رأوه زيادة مسرفة تفقّدوا الجسور وإن رأوا نقصانًا زادوا فى حفر الترع.

وولّد خصليم من الحمر والبقر دوابًا مركوبة لها قوة شديدة وعمل عجائب.

وتعشّق جارية لأخته يقال لها خولا ووقع بينه وبين أخته نفَارٌ من أجلها، فتحولّت إلىَ شرقى النيل وبنت هناك مدينة لطيفة وهيكلاً تنفردُ فيه حتّى رأت وهى نائمة فى هيكلها الذى بنته للزُّهَرة كانها بين يدى الزُّهَرَة وهى تخاطبها وتقول لها: لأىٍّ شيءٍ وَجَدْتِ على أخيك فى جاريتك فلانة؟ قالت: لأنى أنفت له منها ولم آمن أن تلدَ له فتضع من قدره.

قالت: وأىّ ضعة فى ذلك وأنتم معشر البشر من أب واحد وأم واحدة؟ وإنما تعاليْتُم فاستعبد بعضكم بعضًا، واعلمى أنه لابد لأخيك منها، وأنّه لا يُولدُ له من غيرها، وسيُولدُ له منها وَلَدٌ ويكون مرضيًا عدلاً معظّمًا للآلهة تنزل روحانياتها عليه ويملك الناس دهرًا طويلاً وتكون أيَّامه سعيدة، ولا يزال الناس بعده فى دون أيَّامه إلى أن تكون الآية الحادثة من السَّماء، وإلى كذا وكذا يكون اجتماعهما وتحمل منه بعد كذا وكذا وهو وقت مسعود، وسيراها أخوك فى منامه وتشكو إليه وجدها به، فيزداد شغفه بها وسيذكر لك أمرها فلا تخالفى فيها عليه.

فلمَّا كان بعد حين خاطبها أخوها فيها فعرّفته أنّها لم تكن منعته إلاَّ ضنًا بمثله عنها، إلى أن عرفت أنّه لا يكون له ولد إلا منها، ولعل فى اجتماعهما خيرًا كثيرًا.

وزَيَّنت الجارية بأحسن زينة وأجلّ المتاع وبعثتها إليه، وخلا بها الملك وسُرَّ بها

سروراً مفرطًا وعزم الملك علَى أخته خردادمة أن تعود إلىَ موضعها وتنظر فيما يخصُّ ويعمُّ من أمر المملكة.

وسار إليها جماعة من الكهنة فأعلموها أن قيامها بشأن الرعية وانقيادها لأمر أخيها أَعْوَدُ عليها بما تبتغيه من الأجر، فرجعت إلى دار الملك وكانت تزور موضعها ذلك وهيكلها.

ووضعت خولا للملك ولدًا سماه هرصال أى خادم الزهرة، وشبّ أحسن شباب وطلب الحكمة من كلّ فن فصار من أهلها.

ومات أبوه من سيل أصابه بعد أن ملكهم ثمانيًا وسبعين سنة.

وملك بعده ابنه هرصال(١)، فعمل عجائب منها صنم يدور بدوران الشمس فيمسى مغربًا ويصبح مشرقًا، وتنكر حتى تشق الأمم وتبين اختلاف الأهوية وأخلاق الناس وعجائب البلدان.

ثم انصرف بعد مدّة، وفى أول أيَّامه ولد نوح عليه السلام.

وبعد مائة سنة من ملكه لزم بعض الهياكل متعبدًا وتجلت عليه روحانية الكواكب فيما زعموا، فحجبته عن أعين الناس فلم يعرف له خبر ولا عمل له ناووس وتجلت عليه تلك القوى بعد لزومه الهيكل عشرين سنة.

وبقى الناس بعد ذلك لا يشكون فى حياته سبع سنين إلى أن تشاجر بنوه فاستبان الناس أنه مفقود، وكانت مدة ملكه مائة وسبعًا وعشرين سنة.

ثم ملك الناس بعده ابنه فدرشان(٢) بعد اختلافهم فى أىّ بنيه يملكونه، فغلبت عليه امرأة من نسائه من بنات الكهنة فسحرته فانفردت به، وكان أكثر مقامها معه فى جبل المقطم فى مصانع بناها أجداده على نهر هناك، فتصيّد يومًا بين تلك الجبال فسقط فى وهدة فهلك.

وقد كان أولد الساحرة ولدًا مشوه الخلق، وكانت أمه قد جعلته وقفًا على الشمس وسادنًا لضم الشمس.

---

(١) حسن المحاضرة ١/ ٣٣.

(٢) فى حسن المحاضرة ١/ ٣٣ «قدرسان».

وقد كان وقت هلاك أبيه صغيرًا، فسترت الساحرة موته وكانت تراسل الناس عنه وتوهمهم أنه حيّ، فأقامت على ذلك تسع سنين إلى أن تداعى إخوته بعصيانه، وقد كان غرّبهم ونفاهم، فرجعوا إليه فيمن قدروا من الناس والقائم بأمرهم شمرود بن هِرحبال، فكانت بينه وبين السَّاحرة حروب، ثم غلب على أمسوس دار الملك، فكانت مدة ملك فدرشان إلى أن ملك شمرود أربعًا وثمانين سنة.

فملكهم شمرود وأُيّد وقهرهم وغير معالم أخيه فدرشان وجعل لمن ورد عليه من ولده ما فعل هو بهم، واحتجبت عنه الساحرة وابنها بسحرها فلم يقدر عليها، واحتملت هى وابنها إلى مدينة كان السحرة يجتمعون بها فى ذلك الزمان بناحية أنصنا، فأقامت بينهم وعرّفتهم أنّ ابنها هو الملك وأن أباه قلده ولابد له من الغلبة والقهر.

فصدقتها جماعتهم وبنوا للغلام بنيانًا عظيمًا تحصّن به هو وأمّه، وحصّنت الساحرة تلك المدينة وبنت عليها الطلسمات وأظهرت الأموال ودعت الناس إلى ابنها، فاستفحل أمرها وجيّشت الجيوش إلَى شمرود، فكانت بينهم حروب وضروب من السحر من التصادم فى الهواء وإظهار النيران فى الجو وغير ذلك، وكانت الغلبة لها، فتعلق شمرود ببعض البلاد هو وإخوته وظفرت هى بدار المملكة والجنّة الّتى كانت لهم، وأجلست ابنها على سرير الملك.

وكان اسمه تُسيدون باسم الشمس، ولم تزل فى طلب شمرود إلى أن ظفرت به، فأمرت بشد رأسه بأسطوانة ورجليه بأخرى.

وكان طوله فيما تقول القبط عشرين ذراعًا، فتزعم القبط أنّ السَّاحرة جعلته حجرًا، وقيل أيضًا إنّها كانت تجفّف منه عضوًا عضوًا حتى جفّ كلّه.

ووطّأت الملك لابنها وخرج كاهنًا عرافًا منجمًا، وجلبت إيليس وكان يسعى فى حوائجه وأكثر العجائب عملت فى وقته منها قبة الزجاج الكرية الدائرة بدوران الفلك وفيها صور الكواكب الثابتة والنيرة ودرجها، فكانوا يأخذون الطالع منها، وهذا من عمل الشياطين وغير ذلك مما لا نستجيز ذكره لخروجه عن المعقول.

وبعد ستين سنة من ملكه ماتت الساحرة، وقيل إنها أمرت أن يُحمل جسدُها

تحت صنم القمر فتخبرهم بكلّ ما يسألونه عنه، ففعلوا ذلك وكان كما قالت، وعلّمت ابنها كثيرًا من علمها.

ونكح ابنها أخته فولدت له ولدًا سماه سرياق[1] باسم أحد الأبالسة الّذين تجلّبتهم إليه.

ولما علم بحضور وفاته أمر أن يعُمل له صورة صنم من زجاج علَى شقّتين ويوضع فى إحداهما ويطبق عليه الأخرى ويلحم بزجاج ولا يوضع علَى جسده غير لطوخ الموميا والعقاقير الممسكة، وأن يوضع ذلك الصنم الهيكل مع الأصنام القائمة الناطقة.

وملك ابنه سرياق وعمل عجائب، منها أنّه عمل علَى كل مدينة من مدنه صورة بطّة من نحاس، فإذا جاء الغريب ليدخل إليها صرخت تلك البطّة وسفقت بجناحيها، فيُعلم أن غريبًا دخل فَيُطْلَب.

وإنما فعل ذلك لأنّ بعض الملوك أراد غدره، فظفر به سرباق وملكهم مائة وثلاث سنين.

ثمّ ملك أخوه شهلوق، وهو الّذى رتب مراتب الناس وقسم ماء النيل أقسامًا، ورتّب علَى أهل كل صناعة رئيسًا، وأقام سحرة لقسم الطرقات على الوحش فلا يسلك بعضها طريق بعض، وأقام لجميع أسباب الضرر طلسمات بدفعها ولم يترك شيئًا فيه خير وفضل إلاّ عمله.

فلما تفرغ من ذلك انفرد لجمع العلوم وتخليدها فى الكتب وكنز الكنوز، وكنز خمسة وأربعين كنزًا.

وملكهم مائة وتسع سنين.

ثمّ ملك ابنه سوريد صاحب الأهرام، قد تقدّم ذكره.

وملك بعده أخوه هرجيت، وهو أول من كسا الهرمين بألف ألف ثوب فى عرض كثير وطول كبير إعظامًا لأبيه وأخيه، وفى زمنه ابتدأ عقم النساء لما تقارب من وقت هلاك الأمة.

---

(١) قارن حسن المحاضرة سرقاق ١/ ٣٣.

وملك بعده ابنه مناوش[١]، فظلم وسفك الدماء واغتصب مائة وسبعين امرأة واستخرج كثيرًا من كنوز أبيه، فبنى منها قصورًا ورصّعها بالجوهر والياقوت وعمل فيها بركًا صبّ فيها الجواهر وأرسل عليها المياه، واستجهل من مضَى من آبائه، واستعبد الناس واستخف بالهياكل.

وفى زمنه كان فرناس الّذى كان يعد بألف رجل وحده وكان يقاتل أمة وحده، وكان من رجاله، وقد وفد عليه من بقية ولد آدم، وكان يختطف الرجل بيده فيضرب به الجماعة فيقتلهم معًا.

وأقام مناوش ملكًا ثلاثًا وثلاثين سنة.

وملك بعده أخوه أَفْرَوُس[٢] فترك الظلم وتحبّب إلَى الناس وعمل عجائب، منها قبة فى الجنة التى كانت لنقراوش لطخها بلطوخات، فإذا كان الليل اشتعلت نار ترى علَى البعد واتقدت إلى الصبح، فإذا طلعت الشمس ارتفع ذلك الوقيد.

وطلب النسل من ثلاثمائة امرأة فلم يقدر عليه لأن أرحام النساء عقمت.

وفى وقته شاع خبر نوح عليه السلام وإنكاره للأصنام. وملك أربعًا وتسعين سنة ولم يكن له ولد ولا أخ.

فارتضى الناس من أهل بيت المملكة أرمالينوس[٣] فشرك فى أمره فرعان بن مسور من بنى عمه، وكان أحد الجبابرة فرعان هذا ومن رؤساء السحرة، فقهر له أعداءه وفتح البلاد، فبعثت فيه امرأة من نساء الملك ووافقته على أن تقتل الملك بالسم ويلى فرعان الملك ففعلت.

وملك فرعان وتجبر وعلا وقهر، وأصل الفراعنة مشتق من اسمه.

وكتب إلَى فرعان درمشيل بن عويل الأكبر يذكر له خبر نوح أنه قد ظهر، فكتب إليه فرعان يشير عليه بقتله، فهلك هو ودرمشيل فى الطوفان، والله بغيبه أعلم.

---

(١) حسن المحاضرة ١/ ٣٣.

(٢) حسن المحاضرة ١/ ٣٣.

(٣) فى حسن المحاضرة ١/ ٣٣ «مالينوس».

ذكر أول من نزل مصر بعد الطوفان

وأول من نزلها بعد الطوفان مصريم بن بيصر بن حام[١] بن نوح بدعوة سبقت له من جده.

وروى عن ابن عبّاس أنّه قال: دعا نوح عليه السلام لمصريم بن بيصر بن حام ابن نوح، وهو أبو القبط، فقال: اللّهمّ بارك فيه وفى ذريته وأسْكنْه الأرض المباركة الّتى هى أم البلاد وغوث العباد والّتى نهرها أفضل أنهار الدُّنيا، واجعل فيها أفضل البركات وسَخِّرْ له ولولده الأرض وذَلِّلْها لهم وقَوِّهم عليها.

وكان السبب فى نزوله إياها أنّ فيلمون الكاهن سأل نوحًا عليه السلام أن يخلّصه بأهله وولده بعد أن صدّقه وآمن بالله.

فلمّا انجلى الطوفان قال له: يا نبىّ الله اجعل لى رفعة وقدرًا أذكر به بعده.

فزوّج نوح بيصر بن حام من بنت فيلمون، فولدت له ولدًا سماه فيلمون مصريم باسم جده.

فلما أراد نوح قسمة الأرض بين بنيه قال له فيلمون: يا نبىّ الله إنّ بلدى أولَى الناس به ابنى، فابعثه معى وأمضى به إليه وأظهره علَى كنوزه وأوقفه علَى علومه ورموزه.

فأنفذه معه ومع جماعة من أهل بيته ذوى أيدٍ وقوة، فقطعوا الصخور وبنوا المعالم والمصانع.

وقيل إنّ عددهم كان ثلاثين رجلاً وبنوا مدينة سموها ماقة، ومعنَى ماقة بلغتهم ثلاثون، وهى مَنْف[٢].

وكشف فيلمون عن كنوز مصر وعلّمهم خط البرابى وأبان لهم المعادن من الذهب والزبرجد والفيروزج وغير ذلك وأطلعهم علَى عمل الصنعة، فجعل الملك

---

(١) عن ابن لهيعة فى فتوح مصر ٢٧ وقارن بحسن المحاضرة ١/ ٣٤ ومختصر كتاب البلدان ٥٩.
(٢) فتوح مصر ٢٨.

أمرها إلى رجل من أهل بيته يقال له مقيطام، فكان يعمل الكيمياء فى الجبل الشرقى، فسمّى به المقطم.

وتزوج مصريم امرأة من بنات الكهنة، فولدت له أربعة نفر منهم قفطيم.

وإليه عهد بعد موته، وأمره أن يحفر له تحت الأرض سربًا ويفرشه بالمرمر الأبيض ويجعل جسده فيه ويدفن معه جميع ما فى خزائنه.

فحفروا له سربًا طوله مائة وخمسون ذراعًا وجعلوا فى وسطه مجلسًا مصفّحًا بصفائح الذهب، له أربعة أبواب علَى كل باب تمثال من ذهب عليه تاج مرصع بالجوهر، جالس علَى كرسى من ذهب قوائمه من زبرجد، ونقشوا فى صدر كل تمثال آيات عظامًا واسمًا من أسماء الله تعالى مانعة من أخذه.

وجعلوا جسده فى جرن من زبرجد مصفح بالذهب ورمزوا على مجلسه: مات مصريم بن بيصر بن حام بعد سبعمائة سنة مضت من أيام الطوفان، ومات ولم يعبد الأصنام، إذ لا هرم ولا أسقام، ولا حزن ولا اهتمام، وحصن مجلسه هذا باسماء الله العظام، لا يصل إليه إلاّ ملك ولد له سبعة ملوك، يدين بدين الملك الديّان ويؤمن بالمبعوث بالقرآن الداعى إلَى الإيمان الطاهر فى آخر الزمان.

وجعلوا معه فى ذلك المجلس ألف قطعة من الزبرجد المخروط وألف تمثال من الجوهر النفيس وألف برنية مملوءة درًا من الدر الفاخر، ووضعوا هناك الصنعة الإلاهية والعقاقير السريه والطلسمات العجيبة وأكوام سبائك الذهب بعضها علَى بعض، وسقفوا ذلك بالصخور العظام وجعلوا فوقها الرمال بين جبلين متقابلين بينهما علامات.

وولى ابنه قفطيم[1] الملك بعده وأقباط مصر بنوه، وهو أول من عمل العجائب وشق الأنهار ولحق البلبلة وخرج منها بهذه اللغة القبطية، وملكهم ثمانين سنة، ودفن فى سرب تحت الجبل الكبير الداخل وصفح بالمرمر وجعلت فيه منافذ للريح، فهى تتخرّق فيه بدوىّ عظيم هائل وجعلت أكراس نحاس مطلية بأدوية مشعلة لا تطفأ أبدًا، ولطخوا جسده بالّمر والكافور والموميا، وجعلوه فى جرن من ذهب فى ثياب منسوجة بالدر والمرجان، وكشفوا عن وجهه، والجرن تحت قبَّة

(١) فتوح مصر ٢٨.

عظيمة على عمد مرمر ملونة، وفى وسط القبّة جوهرة معلّقة كالسراج المضىء، وبين كلّ عمودين تمثال فى يده أعجوبة، وجعلوا حول الجرن توابيت مملوءة جوهرًا ودرًا نفيسًا ومصاحف الحكمة، وسدّوا على جميع ذلك الصخور والرصاص ورمزوا عليه كما رمزوا علَى ناووس أبيه.

وتولى بعده ابنه قفطويم[١]، وكان جبارًا عظيم الخلق، وفى أيَّامه هلكت عاد بالريح.

وبقى ملكًا أربعمائة سنة، وكان قد عمل لنفسه قبل موته سربًا تحت الأرض معقودًا علَى آزاج فى الجبل الغربى قرب مدينة العمد، ونقر تحت الجبل كهيئة الدار العظيمة، وجعل تحت دورها خزائن واسعة منقورة، وجعل فى أعلاها مسارب الرّياح، وبلطت جميع الدار بالمرمر.

وجعل فى وسط الدار مجلسًا مثمنًا ملونًا مصفحًا بالزجاج الملون والذهب، وجعل فى سقفه جوهرًا وحجارة تسرج، وفى كلّ ركن من أركان المجلس تمثال ذهب بيده كالبوق الّذى يبوق به، وجعل تحت القبّة دكة مصفحة بالذهب مطوقة بالزبرجد، وفرش فوق الدكّة خزّا منسوجًا بالذهب، وجعل جسده عليها بعد أن طلى بالأطلية المجففه وجعل حواليه آلات كافور مخروطة، وسدلت عليه ثياب منسوجة بالذهب، ووجهه مكشوف وعلى رأسه تاج مكلّل وعلَى صدره من فوق الثياب سيف صاعقى قائمه زبرجد، وعلَى جوانب الدكّة أربعة تماثيل مجوفة من زجاج مسبوك فى صور النساء وألوانهنّ وبأيديهن كالمراوح من ذهب.

وجعل فى تلك الخزائن من الزبرجد والياقوت والذهب المسبوك وفاخر الجوهر والدرر بربى الحكمة وأصناف العقاقير والطلسمات والمصاحف والحاوية لجميع العلوم ما لا يحصى قدره كثرة.

وجعل علَى مدخل كل أزج صورتين من نحاس مشوهتين بأيديهما سيفان كالبرق، وقدامها بلاطة تحتها لوالب، فمن وطئها ضرباه بسيفيهما فقتلاه.

وسدت أبواب الآزاج بالأساطين المرصعة ورصوا علَى سقف البلاط بالصخور العظام وردموا فوقها الرمال ورمزوا علَى باب الأزج: هذا المدخل إلَى جسد الملك

---

(١) فتوح مصر ٢٩.

العظيم المهيب الكريم السيد قفطويم ذى الأيد والفخر والغلبة والقهر، فلا يصل أحد إليه ولا يقدر عليه، أَفُلَ شخصه وجسمه، وبقى ذكره وعلمه.

ثمّ ملك بعده ابنه البودشير، وهو الذى بعث هرمس المصرى إلى جبل القمر الذى يخرج النيل من تحته حتى عمل له هناك هيكل التماثيل من النحاس وعدل البطيحة التى ينصبّ إليها ماء النيل، وعدل جنبى النيل وقد كان يغيض وربما انقطع فى مواضع.

والبودشير هو الذى أمر بعمارة بلاد الواحات فى المغرب وحول إليها جماعة من أهل بيته، فعمروها.

وكانت أرضًا واسعة متخرقة بالمياه والعيون كثيرة الكلأ والعشب، وأقاموا كذلك مدة وخالطهم البربر ونكح بعضهم فى بعض، ثم وقع بينهم تحاسد وبغى وجرت لهم حروب، فخرب البلد وباد أهله إلا بقية يسيرة.

وللبودشير فى السحر عجائب سيأتى ذكر شىء منها بعد هذا إن شاء الله.

ثم ملك بعده ابنه عديم وهو أول من صلب، وذلك أن امرأة ورجلاً زَنَيا فأمر بصلبهما على منارين بنيا لهما، وجعل ظهر كلّ واحد منهما إلى ظهر صاحبه، وزبر على المنارين اسميهما وما فعلا وتاريخ الوقت الذى عملا ذلك فيه، فانتهى الناس عن الزنا.

وناووس عديم هذا من أعاجيب الدنيا، وهو فى صحراء قفط على وجه الأرض، قبّة عظيمة من زجاج أخضر قطرها مائة ذراع براق معقود على ثمانية آزاج، وارتفاع القبّة فى الهواء أربعون ذراعًا يخضرّ بخضرتها ما حولها من الأرض، وعلى رأس القبّة طائر من ذهب منشور الجناحين موشح بجوهر يمنع من الوصول إليها وجسده فى وسط القبّة على سرير من ذهب مشبّك، وهو مكشوف الوجه عليه ثياب منسوجة بالذهب، منظومة بالجوهر، وفى جنبات القبّة مائة وسبعون مصحفًا من مصاحف الحكمة وسبع موائد عليها آوانيها، منها مائدة من أدرك رومانى أحمر وأوانيها منها، ومنها مائدة ذهب فليمونى تخطف الأبصار، وهو الذهب الذى يعمل منه تيجان الملوك وآنيتها منها، ومنها مائدة من حجر الشمس المضىء بآنيتها، ومائدة من الزبرجد الذى يخالط لونه شعاع أصفر بآنيتها.

وهذا الزبرجد إذا نظرت إليه الأفاعى سالت عيونها، ومائدة كبريت أحمر مدبّر على ما ذكروه من تدبيره فى مصاحف حكمتهم بآنيتها، ومائدة من ملح أبيض برّاق يكاد نوره يخطف الأبصار بآنيتها ومائدة من زئبق أحمر معقود، وحافتاها وقوائمها من زئبق أصفر معقود وآنيتها من زئبق أحمر معقود.

وجعل فى القبّة معه جواهر عظيمة وبرابى صنعة مدبرة، وجعل حوله سبعة أسياف صاعقية وكاهنية، وجعل معه تماثيل أفراس من ذهب عليها سروج من ذهب وعدّة توابيت مملوءة من الدنانير التى ضربها وصوّر عليها صورته.

وقد ذكر من رأى القبّة وأقاموا عليها أيّامًا، فما قدروا على الوصول إليها وأنهم إذا قصدوها وكانوا على مقدار ثمانية أذرع منها دارت القبّة عن أيمانهم وشمائلهم وقد عاينوا ما فيها.

ومن أعجب ما فيها أنّهم كانوا يحازون آزاجها أزجًا أزجًا فلا يرون من أزج من الآزاج إلا مثل الذى يرون من الآخر على معنى واحد لا يختلف.

وذكروا أنهم رأوا وجهه فى قدر ذراع ونصف بالذراع الكبير ولحيته كبيرة وقدروا طول بدنه عشر أذرع وزيادة ورأوا بها عجائب عظيمة.

ثم ملك بعده ابنه شدات، وهو أول من اتّخذ الجوارح للصيد وولد الكلاب السلوقية من الذئاب والكلاب، وعمل البيطرة وعلاجات الدوابّ، واتخذ من الطلسمات والمصانع ما لا يحصى كثرة، وجمع التماسيح بطلسم عمله لها فى بركة بناحية أسيوط وكانت تنصب إليها من النيل انصبابًا، فيقتلها ويستعمل جلودها فى السفن وغيرها.

وعمل صورة صنم قائم له إحليل ظاهر، إذا أتاه المعقود والمسحور والمعترض ومن لا ينتشر فمسحه بكلتا يديه أنعظ وذهب ما به.

وعمل صورة بقرة لها ضرعان كبيران إذا مسحت عليها المرأة التى لا يدرّ لبنها درّ لبنها لحينه.

فأقام شدات تسعين سنة ملكًا.

وخرج يطرد صيدًا فأكبّه فرسه من وهدة فقتله.

وكان قبل ذلك قد خالفه بعض خدمه فى أمر، فألقاه من أعلى جبل إلى أسفله فتقطع جسده وندم على فعله ذلك، فرأى أنّه سيصيبه مثله.

فكان يتوقى أن يعلو جبلاً أو شرفًا، وأمر أن يجعل ناووسه فى الموضع الذى يلحقه فيه ما يلحقه ويزبر عليه: ليس ينبغى لذى القدرة أن يخرج عن الواجب ولا يفعل ما لا يجوز له فعله.

هذا ناووس شدات الملك، عمل ما لا يحل له فكوفئ عليه بمثله.

ثم ملك بعده منقاوش ابنه، وهو الذى نشر الحكمة فى الناس وبثّ منها ما كان مكتومًا، وأمر بنسخ مصاحفها بخطوط العامة ليتعلّموها.

وهو أول من عمل الحمّام من ملوك مصر، ويقال إنّه هو الذى بنى مدينة منف لبناته وكن ثلاثين بنتًا، ورحلن إليهن.

وكان له عدة من النساء من بنات عمّه وبنات الكهنة.

وعمل تمثالا روحانيًا من صفر مذهب، فكان لا يمر به زان ولا زانية إلا كشف عورته بيده.

فكان الناس يمتحنون بذلك، فامتنعوا من الزنا.

وبنى هيكلاً للسحرة على جبل القصير وقدّم عليهم رجلاً منهم، وكانوا لا يطلقون الرياح للمراكب إلا بضريبة يأخذونها من أهلها.

وكان إذا ركب عملوا بين يديه التخاييل الهائلة فتعجب الناس من أعمالهم.

وقسم خراج البلد أرباعًا، وكان منتهاه حينئذ مائة ألف ألف وثلاثة آلاف ألف، فربع للملك خاصة يصرفه فيما يشاء، وربع لأرزاق جنده، وربع ينفقه فى مصالح الأرضين والمدن وما يحتاج إليه من عمل جسور وحفر خليج وبناء آبار وتقوية أهلها على العمارة، وربع يكنز ويدفن عدة للملك.

وهلك منقاوش بعد إحدى وسبعين سنة من ملكه من طاعون أصابه، وقيل سمّ فى طعامه، وعمل ناووسه فى صحراء المغرب.

ثمّ ملك بعده ابنه مناوش؛ وهو أوّل من عبد البقر، وذكروا أنّ السبب فى ذلك أنه كان اعتلّ علّة يئس فيها من نفسه، وأنه رأى فى منامه صورة روحانى

عظيم يخاطبه ويقول له: لا يخرجك من علّتك إلا عبادتك للبقر لأنّ الطالع كان عند حلولها به فى صورة ثور بقرنين.

فأمر بأخذ ثور أبلق حسن الصورة، وعمل له مجلسًا فى قصره عليه قبّة مذهبة ووكل به سادنًا، وكان يبخره ويطيبه ويتعبد له سرًا من أهل مملكته.

فبرئ من علّته وعاد إلى أحسن أحواله.

وقال آخرون إن السبب فى ذلك أنه كان أوّل من عملت له العجل ورصعت بالذهب وعملت له عليها قباب من خشب وفرشت بفاخر الفرش، وكانت البقر تجرّه، فإذا مرّ بالمكان النزه أقام فيه، وإن مرّ بالمكان الخرب أمر بعمارته، وقيل إنه نظر إلى ثور من البقر التى كانت تجره أبلق حسن الشبه، فأمر بترفيهه وسوقه بين يديه، وجعل عليه حللاً من فاخر الديباج، فتفرّد به يومًا ينظر إليه، فبينما هو قائم بين يديه إذ خاطبه الثور فقال: لو رفهنى الملك كفيتُه جميع ما يريد وعاونته على أموره وقوّيتُه على ملكه وأزلت عنه جميع علله.

فارتاع الملك لذلك وأمر به حينئذ أن يغسل ويطيّب ويدخل الهيكل، وأمر بعبادته، فأقام ذلك الثور يعبد مدّة وكانت فيه آية: لا يروث ولا يبول ولا يأكل إلا أطراف ورق الشجر فى كل شهر مرّة.

فافتتن الناس به وصار ذلك أصلاً لعبادة البقر.

ثم إن ذلك الثور بعد مدة من عبادته أمرهم أن يعملوا صورته من ذهب أجوف وتؤخذ من رأسه شعرات ومن ذنبه ومن لحاء قرونه شيء، ومن أظلافه وتجعل فى ذلك التمثال، وعرّفهم أنه يلحق بعالمه، وأمرهم أن يجعلوا جسده فى جرن من حجارة وينصب فى الهيكل وينصب تمثاله عليه، ويكون ذلك وزحل فى شرفه والشمس مسعودة تنظر إليه من تثليث والقمر زائد، وتنقش على التمثال علامات الكواكب السبعة، ففعلوا ذلك.

وعملت صورة الثور من ذهب وكلّلت بأصناف الجواهر وصنعوا سائر ما أمرهم به فى الوقت الذى حدّه لهم.

فكانت تلك الصورة تخبرهم بالعجائب وما يحدث وقتا وقتا وتجيبهم عن جميع ما يسألونه، وعظم أمر ذلك التمثال ونذرت له النذور وقربت له القرابين وقصده

الناس من الآفاق، وكان يخبرهم بما يريدون.

وبنى فى صحراء الغرب مدينة يقال لها ديماس، وقد جاز بها قوم ضلّوا الطريق، فسمعوا بها عزيف الجنّ.

ورأوا ضوء نيرانهم.

وأقام مناوش ملكًا تسعًا وثلاثين سنة وعهد إلى ابنه مرنيش، وكان مضعفًا لم يعمل فى وقته أعجوبة، وبقى ملكًا إحدى عشرة سنة.

وانتقل الملك إلى أشمون[1] بن قفطيم أخى قفطويم، وكان ينزل الأشمونين سماها باسمه، وكان طولها اثنى عشر ميلاً فى مثلها، ونقل إليها أهله وولده.

وهو اتّخذ الملاعب بأنصنا، وبنى البهنسا وغيرها من المدن وأكثر فيها من العجائب.

والقبط تقول إنه أكثر ملوكهم أعجوبة وسحرًا وأطول ملكوهم مدّة، ملك ثمانمائة سنة وثلاثين سنة، وانتزع قوم عاد الملك منه بعد ستمائة سنة من ملكه، فاستوبئوا بلده وانتقلوا إلى الدثنية من طريق الحجاز إلى وادى القرى، فعمروها واتخذوا بها المنازل، فسلّط الله عليهم الذرّ فأهلكتهم.

فعاد ملك مصر إلى أشمون وبنى مدينة فى المشرق فى سفح الجبل سماها أوطيراطيس وجعل لها أربعة أبواب على كلّ باب منها طلسم، وأسكنها الروحانيون بسحره، فكانت تنطق إذا قصدها القاصد وتخبره بما يريد ولا يقدر على الدخول إليها إلا بإذن الموكلين بها.

وجعل فيها شجرة يطلع فيها كلّ لون من الفاكهة، ومنارًا فى وسطها طوله ثمانون ذراعًا على رأسه قبّة تتلون كل يوم لونًا حتى تمضى سبعة أيام، ثم تعود إلى اللون الأول، فتكسو المدينة تلك الألوان.

وأسكنها السحرة وكانت تعرف بمدينة السحرة ـ وهى معنى أوطيراطس ـ ومنها كانت تخرج أصناف السحر.

---

(١) هو أشمن بن مصر فى فتوح مصر ٢٩.

وهو أول من عمل النيروز إكراما للكواكب، ودفن فى أحد الأهرام الصغار القبلية.

وملك بعده ابنه أشاد، وكان جباراً معجبًا، أكثر همه اللهو واللعب والنساء، فجمع كل مُلْهٍ، وقصده من الأقطار كل من هذه سبيلُه، ورفض العلوم والهياكل والكهنة، وملك خمسًا وسبعين سنة.

وملك بعده ابنه صاه[١].

وبعض القبط يزعم أن صاه ابن مرقونيس أخى أشاد، فنفى الملهين وردّ الكهنة إلى مراتبهم، وهو بنى أكثر مدينة منف، وبنى فى أقصى الواحات مدينة جعل طول سورها فى الارتفاع خمسين ذراعًا وأودعها أموالاً وحكمًا كثيرة، وهى التى وقع عليها موسى بن نصير فى زمن بنى أمية وغلب عليها الرمال، وكانت تحت الأرض.

وكانت مدة حياته وسنّه ستمائة سنة وسبعين سنة، وناووسه فى وسط منف تحت الأرض والمدخل إليه من خارج المدينة فى غربيها، وكان فيه أربعة آلاف تمثال من ذهب مختلفة الصور بريّة وبحرية وأموال عظيمة وجوهر كثير.

وعهد إلى ابنه ندراس[٢]، وكان محكمًا مجربا ذا أيد وقوة، وبنى غربى منف بيتًا عظيمًا للزهرة رمز فيه العلوم وكساه الحرير وعمل له عيدًا عظيمًا، وكان صنم الزهرة من لازورد مذهب متوّج بذهب يلوح، وسوَّره بسوارى زبرجد أخضر، وكان فى صورة امرأة لها ضفيرتان من ذهب أسود مدبر، وفى رجليها خلخالان من حجر أحمر شفاف ونعلان من ذهب، وفى يدها قضيب مرجان، وهى تشير بيدها كالمُسلّمة على من فى الهيكل.

وحذاءها مطهرة من أخلاط الأجساد على عمود من مرمر مجزع، وفى المطهرة ماء مدبر للزهرة يستشفى به من كلّ داء، وجعل فيه كراسى الكهنة مصفحة بالذهب والفضّة، وكان يقرّب له ألف رأس من الضأن والوحش والطير.

---

(١) فتوح مصر ٢٩.

(٢) فى فتوح مصر ٢٩ «تدارس بن صا».

وكان فى قبة منه صورة زحل راكب على فرس له جناحان ومعه حربة فى سنانها رأس إنسان معلّق.

وبقى هذا الهيكل إلى زمان بخت نصر وهو الذى هدمه.

وعلى رأس ثلاثين سنة من ملكة طمع الزنج والنوبة فى أرضه فخرجوا إليها وعاثوا فيها، فجمع الجيوش وغزاهم فى البرّ ثلاثمائة ألف وفى البحر ثلاثمائة سفينة، فى كلّ سفينة كاهن وساحر يعمل أعجوبة من عجائب السحر، فلقوا جيوش السودان فى زهاء ألف ألف، فهزموهم وقتلوهم أقبح قتل وأسروا منهم خلقًا كثيرًا عظيمًا.

ثم ملك بعده ماليق بن ندراس[1] وكان موحّدًا على دين قفطيم ومصريم، وكانت القبط تذمّه لذلك، وكانت عبادتهم للكواكب والبقر.

وكان يستعمل الغزو والجولان فى البلاد ليغيب عن أهل مصر، وزعم بعض أهل مصر أن الله أيده بمَلَك من الملائكة يعضده ويرشده، وربما أتاه فى نومه فأخبره ونهاه وأمره، وهو جمع الجيوش واتّخذ فى بحر المغرب أربعمائة سفينة، وغزا جموع البربر برًا وبحرًا فهزمهم واستأصل أكثرهم، وبلغ إلى إفريقية وقتل أكثر أهلها وسار منها.

وكان لا يمرّ بأمّة إلاّ أبادها إلى أن غزا من ناحية الأندلس يريد إفرنجة، وكان بها ملك عظيم يقال له أرقيوش، فحشد عليه أمما نواحيه وأقام يحاربه شهرًا، ثم طلب سِلْمَهُ وأهدى إليه هدايا كثيرة فسار عنه.

ودوّخ الأمم المتصلة بالبحر الأخضر وأطاعه أكثرها، وعمل أعلامًا على البحر زبر عليها اسمه وخرب مدن البربر حيث كانت، وألجأهم إلى ذُرى الجبال، ورجع فتلقاه أهل مصر بصنوف اللهو والطيب والرياحين وفرشت له الطرقات، ودخل قصره موفورا.

وأمر أن يعمل له ناووس، فكان يحضره ويتعبد فيه، وأمر أن لا يدفن معه ذهب ولا جوهر، فلم يدفن معه سوى الطيب وصفيحة مكتوبة بخطّه فيها: هذا

(١) هو ماليق بن تدارس فى فتوح مصر ٢٩.

ناووس الملك ماليق، مات مؤمنا بالله لا يعبد معه غيره بريئًا من الأصنام وعبادتها، مؤمنًا بالبعث والحساب والمجازاة على الأعمال، فمن أحب النجاة من عذاب الآخرة فليدِنْ بما دان به.

واستخلف بعده ابنه حريبًا[١]، وقد شرح له التوحيد وأمره أن يدين به ونهاه عن عبادة الأصنام، وكان معه على ذلك فى حياته، ثمّ رجع عنه بعد وفاته إلى دينهم.

وكان سبب رجوعه إلى عبادة الأصنام أن أمه كانت من بنات كبير من الكهان نقلته بعد موت أبيه إلى دينها، وكان ليِّنا سهل الخلق مجيبا.

وكان ملك من ملوك الهند يقال له مسور خرج على عهد حريبا، فعمل حريبا مائة سفينة على سفن الهند وتجهّز. وحمل امرأته معه، وكانت من بنات عمّه قد غلبت عليه وهام بها بسحر قهرمانة كانت له، وكانت تسمى أسيوط، ساحرة لا تطاق، وكانت أوحشت ما بين الملك وأمه لتستبدّ امرأته به، فآلى فى غزوته أن ينصرف فى البلاد ولا يرجع إلى مصر أو تموت أمه.

ففعل ذلك، وغزا بلاد الهند، واستخلف على مصر ابنه كلكلن وجعل معه وزيرًا من الكهان يقال له ويسموس، فخرج ومرّ على ساحل اليمن وعاث فى سواحله وبلغ سرنديب، فأوقع بأهلها وغنم منها أموالاً عظيمة، وحمل معه حكيمًا لهم، وكان لا يأخذ مدينة إلا أقام بها صنما وزبر عليه اسمه ومسيره ووقت أخذه لذلك الموضع.

وجعل ينتقل فى تلك الجزائر عدة سنين، ويقال إنه أقام فى سفره سبع عشرة سنة ورجع إلى مصر غانمًا موفورًا بعد أن هلكت أمه.

وهابته الملوك، وبنى عدة هياكل وأقام بها أصنامًا للكواكب لأنها هى التى أيدته فى سفره بزعمه وأظهر الحكيم الذى حمل من الهند بمصر عجائب مشهورة، وحمل معه صنمين من أصنام الهند من الذهب مرصعين بالجوهر ونصبهما فى

(١) فتوح مصر ٢٩.

بعض الهياكل، وكان حكيم الهند يقوم بهما ويخدمهما ويقرب لهما على رسمه، وكان يخبرهم بما يريدونه منهما.

وغزا حريب الشام، فأدّى إليه أهلها الطاعة، وأخاف النوبة والسودان فصالحوه على خراج يحملونه إليه.

وأقام فى ملكه خمسًا وسبعين سنة وعمل لنفسه فى صحراء الغرب ناووسًا على نحوما تقدم ذكره من نواويس آبائه.

وملك بعده ابنه كلكلن[1] فعقد تاج الملك على رأسه بالأسكندرية بعد موت أبيه وأقام بها شهرًا ورجع إلى منف.

وكان يحب الحكمة وإظهار العجائب وتقرب أهلها، ولم يزل يعمل الكيمياء طول ملكه، فخزن أموالاً عظيمة واستغنى أهل ذلك الزمان عن معادن الذهب، فلم يثيروها ولم يكن الذهب قطّ أكثر منه فى وقته.

وكان يطرح المثقال الواحد على القناطير الكثيرة فيصبغها وتحكى القبط عنه أنه اخترع أشياء تخرج عن العقل حتى كانوا يسمونه حكيم الملوك، وغلب على جميع الكهنة فى علومهم حتى كان يخبرهم بما يغيب عنهم، فخافوه واحتاجوا إلى علمه.

وفى وقته كان نمرود إبراهيم عليه السلام.

وكان جبارًا مُشَوَّه الخلق يسكن سراة العراق، وكان قد أوتى قوة وبطشا فغلب على أكثر الأرض، فاستزار النمرود كلكلن فوجه إليه كلكلن أن يلقاه منفردًا عن أهله وحشمه بموضع كذا، فسار النمرود إلى الموضع الذى ذكره، فأقبل كلكلن تحمله أربعة أفراس ذوات أجنحة، وقد أحاط به نور كالنار وصور مهيبة قد خيل بها، وهو متوشح تنِّينًا عظيمًا والتنين فَاغِرٌ فاه، ومعه قضيب آس، فكلما رفع التنّين رأسه ضربه بالقضيب.

فلما رآه النمرود هاله أمره واعترف له بجليل حكمته وسأله أن يكون له ظهيرًا.

فزعم القبط أن كلكلن كان يجلس على الهرم الغربى فى قبّة تلوح على رأسه

---

(١) فتوح مصر ٢٩.

ويجتمع أهله وحشمه ورعيته حول الهرم، ويزعمون أنه أقام على رأس الهرم أيامًا لا يأكل ولا يشرب، واستتر عنهم مدة حتى توهموا أنه هلك، وهابته الكهنة هيبة لم تهبها أحدًا قبله حتى صورته فى هياكلهم.

وبنى فى آخر زمانه هيكلاً لزحل من صوان أسود وجعل له عيدًا، وجعل فى وسطه ناووسه وحمل إليه ما أراد من الذهب والجوهر والحكم، وعرفهم بموته وجعل على الناووس طلسمات مالغة وغاب عنهم فلم يقفوا على شىء من أمره ولا عرفوا موته.

وعهد إلى أخيه ماليا[1]، وكان همه فى الأكل والشرب والرفاهية غير ناظر فى شىء من الحكمة، وإنما استقام له الأمر مدة كونه فيهم لهيبة أخيه كلكلن وتقديرهم أنه لم يمت.

وكان أكبر بنيه يقال له طوطيس، وكان يستجهل أباه، فأعمل الحيلة فى قتله وحملته على ذلك أمه وبعض وزراء أبيه، فهجم على أبيه فى رواقه وهو سكران، فقتله وقتل معه امرأة كانت له من بنات ملوك منف كانت قد غلبت عليه، وحمته النساء فقتلها وصلبها، ثم جلس على سرير الملك، وكان جبارًا جريئًا شديد البأس مهيبًا، والقبط تزعم أنه أول الفراعنة بمصر وأنه فرعون إبراهيم عليه السلام وأن الفراعنة سبعة هو أولهم.

واستخفف بأمر الهياكل والكهنة.

وكان إبراهيم عليه السلام من كوثى من سواد العراق، فلما هرب من النمرود حذر إن أقام بالشام أن يلحقه قومه فيردوه إلى النمرود، فاستمر إلى مصر فجرى له ما هو مذكور عند ذكر إبراهيم، وأخدم سارة بهاجر.

وإنما سمى فرعون لأنه أكثر القتل حتى قتل قرابته وأهل بيته وخدمه ونساءه وكثيرًا من الكهنة والحكماء، وكان حريصًا على الولد، فلم يرزق غير ابنته حوريا، وكانت تسدده كثيرًا وتمنعه من أمور سوء يريدها، فلما رأت أمره يزداد فسادًا خافت على زوال ملكهم فسمته بعد أن ملكهم سبعين سنة.

وتنازعوا تمليكها.

(١) فتوح مصر ٢٩.

ثم اجتمعوا عليها إلا أهل مدينة أبريت، فإنهم ملّكوا عليهم رجلاً من ولد أبريت بن مصريم بن بيصر بن حام الذى سميت به المدينة يقال له أنداحس، وجرت بينهم حروب كانت الدائرة فيها على أنداحس ففر إلى الشام وبها الكنعانيون من ولد عمليق، فاستغاث بملكهم وأخبره بأمره وقرّب عليه أمر مصر وسهل تصييرها إليه، فجهز معه جيشًا عظيمًا إلى مصر واستقود عليه رجلا يقال له جيرون.

فلما قرب من مصر بعثت حوريا ظئرا لها إلى جيرون تستجلبه وتظهر الميل إليه والمحبة فيه وأنها داخلة فى طاعته، تعرفه وصيتها بتزويجها لأنها لا تختار أحدًا من أهل بيتها وأنها إن قتل أنداحس تزوّجت وصيرت إليه ملك مصر ومنعت منه صاحبه.

فلما بلغ ذلك جيرون سرّ سرورًا عظيمًا ورغب فيه وسمّ أنداحس بسمّ أنفذته إليه فقتله.

فبعثت إليه أنه لا يجوز لى أن اتزوجك حتى تظهر فى بلدى قوتك وحكمتك وتبنى لى مدينة عجيبة أدخل عليك بها، فإنى أكره أن أدخل عليك فى مدينتى وبين أهلى وأهل بلدى، وإن مدينة حصينة كانت لأوائلنا قد خربت، فاقصد موضعها واظهر حكمتك فيها.

فمضى وجدّ فى عمل الإسكندرية، وبعثت إليه مائة ألف ألف عامل، فأقام فى بنائها مدة وأنفق جميع ما كان معه من الأموال.

فلما فرغ من بنيان المدينة وجه إليها يعلمها ويحثها على القدوم إليه.

فوجهت إليه فرشا فاخرة وآلات عجيبة وقالت: أقسم جيشك أثلاثًا وانفذ إلى ثلثى حتى إذا بلغت ثلث الطريق فانفذ الثلث الثانى، فإذا بلغت نصف الطريق فانفذ الثلث الثالث، فيكون من ورائى لئلا يرانى أحد.

فإذا دخلت إليك فلا يكون عندك إلا صبية يخدمونك.

ثم أقامت تنفذ إليه الجهاز والأموال حتى علم مسيرها، فوجه إليها ثلث جيشه.

فعملت لهم الأطعمه والأشربة والطيب المسموم، فلم تصبح منهم عين تطرف.

فسارت ثم فعلت بالثلث الثانى كذلك، ثم بالثلث الثالث كذلك.

وهى توجه إليه: إنما أنفذت الجيش إلى مصر يحفظونها، إلى أن دخلت إليه هى وظئرها وجوارٍ كن معها.

فارتعدت مفاصله وخدرت قواه ولم يملك من نفسه شيئًا فقال: من ظن أنه يغلب النساء فقد كذب نفسه، ثم فصدت عروقه وأسالت دمه حتى مات نزفا وقالت: دماء الملوك شفاء.

وأخذت رأسه فوجهت به إلى قصرها فنصبته عليه وحملت بيوت الأموال إلى منف، وبنت منار الإسكندرية، وزبرت عليه اسمها واسمه وما فعلت به وتاريخ الوقت.

ولما اتصل خبرها بالملوك الذين يتاخمون بلدها هابوها، وأقطعت أهل بيتها وقوادها وحشمها أقطاعًا كثيرة، وبنت حصنًا على حدّ مصر من ناحية النوبة وأجرت ماء النيل إليه تحت قنطرة.

واعتّلت حوريا ولم يكن فى زمانها أحد من ولد أبيها ولا أهل بيتها يصلح للمُلْك، فقلدت المُلْك ابنة عمها دليقة بنت فاقوم ورفعت إليها مفاتيح خزائن الأموال وأطلعتها على مواضع الكنوز وأماكن الخبايا وهلكت من علّتها.

فخرج على دليقة أيمين الأتريبى يطلب ثأر خاله أنداحس، فاستنصر بملك العمالقة صاحب الشام، فجدّ فى نصره لفعل حوريا بقائده، وجرت بينه وبين دليقة حروب كثيرة وأخبار طويلة كان الظهور فيها لأيمين لأجل ساحر كان معهم من أهل قفط لا يقوم له أحد غلب بسحره دليقة.

فكان أصحاب دليقة إذا هرب أصحاب أيمين أظهر بسحره نارًا تحول بينهم وبين أصحاب دليقة، وتسمع أصوات تفزع القلوب وتؤلم الإسماع.

فلما أيقنت دليقة بالغلبة وقد حسرها أيمين بقوص سمّت نفسها فهلكت.

ثم إن أمير العمالقة غلب على مملكة مصر، وهو الوليد بن دومغ العملقى[١]، وأباد الأمم حتى بلغ جبل القمر الذى ينبعث النيل منه، وإنما سمى جبل القمر لأن

---

(١) فتوح مصر ٣٢و ٣٣.

القمر لا يطلع عليه لأنه خارج عن خط الاستواء، وبلغ هيكل الشمس فدخله وبلغ أرض الذهب، وهو قضبان نابتة، وهى آخر بلاد علوة.

واستعبد الوليد القبط وملكهم مائة وعشرين سنة.

وركب فى بعض الأيام متصيّدًا، فوقص به فرسه فقتله، ودفن فى بعض الأهرام.

وملك ابنه الريان بن الوليد[1]، وهو فرعون يوسف عليه السلام، والقبط تسميه نقراوش، وكان عظيم الخلق جميل الوجه عاقلاً محسنًا إلى الناس، أسقط عنهم الخراج ثلاث سنين وفتح الخزائن وفرّق أكثر ما فيها على الناس، فأحبّوه وشكروا أيامه، إلا أنه مال إلى الراحات وغلبت عليه اللذات، وملك أمر الناس رجلاً من أولاد الوزراء من أهل بيته يقال له أظفير، وهو الذى يسميه أهل الأثر العزيز.

وكان عاقلاً حصيف الرأى نزيه النفس مؤثرًا للعدل، وأمر أن ينصب له فى قصره سرير من فضة يجلس عليه ويكون الكتّاب وجميع الوزراء بين يديه.

فكَفى نقراوش أحسن كفاية وقام بجميع أموره، ونقراوش غير ناظر فى شىء من أمور الناس.

وقد عملت له مجالس الزجاج الملون والبلّور المصبوغ، وأرسل حولها المياه ووضع فيها السمك، وكان إذا وقعت عليه الشمس أرسل شعاعًا عجيبًا يبهر العيون.

وعملت له عدة منتزهات على عدد أيام السنة ينتقل كل يوم إلى منتزه منها معلوم اليوم.

ثم يعود الدور فى أول السنة الثانية تمّ عددها، وفى كل موضع منها من الفرش والآنية ما ليس فى غيره.

فلما اشتغل عن أمور الناس واتصل نزهه طمع فيه ملوك النواحى، فقصده رجل من ملوك العمالقة يقال له علكن بن شجوم ويكنى أبا قابوس، فأنفذ إليه

(١) فتوح مصر ٣٣.

العزيز جيشًا فأقام يحاربه ثلاث سنين، ثم كان الظفر للعملقى، فدخل حدود مصر وعاث فى أرضها وهدم مصانع كثيرة، فضجّ أهل مصر واجتمعوا إلى قصر الملك، فسمع ضوضاءهم وسأل عن شأنهم، فأخبر بأمر العملقى وما انتهى إليه حاله وأنه قاصد قصر الملك.

فارتاع لذلك الريان واستيقظ من غفلته وانتبه من سِنَته، فعرض جيشه وأصلح أمره وخرج إلى العملقى فى سبعمائة ألف مقاتل سوى الأتباع.

فالتقوا من وراء الأجواف فى تلك الصحراء، فاقتتلوا قتالا شديدًا، وانهزم العملقى واتبعه نقراوش إلى حدود الشام وقتل فى أصحابه وأسر، وقيل إنه بلغ إلى الموصل وضرب على أهل الشام خرجًا.

ثم انصرف واستعد لغزو ملوك المغرب فخرج فى تسعمائة ألف واتصل بالملوك خبره، فمنهم من تنحَّى عن طريقه ومنهم من دخل تحت طاعته.

فأتى إفريقية وقرطاجنة فصالحوه على شىء يؤدونه إليه، ومر حتى بلغ مصبّ البحر الأخضر إلى بحر الروم، وهو موضع أصنام النحاس وأقام هناك صنما وزبر عليه اسمه.

وضرب على أهل تلك النواحى خرجًا وعبر إلى الأرض الكبير وإفرنجة والأندلس، وصاحبها لذريق الأصغر، فحاربه وقتل من أصحابه جماعة وصالحه على ذهب مضروب عليهم، وانصرف راجعًا وجاز حتى عبر البحر مشرقًا، فشقّ بلاد البربر، فلم يمر بموضع إلا أهدوا إليه ودخلوا فى طاعته ولا بأمة إلاّ أثر فيها إلى أن بلغ بلاد النوبة، فصالحهم على مال يحملونه إليه، ثم أتى دمقلة.

فأقام بها علمًا وزَبَرَ عليه اسمه، ثم انصرف إلى منف، فهناك تلقّاه جميع أهل طاعته مع العزيز بأصناف الرياحين والطيب والملاهى والهدايا، وأقام هناك مع الناس يأكلون ويشربون أيامًا كثيرة فى مصانع أعدّها له العزيز من الزجاج الملون مفروشة بالفرش المذهبة قد غرس حولها جميع الرياحين والأشجار الطيبة.

وفى أيامه كان من أمر يوسف عليه السلام ما كان وخبره مع امرأة العزيز هذا، وهى زليخا ابنة صاحب عين شمس، ثم تزوجها يوسف ﷺ بعد ذلك.

وقيل: إنّ نقراوش آمن بيوسف وكتم إيمانه خوفًا من فساد ملكه.

وهو الذى امتحن يوسف ليعلم مبلغ علمه، فأمره بعمل الفيوم لابنته وكانت مغايض ماء النيل، والنيل لا يجرى حينئذ، فأقامها وبنى اللهون وأتى بتلك الحكمة المعجزة والآية البينة فى أربعة أشهر، وقيل فى سبعين يومًا، وشق تلك الخلج الثلاثة وكان ذلك ابتداء جرى النيل.

فلما نظر إليه الملك قال لوزرائه: هذا عمل ألف يوم[1].

فسميت الفيوم.

ذكر ذلك عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم عن هشام بن إسحاق.

* * *

ذكر ما نقله القبط من أمر يوسف عليه السلام

قالوا: «أدخل مصر غلام من أهل الشام، احتال عليه إخوته وباعوه، وكانت قوافل الشام تعرّس بناحية الموقف اليوم، فأوقف الغلام، ونودى عليه وهو يوسف عليه السلام، فبلغ وزنه ذهبًا وورقًا، فاشتراه أطفير العزيز، ليهديه إلى الملك».

فلما أتى به منزله، ورأته امرأته زليخا بنت صاحب عين شمس، بنت عمّ أطفير، قالت له: «اتركه لنا نُربّيه»، ففعل، فكان من أمر افتتانها به ما نَصَّه الله ـ تعالى ـ فى كتابه.

وكانت تكتم ذلك حتى غلب الأمر عليها، فجاءت له، وتزيّنت له، وعرّفته أنها تحبُّه، وأنّه إن واتاها على ما تدعوه إليه جاءته بمال عظيم، وأحلَّته المحلّ الكريم، فامتنع عليها، ورامت أن تقبّله، ولم تزل تمارسه وهو يمتنع بجهده، إلى أن أتى زوجها، ووافقه وهو هارب منها.

وكان زوجها عِنِّينًا، لا يأتى النساء، فجعل يوسفُ يعتذر إليه، وقالت هى: «كنت نائمة، فأتانى يراودنى عن نفسى»، ففطن أن الأمر منها، فقال ليوسف:

---

(١) فتوح مصر ٣٥.

﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾[١]؛ أى عن اعتذارك، وقال لها: ﴿استغفرى لِذَنْبِكِ﴾[٢].

واتصل خبر زليخا ويوسف بنساء أصحاب الملك، فَخضْنَ فيه، وقد كان خبر الغلام بلغ الملك، وابتياع أطفير له، وسأل عنه فأنكره، ومنعه الخروج عن قصره، وكان محجوبًا لا يراه أحد.

والملكُ غير عادل عن العكوف على لذاته، والاحتجاب عن الناس فأحْضَرَتْ جماعةً منهنّ وأحضرت لهن طعامًا وشرابًا، وجلست فى مجلس حذاء مجلس، مذهبين جميعًا، وفرشتهما بالديباج الأصفر المذهب، وأسدلت عليهما ستور الدّيباج المذهب، وأمرت المواشط بتزيين يوسف، وإخراجه إلى المجلس الذى كانت مع النسوة فيه، وكان ذلك المجلس محاذيًا للشمس.

فنظم المواشط شعر يوسف بأصناف الجواهر، وألبسنه ثوب ديباج أصفر منسوج بذارات حمر مذهبة، فيها أطيار صغار خضر مبطن ببطانة خضراء، وأكمامه جوهر ملون، ومن تحته غلالة حمراء، ووضعن على رأسه تاجًا منظومًا بدرّ وجوهر نفيس، وأخرجن من تحته طُرَز شعر على جبهته، ورددن ذوائبه على صدره، وعقربن صدغيه على خديه، وكحلن عينيه، ودفعن إليه مذبّة ذهب شعرها أخضر.

فلما أكلن وفرغن من طعامهن، أحضرت الشراب والفاكهة، وسقتهن أقداحًا، وقدمت إليهن سكاكين، نصبها جوهر، فقالت لهن: «اقطعن من هذه الفاكهة»، وقيل إن الذى كان بين أيديهن أترج، وهو المتكأ.

فلما أخذن فى شربهن، قالت لهن: «قد بلغنى ما خِضْتُنّ فيه من أمرى مع عبدى»، قلن لها: «الأمر كما بلغك؛ لأنك أعلى قدرًا من هذا، وأنت تجلّين عن أولاد الملوك، فكيف رضيت بغلامك؟» فقالت: «لم يبلغكن الصدق عنى، ولو كان لكان أهلاً لذلك».

ثم أرسلت إلى المواشط فى إخراجه، ورفعت ستور المجلس الذى يحاذى

(١) سورة يوسف، آية ٢٩.

(٢) سورة يوسف، آية ٢٩.

مجلسها، وأقبل يوسف خارجًا منه، مستقبلاً للشمس، فأشرق المجلس وما فيه من وجه يوسف وما عليه، وأرسل ذلك شعاعًا كاد أن يخطف أبصارهن.

وأقبل يوسف والمذبّة معه، وهنّ يَرْمُقْنَه حتى وقف على رأسها يذبُّ عنها، وهى تخاطبهن، وهن لا يفهمن خطابها؛ للذى أذهلهن من النظر إليه، فقالت: «ما لكن قد اشتغلتن عن خطابى بالنظر إلى عبدى»[١].

قلن لها: «معاذ الله، ما هذا عبدك، وما هذا إلا ملك كريم»، ولم تبق منهن واحدة إلا حاضت وأنزلت شهوةً من محبّته، فقالت لهن زليخا عند ذلك: ﴿فَذَلِكُنَّ الذى لُمْتُنَّنى فيه﴾[٢]، فقلن: «ما ينبغى لأحد أن يلومك بعدها، ومن لامك فقد ظلمك، فدونكه»، قالت: «قد فعلت فأبى علىّ، فخاطبنه لى».

فكانت كل واحدة منهن تخاطبه وتدعوه سرًا إلى نفسها، وتبذل له، وهو يمتنع منها، فإذا يئست منه لنفسها خاطبته لزليخا، ووعدته بالحظوة والرفعة والأموال، فيقول: «ما لى بذلك من حاجة».

فلما رأين ذلك أجمعن على أخذه غصبًا، فقالت زليخا: «لا يحسن ذلك، ولا يقع موقعًا، ولكنه إن لم يفعل لأمنعنه اللذات، ولأسجننه»، فقال يوسف ـ عليه السلام ـ: ﴿رَبّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يدْعُونَنى إليه﴾[٣].

وأقسمت بإلاهها ـ وكان صنمًا من زبرجد أخضر باسم عطارد ـ أنه إن لم يفعل ذلك لتجعلنَّ به ذلك، فأبَى عليها، فأمرت بنزع ثيابه وألبسته الصوف، وسألت زوجها حبسه؛ ليزول عنها ما قذفت به، فمال إلى قولها؛ ليميط عن أهله القبيح، وينفى عنها المقالة، فأمر به فحبس فى السجن سبع سنين[٤].

فرأى الملك فى منامه كأن آتيًا أتاه، فقال: «إن فلانًا وفلانًا قد عزما على

(١) فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةَ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتْ اخْرُجِ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ للهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [سورة يوسف، آية ٣١].

(٢) سورة يوسف، آية ٣٢.

(٣) سورة يوسف، آية ٣٣.

(٤) فذلك قوله تعالى ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ سورة يوسف، آية ٣٥.

قتلك»؛ يريد صاحبى طعامه وشرابه، فلما أصبح قررهما، فاعترف أحدهما، وأنكر الآخر، فأمر بحبسهما.

وكان اسم صاحب الطعام راشان، وصاحب الشراب مرطش[١]، فأخبرا يوسف برؤياهما كما نطق به القرآن، ثم أُخْرِجا من السجن.

فقُتل الذى أقَرَّ، ونجا الذى لم يقر وهو صاحب الشراب، فلما رأى الملك رؤياه فى البقر، عرَّفه الساقى خبر يوسف، فأرسل إليه إلى السجن ففسرها له.

وقيل إن الملك قال للرسول: «سله عن الرؤيا قبل أن تقصها عليه»، ففعل، فأعلمه بها، وعبر له عن معناها، فقال الملك عندها: «جئنى به»، فقال يوسف: «لا أخرج حتى يكشف أمر النسوة اللواتى من أجلهن حُبست»، فلما كشف عن ذلك، واعترفت زليخا بالقصة، وجّه إليه الملك فأخرجه، وأمر بغسله من درن السجن، وألبسه من ثياب الملوك.

فلما دخل عليه ورآه، امتلأ به سرورًا، وألقيت عليه منه محبة، وسأله عن الرؤيا، ففسرها له كما قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فى كتابه، فقال له الملك: «ومن يقوم لى بذلك؟» فقال: «أنا، فإنى عليم به»، فخلع عليه، وألبسه تاجًا، وأمر أن يركب معه الجيش، ويطاف به فيرد إلى قصر الملك، ويجلس على سرير العزيز- وكان العزيز قد هلك ـ فاستخلفه الملك على ملكه، وسماه العزيز مكانه، وزوجه امرأته، فقال لها يوسف: «هذا أصلح مما أردت»، فقالت: «اعذرنى؛ فإن زوجى كان عنّينًا، ولَمْ تَرَكَ امرأةٌ فى حسنك وهيئتك إلاَّ صبا قلبهُا إليك»[٢].

فلما جاء سِنو الخصب، أخذ يوسف فى توفير الغلات، والاستكثار من الأقوات، ثم جعل فى سنى الجدب لما نقص النيل، وتوالى نقصانه، يحسن التدبير

---

(١) قال السيوطى الفتيان هما: مجلب ونبوا الدر المنثور ٤/ ٥٣٥.

(٢) فذلك قوله تعالى ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ، فَلَمَّا جَاءَ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاتى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتنَّ يُوسُفَ عَنْ نفسه قُلْنَ حَاشَ لله مَا عَلِمْنَا عليه من سُوءٍ، قالَت امْرَأَتُ العزيزِ الآنَ حَصْحَصَ الحق أَنَا رَاوَدْتُه عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّه لمِنَ الصَّادقين، ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنى لَمْ أَخُنْهُ بالغَيْبِ وَأَنَّ الله لاَ يَهْدِى كَيد الخائنين﴾ [سورة يوسف، الآيات ٥٠ـ٥٢].

والسياسة، ولولا ذلك لهلك الناس.

فصار إلى يوسف بما باع من الطعام جميع أموال أهل مصر من الذهب والفضة والجوهر والثياب والدواب والآنية والعقار.

وقحط أهل الشام عند ذلك، فكان من أمر يوسف مع إخوته ما قَصَّ الله ـ تعالى ـ فى كتابه.

ووجه يوسف إلى أبيه، فحمله من الشام بجميع أهله، وخرج فى وجوه أهل مصر وكبرائهم، فتلقَّاه وأدخله على الملك، وكان يعقوب ـ عليه السلام ـ نبيًا جميلاً، فقرَّبه الملك، وأحبه وأعظمه، وكان له يومئذ عشرون ومائة سنة، فأقام يعقوب مع نقراوش، يعظّمه ويجلّه، ويعقوب يدعوه إلى توحيد الله، ونبذ الأصنام والآلهة، ويوسف يعقبه بمثل ذلك، فيقال إنه آمن وكتم إيمانه خوفًا من فساد مُلْكِه.

ولم يزل يعقوب مكرمًا معظمًا عنده حتى حضرته الوفاة فى حياة نقراوش، فأوصى أن يُدْفنَ بمكانه من الشام، فوُضِع فى تابوت، وخرج معه يوسف وكبار أهل مصر حتى بلّغوه إلى موضعه، فمنعهم عيصو من دفنه هناك؛ لأن إسحاق وهب له الموضع، فاشتراه يوسف منهم، ودفن فيه يعقوب، ووُلِد ليوسف بمصر.

وملك نقراوش مائة وعشرين سنة، كما تقدم، وكان من أمر ابنه مع يوسف ما ذكرناه.

واستوزرَ دارم[1] بعد يوسف رجلاً من الكهان يسمى بلاطش، فأطلق له ما كان يوسف يحذره عنه، وحمله على أذى الناس، وأخذ أموالهم، وغلبتهم على كلّ امرأة حسناء يسمع بها فى النواحى.

ومكث كذلك زمانًا قد بلغ من الناس أشد مبالغ الأذى ونال منهم كل مكروه، حتى ركب يومًا فى النيل متنزهًا، فعصفت به ريح أغرقته ومن كان معه، واستراح الناسُ من شَرِّه.

وملك بعده ابنه معدايوس، وهو خامس الفراعنة، وأهل مصر يسمونه معدان،

(١) مروج الذهب ١/ ٣٧٣.

فأسقط عن الناس الخراج، وأحسن فيهم السيرة، ولزم الإقبال على الهياكل والتعبّد لها.

فتذكر القبط أنه كان يومًا فى هيكل زحل وحذاء صورته، وكان قد جهد نفسه فى التعبُّد له إلى أن تغشّاه نور، وتجلّى له زحل وخاطبه فقال له: «قد جعلتك ربًا، وحبوتك بالقدرة، وسأرفعك إلىَّ، فلا تَخْلُ من ذكرى»، فأخبر الناس سدنة الهيكل بما رأوه من النور، وسمعوا من الخطاب، فأعظم الناسُ أمرَه، وسموه ربًا بأمر زحل.

فجمع الناس، وقال لهم: «قد وقفتم على ما خصصت به دون الملوك، وهذه موهبة يلزمنى الشكر عليها لواهبها، ولست أتفرغ للنظر فى أموركم، وقد جعلت أمر الملك إلى ابنى أقشامش، وأكون من ورائه إلى أن يغيب شخصى عنكم كما وعدت، وقد أيدته بالناظرين، فانظروا كيف تكونون فإنكم منّى بمرأى ومَسْمع»، فرضوا ذلك.

وجلس أقشامش[1] على سرير الملك، وتتوج بتاج أبيه، وهو الذى يسميه أهل الأثر كاشم بن معدان بن دارم بن الريان بن الوليد بن دومع، وهو سادس الفراعنة.

وسُمّوا فراعنة بفرعان الأول، فصار اسمًا لكل من تجبَّر وعلا أمره.

واحتجب معدايوس أبوه عن الناس.

وكان أقشامش أول من ذَلَّل الإسرائيليين للقبط، وقال للقبط: «هم عبيد لكم»، حتى صار رجالُهم خدمًا لرجالهم، ونساؤهم خدمًا لنسائهم، وإنْ ضرب الإسرائيلى القِبْطِىّ قُتِل به.

وقيل إن منارة الإسكندرية بنيت فى زمانه، وإنه هو الذى جعل عليها المرآة.

وكان قد استوزر رجلاً من أهل بيت المملكة يقال إنه من ولد أشمون الملك، يسمى طلمى بن قومس[2]، وكان شجاعًا حكيمًا، كاهنًا داهية.

---

(١) فتوح مصر والمغرب ٣٩ـ٤٠.

(٢) فتوح مصر والمغرب ٤٠.

فتغيب أقشامش بعد إحدى وثلاثين سنة من ملكه، وطلمى يدبر أمر المملكة، فيقال إنه سلب عقله، ويقال إن طلمى سمَّه وقتله؛ لأن نفسه كانت تنازعه الملك.

فلما فقد الناس الملك اضطربوا على طلمى، وتغيروا عليه، فولّى لاطش بن أقشامش، وأجلسه على سرير الملك، وألبسه التاج.

فاستقر له الأمر، وكان حدثًا معجبًا، فصرف طلمى عما كان عليه من خلافته، واستخلف رجلاً يقال له لاهوف من ولد ندراس الملك، وتجبر ودعا إلى عبادته، وأمر أن يجلس أحد فى قصره، لا كاهن ولا غيره، بل يقوموا على أرجلهم إلى أن ينصرفوا.

وزاد فى أذى الناس، والعسف بهم، وَرَتَّبَهم على الأبواب، وجمع أموالهم وكثرها، وطلب النساء وابتزّ منهن خلقًا كثيرًا، وفعل من ذلك أضعافًا مما فعله من تقدم ذكره، واستعبد بنى إسرائيل، وهو الذى تذكر القبط أنه فرعون موسى، فأما أهل الأثر فيزعمون أنه الوليد بن مصعب العملقى[1].

وقد تنازع الناس فيه، فمنهم من رأى أنه من العماليق، ومنهم من رأى أنه من لخم من بلاد الشام، ومنهم من رأى أنه من الفرس من مدينة إصطخر.

وقد زعم قوم من الأعاجم أنه من الأندلس من مدينة قرمونة، ومنهم من رأى أنه من القبط من ولد مصريم بن بيصر، والقبط تثبت ذلك، ونسبه ونسب أهل بيته مشهور عندهم، وتقول إن دليل ذلك ميله إليهم، ونكاحه فيهم.

وذكر قوم أنه دخل مدينة منف على أتان تحمل خباءً أحمر ليبيعه، وكانوا قد اضطربوا فى تولية ملك، فأجمعوا على أن يملّكوا عليهم أول من يطرأ من الناس، فكان هذا.

فبذل الأموال، ورغب من أطاعه، وقتل من خالفه، وبنى المدن، وخندق الخنادق، وبنى الحصون على حدود مصر.

واستخلف هامان، وكان منه بقربى، وهو حفر خليج سردوس، وهو أول من عرَّف العرفاء على الناس، وكان من أمره مع موسى ـ عليه السلام ـ ما هو مذكور فى موضعه.

(١) فتوح مصر والمغرب ٤٠.

ذكر فتح مصر

قال عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم[١]: «لما كانت سنة ثمانى عشرة، وقدم عمر ـ رضى الله عنه ـ الجابية، خَلاَ به عمرو بن العاص، وكان قد دخل مصر فى الجاهلية، ودِيارها، وعرف أحوالها، فجعل يعظّم عنده أمرها، ويهوّن عليه فتحها، حتى ركن لذلك عمر، وعقد له على أربعة آلاف رجل كلهم من عكة، ويقال ثلثهم من غافق.

فقال له عمر: «سيروا وأنا مستخير الله، وسيأتيك كتابى سريعًا ـ إن شاء الله، فإن أدركك كتابى آمرك فيه بالانصراف عن أرض مصر قبل أن تدخلها، فانصرف، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك، فاستعن بالله واستنصره»[٢] فسار عمرو بن العاص من جوف الليل، ولم يَشْعُرْ به أحدٌ.

واستخار عمر (رضى الله عنه) فكأنه تخوَّف على المسلمين، فكتب إلى عمرو أَنْ ينصرف بمن معه، وأدركه الكتاب وهو برفح، فتخوّف عمرو إن قرأ الكتاب أن يكون فيه أمر بالانصراف كما عهد إليه.

فلم يأخذ الكتاب من الرسول، ودافعه حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش، فسأل عنها فقيل له إنها من مصر، فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين، ثم قال عمرو لمن معه: «ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر؟»، فقالوا: «بلى»، قال لهم: «فإن أمير المؤمنين عهد إلىّ إن لحقنى كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع إليه، وإن كتابه لم يلحقنى حتى دخلنا أرض مصر، فسيروا وامضوا على بركة الله تعالى»[٣].

قال[٤]: «فلما بلغ المقوقس أمر عمرو توجّه إلى الفسطاط، وكان يجهز إلى

(١) فتوح مصر والمغرب ٧٦ـ٧٧.
(٢) فتوح مصر والمغرب ٧٧.
(٣) فتوح مصر والمغرب ٧٨.
(٤) فتوح مصر والمغرب ٧٩.

عمرو الجيوش، وقال جماعة من مشايخ أهل مصر إن أسقفًا كان بالإسكندرية للقبط يقال له أبو بنيامين، لما بلغه قدوم عمرو إلى مصر، كتب إلى القبط يعلمهم أن ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقى عمرو.

فأول موضع قوتل فيه عمرو «الفرما»، قاتله فيه الروم نحوًا من شهر، ثم فتحها الله عليه، فيقال إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا لعمرو أعوانًا لما أعلمهم به أبو بنيامين(١).

ثم تقدم عمرو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف، حتى فتح بُلْبَيْس(٢) وأم دنين، وكتب إلى عمر يستمده، فأمده بأربعة آلاف.

ثم سار عمرو إلى الحصن، وقد خندقوا حوله وجعلوا للخندق أبوابًا، وجعلوا حسك الحديد موتدة بأفنية تلك الأبواب.

وكان عمرو يفرق أصحابه ليرى العدو أنهم أكثر مما هم، ويغدو فى الأسحار فيصفّهم على أبواب الخندق، وعليهم السلاح.

ثم قدم على عمرو الزبير بن العوّام فى اثنى عشر ألفًا، فتقوّى المسلمون، وجعل عمرو يلح عليهم بالقتال، ووضع المنجنيق على الحصن، وكان عمرو إنما يقف تحت راية بَلِيّ.

قال: «وكانت أمه بلوية»، قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: «هذا من قائله وهم، وإنما هى عنزية».

فلما أبطأ الفتح على عمرو قال الزبير ـ رضى الله عنه ـ: «أنا أهب نفسى لله، وأرجو أن يفتح الله بذلك للمسلمين»، فوضع سلمًا إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمّام، ثم أمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعًا، فما شعروا إلا والزبير واقف على رأس الحصن يكبّر، والسيف فى يده، فتحامل المسلمون على السلم، حتى نهاهم عمرو خوفًا من أن يكسر، فهرب أهل الحصن جميعًا، وعمد

---

(١) أبو بنيامين: أُسقُف للقبط بالإسكندرية، لمّا بلغه قدوم عمرو بن العاص إلى مصر، كتب إلى القبط يعلمهم أن لا تكون للروم دولة، وأن مُلكهم قد انقطع، ويأمرهم بتلقى عمرو، فيقال: إن القبط الذين كانوا بالفَرَما كانوا يومئذ لعمرو أعوانًا. فتوح مصر والمغرب ٨٠.

(٢) فى بلبيس استمر القتال نحوًا من شهر. فتوح مصر والمغرب ٨٠.

الزبير إلى باب الحصن، ففتحه واقتحمه المسلمون[١].

ثم حاصر المسلمون باب أليون[٢]، وبه أكابر الروم والقبط ورؤساؤهم، وعليهم المُقَوْقِس، فقاتلوهم بها شهراً.

فخاف المقوقس على نفسه ومن معه، فتنحى المقوقس وجماعة من أكابر القبط، وخرجوا على الباب القبلى، وترك هناك جماعة يقاتلون، فصار بالجزيرة ـ موضع دار الصناعة اليوم ـ وأمر بقطع الجسر، وذلك فى مجرى النيل.

فأرسل المقوقس إلى عمرو: «إنكم قد دخلتم فى بلادنا، وطال مقامكم بأرضنا، وإنما أنتم عصبة يسيرة، وقد أظلتكم الروم، جهزوا إليكم الجيوش، وقد أحاط بكم هذا النيل، وإنما أنتم أسارى فى أيدينا، فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم، فعسى أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب، وينقطع عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم، فتندموا»[٣].

فردّ عمرو مع رسله أنه ليس بيننا وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال: إما دخلتم فى الإسلام وكنتم إخواننا، وكان لكم ما لنا، وإن أبيتم أعطيتم الجزية عن يد **﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾** وإما جاهدناكم بالصبر والقتال **﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾**.

فلما جاءت رسل المقوقس إليه، قال: «كيف رأيتموهم»، قالوا: «رأينا قومًا الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة، إنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على الرُكَب، وأميرهم كواحد منهم، يغسلون أطرافهم بالماء، وإذا حضرت الصلاة لا يتخلف عنها أحد منهم، يتخشعون فى صلاتهم».

فقال المقوقس: «والذى يُحْلَف به، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لزلزلوها، وما

---

(١) فتوح مصر والمغرب ٨٥.

(٢) بابليون: اسم مدينة مصرية وجدت فى القرون الوسطى جنوبى موقع القاهرة، ويراد بهذا الاسم المدينة القديمة والحصن الذى أقامه الرومان، لا تزال بقايا هذا الحصن باقية إلى اليوم فى قصر الشمع. سقط فى قبضة العرب فى ٩ أبريل ٦٤١. الموسوعة العربية الميسرة ١/٢٩٦.

(٣) فتوح مصر والمغرب ٨٧.

يقوى على قتال هؤلاء أحد، وإن لم يغتنم صلح هؤلاء القوم وهم محصورون بهذا النيل، لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض»[١].

وكان ذلك وقت خروج النيل وفيضه، والمسلمون قد أحدق بهم الماء من كل جهة، ولا يقدرون على النفوذ إلى الصعيد ولا غيره من القرى.

وبعث عمرو إليهم عشرة نفر، أحدهم عبادة بن الصامت[٢]، وأمره أن يكون متكلم القوم، وأن لا يجيبهم إلى شيء إلا إلى إحدى هذه الثلاث خصال.

فركبوا السفن إلى المقوقس، فدخلوا عليه، فتقدم عبادة بن الصامت، فهابه المقوقس لسواده، وقال: «نَحُّوا عنى هذا الأسود وقدّموا غيره»، فقالوا جميعًا: «إن هذا الأسود سيدنا، وأفضلنا رأيًا وعلمًا».

فكلمه عبادة، فازداد المقوقس له هيبة، وقال لأصحابه: «لقد هبت منظره، وإن قوله عندى لأهيب، وإن هذا وأصحابه إنما أخرجهم الله لخراب الأرض، وما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها».

فقال له المقوقس: «يعطى كل رجل منكم دينارين دينارين، فأميركم مائة دينار، وخليفتكم ألف دينار»، فلم يجبه عبادة إلا على إحدى الثلاث خصال[٣].

فقال المقوقس لأصحابه: «ما ترون؟»، فقالوا: «أما ما أرادوا من دخلونا فى دينهم فهذا ما لا يكون[٤]، نترك دين المسيح إلى دين لا نعرفه، وأما ما أرادوا أن يجعلونا عبيدًا أبدًا فالموت أيسر من ذلك، ولو رضوا منا أن نضعف لهم ما أعطيناهم كان أهون علينا».

فانصرف عبادة، ولم يتفقوا على شيء.

وألح المسلمون فى القتال، حتى أذعن المقوقس بالجزية عن القبط خاصة،

---

(١) نفسه ٨٧ ـ ٨٨.

(٢) هو عبادة بن الصامت بن قيس بن أحرم بن فهر بن قيس ثعلبة الخزرجى شهد بدرًا والمشاهد كلها بعد بدر، وشهد فتح مصر وكان أمير ربع المدد ترجمته فى الإصابة ٢/ ٢٦٨ـ٢٦٩ ورقمها ٤٤٩٧.

(٣) فتوح مصر والمغرب ٨٨.

(٤) فتوح مصر والمغرب ٨٩ـ٩١.

والروم مخيّرون فى المقام على مثل ذلك، أو الخروج إلى أرض الروم.

فأحصى يومئذ من بمصر، أعلاها وأسفلها، من القبط خاصة، ورفع ذلك عرفاؤهم بالأيمان المؤكدة، فكانوا ستة آلاف ألف ممن بلغ الحلم، سوى الشيخ الفانى، والصغير والنساء.

ففرض على كل نفس دينارين دينارين، فكانت فريضتهم اثنى عشر ألف ألف دينار، ثم كانت بمن استقر هناك من النصارى، وساكنيهم من النوبة، خمسين ألف ألف دينار.

وجعل عمرو يبحث عن الأموال، ويضمها إلى بيت المال، وذكر لعمرو أن عند عظيم الصعيد مالاً، فبعث إليه، فقال: «ما عندى مال»، فسجنه، فسأل عمرو من يدخل عليه هل يسمعونه يذكر أحدًا، قالوا: «نعم، راهبًا بالطور»، فبعث عمرو، فأوتى بخاتم المسجون، وكتب كتابًا على لسانه بالرومية، وختم عليه، وبعث به إلى الراهب، فأتى بقلّة من نحاس مختومة برصاص، فإذا فيها كتاب، فيه: «يا بنى آدم إذا أردتم ما لكم فاحفروا تحت الفسقية».

فبعث عمرو أمناء إلى الفسقية ـ وهى السقاية ـ فحفروا، واستخرجوا خمسين أردبًا من دنانير، والأردب قنطار ونصف.

***

ذكر الفسطاط [1]

وإنما سميت مصر الفُسْطَاط؛ لأن عمرو بن العاص لما أراد التوجه إلى الإسكندرية لقتال من بها من الروم، أمر بنزع فسطاطه، فإذا فيه يمام قد فرَّخ، فقال عمرو ـ رضى الله عنه ـ: «لقد تحرّم منا بمتحرم» فأمر بالفسطاط، فأقِرّ كما هو، وأوصى به صاحب القصر.

فلما قفل المسلمون من الإسكندرية بعد فتحها قالوا: «أين ننزل؟»، قالوا: «الفسطاط، فسطاط عمرو الذى كان خلّفه»، وكان مضروبًا فى موضع الدار التى

(١) راجع فى وصف الفسطاط: المسالك والممالك للأصطخرى ٣٩ـ٤٠ وصورة الأرض ١٣٧ـ١٣٨.

تعرف اليوم بدار الحصى، وهى عند دار عمرو الصغيرة[1].

وبنى عمرو بن العاص رضى الله عنه المسجد، قال الليث بن سعد: «وكان ما حوله حدائق وأعنابا».

ونصبوا الحبال حتى استقام لهم، ووضعوا أيديهم، فلم يزل عمرو قائمًا حتى وضعوا القبلة، هو وأصحاب رسول الله ﷺ، واتخذ فيه منبرًا.

قال أبو تميم الجيشانى: «وكتب عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ إليه: أما بعد، فإنه بلغنى أنك اتخذت منبرًا ترقى فيه على رقاب المسلمين، أو ما بحسبك أن تقوم قائمًا والمسلمون تحتك؟ فعزمت عليك لما كسرته».

وكان أبو مسلم الغافقى[2] صاحب رسول الله ﷺ يؤذّن لعمرو، وكان يخدم المسجد.

واختطّ المسلمون بمصر، فاختط عمرو بن العاص داره التى هى اليوم عند باب المسجد، بينهما الطريق، وداره الأخرى اللاصقة إلى جانبها، وفيها دفن عبد الله ابنه.

واختط عبد الله ابنه الدار الكبيرة، التى عند المسجد الجامع، وبناها قصرًا على تربيع الكعبة الأولى[3]، واختط حول دار عمرو والمسجد قريش، والأنصار، وأسلم، وغِفار، وجُهَيْنة.

واختط وَرْدان[4] مولى عمرو ـ ويكنى بأبى عبيد ـ القصر المنسوب إلى عمر بن مروان اليوم، اشتراه عبد العزيز بن مروان، فوهبه لأخيه.

واختط قيس بن سعد بن عُبادة[5] دار الفلْفل فى قبلة الجامع، وأوصى عند وفاته أنها للمسلمين، ينزلها ولاتهم، وسميت دار الفلفل لأن أسامة بن زيد التنوخى حين ولى مصر، اختزن فيها فلفلاً بعشرين ألف دينار، كان الوليد بن

(١) فتوح مصر والمغرب ١١٥.
(٢) فتوح مصر والمغرب ١١٦.
(٣) فتوح مصر والمغرب ١٢٢.
(٤) فتوح مصر والمغرب ١٢٢.
(٥) فتوح مصر والمغرب ١٢٣.

عبد الملك أراد أن يهديه إلى صاحب الروم.

واختط مَسْلمة بن مُخَلَد[١] دار الرمل، وكانت من رَحَى الكعك إلى حمام سوق وردان، ثم وهبها لمعاوية، واختط له معاوية داره التى بسوق وردان، وكانت بجنبها دار لعُقْبَة بن عامر، فوهبها لرملة بنت معاوية؛ فبها سميت دار الرّمْل، حرّفته العامة، وقيل إنما سميت دار الرمل لكثرة ما ينقل إليها من الرمل لدار الضرب.

واختط قيس بن أبى العاص السهمى[٢] داره التى عند دار ابن رُمّانة[٣]، وكانت دار ابن رمانة بينها وبين المسجد، ودخل بعضها إلى المسجد حين زاد عبد الله بن طاهر فى عرضه، وكان عمرو ولّى قيسًا القضاء.

واختط عُبادة بن الصامت[٤] إلى جانب دار ابن رُمَّانة، وأنت تريد إلى سوق الحمام.

واختط خارجة بن حُذافة[٥] غربى المسجد إلى أصحاب الحِنَّاء، وأصحاب السويق.

واختط عبد الرحمن بن عُدَيْس الدار البيضاء، ومروان بن الحكم بناها بناءها اليوم لما ولى مصر سنة ستين.

واختط ثقيف فى ركن المسجد الشرقى إلى السَّرَّاجين، واختط أبو ذر[٦] ومن معه من غِفار من زقاق القناديل راجعًا إلى قصر ابن جبر إلى سوق بربر.

واختط كعب بن يسار بن ضِنّة[٧] ـ وهو ابن بنت خالد بن سنان العبسى، التى قال لها رسول الله ﷺ: «ابنة نبى ضيّعة قومه»ـ الدار المعروفة بدار النخلة فى

(١) فتوح مصر والمغرب ١٢٤.

(٢) فتوح مصر والمغرب ١٢٦.

(٣) فتوح مصر والمغرب ١٢٨.

(٤) فتوح مصر والمغرب ١٢٩.

(٥) فتوح مصر والمغرب ١٢٩.

(٦) اختطّ أبو ذر الغَفارى دار العُمُد ذات الحمَّام التى أخذ بركة بن منصور الكاتب بيرها، بابُها فى زقاق القناديل وبابُها الآخر مما يلى دار بركة. فتوح مصر والمغرب ١٣٥.

(٧) فتوح مصر والمغرب ١٣٧.

طرف زقاق القناديل، وكان يقال لزقاق القناديل زقاق الأشراف؛ لأن عمرو بن العاص كان فى طرفه، وفى الطرف الآخر كعب بن يسار، وبينهما دار أبى ذر، وزكريا بن الجهم، وعبد الرحمن بن شرحبيل، وغيرهم من الأشراف.

واختط كعب بن عدىّ القَيْسارية، فلما أراد عمر بن عبد العزيز بناءها اشتراها منهم، وخط لهم دارهم التى فى بنى وائل.

والحمام الذى يُعرف اليوم بحمام أبى مُرة كان خطه لرجل من تنوخ، فسأله إياه عبد العزيز بن مروان، فوهبها له، فبناه حمامًا لزبّان ابنه، وبزبان كان يعرف، وفيه يقول الشاعر يصف صنم رخام كان فيه على خلقة المرأة: [بسيط]

مَن كانَ فى نَفْسه للبَيض مَنْزلةٌ   فَلْيَأْتِ أَبْيَضَ فى حَمَّـــامِ زَبَّان

لاَ رُوحَ فِيـهِ، وَلاَ شُفْرٌ يُقَلبُـه   لكنهُ صَنَمٌ فِي خَلْقِ إِنْسـان[١]

فى أبيات.

وكسر هذا الصنم، وكان عجبًا من العجائب، حين أمر يزيد بن عبد الملك بكسر الأصنام سنة اثنتين ومائة.

واختط الزبير بن العوّام داره التى بسوق وردان، وفيها السُّلَّم الذى كان الزبير نصبه، وصعد عليه إلى حصن الروم، وكان عبد الملك بن مروان قد اصطفاها، فردها أبو جعفر على هشام بن عروة، وكانت لهشام منه ناحية، وقال أبو جعفر: «ما مثل أبى عبد الله يؤخذ له شىء»؛ يعنى: الزبير.

واختط أبو بَصْرَة الغفارى[٢] عند دار الزبير، واختط أسلم[٣] مما يلى دار أبى ذر، ومن خِطَطها دار الصبَّاح، والزقاق الذى فيه دار ابن بُلادة، ولهم أيضًا من قصر ابن جبر إلى الحجامين الذين بسوق بربر.

واختط الليثيون عند أصحاب القراطيس، واختط خلفهم بشر بن أبى أرطأة.

واختط بنو مُعاذ فى زقاق عبد الملك بن مسلمة، واختط عَنَزَة فى أصل العَقَبة التى عند دار ابن الصامت.

---

(١) البيتان بلا نسبة فى فتوح مصر ١٤٠.

(٢) فتوح مصر والمغرب ١٤١.

(٣) فتوح مصر والمغرب ١٤٢.

واختط بلىّ خَلْفَ دار خارجة بن حُذافة[1]، ثم مضوا بخطتهم من دار عمرو بن يزيد إلى دار مسلمة، وإلى دار واضح إلى درب الزجاج، ثم مضوا إلى أصحاب الزيت، ثم مضوا يشرعون فى قبلة سوق وَرْدان حتى بلغوا مسجد القُرون، ثم داخل الزقاق إلى مسجد بنى عَوْف، وهو من خطة بلىّ، وإنما كثرت بلىّ بمصر لأن رجلاً نادى بالشام: «يا آل قضاعة» فبلغ ذلك عمر بن الخطاب، فكتب إلى عامل الشام أن يصير ثلث قضاعة إلى مصر، فنظر فإذا بلىّ ثلث قضاعة، فسيَّروا إلى مصر[2].

واختط بنو بَحْر، وهم من الأزد، مما يلى بلى، ثم شروعا إلى البحر.

واختط مَهْرة[3] موضع دار الخيل وما والاها على سفح الجبل الذى يقال له جبل يَشْكر مما يلى الخندق إلى شرقى العسكر، إلى جنان بنى مسكين اليوم، وهناك كان مسجد مهرة، وأدخله طريف الخادم فى دور الخيل حين بناها.

واختطت لخم[4] قبلى ثقيف، وانحدروا إلى مسجد عبد الله، واختطت غافق بين مهرة ولخم، ومضوا بخطتهم حتى برزوا إلى الصحراء مما يلى الموقف، ولغافق من درب السراجين إلى درب بنى وردان.

فما كان عن يمينك وأنت تريد المسجد الجامع فى الطريق إلى دور الوردانيين من مسجد عبد الله، فهو للخم، وما كان عن يسارك فلغافق.

والموقف لابنة مسلمة بن مخلد، فتصدقت به على المسلمين.

وإذا سلكت زقاق أشهب فما كان عن يمينك وأنت تريد الموقف فهو لغافق، وما كان عن يسارك فهو للأزد، ثم مضت الأزد حتى أخذت ما شرع فى السويقة، قِبَال دار سعيد بن عفير وزقاق السرّاجين، حتى انتهت إلى دار حُوَى، ودار عبد الرحمن بن هاشم، ثم اختطت مما يلى السويقة العُنَقاء، وإذا هبطت من وادى

---

(١) اختطَّ اللَّيثيون الذين كانوا مع عمرو بن العاص، وهم آل عروة بن شُيَيْم عند أصحاب القراطيس. فتوح مصر والمغرب ١٤٢.

(٢) فتوح مصر والمغرب ١٤٣.

(٣) فتوح مصر والمغرب ١٤٥.

(٤) فتوح مصر والمغرب ١٤٦.

حُوَى وقعت فى هذيل، فما كان عن يمينك وأنت تريد الخندق فلهذيل، وما كان عن يسارك فلِدهْنَة من الأزد.

واختطت الصَّدِف[١] قبلى مَهْرة، فمضوا بخطتهم حتى لقوا حضرموت دون الصحراء، ولقوا مما يلى القبلة بنى سعد من تُجيب.

واختطت تُجيب شرقى الحصن، وقبلى منزل عبد الله بن سعد بن أبى سرح، ومضوا بخطتهم حتى لقوا مهرة والصدف من مهب الشمال.

واختطت خَوْلان قبلى الحصن من مهب الجنوب، ومضوا بخطتهم حتى لقوا بنى وائل والفارسيين فى السهل، حتى لقوا تُجيب ورُعَيْنًا فى الجبل، ولقوا مرادًا فى الشرق، ولقوا تجيبًا من مهب الشمال.

واختطت مَذْحِج بين خولان وتجيب[٢].

فأما الجيزة فإن معظم خططها للحمراء[٣]، وهم قوم من العجم والفارسيين، وكانوا دخلوا مع عمرو بن العاص، منهم بنو ينَّة، وبنو الأزرق، وبنو روبيل.

وإلى ابن ينّة تنسب السقيفة التى بفسطاط مصر، وإنما أرادوا أن ينفردوا عن العرب، ونزلها معهم قوم من همدان، وذى أصبح، ومنهم شَمِر بن أبرهة.

قد تقدم ذكرنا لبناء عمرو المسجد بمدينة الفسطاط، ثم مَسْلمة بن مخلد الأنصارى أخذ فى زيادته، وذلك سنة ثلاث وخمسين، وبنى المنار وكتب عليه اسمه، ثم هدم عبد العزيز بن مروان المسجد كله فى سنة سبع وسبعين، وبناه.

ثم كتب الوليد بن عبد الملك إلى قُرّة بن شريك العبسى، وهو واليه على مصر، سنة بضع وتسعين، فهدمه كله وبناه بناءه هذا اليوم، وزخرفه، ونجره، وذهّب رؤوس العُمد التى فى مجالس قيس خاصة، وحوّل قرّة المنبر إلى قيسارية العسل، وكان الناس يصلون فيها الصلوات، ويجمّعون فيها الجُمع، حتى فرغ من بناء المسجد، والقبلة فى القيسارية إلى اليوم.

(١) فتوح مصر والمغرب ١٥٢.
(٢) فتوح مصر والمغرب ١٥٣.
(٣) فتوح مصر والمغرب ١٥٦.

وكان الوليد قد عزل عبد الله بن عبد الملك عن مصر، وولاّها قرة بن شريك، وقال الشاعر فى ذلك [خفيف]:

عَجبًا مَـا عَجِبْـتُ حِينَ أتانا أَنْ قَد أمَّرْتَ قُرَّةَ بنَ شَرِيك

وعَـزَلْتَ الفَتَى المُبَـارِكَ عَنَّا ثُمَّ خَالَفْتَ فيــه رأى أبيك(١)

ثم زاد بعد ذلك موسى بن عيسى الهاشمى فى مؤخره سنة خمس وسبعين ومائة، ثم زاد عبد الله بن طاهر بإذن المأمون له فيه سنة ثلاث عشرة ومائتين، وأدخل فى الزيادة دار الرمل كلها، إلا ما بقى منها من دار الضرب، ودار ابن رمانة، وغيرها.

ثم أول مسجد بُنى بمصر بعد مسجد عمرو، المسجد الذى فى أصل حصن الروم، عند باب الرَّيحان بإزاء الموضع المعروف بالقالوس، ويسمى مسجد القلعة(٢).

ومن مساجدها المشهورة مسجد عبد الله، وهو عبد الله بن عبد الملك ابن مروان، وكان أبوه ولاه مصر سنة ست وثمانين، وكان أهل مصر يسمونه مُكَيَّسًا، قال الليث بن سعد: «وهو أول من نقل الدواوين إلى العربية، وإنما كانت بالعجمية، وهو أول من نهى الناس عن لبس البرانيس».

ومسجد ملك، وهو مسجد ينسب إلى ملك بن شرحبيل الخولانى القاضى، وكان ولى القضاء بمصر سنة ثلاث وثمانين، وكان الحجاج يبعث إليه فى كل عام بحُلّة وثلاثة آلاف درهم، ولم يزل على القضاء حتى مات.

وأما قيساريات مصر، فقيسارية العسل، وقيسارية الحبال، وقيسارية الكباش، وقيسارية عبد العزيز، وهى التى يباع فيها البزّ، وقيسارية هشام يباع فيها البز أيضًا، وهو هشام بن عبد الملك.

وأول ما بنى المسلمون بمصر من الحمامات حمام الفأر، وكانت حمامات الروم ديماسات كبارًا، فلما رأوا هذا الحمام وصغره قالوا: «من يدخل هذا؟ هذا حمام الفأر»، فغلب عليه.

(١) البيتان بلا نسبة فى فتوح مصر ١٥٨ وحسن المحاضرة ١/٥٨٧ وفضائل مصر للكندى ٦٣.
(٢) فتوح مصر والمغرب ١٥٩.

وبين الفسطاط ومدينة القاهرة نحو ميلين فى خراب، كانت مساكن لكتامة وغيرها، وهناك اليوم ثلاثة مشاهد على الطريق من الفسطاط إلى القاهرة، بناها الحاكم، ولها السَّدنة والخدمة، وتوقد فيها السّرج الكثيرة الليل كله.

وزعموا أنه كان أراد نقل جثة رسول الله ﷺ، وجثة أبى بكر، وجثة عمر - رضى الله عنهما - إليها، وقد كانت توجهت له الحيلة فى ذلك حتى أظهر الله أهل المدينة على أمره؛ وقاية لرسوله ﷺ، وردًا لكيد عدوه - لعنه الله -.

وذلك أن الحاكم بذل الأموال لرجال من شيعته، احتفروا فى بعض الدور المجاورة لمسجد رسول الله ﷺ سربا تلقاء القبر، وقد رفعوا ذرع ما بين الدار والقبر، فإذا وازوا موضع القبر خرقوا فى البيت غلوة، وتمكنوا من إرادتهم.

فأطلع الله على ذلك أهل المدينة، وقد أمعنوا فى الحفر، وأشرفوا على ما يريدون، فقتلوا أولئك الفعلة الفسقة، ومثّلوا بهم، ورصفوا تلك الحفرة بالحجارة، وأفرغوا عليها الرصاص، فلا يطمع فى الوصول إليها طامع أبدًا.

* * *

ذكر كور مصر

الفيوم، الدير، السرداب، عين شمس، نوبة، شطا، الكوير، سجامك، هيت، سطيطس، كفرطس، السما، الفرما، سابور صير، المحلة، دميرة، دمقلة، تنّيس، دمياط، منف، وسيم، الإسكندرية، أنطابلس، دلاص، أهناس، العمر، طحا، أسيوط، قهقى، البهنسا، وقال: «البهنسا اثنان هذه المذكورة، وبهنسا الواحات»، أنصنا، أبنود، قفط، أرمنت، أسوان، القلزم، الطور، أيلة، مسطل، البلندس، قرطسا، بوسى، الملقون، الأوضية، طرة، ميذق العليا، ميذق السفلى، قسيس، برلس، النجوم، صعيرة، البحيرة، سمنّود، الحوف الغربى، الحوف الشرقى، أسفل الأرض، بطن الريف، السرور، المغيرة، أطرابية، برسط، الجيزة، المدقوق، الشراك، ترنوط، أسمير، أسيوط، الأشمون بورة، وهذا الأشمون موضع، وأشمون طناح موضع آخر، والأشمونان ثالث، وقال: «الأشمون وهما اثنان: أشمون ابن كرسلة، وأشمون الفراص».

ذكر المسافات من هذه الكور والمشهور من مدنها وغرائبها

مَنْف[١]: بين منف ودَلاَص[٢] تسعة فراسخ، ومدينة منف هى التى كان نزلها فرعون، اتخذ لها سبعين بابًا، وجعل حيطان المدينة بالحديد والصفر، وفيها كانت الأنهار تجرى تحت سريره، وكانت أربعة أنهار.

وحدث شيخ من آل أبى طالب، من ولد على، قال: «رأيت بمنف دار فرعون، وكنت أمشى فى مشاربه ومجالسه وغرفه وسقائفه، وإذا ذلك كله حجر واحد منقور، فإن كانوا أحكموا بناءه حتى صار فى الاستواء والإملاس حجرًا واحدًا، لا يستبان فيه مجمع حجرين، ولا ملتقى صخرتين، فهذا عجب، وإن كان جبلاً واحدًا فنقرت الرجال فيه بالمناقير حتى خرقت فيه تلك المخاريق، فإن هذا الأعجب»، وليس بمصر كلها جبل.

وقال إبراهيم بن منذر الخولانى: «خرجت إلى منف، فإذا بعثمان بن صالح جالس على باب كنيسة، فسلمنا عليه، فقال لنا: أتدرون ما هذه الكتابة على باب هذه الكنيسة؟ قلنا: وما هى؟ قال: هى أنا فلان ابن فلان، يلوموننى على صغر هذه الكنيسة، وإنى اشتريت الذراع منها بمائة دينار، قلنا: إن لهذا قصة، قال: هاهنا وكز موسى عليه السلام الرجل، فقتله».

ودلاص مجمع سحرة مصر، وبين دلاص والفيوم ثمانية وعشرون فرسخًا،

(١) مَنْف: بالفتح ثم السكون والفاء: اسم مدينة فرعون، وأصلها بلغة القبط منافة، فَعُرِّبت إلى مَنْف، وهى المرادة بقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ المدينة على حين غفلة من أهلها﴾ وفيها دار فرعون، وهى ذات غرَف ومجالس وصفاف، وكلها من حجر واحدٍ منقور أو منهدم حتى لا يبين وصله. وآثار هذه المدينة ظاهرة إلى الآن.

وبينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ.

وقيل: كانت ثلاثين ميلاً بيوتًا متصلة، وقيل: كان فيها أربعة أنهار يختلط ماؤها فى موضع سرير فرعون، بها منزل يوسف الصديق.

انظر: مراصد الاطلاع ٣/ ٣٢٣ وآثار البلاد ٢٦٥و٢٧٤ والمسالك والممالك للأصطخرى ٤٢.

(٢) دَلاَص: كورة بصعيد مصر، غربىّ النيل، ولاية واسعة ودَلاَص مدينتها، معدودة فى كورة البَهْنَسا. مراصد الاطلاع ٢/ ٥٣١.

وبين الفيوم وأهناس خمسة فراسخ، وبين أهناس[١] والبَهْنَسَا[٢] ستة عشر فرسخًا، وبين البهنسا والعمر ثلاثة فراسخ، وبين العمر وَطَحا[٣] ثمانية فراسخ، وبين طحا والأشمونين[٤] خمسة عشر فرسخًا، وبين الأشمون والقهقى ثمانية فراسخ، وبين القهقى[٥] وإخميم[٦] ثمانية فراسخ، وبين بورة وبوصير أربعة فراسخ.

وقال: «هما بوصيران[٧]: بوصير الصعيد، وبوصير أسفل الأرض؛ وهى بوصير سمنّود».

وبين بوصير وأرمنت[٨] ثمانية، وبين أرمنت وأسمير ثمانية فراسخ، وبين

---

(١) أهْنَاس بالفتح: اسم لموضعين بمصر، أحدهما اسم كورة بالصعيد الأدنى، وأهناس قَصَبَتُها، وهى قديمةٌ قد خرب أكثرها على غربى النيل، ليست ببعيدة عن الفسطاط.
وأهناس الصغرى: قرية كبيرة بكورة البهنس. مراصد الاطلاع ١/ ٣٥.

(٢) البَهْنَسا: مدينة بمصر من الصعيد الأدنى، غربىّ النيل، وتضاف إليها كورة كبيرة وليست على ضفّة النيل، وهى عامرة كثيرة النخل، وبظاهرها مشهد يُزَار، يزعمون أن المسيح وأمه أقاما به سبع سنين. مراصد الاطلاع ١/ ٢٣٥.

(٣) طَحَا: بالفتح والقصر: كورة بمصر شمالى الصعيد، غربى النيل. مراصد الاطلاع ٢/ ٨٨٠.

(٤) الأَشْمُونين: مدينة قديمة أزليّة عامرة، قصبة كورة من كور الصعيد الأدنى، غربىّ النيل، ذات نخيل وزروع، ويرتفع من الأشمونين ثيابٌ كثيرة. المسالك والممالك للأصطخرى ٤١ ومراصد الاطلاع ١/ ٨٤.

(٥) مراصد الاطلاع ٣/ ١١٣٧ وفيه أنها قَهْقُوه: كورة بصعيد مصر.

(٦) إِخْميم: أقدم حاضرة بمصر، أسسها إخميم بن مصرائيم بن كوش بن حام على الضفة الأسيوية للنيل بعيدًا عن القاهرة بنحو ٣٠٠ ميل، وفيها عجائب كثيرة، منها البرابى، وهى أبنية قديمة فيها تماثيل وصور، ومنها ذو النون المصرى.
وصف إفريقيا ٢/ ٢٣٧ ومراصد الاطلاع ١/ ٤٣ وآثار البلاد ١٣٩ ورحلة ابن جُبَير ٣٥-٣٦ والمسالك والممالك للأصطخرى ٤٢.

(٧) بُوصير: بكسر الصاد وياء ساكنة وراء: اسم لأربع قرى بمصر: بُوصير قوريدس، بها قُتل مروان بن محمد، وبوصير السِّدر: بُليدة فى كورة الجيزة وبُوصير دفدنو: من كورة الفيوم، وبُوصير بَنَا: من كورة سَمَنُّود.
ويقال إن سحرة فرعون الذين حشرهم فى يوم موسى من بُوصير.
انظر: المسالك والممالك للأصطخرى ٤٢ ووصف إفريقيا ٢/ ١٩٣ ومراصد الاطلاع ١/ ٢٣٠.

(٨) أَرْمَنْت: كورة بصعيد مصر، بينها وبين قوص من الجنوب مرحلتان وبينها وبين أسوان مرحلتان. مراصد الاطلاع ١/ ٦٠.

أسمير وأسوان تسعة فراسخ، وبين بوصير وسَمَنُّود[1] فرسخان، وبين سمنُّود وبوسى فرسخ، وبين بوسى ودميرة[2] ثلاثة فراسخ، وبين دميرة ودُمْقُلة[3] عشرة فراسخ، وبين دمقلة ودمياط ثمانية فراسخ، وبينهما نوبة ودبقوا جزيرتان يصنع فيهما الدبيقى[4]، وبين دمياط وجزيرة تنّيس اثنا عشر فرسخًا.

والمسافات التى ذكرناها من بوصير إلى تنّيس هو الطريق فى عمل مصر مما يلى أسفل الأرض، وطريق آخر أيضًا فى أسفل الأرض من الفسطاط إلى ميذق العلياء ستة عشر فرسخًا، ومن ميذق العلياء إلى السفلى ستة فراسخ، ومنها إلى فيد سبعة فراسخ.

ومن فيد إلى السرور ستة فراسخ، ومن السرور إلى المغيرة ثلاثة، ومن المغيرة إلى البَرَلُّس ثلاثة.

وعين شمس بناؤها كله من الصخر، وبيوتها كلها منقورة فى الصخر، كل بيت صخرة واحدة طولها عشرون ذراعًا وأكثر، وقد سقف كل بيت بصخرة واحدة، وحيطانها فى الإملاس والاعتدال كالمراقى، فيها أساطين منحوتة من الصخر عليها تماثيل ونقوش.

وفى صخرة من تلك الصخور بحيرة منقورة كالنهر الصغير، كان يصب فيها الشراب لفرعون إذا جلس هناك.

وعلى أبواب تلك القصور تمثال امرأة من صخرة، يذكرون أنها كانت ماشطة بنت فرعون، فمسخت حجرًا.

وتلقى قبل أن تصل إلى هذه القصور أزيد من عشرين منارة، فيها ما طوله مائة ذراع، عليها كلها كتابة لا تفهم ولا تفك.

---

(١) سَمَنُّود: على شاطئ النيل، كثيرة المراكب، حسنة الأسوار، بينها وبين المحلة الكبيرة ثلاث فراسخ. رحلة ابن بطوطة ٥٣ ومعجم البلدان ٣/ ٢٥٤.

(٢) مراصد الاطلاع ٢/ ٥٣٦.

(٣) دُمْقُلة: مدينة كبيرة ببلاد النوبة فى الجنوب لها أسوار عالية لا ترام مبنية بالحجارة مراصد الاطلاع ٢/ ٥٣٤.

(٤) مراصد الاطلاع ٢/ ٥١٣.

وعين شمس هى كانت هيكل الشمس، وفيها عجائبها وملاعبها، وفيها العمودان اللذان لم يُر أعجب منهما ولا من شأنهما، ليس لهما أسس، وطولهما فى السماء نحو خمسين ذراعًا، وعلى رؤوسهما شبه طوقين من نحاس، فوقهما صورة إنسان على دابة، فإذا كان آخر الليل جرى من آخر العمودين من تحت الطوق ماء، فيرى من موضع جريانه من العمود أخضر.

* * *

ذكر جبل المقطم وما ورد فيه [1]

وهو متصل بجبل الزمرد، والمقطم ما بين القصير إلى مقطع الحجارة وما بعد ذلك من التخوم.

وذكر بعض أهل العلم أن المقطم من الطور، وأنه داخل فيما وقع عليه القدس، وكذلك ذكره كعب الأحبار، وقال كعب: «كلم الله ـ عز وجل ـ موسى بالطور فالمقطم من القدس[2]، وروى فى التوراة أن موسى ـ عليه السلام ـ كان يناجى ربه بالوادى الذى فيه المقطم عند مقطع الحجارة، وكان فى أعلى جبل المقطم بناء للأوّل، ويذكر أنه كان مطبخ فرعون[3]، فغيرّ وبنيت فيه المساجد، والناس يقصدونها ليالى الجُمَع ويتهجدون فيها، ويقال إن ذلك البنيان على المقطم كان موقدًا يوقد فيه إذا ركب فرعون من منف إلى عين شمس، ومن عين شمس إلى منف، وكان على القصير موقد آخر، فإذا رأوا النار علموا بركوبه، فأعدوا له ما يريد ـ والله أعلم».

وروى أسد بن موسى، قال: «شهدت جنازة مع ابن لهيعة بالمقطم، فجلسنا حوله، فقال: إن عيسى ـ عليه السلام ـ تصفّح هذا الجبل وأمه إلى جانبه،

---

(١) انظر فى وصف المقطم ومقبرته: رحلة ابن بطوطة ٥٧.

(٢) فتوح مصر والمغرب ١٨٥.

(٣) على رأس جبل المقطم فى قُلَّته مكان يُعرف بتنُّور فرعون، يقال إنه كان إذا خرج من أحد هذين الموضعين يُوقَدُ فيه، فَيُعَدُّ فى المكان الآخر ما يُعَدُّ له. المسالك والممالك للأصطخرى ٤٢.

فالتفت إليها وقال: يا أماه، هذه مقبرة أمة محمد ﷺ.

وبينا عمرو بن العاص يسير فى صفح المقطم، ومعه المقوقس، إذ قال له: «ما بال جبلكم هذا أقرع؛ ليس عليه نبات؟ ولو شققنا صفحه بنهر من النيل وغرسناه»، فقال له المقوقس: «وجدنا فى الكتب أنه كان أكثر الجبال أشجارًا ونبتًا وفاكهة، وكان المقطم بن مصريم بن بيصر بن حام بن نوح ينزله، فلما كانت الليلة التى كلم الله عز وجل فيها موسى عليه السلام أوحى الله إلى الجبال: (إنى مكلم نبيًّا من أنبيائى على جبل)، فسمحت الجبال كلها وتشامخت، إلا جبل بيت المقدس فإنه تضاءل وهبط، فأوحى الله ـ تبارك وتعالى ـ إليه: (لم فعلت هذا؟) وهو أعلم، فقال: (إعظامًا لك وإجلالاً يا رب)، قال: (فأمر الله الجبال أن يَحْبوه كل جبل بما عليه من النبت، فجاد له المقطم بما عليه حتى بقى كما ترى، فأوحى الله (عز وجل) إليه: (إنى معوّضك على فعلك بشجر الخلد وغراس الجنة)».

وكتب بذلك عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب، فكتب إليه عمر: «إنى لا أعلم شجر الجنة غير المسلمين، فاجعله لهم مقبرة».

وروى أن عمرًا سأل رهبانهم لِم تركوا جبل المقطم من غير بنيان ولا غرس؟، فأخبروه أنهم سمعوا مشايخهم عن أوائلهم يقولون إن هذا فحص سيغرس فيه غروس من أغراس الجنة؛ فلذلك تركناه من غير عمارة، فكتب بذلك عمرو إلى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ، فكتب إليه عمر: «إنى لا أعلم شيئًا فى الدنيا من غراس الجنة إلا أجساد المؤمنين، فاجعل ذلك الفحص لهم مقبرة»[١].

وروى ابن لهيعة أن كعب الأحبار أرسل فى جراب من تربة المقطم، فلما حضرته الوفاة أمر أن يفرش فى لحده تحت جنبه الأيمن.

وقيل إن أول من قبر فيها رجل من المعافر يقال له عامر، وقيل عمرت، وقد قيل إن أول من قبر فيها عمرو بن العاص، ولا يصح هذا؛ لأن عمرًا جعلها مقبرة، وتوفى عمرو بعد أن ولى مصر لمعاوية ثلاث سنين، وتوفى يوم الفطر سنة ثلاث وأربعين[٢].

---

(١) فتوح مصر ١٨٦.

(٢) فتوح مصر ١٨٦.

وليس فى الدنيا مقبرة أعجب منها، ولا أبهى، ولا أعظم، ولا أطيب منها تربة؛ تربتها مثل الكافور، وقبر فيها من أصحاب رسول الله ﷺ المعلومين: عمرو ابن العاص، وعبد الله بن حُذافة السهمى، وعبد الله بن الحارث الزبيدى، وأبو بصرة الغفارى وعُقبة بن عامر الجُهنى، ومسلمة بن مخلد الأنصارى.

والفيوم قد تقدم ذكرها فى مواضع من هذا الكتاب، وسابورصير، وخليج الفيوم يصل إليها من خليج سابورصير، وهو الخليج الكبير، فإذا وصل إلى نصف الطريق وجد حجرًا مصنوعًا، وهو حجر اللّهون.

وفى أرض سابورصير نحو مائة ضيعة فى بساط واحد، فإذا زاد النيل أحدق بها الماء، وصارت كل ضيعة منها كالجزيرة، وصارت مواشيهم محصورة معهم.

وفى سابورصير القبور القديمة التى لا يدرى من أى زمان هى، فيها أموات صحاح الأجسام، عليهم أكفانهم، لم يتغير منظرهم، وتجمع فى هذه القبور الموميا القبورية التى لا تعدل ثمنًا.

ومدينة أخميم، وهى مدينة مسوّرة فى الضفة الشرقية من النيل، فيها أسواق وحمامات ومساجد، وهى كثيرة المساجد، وداخل سورها البربَى المذكور، لم يتغير منه شىء، وفيها مسجد جامع جليل.

مدينة أسيوط، وهى على الشاطىء الغربى من النيل، وهى مدينة مسوّرة، جميلة النصبة، كثيرة الخير والفوائد، وفيها أيضًا بربَى[1]، فى وسط سوقها، قد تهدم بعضه.

وأسيوط[2] أكثر بلاد الصعيد قصب سكر، وأطيبه.

مدينة أَنْصِنا[3]، وأكثرها اليوم خراب، وهى كانت مدينة السحرة، وكان بها أيضًا

---

(١) البربى: كلمة مصرية قديمة معناها المقبرة وسبق بيانُها.

(٢) أسيوط: من مدن الصعيد المشهورة، بينها وبين الشط الغربى من النيل مقدار ثلاثة أميال، وهى جميلة المنظر، حولها بساتين النخل وسورها سور عتيق. رحلة ابن جبير ٣٥ وآثار البلاد ١٤٧.

(٣) أَنْصِنَا: مدينة أزلية من صعيد مصر، فيها برابى وآثار كثيرة ووصفها ابن جُبير فى رحلته ٣٣ بأنها قرية جميلة، بها آثار قديمة وكانت فى السالف مدينة عتيقة، وكان لها سور عتيق، هدمه صلاح الدين.

بربى لم يبق منه اليوم إلا بيت واحد، كأنه من صخرة واحدة، حيطانه وأعلاه.

ومارية التى أهداها المقوقس إلى رسول الله ﷺ من كورة أنصنا، من قرية يقال لها جفن.

ومدينة أنْصِنا لا يقربها تمساح، والناس منها آمنون هناك، وأكثر ما يكون عدوانًا من الشاطىء الغربى الذى يحاذى أنصنا فى قرية يقال لها الأشمون، لا يقدر أحد أن يقرب من شاطئها، وإذا كان التمساح فى حدّ أنصنا تحول على ظهره مستلقيًا حتى يخرج منها[1]، وكذلك يصنع من فسطاط مصر على نحو عشرة أميال، حتى يخرج عن حدها بمثل ذلك.

ومدينة قوص[2]، وهى على شرقى النيل بين أسوان وأخميم، وبينها وبين أسوان مسيرة ثلاث أيام، وهى مدينة كبيرة، وفيها آثار عظيمة للأوائل، وفيها أسواق، وحمامات، ومعاصر للسكر، يخدم الدار الواحدة منها مائة رجل.

ولها ضياع جليلة، وبينها وبين أسوان غيران منحوتة فى جبال هناك، فيها قبور أموات تستخرج منها الموميا الطيبة، وهم يجدونها فى رممهم وبين أكفانهم.

ويقال إن فى تلك الصحراء التى بين قوص وأسوان الجبل الذى فيه معدن الزمرد الأخضر، إلا أن الخوف من البجاة، والنوبة، وقبائل عرب تلك الصحارى تمنع منه، مع أن غيرانه بعدت، وانهارت وتهدمت؛ لبعد العمارة، وانقطاع الناس.

ومدينة قِفْط[3]، وهى متوسطة المقدار، بينها وبين النيل ثلاثة أميال، عليها سور، ولها جامع وسوق، وبينها وبين مدينة قوص أربعة أميال، وفيها بربى، وبغربيها شَعْرى كثيفة، ليس بينها وبين مدينة قوص شىء إلا شجر السنط، الذى هو حطب مصر.

ومن مدينة قفط إلى مدينة أخميم ثلاثة أيام.

---

(١) آثار البلاد ١٤٩.

(٢) قُوص: مدينة كبيرة عظيمة واسعة، وهى قصبة صعيد مصر، بينها وبين الفسطاط اثنا عشر يومًا، وبينها وبين قِفط فرسخ. مراصد الاطلاع ٣/ ١١٣٣.

(٣) قِفْط: بالكسر ثم السكون وطاء مهملة: مدينة بالصعيد الأعلى لها مزارع وبساتين كثيرة، وفيها النخل والأترج والليمون، والجبل يطل عليها، وانظر الحديث عنها عند ذكر بِرْبى قِفْط. مراصد الاطلاع ٣/ ١١١٣.

ومدينة أسوان، وهى آخر مدن الإسلام وثغرهم من بلاد مصر، وهى متصلة ببلاد النوبة.

وبين أسوان ـ وهى آخر بلاد الإسلام ـ والعريش ـ وهو آخر حد مصر ـ حائط العجوز، قد حوّط أرض مصر كلها.

وبين مدينة أسوان ومدينة صور، التى هى أول بلاد النوبة، صحراء فيها أعراب يعُرفون ببنى حمار، وبنى هلال، وبنى كنانة، وبنى جهينة، يؤدون أعشارهم إلى صاحب مصر.

وأسوان فى أول الصحراء إلى ساحل بحر النعم، إلى مدينة على ساحل البحر تسمى عيذاب، وهى فى صحراء تتجول فيها قبائل السودان من البجاة ومسجد الردّ بُنى آخر عمل أسوان، وهو رباط أسوان.

* * *

الطريق من أسوان إلى عَيْذَاب

وَعَيْذَاب[1] مدينة على ضفة البحر الغربى، وهى مرفأ الحجاج، ومن سلك إلى اليمن وغيرها، ويسكنها قوم يعرفون ببنى يولس، ويقال إنهم من البجاة، ويقول آخرون إنهم من العرب، وإنهم فزارة، قوم نفاهم أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ.

وإلى أسوان فى عيذاب طريقان: طريق يعرف بالوضح، وهو ثمانى عشرة مرحلة فى قفر ورمال ليس فيها عمران، وهى رمال قليلة الماء، متهيلة، تمور مع الرياح فتعفى الآثار، ولا يهتدى فيها لمسلك ولا سبيل، وإنما يقتدى فيها الجَمّالون بإبل معروفة، يقدمونها فيهتدون بها.

والطريق الآخر يعرف بطريق العلاقين، وهى ثمانى عشرة مرحلة أيضًا، وليس

---

(١) عَيْذَاب: بالفتح ثم السكون وذال معجمة، وآخره باء موحدة: بليدة على ساحل بحر القلزم، وهى مرسى المراكب التى تفد من عدن إلى الصعيد ومنها يُعَدّى إلى جدة. مراصد الاطلاع ٢/ ٩٧٤.

فيها عمران، إلا مدينة فى وسط الطريق، تنسب إلى نهر هناك يعرف بالعلاّقين، وهى كثيرة الثمار والخير، ويسكنها أناس كثيرة، يزعمون أنهم من العرب من كلب ابن وبرة، وهم على استقامة وحفظ لمن مر بهم.

وأكثر جبال هذه الطريق فيها معادن الذهب والفضة، ويسكن فى الجبال الممتنعة منها البجاة، منهم مسلمون يتاجرون المارة بهم ويبايعونهم.

وفى هذه الصحراء من أسوان إلى عيذاب إلى رأس القلزم الفيلة والزرافات.

وعلى القرب من أسوان جزيرة بلاق، وهى جزيرة يحيط بها النيل، وبها مدينة ومنبر وخلق من المسلمين من بلاد مصر وأسوان، وهذه الجزيرة بالموضع المعروف بالجنادل.

* * *

الطريق من الفسطاط إلى دمياط إلى جزيرة تنيس

تسير فى النيل منحدرًا حتى تأتى محلّة المحروم، وهى على ساحل طنرثى، وطنرثى مدينة كبيرة فيها الحمامات، والفنادق الكثيرة، والأسواق، وهى غير مسوّرة، وبينها وبين ساحل محلّة المحروم ثلاثة أميال، وهى بين خليجين من النيل، وبينها وبين النيل من ناحية الشرق ميلان.

وهو الخليج الذى ينزل إلى دمياط، ومن عبره يأتى مدينة مليج، وهى مدينة كبيرة فى أول منبعث هذا الخليج، ووراء مدينة مليج[١] خليج آخر يذهب أيضًا إلى دمياط.

وهناك مدينة تسمى نيطائى، وهى مدينة جليلة فيها أسواق كثيرة، ومسجد جامع، وتسير من مدينة نيطائى مع النيل إلى مدينة دَمْسِيس[٢]، وهى كبيرة كثيرة

(١) مَلِيج: بالفتح ثم الكسر وياء تحتها نقطتان ساكنة وجيم: قرية بريف مصر، قرب المحلة. رحلة ابن جبير ١٨ ومراصد الاطلاع ٣/ ١٣١٠.

(٢) دَمْسِيس: قرية من قرى مصر بينها وبين سَمَنُّود أربعة فراسخ، ينسب إليها كورة يقال لها كورة دمسيس ومنوف. مراصد الاطلاع ٢/ ٥٣٣.

الخير والبساتين، وهى على شاطئ النيل، وبإزائها من العدوة الثانية مدينة تسمى شبرى دمسيس، وهى مدينة كبيرة كثيرة الخير والبساتين.

وعلى مقربة منها مدينة فجنجين، واسعة ذات أسواق، ويخرج عندها خليج من النيل يجرى إلى بحيرة تنّيس، ويسمى أول مدخل إلى هذه البحيرة الديجور، وهى كالبحر عظماً.

ومن مليج المذكورة إلى مدينة صَهْرَجت(١) نصف يوم، وعلى مقربة من صهرجت مدينة بلبيس، مدينة جليلة، بين الشرق والشمال من مصر، وبينها وبين مصر بحيرة الأسرا، ويخرج إليها الماء من خليج بقرب مدينة رشيد من الضفة الشرقية، وهى بحيرة ملحة، وفيها مدينة سنجار، وبهذه المدينة أكثر السفن التى تجرى إلى مصر فى النيل بالأطعمة كل عام.

وبين هذه البحيرة وبحيرة أخرى جسر يتصل بالبحر الكبير، وهو جسر من بنيان الأوّل، متقن الصناعة، محكم التدبير، وفى هذا الجسر حفائر وكُوى مصنوعة، يأوى إليها الحوت، وإذا أرادوا صيده فتحوا أسداداً هناك بين البحرين، فيدخل الماء من البحيرة التى تلى البحر الكبير إلى هذه البحيرة الثانية، فإذا أحس الحوت بدخول الماء، تواثب من تلك الكوى، فتساقط على الجسر، فيأخذون منه ما شاؤوا بلا كلفة، ويبيعونه بالأموال الكثيرة من أصحاب الدواب، بعد إخراجه إلى البر الكبير، فيحمل إلى مصر على رتب.

وينحدر الخليج الذى يدخل من طنرثى إلى مدينة تسمى الملحة، وهى مدينة جليلة، لها مسجد جامع، وأسواق، وحمامات، وهى قاعدة العمال من مصر.

ويسير منها إلى مدينة تسمى دميرة، وهى قاعدة كبيرة، ومجمع للناس ولها أسواق عظيمة، ومنها يسير إلى دمياط.

وخليجها على القرب منها يفترق فرقتين، فتأخذ شعبة منه على شرقيها، وشعبة

---

(١) صَهْرَجت: قريتان بمصر متاخمتان لِمُنْية غَمر شمالى القاهرة، معروفتان بكثرة زراعة السكر، وتعرف بمدينة صهرجت بن زيد، وهى على شعبة النيل، بينها وبين بنها ثمانية أميال. مراصد الاطلاع ٢/٢٥٨.

على غربيها، ثم تلتقيان فى البحيرة، فتصير إلى المدينة فى جزيرة، وهى مدينة مسورة، لها خمسة أبواب، وفيها مساجد كبار، ولها حصون تسمى بالمحاريس يسكنها الفقراء والصالحون.

وبقربها موضع يعرف بالصحراء، فيه يقصر القصارون تلك الثياب الشروب، وهى تكتفى عند اعتدال هوائهم وموافقته له بقصارة اليوم الواحه فتبيض.

وهذه البحيرة يسلكها الملاّحون، ذاهبين إلى تنيس من دمياط، وراجعين من تنيس إليها، بريح واحدة بحكمة فى سفنهم، وشراعها تزاحم به الريح.

وجزيرة تنّيس فى وسط هذه البحيرة، وهى بحيرة تعذب عند زيادة النيل، فتبقى ستة أشهر حلوة، ثم تملح ستة أشهر أخرى، وقال قوم إنها تعذب إذا هبت الجنوب، فيطرقون لها عند ذلك إلى مصانع قد اتخذوها، فإذا هبّت الشمال ملحت.

ومدينة تنّيس كبيرة، لها مسجد جامع وأسواق، وأهلها ذوو يسار وثروة، وأكثرهم حاكة، وثيابها الشروب لا يصنع مثلها فى الدنيا، فصنع بها لصاحب مصر قميص لم يدخل فيه الغزل لُحَمًا سوى أوقيتان، ونسج فيه من الذهب أربعمائة دينار.

وقد أحكمه الصانع، حتى لم يخرج فيه إلى تفصيل ولا خياطة غير الجيب، فبلغت القيمة فيه ألف دينار، وليس فى الدنيا طراز كتان يبلغ الثوب منه، وهو ساذج دون ذهب، مائة دينار عينًا غير طراز تنيس ودمياط.

وبجزيرة تنّيس أزيد من عشرة آلاف من النصارى، ولهم على شاطىء البحر كنائس كثيرة.

وقبور المسلمين فى جزيرة تنّيس بأفنية دورهم؛ لضيق مساكنهم، وهم يصيدون الطير من السمانى وغيرها على أبواب دورهم، بشباك يمدونها على سككهم.

وقد ذكرنا فى أخبار مصر خبر الأكوام التى بتنّيس، وأن تنيس كانت جزيرة عظيمة، وكانت كثيرة الجنات والمتنزهات والقصور، فغلب الماء على أكثرها.

وقد زعم قوم أنها كانت مقسومة بين ملكين من ولد أبرويت بن مصريم، وكان أحدهما مؤمنًا والآخر كافرًا، فأنفق المؤمن ماله فى وجوه البر، حتى باع من أخيه

الكافر حصته من تنّيس، فزاد فيها غروسًا، فجرّ فيها أنهارًا، وبنى مصانع، واحتاج أخوه إلى ما فى يده، فمنعه، وسطا بماله وحشمه عليه، وحقره لفقره.

فقال له أخوه: «فما أراك شاكرًا لله تعالى ـ على ما رزقك، ويوشك أن ينتزع ذلك منك، ويغير نعمته عندك»، فأرسل الله على جناته ومصانعه الماء، فأصبحت خاوية على عروشها، فهما اللذان عنَى الله تعالى بقوله فى سورة الكهف[1].

فتركب السفن من جزيرة تنيس إلى الفرما، وهى مدينة جليلة، كثيرة الخير، وهى فى الساحل، ويذكر أن هاجر أمّ إسماعيل من قرية من قراها تسمى أمّ العرب، وهى على مقربة منها.

والفرما[2] قديمة البناء، ويذكر أهل مصر أنه كان منها طريق إلى جزيرة قبرس فى البر، فغلب عليه البحر، وكان فيما غلب عليه البحر مقطع الرخام المجزّع الأبيض.

وقال يحيى بن عثمان: «أرابط بالفرما وبينها وبين البحر قريب من يوم، يخرج المرابطون إلى ساحله، فيقيمون عليه، ثم غلب البحر على ذلك كله» فالفرما اليوم على البحر، فصار ما بين الفرما والقلزم هو الحاجز الذى ذكره الله ـ تعالى ـ فى كتابه، فقال: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾[3]؛ وهما بحر الروم وبحر الصين، ولا يتقاربان فى بقعة من الأرض تقاربهما فى هذا الموضع، فإن الذى ما بين الفرما والقلزم مسيرة ليلة واحدة، وبينهما فى غير هذا الموضع مسيرة شهور.

ووجّه ابن المدبر إلى الفرما، وكابتنّيس فى هدم أبواب لها من حجارة فى شرقى الحصن، فاحتاج أن يعمل منها كلسًا، فمنع من ذلك أهل الفرما، فخرجوا إلى رسله فى السلاح، وقالوا: «هذه من الأبواب التى قال الله ـ عز وجل ـ فيها على

(١) سورة الكهف، آية ٣٢.

(٢) الفَرَما: مدينة على الساحل من ناحية مصر، وهى مدينة حصينة، وبها قبر جالينوس اليونانى، ومن الفرما إلى تَنّيس نحو فرسخين من البحيرة.
وبينها وبين بحر القلزم أربعة أيام، وهو أقرب موضع بين البحرين. المسالك والممالك للأصطخرى ٤٢ ومراصد الاطلاع ٣/ ١٠٣١.

(٣) سورة النمل، آية ٦١.

لسان يعقوب (عليه السلام): ﴿لاَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾[١].

ومن عجائب الدنيا نخل الفرما؛ فإنه يثمر حين ينقطع البُسر والرطب من تلك البلاد، ويبتدئ هذا بالأرطاب، حين تلد النخل فى الكوانين فلا ينقطع أربعة أشهر، ولا يوجد هذا فى بلد من البلاد سوى الفرما، ويكون منه ما وزن البسرة عشرون درهما، وطولها فِتْر.

* * *

الطريق من الفسطاط إلى الإسكندرية[٢]

تخرج من الفسطاط، فتعبر النيل إلى الجزيرة إلى الجيزة، وهى الضفة الغربية من النيل، وبقرب الفسطاط على رأس ميل منها قرية يقال لها وسيم.

وعن بكر بن سوادة، عن أبى عطية، عن عبيد بن رفيع، قال: «قال لى عمر ابن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ: يا مصرى أين وسيم[٣] من قراكم؟ قال: فقلت: على رأس ميل يا أمير المؤمنين، قال: ليأتينكم أهل الأندلس حتى يقاتلوكم بها».

فلما قام الوليد بن عابرة الأندلسى ببرقة، وحشد الناس، وغزا مصر سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، نزل يحاصر مصر من قرية وسيم، وهى على ثلاثة فراسخ من مصر.

ثم تسير من الجيزة إلى ذات الكرم، إلى ترنوط، ويَحْدو الجمّالون، فيقولون:

من ترنوط[٤] إلى ذات الساحل

مرحـــلة أعيـت على المراحـــل

---

(١) سورة يوسف، آية ٦٧.

(٢) انظر: صورة الأرض ١٣٠ـ١٣١.

(٣) وسيم: قرية على ميل من الفسطاط، وقيل على ثلاثة فراسخ منه. مراصد الاطلاع ٣/ ١٤٣٧. وتنطقها العامة الآن أُوسيم.

(٤) تَرْنوط: قرية بين مصر والإسكندرية على النيل، وأكثر فواكه الإسكندرية منها. مراصد الاطلاع ١/ ٢٦٠.

وتسير من ترنوط إلى تروجى[1]، قال الحكيم: «تورج»، ثم إلى مدينة الأسكندرية.

وطريق أخرى تركب السفن من الفسطاط إلى محلّة المحروم، ثم إلى مدينة رشيد، وهى مدينة على كثيب رمل عظيم متهيل، إذا هبت الريح الغربية ـ وهى تشتد عندهم ـ ملأت عليهم منه بيوتهم، ولا يقدرون على التصرف فى أسواقهم.

ومن أعجب متنزهات الدنيا ضفتا النيل، من مصر إلى مدينة رشيد، ولا غلة لثمار الأرض كغلات هذه الناحية.

أخبرنى غير واحد أن ضيعة كانت لرجل بقرية منها تعرف بذيبة، وهو رجل من أهل مصر يعرف بابن داود، يغلّ رمانها وموزها فى العام خمسة عشر ألف مثقال، وأشجار رمانهم تطعم من سنتها، وتزداد نماءً وفائدة إلى العام الرابع، ثم تذوى وتبيس، وهناك كانت ضيعة الليث بن سعد ـ رحمه الله.

قال قتيبة بن سعيد: «سمعت الليث بن سعد يقول: يدخل علىّ فى كل سنة خمسون ألف دينار، ما وجبت علىّ زكاة قط»، وكان أجود الناس، لا يبقى شيئًا يزكّيه.

وتسير من مدينة رشيد إلى مصب النيل فى البحر، وهو موضع مخوف على السفن؛ لأن أمواج البحر تعظم هناك مع قوة جريان النيل، فيثير ذلك أكوام رمال تحت الماء، فربما حمل شدّة جريان الماء السفن إلى تلك الرمال، فهلكت، ثم تسير السفن من هذا الموضع فى البحر مسيرة يوم أو أقل إلى الأسكندرية.

فأما الطريق من مدينة رشيد إلى الإسكندرية على البر، تسير منها نحو ثلاثة أميال إلى الغرب فى رمال، ثم تفضى إلى فُوهة بحيرة قد دخلت فى البر أميالاً كثيرة، فتخوض الدواب الماء حتى تقطع تلك البحيرة نحو نصف ميل بعلامات قد وُضعت فى البحيرة، فإذا حادت دابّة عن تلك العلامات سقطت فى بحر بعيد القعر، فهلكت وهلك ما عليها من المتاع أو فسد، إلا إن تدورك وخلص.

---

(١) تَرُوجة: قرية من كورة البحيرة من أعمال الإسكندرية، أكثر ما يزرع بها الكمون. مراصد الاطلاع ١/ ٢٦٠.

ويسمى ذلك الموضع الأُشْتُوم[١]، فإذا عبروا تلك البحيرة، صاروا إلى أجم، وغياض، وهضاب رمال، فساروا فيها نحو عشرة أميال.

ويستعمل الصيادون فى هذا الموضع من الطير غلات جزلة من لحمها وريشها، والطير تخرج من البحر إلى مصايدهم.

ثم تسير بعد ذلك نحو خمسة أميال إلى باب مدينة الإسكندرية، وبقرب هذا الباب من خارج سورها صور أصنام، فإذا دخلت الباب فهناك قبة خضراء على ستة عشر عمودًا من الرخام، ويسرة هذه القبة بساتين كثيرة، فيها جميع الفواكه، وأكثرها الجميز، ويمنة من هذه القبة المدينة والبحر.

ومن تروجَى إلى مدينة الإسكندرية خمسة وعشرون ميلاً.

* * *

ذكر مدينة الإسكندرية[٢]

وذكر أن اسمها رقودة، ولها خمس عشرة كورة، قال عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم: «كانت الإسكندرية ثلاث مدن بعضها إلى جنب بعض: منّة، وهى موضع المنارة وما والاها، والإسكندرية وهو موضع قَصَبَة السلطان اليوم، ونَقِيطة، وكان على كل واحدة منها سور»[٣].

وقال عبد الله بن طريف الهمدانى: «كان على الإسكندرية سبعة حصون، وسبعة خنادق»، وقال: «إن الإسكندر لما استقام مُلْكه فى بلاده، سار يختار أرضًا صحيحة الهواء والتربة والماء، فأتى موضع الإسكندرية، فأصاب أثر بنيان، وعمد رخام منها عمود عظيم مكتوب عليه بالقلم المُسْنَد ـ وهو القلم الأول من أقلام حِمْيَر وملوك عاد ـ: أنا شدّاد بن عاد، شددت بساعدى الواد، وقطعت عظيم العماد، من الجبال الأطواد، وبنيتُ إِرَم ذات العماد، التى لم يخلق مثلها فى

(١) الأُشْتُوم: موضع قرب تَنِّيس، وعنده يصبُّ النيل عن شمالى دمياط. مراصد الاطلاع ١/ ٨٠.
(٢) انظر آثار البلاد ١٤٤ـ ١٤٧ ومراصد الاطلاع ١/ ٧٦ وصورة الأرض ١٤٢.
(٣) فتوح مصر والمغرب ٦٢.

البلاد، أردت أن أبنى هاهنا كإرم، وأنقل إليها كل ذى قَدَم، من جميع العشائر والأمم، وذلك أن لا خوف ولا هرم، ولا اهتمام ولا سقم، فأصابنى ما أعجلنى، وعمّا ذهبت إليه قطعنى، حال طال مع وقوعها همِّى وشجنى، وقلّ نومى وَوَسَنى، فارتحلت عن هذه الدار، لا لقهر جبار، ولا خوف جيش جرّار؛ ولكن لتمام المقدار، وانقطاع الآثار، وسلطان العزيز الجبار، فمن رأى أثرى، وعرف خبرى، وطول عمرى، ونفاذ بصرى، وشدة حذرى، فلا يغترّ بالدنيا بعدى»[١].

وقال ابن لهيعة: «بلغنى أنه وُجد حجر بالإسكندرية مكتوب فيه: أنا شدّاد بن عاد، وأنا الذى نصب العماد، وجيّد الأجياد، وسدّ بذراعه الواد، بَنَيْتُهنّ إذ لا موت ولا ميت، وإذا الحجارة فى اللّين مثل الطين».

ثم قال ابن لهيعة: «الأجياد المعادن».

فبعث الإسكندر إلى البلاد، فحشر الصُّنَّاع، واختط الأساس، وجعل طولها وعرضها أميالاً، واستجلب العمد والرخام، وأنواع المرمر والأحجار فى البحر من جزيرة صقليّة وبلاد إفريقية وإقريطش، ووضع على كل قطعة من الأرض خشبة قائمة، وفصل بها حبالاً مَنُوطة بعضها ببعض، يرجع جميعها إلى عمود رخام كان أمام مضربه.

وعلّق على العمود جرسًا عظيمًا مصوتًا، وعلّق على كل قطعة من الحبال جرسًا صغيرًا، فإذا حُرّك حبل الجرس الكبير الذى عند العمود، خفق الجرس، وتحرّكت سائر الحبال، وخفقت الأجراس بحركات فلسفية، وحيل حكيمة.

وأمر الصنّاع أن يصنعوا أساس المدينة دفعة واحدة، إذا أذنتْهم تلك الأجراس[٢].

فأخذت الإسكندر نعسةٌ فى حال ارتقابه للوقت المحمود الطالع، فوقع غراب على حبل الجرس الكبير، فحرّكه فتحركت الأجراس، فوضع الأساس، وارتفع الضجيج بالتحميد والتقديس، فاستيقظ الإسكندر من رقدته وسأل عن الخبر، فأُعلِم بصحة ذلك، فعجب من ذلك، وقال: «أردت أمرًا، وأراد الله غيره، ويأبى

(١) مروج الذهب ٢/ ٣٨٥ وفتوح مصر ٦١.
(٢) عن المسعودى ٢/ ٣٨٥.

الله إلا ما يريد، أردت طول بقائها، وأراد الله سرعة فنائها»[١].

فلما شُيِّدت أمر أن يكتب على بابها: «هذه الإسكندرية، أردت أن أبنيها على الفلاح والنجاح، واليُمن والسرور، والثبات على الدهور، فلم يرُد الله ـ تعالى ـ ذلك، فبنيتُها على ما أراد، وأحكمتُ بُنيانها، وشيّدت سورها، وآتانى الله من كلّ شىء علمًا، وحكمًا، وسهّل علىّ وُجوه الأسباب، فلم يتعذر علىّ فى العالم شىء مما أردته، صنعًا من الله ـ تعالى ـ لى، وصلاحًا لعباده من أهل عصرى، والحمد لله ربّ العالمين».

ورسم بعد هذا كل ما يحدث فيها بعده فى مستقبل الأزمان من الخراب والعمران.

وبنى سورها آزاجًا وطبقات، قد عمل لها مخاريق ومتنفّسات للضياء، يسير فيه الفارس بفرسه، وبيده رُمح لا يضيق به حتى يدور جميع تلك الآزاج.

وكذلك أسواقها وشوارعها وسككها مقنطرة كلها، لا يصُيب أهلها شىء من المطر.

وكانت الإسكندرية تضىء فى الليل بغير مصباح[٢]؛ لشدة بياض الرخام، وربما عُلّق فيها شقاق الحرير الأخضر؛ لاختطاف بياض الرخام أبصار الناس.

وقد كان لها سبعة أسوار، من أنواع الحجارة المختلفة ألوانها، بينها خنادق، بين كل خندق وسور فصيل.

وكان سكان البحر ـ على ما زعموا ـ يؤذون بالليل، ويختطفون، فاتّخذ الإسكندر على أعمدة هناك تُدْعَى المسالّ الطلسمات، وهى باقية إلى هذه الغاية، كل عمود منها على هيئة السروة، طولها ثمانون ذراعًا، على عمد من نحاس، وجعل تحتها صورًا وأشكالاً، وكتابة تدفع وتمنع.

وقد ذكر أيضًا فى غير هذه القصة، وفى غير هذا الكتاب، ما كان من دخوله البحر فى التابوت، ورؤيته أشخاص تلك الدوابّ المضرّة للبناء وغير ذلك.

---

(١) مروج الذهب ٢/ ٣٨٦.

(٢) مروج الذهب ٢/ ٣٨٦.

فلما صنع أمثالها، وجعلها على الأسوار، خرجت من النيل تلك الصور على حالها، وظنت أن ذلك يصنع بها إذا خرجت وامتنعت عن الخروج، والله أعلم بكيفية ذلك كله[١].

* * *

ذكر منارة الإسكندرية[٢]

فأما المنارة فذهب كثير من الناس أن الإسكندر بناها على حسب ما ذكرنا فى المدينة، ومنهم من رأى أن دَلُوكَة الملكة بَنَتْها، وقال بعضهم إن العاشر من فراعنة مصر بناها، وقيل إن الذى بناها هو الذى بنى مدينة رومة.

وبنى الإسكندرية والأهرام بمصر، وإنما أضيفت الإسكندرية إلى الإسكندر؛ لشدة استيلائه على ممالك العالم، وإن الإسكندر لم يطرقه فى البحر عدو، ولا هاب ملكًا يرد إليه، فيكون يجعل مرقبًا[٣].

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: «كان أول من ملك الإسكندرية فرعون، اتخذها مصانع ومجالس، وهو أوّل من عمّرها، ثم تداولها الملوك بعد فرعون، فبنت دلوكة بنت زبّان منارها، ثم تداولها الملوك، فلما كان سليمان ﷺ اتخذها مجلسًا، وبنى فيها مسجدًا.

ثم إن ذا القرنين هدم ما كان فيها من بناء الملوك، إلا بناء سليمان، فإنه أصلح ما كان رثّ فيه، وأقرّا المنارة على حالها، وبنى الإسكندرية من أوّلها هذا البناء، ثم تداولها ملوك الروم وغيرهم، فكل ملك أبقى فيها أثرًا، فيقال إن فيلبس بن الإسكندر المقدونى، المعروف بالبناء، هو الذى بنى الإسكندرية، وهو الذى كان معلمه أرسطاطاليس، وبين بناء الإسكندرية وبين الهجرة تسعمائة سنة، وخمس وأربعون سنة، وأحد وأربعون يومًا.

---

(١) مروج الذهب ٢/ ٣٨٨.

(٢) انظر فى وصف المنارة: رحلة ابن جبير ١٤ـ١٥ وآثار البلاد ١٤٥ وصورة الأرض ١٤٢ والموسوعة المصرية ١/ ٤٨٨.

(٣) مروج الذهب ٣/ ٣٨٩.

وقد ذكرنا فى أخبار ملوك مصر أن أول من بناها جيرون، بأمر حوريا، على ما سقناه من أمرها.

ومنهم من رأى أن أول من بناها قلوبطرة، وهى التى ساقت خليجها حتى أدخلته الإسكندرية، وهى التى بلطت قاعته.

وإن الذى بنى المنارة جعلها على كرسى من زجاج، على هيئة السرطان، فى جوف البحر على طرف اللسان الذى هو داخل فى البحر من البر، وجعل طولها فى الهواء ألف ذراع، وجعل فيها المرآة وتماثيل النحاس، فمنها تمثال[١] قد أشار بسبَّابة يده اليمنى نحو الشمس حيثما كانت من مغرب أو مشرق أو أفق، وتمثال يشير بيده إلى البحر إذا صار العدو فيه على نحو ليلة، فإذا دنا وأمكن أن يُرى بالبصر، سُمع له صوت هائل على ميلين أو ثلاثة.

وتمثال كلما مضى من الليل والنهار ساعة سُمع له صوت مُطْرب، بخلاف الصوت الذى كان منه فى الساعة قبل.

وهذه المنارة من دخلها تلف فيها، إلا أن يكون عالمًا بها؛ لكثرة بيوتها وحجراتها وطبقاتها.

وذكر أن المغاربة حين وافوا فى خلافة المقتدر[٢]، فى جيش صاحب المغرب، دخل جماعة منهم على خيولهم المنارة، فتلفوا فيها، وفيها طرق تؤول إلى مهاوٍ إلى سرطان الزجاج، ومخاريق إلى البحر، فتهوّروا بدوابّهم، وفقد منهم عدد كبير[٣].

وفيها مسجد فى هذا الوقت يرابط فيه المطوّعة.

وكان حول المنارة مغاوص، تستخرج منها أنواع جوهر يُتخذ منه فصوص الخواتم، منها الأسباذ جُشَم، والكركهن، والباقَلَمون، وهذا الباقلمون حجر يتلّون فى المنظر ألوانًا مختلفة، كتلوّن ريش الطاوس الهندية؛ فإنها تتلون ألوانًا لا تحصى، ولا تشبه بلون من الألوان لما يترادف من تَموج الألوان فى ريشها.

---

(١) آثار البلاد ١٤٥.

(٢) مروج الذهب ٣/ ٢٩٢.

(٣) مروج الذهب ٣/ ٣٩٢.

ولتلك الطواويس شأن عجيب، وخلق عظيم، وما خرج منها من أرض الهند صغر جسمه، وكدر لونه، كما يفعل ما نقل منها من النارنج والأترجّ، فإنها تصغر، وتعدم تلك الأرواح العطرية؛ لعدم ذلك الهواء والتربة.

فمن الناس من رأى أن الإسكندر غرق هذه الأنواع من الجواهر حول المنارة، لكى لا تخلو من الناس؛ لأن من شأن الجواهر أن تكون مطلوبة على الأعصار، وقيل إنها كانت آلات شراب الإسكندر، فلما مات كسرتها أمُّه، ورمت بها فى تلك المواضع.

وقد كان ملك الروم فى خلافة الوليد بن عبد الملك، أنفذ خادمًا من خواصّ خدمه، ذا دهاء ورأى ووطأة على ما يذكره، فجاء مستأمنًا إلى بعض الثغور، فحُمل إلى الوليد، فأعلمه أنه كان من خواص الملك، وأنه أراد قتله لموجدة لم يكن لها أصل، وأنه رغب فى الإسلام، فأسلم.

وأظهر له النصح للوليد فى دفائن، استخرجها له من بلاد دمشق وغيرها من الشام بكتب كانت له، فلما صارت إلى الوليد تلك الأموال والجواهر، شرهت نفسه، واستمكن طمعه، وباحث عما عنده من علم هذا، فقال: «إن الإسكندر لما استولى على الأموال، والجواهر التى كانت لشدّاد بن عاد، وملوك العرب، وغيرهم، بنى لها الآزاج، والسراديب، والأقباء، وأودعها تلك الذخائر من الأموال والجواهر، ثم بنى فوق تلك المنارة».

فبعث معه الوليد بأناس من خواصّه وثقاته، فهدم نصف المنارة، وأزيلت المرآة، فضجّ الناس من أهل الإسكندرية وغيرها، وعلموا أنها مكيدة وحيلة، فلما استفاض ذلك هرب فى الليل فى مركب قد كان أُعدّ له، فبقيت المنارة على ما ذكرنا إلى هذا الوقت[1].

* * *

(١) مروج الذهب ٢/ ٣٩٠.

صفة المنار اليوم وارتفاعه [(١)]

وأما المنار اليوم[(٢)] فهو ثلاثة أحزم: الأول مربع البناء، قد عمل أحسن عمل من الحجارة المربعة التى قد أخفى إلصاقها حتى صارت كالحجر الواحد، ولم يغير الزمان من ذلك شيئًا، وارتفاع هذا المربع ثلاثمائة ذراع وعشرون ذراعًا بالذراع المعروفة.

ثم ترك فى أعلاه غلظ حائط البناء، وهو ثمانية أشبار ونحو عشر أذرع سوى ذلك الغلظ، ورفع على ما بقى من البناء بناء مثمّن الشكل، طوله ثمانون ذراعًا، ثم بنى على هذا البناء المثمَّن، بعد أن ترك غلظ حائطه، وهو أقل من غلظ الأسفل، وثمانى أذرع سوى ذلك الغلظ، عليه بناء مربع، ارتفاعه خمسون ذراعًا أو نحو هذا.

وفى أعلى ذلك مسجد محكم البناء ينسب لسليمان، وفى الناحية الشمالية من البناء المثمّن كتابة بالنحاس لم يفكّها أحد.

وباب المنار من حديد لا يعلم له عهد، يرقى إليه من أسفل المنار فى علو، ويصعد من أسفلها إلى أعلى بنائها الأول، فى طريق يمشى فيه فارسان متواكبان

---

(١) انظر: الأعلاق النفيسة ٨٠ وآثار البلاد ١٤٦ـ١٤٧.

(٢) وصفه ابن بطوطة فى رحلته ٣٩ـ٤٠ قصدتُ المنار فى هذه الوجهة فرأيت أحد جوانبه متهدِّمًا، وصِفَتُه أنه بناءٌ مُربَّعٌ ذاهبٌ فى الهواء، وبابه مرتفع على الأرض، وإزاء بابه بناء بقدر ارتفاعه، وضِعت بينهما ألواح خشب يعبر عليها إلى بابه، فإذا أزيلت لم يكن له سبيل.
وداخل الباب موضع لجلوس حارس المنار، وداخل المنار بيوت كثيرة، وعرض المَمَرّ بداخله تسعة أشبار، وعرض الحائط عشرة أشبار، وعرض المنار من كل جهة من جهاته الأربع مائة وأربعون شبرًا، وهو على تَل مرتفع، ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ واحدٌ فى برٍّ مستطيل يحيط به البحر من ثلاث جهات إلى أن يتّصل البحر بسور البلد فلا يمكن التوصّل إلى المنار فى البرِّ إلاّ من المدينة.
وفى هذا البرِّ المتَّصل بالمنار مقبرة الإسكندرية.
وقصدت المنار عند عودى إلى بلاد المغرب عام خمسين وسبعمائة وجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه».

فى أرض سهلة، لا يكاد يعلم الراقى فيه هل هوراقٍ أو ماشٍ فى سواء من الأرض.

وفى كل عطف من هذا المصعد باب دار داخلها بيوت مربعة، سعة كل بيت من عشرين ذراعًا إلى عشر أذرع، قد فتح لها مضاوٍ متنفّسات للهواء، ولئلا تهدّمها الرياح.

وعدد ما فيها من البيوت ثلاثمائة وستة وستون بيتًا، وعطف مطالعها من أسفلها إلى أعلاها اثنان وسبعون عطفًا، فى كل عطف اثنتا عشرة درجة، وبيوتها كلها آزاج معقودة.

وبناء المنار كله معقود بخشب الساج، وعدد أبوابها الظاهرة من خارجها اثنان وعشرون بابًا، فتحت فيها لئلا تهدمها الرياح.

والبحر قد أثر فى أسفل المنارة من غربيّها، حتى صار تحتها كالكهف العظيم، فسدّ بعض أمراء مصر ذلك الثلم بأساطين الرخام بعضها فوق بعض، فالبحر يضرب اليوم فى تلك الأساطين، ولا يؤثر فيها شيئًا.

وفى الشمال من المنارة بناء عريض واسع، قد رفع من قعر البحر، حتى ظهر على الماء، يدل على أنه كانت عليه مصانع قد ذهبت، ويسمى ذلك البنيان الفاروس، وفى أسفله ترفأ السفن؛ لأن ذلك البناء يكف عنها الموج.

وقد زعم قوم أن ذلك الظاهر ليس ببناء، إنما هو مما هدم من حجارة المنارة، والله أعلم.

وتسير من الإسكندرية إلى المنارة، فتخرج على باب الأشتوم، وتسير على ضفة البحر نحو نصف ميل، ثم تميل نحو الشمال فتسير نحو ذلك، ثم تسير على بناء فى البحر كالقناطر، ولها منافس، والبحر يضرب من جانبيه نحو أربعمائة خطوة، فإذا خرجت من ذلك البناء صرت فى فضاة داخلة فى البحر كأنها جزيرة.

والمنار فى أعلى هضبة منها، وقد أحاط البحر بالمنارة من ناحية الجنوب، والشمال، والغرب.

ولهذه المنارة مجمع فى العام، فى يوم يسمّونه بخميس العدس، وهو أول

خميس من شهر بابه، لا يتخلف فى مدينة الإسكندرية أحد إلا خرج إلى المنارة، وقد تقدموا فى إعداد الأطعمة، ولابد فى ذلك الطعام من عدس، فيفتح بابها للناس، فيصيرون فيها.

فمِن ذاكر الله عز وجل ومصلٍّ، ومن لاهٍ متفرّج، فيقيمون إلى نصف النهار ثم ينصرفون.

وسمع الليث بن سعد، مسلمة بن على يقول: «بارك فى العدس سبعون نبىٍّ»، قال الليث: «إلا نبى واحد، وإنه لردىء مؤذٍ».

ومن ذلك اليوم يبتدأ بإحراس البحر، ولهم فى المنارة قوم مرتّبون لذلك من النصارى، فهم يوقدون النار الليل كله فى أعلى الحزام الأول من ناحية البحر، فيؤمّ أهل السفن من جميع البلاد سمت تلك النار، ويوقد صاحب السفينة النار، فإذا رأى المحترس نارًا فى البحر زاد فى وقوده، وأوقد نارًا أخرى إلى ناحية المدينة.

فإذا رأى ذلك الذين بالمدينة، زادوا فى ضرب البوقات والأجراس؛ حذرًا من العدو، فاستعد أهل المدينة لذلك.

قال: «والقصر الأعظم بالإسكندرية خراب، وهو على ربوة عظيمة بإزاء باب المدينة، طوله خمسمائة ذراع، وعرضه على النصف من ذلك أو نحوه، ولم يبق منه إلا سواريه، فإنها قائمة لم يسقط منها شيء.

وبابه أحكم البناء وأتقنه، كل عضادة منه حجر واحد.

وعدد أساطين القصر أزيد من مائة أسطوانة، غلظ كل أسطوانة نحو عشرة أشبار، وفى ناحية الشمال منه أسطوانة عظيمة غلظها ستة وثلاثون شبرًا، وهى من الارتفاع بحيث لا يدرك أعلاها قاذف بحجر، وعليها رأس محكم الصناعة، يدل أن بناءً كان عليها، وقاعدتها حجر أحمر مربع محكم، عرض كل ضلع من أضلاعه اثنان وعشرون شبرًا فى ارتفاع ثمانية أشبار.

والأسطوانة منزّلة فى عمود قد خرقت به الأرض، فإذا اشتدت الرياح جعلت تحت الأسطوانة الحجارة، فتطحنها لشدة حركتها.

وبمدينة الإسكندرية كان الهيكل الأعظم الذى اجتمع فيه ثلاثمائة أسقف، وثمانية عشر أسقفًا، فأسسوا القول بالتثليث، وكفّروا من خالفهم، وذلك فى زمن قيصر يولش.

وقال حمزة بن محمد المصرى إن بعض ولاة مصر دخل الإسكندرية، فنظر إلى قصر عظيم من بناء الأوّلين، فدعا الصنّاع فسألهم أن يبنوا له مثله، فقام إليه شيخ منهم، فقال له: «أنا أبنى لك مثله إن أزحت علىّ» فقال: «سل»، قال: «ائتنى بثورين مطيقين وعجلة»، فأمر له بذلك، فدخل مقابر الإسكندرية، واحتفر فى قبورها، فاستخرج جمجمة عظيمة، فوضعها فى العجلة، فما جرّها الثوران إلا بعد جهد، فجاءه بها فقال: «أصلح الله الأمير، إن أعطيتنى من تكون رؤوسهم مثل هذا الرأس بنيت لك مثل هذا القصر»، فعلم أنه لا حيلة له فيه.

وقال حمزة بن محمد المصرى: «رأيت بالإسكندرية عند قصّاب ضرس إنسان يزن به اللحم، زنته ثمانية أرطال».

والإسكندرية كلها دفائن وكنوز، فإذا أمطرت مطرًا شديدًا، وسال ترابها مع الماء، خرج الرجال والنساء والصبيان من المدينة يلتمسون حواليها، فيجدون قطع الذهب والفضة، من الحلَى وغيره، والدرّ والياقوت والزمرد، وليس يرجع أحد منهم بغير شىء.

وإذا زاد النيل فى أيام زيادته، دخل فى الخليج الذى صنع لذلك حتى يصل إلى الإسكندرية، فإذا وصل إلى أعلى المدينة، ولهم هناك آبار مصنوعة ومواجل، فيسقون منها بالسواقى من ماء النيل، ويصبّون فيها، فيجرى الماء منها فى قَنىً قد أحكمت إلى آبار فى دور المدينة من عمل الأُوَّل، وذلك أكثر من ثلاثة أميال.

وليس بمدينة الإسكندرية دار إلا فيها بئر وماجل، فإذا وصل الماء إلى الآبار استسقى أهل الآبار، وصبّوا فى المواجل، فيشربون منه باقى عامهم.

وكان بالإسكندرية دار ملعب، قد بُنيت بضرب من الحكمة، لا يرى أحد فيها شيئًا دون صاحبه، ووجه كلّ جالس فيها تلقاء وجه صاحبه، إن عمل أحد منهم شيئًا، أو تكلم، أو نفث، سمعه ونظر إليه جميعهم سماعًا ونظرًا متساويًا قريبهم وبعيدهم.

وكانوا يترامون فيها بالكرة، فإذا وقعت فى كمّ أحد منهم، فلابد له من ولاية مصر، كان هذا عندهم معروفًا لا يشكّون فيه.

وإن عمرو بن العاص سافر إلى الإسكندرية قبل الإسلام تاجرًا بالقطن والأدم، فحضر ذلك الملعب، فلعبوا بالكرة، فدخلت كمّه ثلاث مرات، فقالوا: «كذَّبَتْنَا هذه الكرة هذه المرة»، فأتى الله عزو جل بالإسلام، وفتحت مصر، ووليها عمرو ثلاث مرات.

وقال عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم: «لما غزا عمرو بن العاص الإسكندرية من مصر، فلم يقدر عليها، وذلك بعد تسعة أشهر من موت هرقل، غمّه ذلك فاستلقى على ظهره مطرقًا، ثم جلس فقال: إنى فكرت فى هذا الأمر، فإذا هو لا يُصلِح آخره إلا ما أصلح أوله؛ يريد الأنصار، فدعا عُبادة بن الصامت، فعقد له على حربها، ففتحها الله على يديه، وفتحت يوم الجمعة مستهلّ المحرّم سنة عشرين عنوة، بغير عهد ولا عقد، ولم يكن بصلح ولا بأمن»[1].

ولم يكن بالإسكندرية خِطط، إنما كانت أخايذ، مَن أخذ منزلاً نزل فيه هو وبنو أبيه.

ونزل عمرو بن العاص القصر الذى صار لعبد الله بن أبى سرح، ويقال إن عمرا وهبه له لمّا وليها.

قال يزيد بن أبى حبيب: وكان المسلمون ينزلونها فى رباطهم، فإذا قفلوا ابتدر الواردون منازلها، فمن ركز رُمْحه فى دار كانت له، فتنزل الدار القبيلتان والثلاث.

فكان يزيد بن أبى حبيب يقول: «لا يحلّ من كرائها شىء، ولا يبيعها ولا يُورَّث منها شىء، إنما كانت للمسلمين يسكنونها فى رباطهم»[2].

فقال عوف بن مالك لأهل الإسكندرية: «ما أحسن مدينتكم يا أهل الإسكندرية»، فقالوا إن الإسكندر قال حين بناها: «إنى أبنى مدينة إلى الله فقيرة،

(١) فتوح البلدان ٣١٢.

(٢) فتوح البلدان ٣١٢.

وعن الناس غنية»، فبقيت بهجتها، وإن الفرما ـ وهو أخو الإسكندر ـ بنى الفرما، وقال: «إنّى أبنى مدينة، عن الله غنية، وإلى الناس فقيرة»، فذهبت بهجتها، ولا يزال ينهدم منها كل يوم شىء ولا ينجبر، وبقيت الإسكندرية بجدّتها.

وروى بعض المصريين أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لما دخل الإسكندرية وهو إذ ذاك أمير مصر قال لعاملها لما رأى آثارها وعجائبها: «أخبرنى كم كان عدد أهل الإسكندرية فى أيام الروم»، فقال: «والله يا أمير ما أدرك علم هذا أحد، ولكن أخبرك كم كان بها من الملوك، فإن ملك الروم أمر بإحصائهم، فوجدهم ستمائة ألف»، قال: «فما هذا الخراب الذى أرى بأطرافها؟» قال: «بلغنى عن بعض ملوك فارس حين ملكوا مصر، أنه أمر بفرض دينار على كل محتلم بمصر لعمران الإسكندرية، فأتاه كبراء أهلها، فقالوا: أيها الملك لا تتعب فى هذا، فإن ذا القرنين أقام على بنائها مرة، وانتهت عمارتها وتمت بعد ثلاثمائة سنة، وأنه أقام أهلها سبعين سنة لا يمشون إلا بخرق سود فى أيديهم، خوفًا على أبصارهم من شدة بياضها».

وذكر الليث بن سعد عن زهرة بن معبد، قال: «قال لى عمر بن عبد العزيز: أين تسكن من مصر؟، قلتُ: أسكنُ الفسطاط. قال: أف، فأين أنت عن الطيّبة؟ قال: قلت: فأيتهنّ الطيبّة؟ قال: الإسكندرية، فعزمت عليك لتسكنها أبا عقيل، ثم قال: ما على الأرض بلدة أحبّ إلىّ أن يكون قبرى فيها من الإسكندرية».

قال الليث: «ثم عدنا أبا عقيل وهو شديد الوجع، ونحن خائفون عليه، فعدناه غداة يوم فقال: رأيت الليلة عمر بن عبد العزيز فى النوم، فقال: أين تسكن أبا عقيل؟ قلت: الإسكندرية، كما عزمت علىّ، قال: أبشر فى ذلك بما يسرّك فى دنياك وأخراك مرّتين، فقلت: الحمد لله».

وقال أحمد بن صالح: قال سفيان بن عُيينة: «الإسكندرية كنانة الله، يجعل فيها خير سهامه».

وقال عبد الله بن مودق الصدفى: «لما نُعى إلىّ ابن عمى خالد بن يزيد، وكان توفى بالإسكندرية، لقينى عبد الله بن لهيعة، والليث بن سعد، مفترقين كلاهما، قال لى: أليس قد مات بالإسكندرية؟

فأقول: بلى، فيقول: هو حيّ عند الله يرزق، ويجُزى عليه أجر رباطه ما قامت الدنيا، وله أجر شهيد حتى يحشر على ذلك».

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن إرم ذات العماد هى الإسكندرية، وقال الناظرون فى الأعمار، والأهوية، والبلدان، وترب الأقاليم والأمصار: «لم تطل أعمار الناس فى بلد من البلدان طولها بمريوط، قرية من قرى الإسكندرية ووادى فرغانة، ومريوط بقرب مدينة الإسكندرية، قرية كبيرة لها بساتين كثيرة، ومنها تجلب الفواكه إلى الإسكندرية، ولوزها رقيق القشر يُحتّ باليد».

وقد ظهر فيمن بقى بالإسكندرية بعد فتحها من الروم، منويل الخصّى[1]، وعادوا حربًا على المسلمين.

قال الليث بن سعد: «قال يزيد بن أبى حبيب: جاءت الروم، وعليهم منويل الخصّى فى المراكب حتى أرسوا بالإسكندرية، فأجابهم من بها من الروم، وقد كان عثمان عزل عمرو بن العاص، وولّى عبد الله ابن سعد بن أبى سرح، فسأل أهل مصر عثمان أن يُقّر عمرا حتى يفرغ من قتال الروم، ففعل، وكان على الإسكندرية سور لا يعدل به فى الحصانة والإتقان والمنع، فنذر عمرو لئن أظهره الله عليهم لَيَهْدِمَنّ سورها حتى تكون مثل بيت الزانية، يؤتَى من كل مكان».

فجيَّش إليهم عمرو فى البر والبحر.

قال الليث: «وكان معه المقوقس فيمن أطاعه من القبط، فأما الروم فلم يُعطه منهم أحد، فقال خارجة بن حذافة لعمرو: ناهضْهم قبل أن يكثر عددهم، ولا أَمْن أن تنتقض مصر كلُّها، فقال عمرو: لا، ولكن أَدَعُهم حتى يسيروا إلىّ، فيصيبوا من مَرُّوا به من الروم، فيُخزى الله ببعضهم بعضًا.

فخرجوا من الإسكندرية، فجعلوا ينتهبون ما مروا به، فلم يَعْرِض لهم عمرو حتى بلغوا نَقْيُوس، فلقوهم فى البر والبحر، فرمت الروم بالنُّشّاب رميًا شديدًا، حتى أصابت يومئذ لَبّة فرس عمرو، فعُقِر واستأخر المسلمون عنهم، فحملوا حملة ولّى المسلمون منها، وانهزم يومئذ شريك بن شحيم فى خيله.

(١) فتوح البلدان ٣١٢-٣١٣.

ثم نصر الله ـ عز وجل ـ المسلمين، وهزم الروم، وقتلوهم قتلاً ذريعًا، إلى أن أمر عمرو بن العاص برفع السيف فى الموضع الذى يسمى بمسجد الرحمة، وإنما سمى بهذا الإسم لرفع عمرو السيف هناك.

وهدم سورها كله، وذلك سنة خمس وعشرين، وأقام عمرو بعد فتحها شهراً ثم عزل، وقد كان عثمان ـ رضى الله عنه ـ أراد أن يكون عمرو على الحرب، وعبد الله بن أبى سرح على الخراج، فأبى عمرو وقال: أكون كماسك البقرة بقرنيها، وغيره يَحْلِبُها».

* * *

ذكر المشهور من المدن والقرى فى الطريق من مصر إلى برقة والمغرب كله (١)

ترنوط(٢): وهى قرية جامعة على النيل، بها أسواق ومسجدجامع وكنيسة وخراب كثير، خربتها كتامة إذ كانوا بها هناك مع أبى القاسم بن عبيد الله الشيعى وأكثر بنيانها بالآجر وبها معاصر سكر.

فمن ترنوط إلى المنَى:ـ وهى ثلاث مدن قائمة البنيان خالية، فيها قصور شريفة فى صحراء رمل وبها قطع فيها الأعراب على الرفاق، وتلك القصور (محكمة البناء منجدة الجدر وأكثرها على آزج معقودة) يسكن بعضها رهبان، وبها آبار عذبة قليلة الماء.

ومنها إلى أبى مينى: وهى كنيسة عظيمة فيها عجائب من الصور والنقوش توقد قناديلها ليلاً ونهاراً لا تطفأ، وفيها قبو عظيم (فى أحد مبانيها) فيها صورة جملين

---

(١) من هنا يبدأ المطبوع بعنوان المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك لأبى عبيد البكرى.

(٢) تَرْنوط: فحص على سِتَّة أميال من المهديّة، منه زاحف أبو يزيد مخلد بن كيداد النكار المهدية، وبه كانت محلّته أيام حصاره لها. وفى كتب الحدثان: إذا ربط الخارجى خيله بترنوط لم يبق لأهل السواد محلول ولا مربوط ـ أهل السواد أهل الساحل ـ وفيها: وَيْلٌ لأهل السواد من مخلد ابن كيداد. الروض المعطار ١٣٣.

من رخام عليهما صورة إنسان قائم رجلاه على الجملين، إحدى يديه مبسوطة والأخرى مقبوضة، يقال إنها صورة أبى مينى، كل ذلك من رخام.

وفى هذه الكنيسة صور الأنبياء عليهم السلام كلهم، صورة زكريا ويحيى وعيسى فى عمود رخام عظيم على ذات يمين الداخل يغلق عليها باب، وصورة مريم قد أسدل عليها ستران، وصورة سائر الأنبياء.

ومن خارج الكنيسة صور جميع الحيوان وأهل الصناعات، من جملتها صورة تاجر الرقيق ورقيقه معه وبيده خريطة مفتوحة الأسفل، يعنى أن التاجر بالرقيق لا ربح له.

وفى وسط الكنيسة قبة فيها ثمانى صور يزعمون أنها صور ملائكة، وفى جهة من الكنيسة مسجد محرابه إلى القبلة (لا يصلى فيه إلا المسلمون) حولها ثمار كثيرة (وعامتها اللوز الأملس والخروب المعسل الرطب ويعقد منه الأشربة، وكروم كثير) تحمل أعنابها وشرابها إلى مصر.

ويقولون إن سبب بنيان هذه الكنيسة: أن قبرًا كان فى موضعها وكان بالقرب منه قرية وأن رجلاً من أهلها كان مقعدًا، فزال عنه حماره فزحف فى طلبه ليصرفه حتى وصل إلى القبر، فلما صار عليه (يتبصر القبر) انطلق ماشيًا، فمشى إلى حماره واستوى عليه راكبًا (وانصرف إلى موضعه صحيحًا.

فتسامع الناس ذلك فلم يبق عليل إلا قصد ذلك القبر فجلس عليه فأفاق، فبنيت عليه هذه الكنيسة، وقصدها أولو الأسقام ليستشفوا بها، فبطل ذلك بعد بنائها. ويؤدى من القسطنطينية إلى هذه الكنيسة (فى كل عام ألف دينار).

وذات الحمام:ـ وهى سوق (جامعة بها) جامع بناه زيادة الله بن الأغلب منصرفًا من المشرق إلى أفريقية، بإزائه بئر طيبة حولها جباب وبساتين وبها قصر خرب يتداول سكناه روابط صاحب مصر.

وسميت ذات الحمام لأن كل من شرب من مائها حمّ إلا من عافاه الله، ولذلك يقول الحداة: ربّ سلّمنا من الحجاز وغلاها ومن مصر ووباها ومن ذات الحمام وحماها.

وأما الحنية فهى شطر حنية قائمة فى وسط فحص بينها وبين البحر شُرف يقال إنها كانت باب الإسكندرية، وينزل حولها لواته ومزاته خصائص، وبين الحنية وذات الحمام مائدة رخام أسود يقال إنها كانت مائدة فرعون تحتها جبّ يعرف بالتيس.

والكنائس: وهى ثلاثة قصور مهدمة بالقرب منها عقبة تعرف بآبار قيس، وهما بئران عذبتا الماء بعيدتا الأرشية.

ومن جب العوسج إلى قباب معان بينهما ثلاثون ميلاً، وهى جباب حولها هذه القباب وهى المعروفة بخرائب القوم.

قال محمد: خرائب القوم مدينة خربها الروم، فيها جباب، وبغربى خرائب القوم قصر أبى معد نزار بن خالد بن يحيى بن بابان، فنزله من قريش من قرابة جبير بن مطعم نحو عشرين بيتًا وأحياء كثيرة من بنى مدلج ومن قبائل البربر نحو ألف بيت من فاضلة وبنى عقيدان.

ويذكر أن كثيرًا ما تتبدل صورة المولود عندهم فتصير فى خلق الغول والسعلاة وتعدو على الناس حتى تغلّ وتقيّد. قال محمد بن يوسف: أخبرنى محمد بن قاسم صاحب إِستِجة[1] أنه صح عنده ذلك أو شاهده.

ومنها إلى مدينة الرمادة[2]: وهى مدينة لطيفة بقرب البحر، لها سور ومسجد جامع وحولها بساتين بأنواع الثمار، وبالقرب منها قصر الشماس وفيه عمارة يسيرة. ومن خرائب القوم إلى مدينة الرمادة خمسة وثلاثون ميلاً.

ومنها إلى خرائب أبى حليمة: وهو قصر معمور به سوق وآبار خمس وجباب على البعد، فإذا أتيت قصر الروم، وهى أقباء طوب يشرف عليها جبل فى سفحه جباب ماء (أكبرها تعرف بالطفلة، فإذا جئت وادى مخيل، وهو حصن فيه جامع

---

(١) إِستِجة: كورة بالأندلس تتَّصل بأعمال ريَّة، بين القبلة والمغرب من قرطبة على نهر غرناطة. مراصد الاطلاع ١/ ٧٠.

(٢) الرَّمادة: موضع بين الإسكندرية وبرقة، وهى أوَّل منازل البربر، يسكنها قوم من مزاتة وغيرهم من العجم الغدم، وبها قوم من العرب من بلى وجهينة وبنى مدلج وأخلاط. الروض المعطار ٢٦٩.

وله سوق عامرة حواليه جباب ماء) وبرك، وليس ينبط فيه ماء، وهو راخى السعر كثير الخير بينه وبين أجدابيه خمس مراحل.

بَرْقَة: واسمها بالرومية الإغريقية بنطابلس تفسيره: خمس مدن وصار إليها عمرو بن العاص حتى صالح أهلها على ثلاثة عشر ألفًا يؤدونها إلى جزية على أن يبيعوا من أحبوا من أبنائهم فى جزيتهم[١].

قال الليث بن سعد: كتب عمرو بن العاص على لواته فى شرطه عليهم أن تبيعوا أبناءكم فيما عليكم من الجزية، وسمع عمرو يقول على المنبر لأهل أنطابلس عهد يوفى لهم به. ووجه عمرو بن العاص عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين[٢].

ومدينة برقة فى صحراء حمراء التربة والمبانى فتحمر لذلك ثياب ساكنيها والمتصرفين فيها. وعلى ستة أميال منها الجبل، وهى دائمة الرخاء كثيرة الخير تصلح بها السائمة وتنمى على مراعيها، وأكثر ذبائح أهل مصر منها ويحمل منها إلى مصر الصوف والعسل والقطران، وهو يعمل بها بقرية من قراها يقال لها مقّة فوق جبل وعر لا يرقى إليها فارس على حال، وهى كثيرة الثمار من الجوز والأترج والسفرجل وأصناف الفاكهة، وتتصل بها شَعْراء عريضة من شجر العرعر.

وبمدينة برقة قبر (رويفع)[٣] صاحب رسول الله ﷺ وحول مدينة برقة قبائل من لواته ومن الأفارق.

وفى الطريق من برقة إلى إفريقية وادى مسوس فيه قباب خربة وجباب يقال إن عددها ثلاثمائة وستون، وبها بساتين، وفى هذا الوادى التربة التى يغلى منها العسل.

* * *

(١) فتوح البلدان ٣١٤ـ٣١٥ وفتوح مصر والمغرب ١٩٧.

(٢) فتوح مصر والمغرب ١٩٧.

(٣) انظر: رحلة التجانى ١٢٤ وترجمته فى أسد الغابة ٢/ ١٩١.

ذكر مدينة أجدابية[1]

وهى مدينة كبيرة فى صحراء أرضها صَفًا وآبارها منقورة فى الصَّفا طيبة الماء، وبها عين ماء عذب ولها بساتين لطاف ونخل يسير، وليس بها من الأشجار إلا الأراك، وبها جامع حسن بناه أبو القاسم بن عبيد الله، له صومعة مثمنة بديعة العمل، ولها حمامات وفنادق كثيرة وأسواق حافلة مقصودة، وأهلها ذوو يسار وثروة وأكثرهم أقباط، وبها نبذ من صرحاء لواته، ولها مرسى على البحر يعرف بالماحور له ثلاثة قصور بينه وبينها ثمانية عشر ميلاً.

وليس لمبانى مدينة أجدابية سقوف خشب، إنما هى أقباء طوب لكثرة رياحها ودوام هبوبها. وهى راخية الأسعار كثيرة التمر يأتيها من مدينة أوجلة أصناف التمور.

* * *

ذكر مدينة سُرْت[2]

وهى مدينة كبيرة على سيف البحر، عليها سور طوب وبها جامع وحمام وأسواق، ولها ثلاثة أبواب: قبلى، وجوفى، وباب صغير إلى البحر ليس حولها أرباض، ولهم نخل وبساتين وآبار عذبة وجباب كثيرة، وذبائحهم المعز ولحمانها عذبة طيبة ليس يؤكل بطريق مصر أطيب من لحومها.

وأهل سرت من أخَسِّ خلق الله خلقًا، وأسوأهم معاملة[3] لا يبيعون ولا يبتاعون إلا بسعر قد اتفق جميعهم عليه، وربما نزل المركب بساحلهم موسقًا بالزيت ـ وهم أحوج الناس إليه ـ فيعمدون إلى الزقاق الفارغة فينفخونها ويوكونها ثم

(١) انظر: مراصد الاطلاع ١/ ٣٠ وينسب إليها صاحب كفاية المتحفظ فى اللغة (ابن الأجدابى).

(٢) سُرْت: مدينة على بحر الروم بين برقة وطرابلس الغرب وأجدابية فى جنوبها إلى البر. مراصد الاطلاع ٢/ ٧٠٤.

(٣) الروض المعطار ٣١٢.

يصفّونها فى حوانيتهم وأفنيتهم ليرى أهل المركب أن الزيت عندهم كثير بائر، فلو أقام أهل المركب عندهم ما شاء الله أن يقيموا ما باعوا منهم إلا على حكمهم.

وأهل سرت يعرفون بعبيد قرلة وهم يغضبون من ذلك.

قال الشاعر يهجوهم: [من الوافر]

عَبِيدُ قُرُلَّةٍ شَرُّ البَرَايا ... معاملةً وأَقْبَحُهُمْ فعَالاً

فَلا رَحِمَ المهيمنُ أَهْلَ سرت ... ولا سقاهم عذبًا زلالا[1]

وقال آخر: [من السريع]

يا سرت لا سُرَّت بك الأنفس ... لسان مدحى فيكم أخرس

ألبستم القبح فلا منظر ... يروق منكم لا ولا ملبس

بخستم فى كل أكرومة ... وفى الخنا واللوم لم يبخسوا

ولهم كلام يتراطنون به ليس بعربى ولا عجمى ولا بربرى ولا قبطى لا يعرفه غيرهم، وهم على خلاف أخلاق أهل أطرابلس، فإن أهل أطرابلس أحسن خلق الله معاشرة وأجودهم معاملة وأبرّهم بغريب.

ومن سُرْت إلى أطرابلس عشر مراحل، ومن سرت إلى أجدابية ست مراحل، ومن أجدابية إلى برقة ستّ مراحل أيضًا.

* * *

ذكر مدينة أطرابلس[2]

ويذكر أن تفسير أطرابلس بالأعجمية الإغريقية: ثلاث مدن، وسماها اليونانيون طربليطة وذلك بلغتهم أيضًا ثلاث مدن: طر معناه ثلاث، وبليطة يعنى مدينة.

ويذكر أن (أشفاروش قيصر) هو الذى بناها. وتسمى أيضًا مدينة أطرابلس مدينة إياس.

(١) البيتان بلا نسبة فى الروض المعطار ٣١٢.

(٢) انظر: رحلة التجانى ٢٣٧ـ٢٤٥.

وعلى مدينة أطرابلس سور صخرى جليل البنيان وهى على شاطئ البحر ومبنى جامعها أحسن مبنى، وبها أسواق حافلة جامعة وحمامات كثيرة فاضلة.

وبأطرابلس مسجد يعرف بمسجد الشعاب[1] مقصود، وحولها أقباط فى ذى البربر كلامهم بالقبطية، فى قرارات فى شرقيها وغربيها مسيرة ثلاثة أيام إلى موضع يعرف ببنى السابرى، وفى القبلة مسيرة يومين إلى حدّ هوارة. وفيها رباطات كثيرة يأوى إليها الصالحون أعمرها وأشهرها مسجد الشعاب، ومرساها مأمون من أكثر الرياح.

ومغداس:ـ ومنها إلى قصور حسان مرحلة، ومن سرت إلى مغداس مرحلة ومن قصور حسان إلى الراشدة ـوهى بئر شريب سماها بهذا الاسم حسان بن النعمان هذا، وأنت تتوجه من مصر إلى المغرب.

ومغداس: هو صنم قائم على شاطئ البحر حوله أصنام وبه قصر بناه الأعرابى عامل سرت لبنى عبيد الله.

وبمغداس التقى أبو الأحوص بن عمرو العجلى مع أبى الخطاب عبد الأعلى بن الشيخ القائم بدعوة الإباضية، فاقتتلوا على البحر فانهزم أبو الأحوص العجلى إلى مصر واحتوى أبو الخطاب على معسكره وقتل بشرًا كثيرًا من أصحابه وانصرف إلى أطرابلس، وذلك سنة اثنتين وأربعين ومائة.

ولما قتل زهير بن قيس ببرقة استعمل عبد الملك بن مروان حسان بن النعمان الغسانى على أفريقية، فخرج إليها فى المحرم سنة ثمان وستين، فلقى عساكر الكاهنة بأرض قابس وعلى مقدمتها القائد الذى كان مع كسيلة بن لهزم، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فقتل صاحب خيل حسان بن النعمان وانهزم حسان وأصحابه إلى المنهل المعروف بقصور حسان بطريق مصر.

وقتل من أصحابه عدد كثير وأسر منهم نحو ثمانين رجلاً، فأحسنت الكاهنة إليهم وأطلقتهم غير واحد وهو يزيد بن خالد القيسى، فوصلوا إلى حسان

---

(١) قال التجانى فى رحلته ٢٤٧ «وأثنى البكرى على مسجد الشعاب وهو الآن خَرِبٌ».

وأخبروه بخبر يزيد، فسر بذلك حسان وكتب إلى عبد الملك يعلمه بما نزل به من الكاهنة ويسأله أن يمده بالجيوش.

فكتب إليه عبد الملك أن يقيم بمكانه، فبنى هناك قصرين وهما اليوم خربان حولهما ماء زعاف برز فى بئرين وبها جباب كثيرة.

والقصر الأبيض هو قصر خرب، وهو أدنى المراحل إلى خرائب أبى حليمة على ظهر العقبة بقرية جب خرب.

قال محمد ـ وهو حدثنا وآخر ذات الحمام ـ قال محمد: حدثنى تميم عن أبيه عن فرات عن أبى المهاجر قال: أخبرنى بعض الإسكندرانيين أن رسول الله ﷺ قال «من كثرت ذنوبه فليلقى لوبيا وراء ظهره» قال: والقصر الأبيض أخر حد لواته أيضًا، ويسكن تحت تلك العقبة مزاته.

ومدينة أطرابلس المذكورة كثيرة الثمار والخيرات، ولها بساتين حليلة فى شرقيها، ويتصل بالمدينة سبخة كبيرة، يرفع منها الملح الكثير.

وداخل مدينتها بئر يعرف ببئر أبى الكنود (وهم يُعَيَّرون به ويحمق من يشرب منه، فيقال للرجل إذا أتى بما يلام عليه: لا يعتب عليك لأنك شربت من بئر أبى الكنود. وأعذب آبارها بئر القبة.

وذكر الليث بن سعد قال: غزا عمرو بن العاص مدينة أطرابلس سنة ثلاث وعشرين حتى نزل القبة التى على الشرف من شرقيها، فحاصرها شهرًا لا يقدر منهم على شىء، فخرج رجل من بنى مدلج ذات يوم (من عسكر عمر) متصيدًا فى سبعة نفر فمضوا غربى المدينة فاشتد عليهم الحرُّ فأخذوا راجعين على ضفة البحر ـ وكان البحر لاصقًا بسور المدينة ـ ولم يكن فيما بين المدينة والبحر سور، وكانت سفن البحر شارعة فى مرساها إلى بيوتهم. ففطن المدلجى وأصحابه، فإذا البحر قد غاض من ناحية المدينة، فدخلوا منه حتى أتوا من ناحية الكنيسة فكبروا، فلم يكن للروم مفزع إلا سفنهم، وأقبل عمرو بجيشه حتى دخل عليهم فلم يفلت الروم إلا بما خفّ لهم فى مراكبهم، وغنم عمرو ما كان فى المدينة.

وإنما بنى سور مدينة أطرابلس مما يلى البحر هرثمة بن أعين[١] حين ولايته القيروان.

ولمدينة أطرابلس فحص يسمى سوفجين يصاب فيه بعض السنين للعبة مائة حبة، وهم يقولون: فحص سوفجين[٢] يصيب سنة فى سنين.

ومن أطرابلس إلى جبل نفوسة مسيرة ثلاثة أيام، وجبل نفوسة على ستة أيام من القيروان، وطول جبل نفوسه من الشرق إلى الغرب ستة أيام، وتليه قبيلة يقال لها بنو رمور ولهم حصن يسمى تيرقت فى غاية المنعة لا يطمع فيه أحد ولا يقدر عليه.

وبعد هذا الحصن قبيلة بنى تدرميت لهم ثلاثة حصون، وفى وسط هذه القبائل مدينة كبيرة تسمى جادوا لها أسواق ويسكنها يهود كثير.

قال محمد بن يوسف: أم قرى جبل نفوسه مدينة شروس وهى كبيرة آهلة جليلة، أهلها إباضية ليس بها جامع ولا فيما حولها من القرى، وهى أزيد من ثلاثمائة قرية آهلة لم يتفقوا على رجل يقدمونه للصلاة بهم.

وبين أطرابلس ومدينة شروس خمسة أيام، بينها حصن لبدة حصن من بناء الأول بالصاروج والحجر حوله آثار عجيبة للأول وخرائب كثيرة، يسكن هذا الحصن قوم من العرب جملتهم نحو ألف فارس وهم محاربون لجميع من يجاورهم من قبائل البربر، وهم أزيد من عشرين ألفًا بين راجل وفارس وظاهرون عليهم.

ويروى فى هذا الحصن فى كتب الحدثان أمور شنيعة من العسكر الغربى الصادر إلى افتتاح مصر وذلك فى آخر الزمان.. والله أعلم.

وفى وسط جبل نفوسه النخيل والزيتون والكثير والفواكه، ويجتمع فيما حوله من القبائل إذا تداعوا ستة عشر ألف رجل.

وافتتح عمرو بن العاص ـ رحمه الله ـ نفوسة وكانوا نصارى، ومن نفوسة رجع عمرو بكتاب عمر ـ رضى الله عنه ـ.

---

(١) الروض المعطار ٣٩٠.

(٢) الروض المعطار ٣٩٠.

ومن أراد الطريق من نفوسة إلى مدينة زويلة فإنه يخرج إلى مدينة جادوا المذكورة، ثم يسير ثلاثة أيام فى صحراء ورمال إلى موضع يسمى تيرى، وهو من سفح جبل فيه آبار كثيرة ونخيل، ثم يصعد فى ذلك الجبل فيمشى فى صحراء مستوية نحو أربعة أيام لا يجد الماء ثم ينزل على بئر تسمى أودرف، ومن هناك يلقى جبالاً شامخة تسمى تارغين يسير فيها الذاهب ثلاثة أيام حتى يصل إلى بلد يسمى تامرما فيه نخيل كثير يسكنه بنو قلدين وفزانه.

وعندهم غريبة، وهو أن السارق إذا سرق عندهم كتبوا كتابًا يتعارفونه، فلا يزال السارق يضطرب فى موضعه ذلك ولا يفتر حتى يقر ويرد ما أخذ وما يسكن عنه ما به حتى يمحى ذلك الكتاب.

ويسير من هذا البلد إلى بلد يسمى سباب يومين، وهو بلد كثير النخل وكذلك الذى قبله.

وأهل سباب يزدرعون النبات الذى يكون منه الصبغ المعروف بالنيل.

ويسير من سباب فى صحراء مستويه لا شىء فيها غير رمل رقيق لا يشوبه حجر ولا مدر، (إذا رأى الرائى العظم فى تلك الصحراء من بعيد حسبه قصرًا، وإن رأى بعرة حسبها رجلاً).

ومن هذه الصحراء إلى زويلة يوم.

وهى بجوفىّ مدينة أجدابية، وهى مدينة غير مسورة فى وسط الصحراء، وهى أول حد بلاد السودان، وبها جامع وحمام وأسواق يجتمع بها الرفقة من كل جهة منها، ومنها يفترق قاصدهم وتتشعب طرقهم، وبها نخيل وبساط للزرع يسقى بالإبل، ولما فتح عمرو برقة[1] بعث عقبه بن نافع حتى بلغ زويلة وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين.

وبزويلة قبر دعبل الخزاعى ـ قال بكر بن حماد: [من الكامل]

الموت غادر دعبلا بزويلة وبأرض برقة أحمد بن خصيب

وبين زويلة ومدينة أجدابية أربع عشر مرحلة، ولأهل زويلة حكمة فى

---

(١) فتوح البلدان ٣١٤ وفتوح مصر والمغرب ١٩٨.

احتراس بلدهم، وذلك أن الذى عليه نوبة الاحتراس منهم يعمد إلى دابة فيشد عليها حزمة حطب كبيرة من جرائد النخل ينال سعفها الأرض، ثم يدور بها حوالى المدينة، فإذا أصبح من الغد ركب ذلك المحترس ومن يتبعه على جمال السروج وداروا بالمدينة فإن رأوا أثرًا خارجًا من المدينة اتبعوه حتى يدركوه أينما توجه لصًا كان أو عبدًا أو أمة أو بعيرًا.

وزويلة[١] من أطرابلس بين المغرب والقبلة، ويجلب من زويلة الرقيق إلى ناحية أفريقية وما هنالك ومبايعتهم بثياب قصار حمر.

وبين زويلة وبلدة نم أربعون مرحلة، وهم وراء صحراء بلاد زويلة لا يكاد أحد يصل إليهم وهم سودان مشركون.

ويزعمون أن هنالك قومًا من بنى أمية صاروا إليها عند محنتهم بالعباسيين، وهم على زِىٍّ العرب وأحوالها.

وبين مدينة زويلة ومدينة سبهى مسيرة خمسة أيام، وهى مدينة كبيرة بها جامع وأسواق، وبين مدينة سبهى ومدينة هلّ مثل ذلك، وهى مدينة عامرة كثيرة النخل وعيون الماء.

ومن مدينة هلّ إلى مدينة ودّان[٢] يوم، ولها قلعة حصينة وللمدينة ضروب وهى مدينتان، فيها قبيلتان من العرب سهميون وحضرميون، فتسمى مدينة السهميين دلباك ومدينة الحضرميين مدينة بوصى، وجامعهما واحد، وبين الموضعين والقبيلتين تنازع وتنافس قد آل ذلك بهم مرارًا إلى الحرب والقتال، وعندهم فقهاء وقرّاء وشعراء، وأكثر معيشتهم من التمر ولهم زرع يسير يسقونه بالنضح.

ومن مدينة ودّان إلى مدينة تاجَّرفْت[٣] ثلاثة أيام، وهى ودينة آهلة بها جامع يسكنها أهل ودان، والتمر بها كثير، وأكثر أجناسه البَرْنِىّ، ومنها يخرج إلى مدينة

---

(١) مراصد الاطلاع ٢/٧٦٧ وآثار البلاد ٩٤.

(٢) نقله القزوينى عن البكرى فى آثار البلاد ٢٨٠.

(٣) تَاجَّرفْت: مدينة آهلة فى طرق إفريقية بين ودَّان وزويلة وودَّان شرقيها. مراصد الاطلاع ٢٤٨/١.

سُرْت[1] وبينها وبين زويلة مسيرة اثنى عشر يومًا، وبينها وبين ودان مثل ذلك، وهى متوسطة بينهما زويلة بغربيها وودان بشرقيها. هكذا قال محمد بن يوسف.

والذى مر هناك من ذكر المسافة بين تاجَّرْفت وزويلة أربعة عشر يومًا على الطريق الأقصر، ومن تاجرفت إلى الفسطاط تسع وعشرون مرحلة. وطريق آخر من زويلة إلى تاجرفت: من زويلة إلى مدينة تَمسىً يومان، ومدينة تمسى كبيرة بها جامع وأسواق يسيرة، ومنها إلى مدينة زلهى ثمانية أيام فى صحراء، وفى وسط الطريق منزل لأهل ودان، ومدينة زلهى كبيرة واسعة فيها جامع ولها نخل كثير وعين ماء نزة، يسكنها مزاته.

ثم تمشى ستة أيام إلى فحص بركانه، ثم إلى الفاروج وهو قصر (قد خرب) بجوار جب وحوله سبخة وبينه وبين سرت خمس مراحل، ثم إلى مدينة أجدابية مرحلة، ثم منها ثلاثة أيام إلى قصر زيدان الفتى، ثم تمشى أربعة أيام إلى مدينة أوجلة وهى مدينة عامرة كثيرة النخل، وأوجلة اسم الناحية واسم المدينة أرزاقية.

وأوجلة قرى كثيرة فيها نخل وشجر كثيف وفواكه وبمدينتها مساجد وأسواق ثم أربعة أيام إلى مدينة تاجرفت.

ومن سلك من أطرابلس إلى ودَّان فإنه يسير فى بلد هوارة نحو الجنوب فى قياطن وبيوت شعر، وهناك مرأيات ومنازل إلى قصر ابن ميمون، وذلك كله من عمل أطرابلس.

ثم من قصر ابن ميمون ثلاثة أيام إلى صنم من حجارة مبنى على ربوة يسمى كرزة، ومن حواليه من قبائل البربر يقربون له القرابين ويستشفون به من أدوائهم ويتبركون به فى أموالهم إلى اليوم.

ومن هذا الصنم إلى ودان مسيرة ثلاثة أيام.

وكان عمرو بن العاص قد بعث إلى ودَّان بسر بن أرطأة وهو محاصر أطرابلس فافتتحها، وذلك سنة ثلاث وعشرين.

(١) سُرْت: مدينة على بحر الروم بين برقة وطرابلس الغرب، وأجدابية فى جنوبيها إلى البر. مراصد الاطلاع ٢/ ٧٠٤.

وقال ابن عبد الحكم[1]: ثم إنهم نقضوا عهدهم ومنعوا ما كان بسر بن أرطأة فرض عليهم، فخرج عقبة بن نافع الفهرى إلى المغرب بعد معاوية بن حديج وذلك سنة ست وأربعين، ومعه بسر بن أرطأة وشريك بن سُحيم المرادى، فأقبل حتى نزل بغدامس من سرت، فخلف عقبة جيشه هنالك واستخلف عليهم زهير بن قيس البلوى، ثم سار بنفسه فى أربعمائة فارس وأربعمائة بعير وثمانمائة قربة ماء حتى قدم ودان فافتتحها وأخذ ملكهم، فجدع أذنه، فقال: لم فعلت هذا: قد عاهدنى المسلمون؟ قال: أدبًا لك، إذا ذكرت أذنك ذكرت ذلك فلم تحارب العرب، واستخرج منه ما كان بُسْر فرض عليه ثلاثمائة رأس وستين رأسًا.

ثم سألهم عقبة: هل وراءكم أحد؟ قالوا: جرمة، وهى مدينة خزان العظمى، فسار إليها ثمانى ليالى من ودان، فلما دنا منها أرسل فدعاهم إلى الإسلام فأجابوا، فنزل منهم على ستة أيام وخرج ملكهم يريد عقبة، وأرسل عقبة خيلاً حالت بينة وبين موكبه فأمشوه راجلاً حتى أتى عقبة وقد لغب وأعيى وكان ناعمًا فجعل يبصق الدم فقال: لم فعلت هذا وقد أتيتك طائعًا؟

قال عقبة: أدبًا لك، إذا ذكرته لم تحارب العرب. وفرض عليه ثلاثمائة عبد وستين عبدًا.

ثم مضى عقبة من فوره إلى قصور فزان فافتتحها قصرًا بعد قصر حتى انتهى إلى أقصاها، ثم سألهم: هل وراءكم من أحد؟ قالوا نعم أهل خاوار، وهى قصر عظيم على رأس المفازة على رأس جبل وعر، وهو قصبة كُوار.

فسار إليهم خمس عشرة ليلة فحاصرهم شهرا فلم يستطع لهم بشىء، فمضى أمامه على قصور كُوار فافتتحها حتى انتهى إلى أقصاها وفيه ملكها، فأخذه وقطع إصبعه، فقال: لم فعلت هذا بى؟ قال: أدبًا لك، إذا أنت نظرت إلى إصبعك ذكرت فلم تحارب العرب، وفرض عليهم ثلاثمائة وستين رأسًا.

ثم سألهم: هل من ورائكم أحد[2]؟ (فلم يعلموا من ورائهم أحد)، فكرّ

(١) النص فى فتوح مصر والمغرب ٢٢٢ وفتوح البلدان ٣١٦.

(٢) فتوح مصر والمغرب ٢٢٤.

راجعًا إلى قصر خاوار فلم يعرض له أحد، ولم ينزل به وسار ثلاثة أيام فأمنوا وانبسطوا.

وأقام عقبة بمكان اسمه اليوم ماء الفرس، فنفذ ماؤهم وأصابهم عطش كاد يهلكهم، فصلى عقبة بأصحابه ركعتين ودعا الله - عز وجل - فجعل فرس عقبة يبحث بيديه فى الأرض حتى انكشف عن صفاة فانفجر منها الماء، فنادى عقبة فى الناس أن احتفروا فاحتفروا ماءً معينًا طيبًا فسمى لذلك ماء الفرس.

ثم كر راجعًا إلى خاوار من غير طريقه التى أقبل منها، فلم يشعروا به حتى طرقهم ليلاً فوجدهم مطمئنين قد آمنوا، فاستباح مافى مدينتهم من ذراريهم ونسائهم وأموالهم وقتل مقاتلهم.

ثم انصرف راجعًا حتى أتى زويلة ثم ارتحل حتى قدم عسكره بعد خمسة أشهر، فسار متوجهًا إلى المغرب وجانب الجادة وأخذ إلى أرض مزاته فافتتح كل قصر بها، ثم صار إلى قَفْصَة[١] فافتتحها وافتتح قَسطيلية، ثم انصرف إلى القيروان.

* * *

الطريق من أوجلة المتقدمة الذكر إلى الواحات

من أوجلة إلى بلد سنترية عشر مراحل فى صحراء ورمال قليله الماء. وسنترية هذه كثيرة العيون والثمار والحصون، أهلها بربر لا عرب فيهم.

وتسير من سنترية على طرق شتى إلى أودية الواحات، ومن سنترية إلى بهنسى الواحات عشر مراحل - (وهى غير بهنسى الصعيد) ومن بهنسى الواحات إلى أريش الواحات ثمانى مراحل.

بهنسى الواحات مدينة مسورة فيها أسواق ومساجد.

وذكر محمد بن سعيد الأزدى رجل من أبناء مدينة سفاقس أنه دخلها ورأى فيها فى يوم عيد النصارى - وأهلها عرب مسلمون وقبط نصارى - تابوتا فيه رجل ميت

(١) قَفْصَة: بلدة صغيرة فى طرف إفريقيا من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير. مراصد الاطلاع ٣/٣١٢.

يجعلونه على عجلة يسمونه ابن قرمى، ويزعمون أنه من الحواريين يتطوفون به فى سكك البلد ويتبركون بذلك ويتقربون إلى الله وتجر تلك العجلة البقر، فإن نفرت من موضع ولم تسر فيه، علموا أن فى ذلك الموضع نجاسة.

وأريش بلد كثير العيون الجارية والثمار والنخيل مياهها كلها حامّة.

ومن أريش ثلاثة أيام إلى الفرفرون، وبالفرفرون معادن الشبوب المريش والقصبى وفيه أنواع الزاج وفيه العيون الحامضة وغير ذلك من المياه المختلفة الأطعمة.

والفرفرون هذا بلد كثير الأشجار والنخيل وفيه قرى كثيرة وأهلها قبط نصارى.

وتسير من الفرفرون إلى ألواح الداخل أربع مراحل فى صحراء لا ماء فيها ولا عمارة، وهذا الواح الداخل كثير الأنهار والعمارات والحصون منها حصن يسمى بالقصر، وفى وسطه عين ماء ثرثار تتشعب منه أنهار تسقى زرعهم ونخلهم وثمارهم.

وتسير منه فى قرى متصلة إلى حصن يسمى قَلَمون[1] مياهه حامضة منها يشربون ويسقون، وبها قوامهم، وإن شربوا سواها من المياه العذبة استوبؤوه.

وأخر هذا الواح الداخل قرية كبيرة تسمى القصبة لها مياه عذبه سائحة تسقى نخلها وثمارها، ولها ثلاث عيون ملحة يجتمع ماؤه فى سباخ فيكون ملحًا: ملح العين الواحدة أبيض، وملح العين الثانية أحمر وملح العين الثالثة أصفر وهذا الأصفر هو المستعمل بمصر وبرقة.

ومن هذا الواح إلى الواحين الخارجين ثلاث مراحل، وهو أخر بلاد الإسلام وبينه وبين بلاد النوبة فى صحراء ست مراحل وفى بعض الواحات قبائل من لواته.

وزعموا أن فى أقصى الواحات بلد يقال له واح صبروا وأنه بلد لا يقع عليه الا من ضل فى الصحراء فى النادر من الزمان، فالواقع عندهم يقول إنه يكون فى

(١) قَلَمُون: حصن فى واح الداخلة، مياههم حامضة، منها شربهم ويستوبئون غيرها. مراصد الاطلاع ٣/١١١٨.

بلادهم ما شاء وهم فى أخصب عيش، فإذا أراد الرجعة أروه صوب بلاده.

وقد وقع فى هذا البلد من عرب بنى قرة رجمة بن قائد القرى ورجع إلى موضعه، ثم طلبه بعد ذلك فلم يقدر عليه.

فأعد مقرب بن ماضى أمير بنى قرة بعد عشرين وأربعمائة من الهجرة زادًا وماءً كثيرًا وظهرًا وذهب فى الصحراء يطلب واح صبروا وبقى يجولُ فى الصحراء مدة فلم يقدر عليها حتى خاف نفاذ الزاد، فكرّ راجعًا فنزل ذات ليلة ربوة من الأرض فى بهماء تلك الصحارى، فوجد بعض أصحابه فى ناحية من تلك الربوة بنيانًا للأول، فبحثوا عنه فإذا هو لبن نحاس أحمر محيط بالربوة أساس سور الأول، فأوقروا منه جميع ما كان عندهم من الظهر ورحلوا عنه فلو قدروا على إصابة موضعه لم يفرغ من نقل ما فيه من النحاس الا فى الزمان الطويل.

وأتى مقرّب (فى منصرفه) الواح الخارج، فأخبره رجل من أهله أنه غدا إلى حائط، فوجد عنده أكثر تمره قد أكل ووجد أثر قدم إنسان لا يشبه هذا الخلق فى العظم، فاحترسه هو وأهله ليالى حتى طرقهم فى بعض الليالى خلق عظيم لم يعهد مثله وجعل يأكل التمر، فلما أهموا به وأحس بهم بارى الريح حضرًا ولم يعلموا له أمرًا، فنهض معهم مقرب إلى الأثر حتى وقف عليه، فاستعظمه، وأمرهم أن يحفروا زبية فى الموضع الذى كان يدخل منه ويغطوا أعلاه بالحشيش ويرقبوه ليالى (تباعًا ففعلوا).

فلما كان بعد ليال أقبل على عادته، فتردى فى الزبية، فبدروا فغلبوه بكثرتهم وتردّيه، فإذا هى امرأة سوداء عظيمة الخلق مفرطة الطول والعرض لا يفقه منها كلمة، فكلموها بكل لسان عُلم هناك فلم تجاوب منهم أحدًا، فبقيت عندهم أيامًا يأتمرون فى أمرها ثم اتفقوا على ارسالها وركوب الخيل والنجب فى أثرها إلى أن يقفوا منها ومن موضعها على حقيقة خبر، فلما أرسلت لم يكن طرف العين يلحقها وفاتت شأو النجب والخيل ولم يقف أحد من أمرها على حقيقة.

ويذكرون أن هناك رمالاً عظيمة تعرف بالجزائر كثيرة النخل والعيون لا عمران فيها، ولا أنيس بها، وأن عزيف الجن يسمع بها الدهر كله.

وربما أقام بها غزاة السودان ولصوصهم لانتهاز الفرصة فى المسلمين، ويتكادس

التمر هناك أعوامًا لا يقع عليه أحد ولا يبلغ إليه حتى ينتجعه الناس فى السنين الجدبة وعند الحاجة والضرورة.

* * *

الطريق من مدينة أطرابلس إلى قابس

من أطرابلس إلى صبرة وهو بلد معمور يسكنه زواغة، ثم الطريق من صبرة على ما تقدّم قبل هذا عند ذكر الطريق إلى القيروان.

ومدينة قابس[١] مدينة جليلة مُسَوَّرة بالصخر الجليل من بنيان الأوّل ذات حصن حصين وأرباض وأسواق وفنادق وجامع وحمامات كثيرة، وقد أحاط بجميعها خندق كبير يجرون إليه الماء عند الحاجة فيكون أمنع شيء.

ولها ثلاث أبواب بشرقيها وقبليها أرباضها، ويسكنها العرب والأفارق، وفيها جميع الثمار، والموز بها كثير، وهى تمير القيروان بأصناف الفواكه، وبها شجر التوت الكثير ويقوم من الشجرة الواحدة منها من الحرير ما لا يقوم من خمس شجرات من غيرها، وحريرها أطيب الحرير وأرقه وليس فى عمل إفريقية حرير الا فى قابس، واتصال بساتين ثمارها مقدار أربعة أميال ومياهها سائحة مطردة يسقى بها جميع أشجارها، وأصل هذا الماء من عين خَرَّارة فى جبل بين القبلة والغرب منها يصب فى بحرها وبها قصب السكر كثير.

وبقابس منار منيف، ويحدو الحادى عند قدومه من مصر إلى إفريقية فيقول: [من الرجز]

لا نوم لا نوم ولا قرارا   حتى أرى قابس والمنارا[٢]

وساحل مدينة قابس مرفأ للسفن من كل مكان، وحوالى قابس قبائل من البربر: لواته ولمايه ونفوسه وزواغه وزواوة وقبائل شتى أهل أخصاص.

وكانت ولايتها منذ دخل عبيد الله إفريقية تترد فى بنى لقمان الكتامى.

---

(١) قابس: مدينة بين أطرابلس وسَفَاقُس ثم المهدية على ساحل بحر المغرب، من أعمال إفريقيا، وبها مرفأ السفن فى كل مكان، بينها وبين البحر ثلاثة أميال. مراصد الاطلاع ٣/ ١٠٥٤.

(٢) مراصد الاطلاع ٣/ ١٥٢ وبلا نسبة فى رحلة التجانى ٩٦ـ١٠٠.

قال الشاعر: [من السريع]

لولا ابن لقمان حليف الندى سُلَّ على قابس سيف الرَّدَى[1]

وتجاورها جزيرة فى البحر تعرف بجزيرة رازو بينهما مسيرة أكثر من يوم، عامرة آهلة وكثيرًا ما يمتنع أهلها على السلاطين وبين مدينة قابس والبحر ثلاثة أميال.

ومما يذكرون من معائبها[2] أن أكثر دورهم لا مذاهب فيها، وإنما يتبرزون فى الأفنية ولا يكاد أحد منهم يفرغ من قضاء حاجته الا وقد وقف عليه من يبتدر أخذ ما يكون منه لتدمين البساتين، وربما اجتمع على ذلك النفر فيتشاجرون فيه فيخص به من أراد منهم، وكذلك نساؤها لا يرين فى ذلك عليهن حرجًا إذا سترت إحداهن وجهها ولم يعلم من هى.

ويذكر أهل قابس أنها كانت أصلح البلاد هواءً حتى وجدوا بها طلسمًا ظنوا أن تحته مالاً، فحفروا موضعه فأخرجوا منه تربة غبراء، فحدث عندهم الوباء من حينئذ بزعمهم.

وأخبر أبو الفضل جعفر بن يوسف الكلبى ـ وكان كاتبًا لمؤنس صاحب إفريقية ـ أنهم كانوا فى ضيافة ابن وانَّموا الصَّنْهاجى صاحب مدينة قابس، فأتاه جماعة من أهل البادية بطائر على قدر الحمامة غريب اللون والصورة، ذكروا أنه لم يروه قبل ولا عهدوه، كان فيه من كل لون أجمله وهو أحمر المنقار طويله، فسأله ابن وانّمو من حضره من العرب والبربر وغيرهم هل رآه أحد منهم، فلم يعرفه أحد ولا سمَّاه.

فأمر ابن وانّموا بقص جناحيه وأرسل فى القصر، فلما جن الليل جُعل فى القصر مشعل نار، فما هو إلا أن رآه ذلك الطائر فقصد قصده وأراد الصعود إليه، فدفعه الخدام وجعل يلح فى التكرار على المشعل، فأعلم ابن وانّمو بذلك فقام وقام من حضر معه، قال جعفر: وكنت فيمن حضر، فأمر ابن وانّمو بترك الطائر وشأنه، فصار فى أعلى المشعل وهو يتأجج نارًا واستوى فى وسطه وجعل يتلقى كما يفعل سائر الطير فى الشمس، فزاد تأجج النار فأمر ابن وانّمو بزيادة الوقود

(١) بلا نسبة فى رحلة التجانى ٩٦.

(٢) انظر تفصيل ذلك فى رحلة التجانى ٨٩.

فى المشعل من خرق القطران وغير ذلك، فزاد تأجج النار والطائر فيه على حالته لا يكترث ولا يبرح، ثم وثب من المشعل بعد حين يمشى لم يَرِبْه ريب، وأخبر قوم من أهل إفريقية أنهم سمعوا خبر هذا الطائر بمدينة قابس، والله أعلم بحقيقة ذلك.

وعلى مقربة من قابس جزيرة جربة فيها بساتين كثيرة وزيتون كثير، وأهلها مفسدون فى البر والبحر وهم خوارج، وبينها وبين البر الكبير مجاز.

وقال حنش بن عبد الله الصنعانى: غزونا مع رويفع بن ثابت الأنصارى المغرب، فافتتح قرية من قرى المغرب يقال لها جربة فقام فينا خطيبًا فال: «أيها الناس لا أقول فيكم الا ما سمعت رسول الله ﷺ يقول فينا يوم خيبر، قام فينا رسول الله ﷺ فقال: لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ما زرع غيره»(١)، يعنى إتيان الحبالى من السبى.

* * *

الطريق من مدينة قابس إلى سفاقس

من مدينة قابس إلى عين الزيتونة، وهى عين جارية على بحر ميت عليها مرصد لجابى إفريقية، وهى عين مذكورة فى كتب حدثان إفريقية.

قال ابن أعقب فى أرجوزته التى يذكر فيها وقائع أفريقية:

عند حلول الجيش بالزيتونهْ   تكون هناك الواقعة الملعونهْ

ومن عين الزيتونة إلى تاورقى، وهو منزل عامر فى طرف ساحل الزيتونة، ومن هنا إلى غافق وهو بلد معمور، ومنه إلى مدينة سفاقس وهى مدينة على البحر مسورة، ولها أسواق كثيرة ومساجد وجامع وسورها صخر وطوب ولها حمامات، وفنادق وبوادٍ عظيمة وقصور جمة وحصون ورباطات على البحر، منها محرس بطوية وهو أشرفها، وفيها منار مفرط الارتفاع يرقى إليه فى مائة وست

(١) الحديث فى كنز العمال رقم ٩٨٢٨ عن الطبرانى عن رويفع بن ثابت وذكر فى رحلة التجانى ١٢٤ وفتوح مصر والمغرب ٣٠٩.

وستين درجة، ومحرس حبلة ومحرس أبى الغصن ومحرس مقدمان ومحرس اللوزة ومحرس الريحانة[١].

وسفاقس فى وسط غابة زيتون، ومن زيتها يمتار أهل مصر وأهل المغرب وصقلية والروم، وربما بيع الزيت منها أربعين ربعًا قرطبية بمثقال واحد.

وهى محط السفن، فإذا جزر الماء بقيت السفن فى الحصاة وإذا مدّ رجعت السفن.

يقصدها التجار من الآفاق بالأموال الجزيلة لابتياع المتاع والزيت وعمل أهلها فى القصارة والكمادة كعمل أهل الإسكندرية وأكثر وأجود.

ويقابل سفاقس فى البحر سفينة جزيرة تسمى قرقنة، وهذه الجزيرة فى وسط القصير، بينها وبين مدينة سفاقس فى ذلك البحر الميت القصير القعر نحو عشرة أميال، وليس للبحر هناك حركة فى وقت.

وبحذاء هذا الموضع فى البحر على رأس القصير بيت مشرف مبنى بينه وبين البحر الكبير نحو أربعين ميلاً، فإذا رأى قلب البيت أصحاب السفن الواردة من الإسكندرية والشام وبرقة أداروها إلى مواضع معلومة.

وجزيرة قرقنة المذكورة فيها آثار بنيان ومواجل للماء، ويدخل فيها أهل سفاقس دوابهم ومواشيهم لأنها خصبة.

* * *

الطريق من سفاقس إلى مدينة القيروان

من مدينة سفاقس إلى طرفَى وهو بلد معمور، ومنه إلى قصر رباح وهو معمور أيضًا، ومن قصر رباح إلى القيروان.

* * *

(١) رحلة التجانى ٨٥.

الطريق من سفاقس إلى المهدية

من سفاقس إلى لَجَم[١] وهو حصن الكاهنة وهو طرف سوق الحسينى، وفى هذا السوق قرية كبيرة آهلة تعرف بأرزلس، بها جامع وحمام وأسواق وهى من قرى الساحل، ومن لجم إلى مدينة المهدية.

* * *

ذكر إفريقية وبلادها وحدودها ولم سميت إفريقية وذكر غرائبها

قال قوم: إنها إفريقية: أى صاحبة السماء، وقال آخرون: سميت إفريقية لأن إفريقش بن أبرهة بن الرائش (غزا نحو المغرب) حتى انتهى إلى طنجة فى أرض بربر، وهو الذى بنى إفريقية وباسمه سُمِّيت.

وقيل سميت بأفريق بن إبراهيم عليه السلام من زوجته الثانية قطورى. وقال قوم: إنما سموا الأفارقة وبلدهم إفريقية لأنهم من ولد فارق بن مصريم[٢].

وقد زعموا أن اسم إفريقية ليبية فسميت ببنت يافوه بن يونش الذى بنى مدينة منفيش بمصر، وهى التى ملكت ملك إفريقية أجمع فسمى بها.

وحد إفريقية[٣]: طولها من برقة شرقًا إلى مدينة طنجة غربًا واسم طنجة مورطانية، وعرضها من البحر إلى الرمال التى هى أول بلاد السودان، وهى جبال رمال عظيمة متصلة من الغرب إلى الشرق وفيه يصاد الفنك الجيد.

وروى جماعة من سحنون بن سعيد وموسى بن معاوية جميعًا عن ابن وهب

---

(١) لَجَم: قلعة إفريقية حصينة جدًا بقرب المهدية. مراصد الاطلاع ٣/ ١٢٠٠.

(٢) قال ابن عبد الحكم فى فتوح مصر والمغرب ٢١٢ «وإنما سموا بالأفارقة فيما حدثنا عثمان بن صالح عن ابن لهيعة وغيره، أنهم من ولد فارق بن بَيْصَر، وكان فارق قد حاز لنفسه من الأرض ما بين برقة إلى إفريقية، فبالأفارقة سُمِّيت إفريقية. وانظر الروض المعطار ٤٧ ـ ٤٨.

(٣) انظر: وصف إفريقيا للحسن الوزان ١/ ٢٧ـ٢٨.

عن سعيد بن أبى أيوب عن شرحبيل بن سويد عن عبد الرحمن الجيلى قال: بعث رسول الله ﷺ سرية فقفلوا فذكروا لرسول الله ﷺ شدة برد أصابهم، فقال رسول الله ﷺ لكن أفريقية أشد بردًا وأعظم أجرًا[١].

وأسنداه أيضًا، عن ابن وهب عن ابن لهيعة عن بكر بن سوادة الجذامى أن سفيان بن الحارث حدثهم عن أشياخهم أنهم قالوا لمقداد بن الأسود صاحب النبى ﷺ: «إنك ثقلت وأنت تخرج فى هذه المغازى؟ فقال: خفيفًا كنت أو ثقيلاً لا أتخلف عنها لأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿انفِرُوا خفافًا وَثقَالاً﴾[٢] ثم قال: قدمت سرية على النبى ﷺ فذكروا البرد، فقال رسولَ الله ﷺ إن البرد الشديد والأجر العظيم لأهل إفريقية[٣].

وروى ابن أبى العرب قال: «حدثنى فرات حدثنى عبد الله بن أبى حسان عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن أبى عبد الرحمن الجبلى قال: قال الرسول ﷺ: «ينقطع الجهاد من البلاد كلها فلا يبقى إلا بموضع بالمغرب يقال له إفريقية، فبينما القوم بإزاء عدوهم نظروا إلى الجبال قد سيرت فيخرون لله تبارك وتعالى سجدًا، فلا ينزع عنهم أخلاقهم إلا خدّامهم فى الجنة»[٤].

وكان عبد الرحمن بن زياد بن أنعم يقول: ينقطع الجهاد من كل بلد وسيعود إلى إفريقية وليضربن القبائل من الآفاق إلى إفريقية لعدل إمامهم ورخص أسعارهم.

وروى ابن أبى العرب عن عبد الله بن عمر العمرى عن ابن لهيعة عن أبى قبيل عن عبد الله بن عمرو قال: والله ليباعن الجمل بمصر بعشرة دنانير، ثم ليباعن بمائه دينار لمغالاة الناس بها وكأنى أسمع صرير المحامل على عقبة الثنية من مصر إلى إفريقية يطلبون بها الجهاد والعدل، وليملكن إفريقية رجل يعدل فيهم اثنتين أو أربعًا وعشرين سنة.

(١) الروض المعطار ٤٧.
(٢) سورة التوبة، آية ٤١.
(٣) الروض المعطار ٤٧.
(٤) الروض المعطار ٤٧.

ذكر مسجد القيروان

قد تقدم أن أول من وضع محرابه وبناه هو عقبة بن نافع، ثم هدمه حسان حاشى المحراب وبناه وحمل إليه الساريتين الحمراوين الموشاتين بصفرة اللتين لم ير الراءون مثلهما من كنيسة كانت للأوّل فى الموضع المعروف اليوم بالقيسارية بسوق الضرب، ويقولون إن صاحب القسطنطينية بذل لهم فيهما قبل نقلهما إلى الجامع زنتهما ذهبًا فابتدروا الجامع بهما، ويذكر كل من رآهما أنه لم ير فى البلاد ما يقترن بهما.

فلما كانت خلافة هشام بن عبد الملك كتب إليه عامله على القيروان يعلمه أن الجامع يضيق بأهله، وأن بجوفيه جنة كبيرة لقوم من فهر، فكتب إليه هشام يأمره بشرائها وأن يدخلها فى المسجد الجامع، ففعل وبنى فى صحنه ماجلاً وهو المعروف بالمجال القديم بالغرب من البلاطات، وبنى الصومعة فى بئر الجنان ونصب أساسها على الماء، واتفق أن وقعت فى نصف الحائط الجوفى.

وأهل الورع يكرهون الصلاة فى هذه الزيادة ويقولون إنه أكره أهل الجنة على بيعها.

والصومعة اليوم على بنائه طولها ستون ذراعًا وعرضها خمس وعشرون ولها بابان شرقى وغربى، وعضائد بابيها رخام منقش وكذلك عتبتهما.

فلما ولى إفريقية يزيد بن حاتم سنة خمس وخمسين ومائة هدم الجامع كله حاشى المحراب وبناه، واشترى العمود الأخضر بمال عريض جزل ووضعه فيها، وهو الذى كان يصلى عليه القاضى أبو العباس عبدون.

فلما ولى زيادة الله بن إبراهيم (بن الأغلب) هدم الجامع كله وأراد هدم المحراب فقيل له: إن من تقدَّمك من الولاة توقفوا عن ذلك لما كان واضعه عقبة ابن نافع ومن كان معه، فلج فى هدمه لئلا يكون فى الجامع أثرًا لغيره حتى قال له بعض البناة: أنا أدخله بين الحائطين ولا يظهر فى الجامع أثر لغيرك، فاستصوب ذلك وفعله فهو على بنائه إلى اليوم.

والمحراب كله وما يليه مبنى بالرخام الأبيض من أعلاه إلى أسفله، وهو مخرم منقوش كله منه كتابة تقرأ، ومنه تدبيج مختلف الصناعة يستدير به أعمدة رخام فى غاية الحسن، والعمودان الأحمران المذكوران يقابلان المحراب عليهما القبة المتصلة بالمحراب.

وعدد ما فى الجامع من الأعمدة أربعمائة وأربعة عشر عمودًا، وبلاطاته سبعة عشر بلاطًا، وطوله مائتان وعشرون ذراعًا وعرضه مائة وخمسون ذراعًا.

وكانت فيه مقصورة فلم يزل بناء زيادة الله فيه، والمقصورة اليوم إنما هى دار بقبلى الجامع بابها فى رحبة الثمر، لها باب عند المنبر يدخل منه الإمام بعد أن ينزل فى هذه الدار حتى تقرب الصلاة.

وبلغت النفقة فى بنيانه ستة وثمانين ألف مثقال.

ولما ولى إبراهيم بن أحمد بن الأغلب زاد فى طول بلاطات الجامع وبنى القبة المعروفة بباب البهو على آخر بلاط المحراب، وفى دورها اثنتان وثلاثون سارية من بديع الرخام، وفيها نقوش غريبة وصناعات محكمة عجيبة يشهد كل من رآها أنه لم ير مبنى أحسن منه، وقد فرش من الصحن بين أيدى البلاطات نحو خمس عشرة ذراعًا.

وللجامع عشرة أبواب، ومقصورة للنساء فى شرقيها بينها وبين الجامع حائط آخر مخرم محكم العمل.

* * *

ذكر مدينة القيروان (١)

ومدينة القيروان(٢) فى بساط من الأمر مديد، فى الجوف منها بحر تونس وفى الشرق بحر سوسة والمهدية، وفى القبلة بحر سفاقس وقابس وأقربها منها البحر الشرقى، بينها وبينه مسيرة يوم (وبينها وبين الجبل مسيرة يوم)، وبينها وبين سواد الزيتون المعروف بالساحل مسيرة يوم، وشرقيها سبخة (ملح عظيم طيب نظيف) وسائر جوانبها أرضون طيبة كريمة، وأحسنها الجانب الغربى وهو المعروف بفحص الدارة يصاب فيه فى السنة الخصبة للحبة مائة. وهواء هذا الجانب طيب صحيح.

وكان زياد بن خلفون المتطبب إذا خرج من القيروان يريد مدينة الرقادة وحاذى باب أصرم رفع العمامة عن رأسه يباشر الهواء برأسه كالمتداوى به لصحته.

وللقيروان من القديم سبعة محارس أربعة خارجها وثلاثة داخلها.

وكان للقيروان فى القديم سور طوب سعته عشر أذرع بناه محمد بن الأشعث ابن عقبة الخزاعى سنة أربع وأربعين ومائة، وهو أول قائد دخل إفريقية للمسودة، وكان فى قبليه باب سوى الأربعة وهو بين القبلة والمغرب، وبين القبلة والمشرق باب أبى الربيع، وفى شرقيه باب عبد الله وباب نافع، وفى جوفيه باب تونس، وفى غربيه باب أصرم وباب سلم، فهدم هذا السور زيادة الله بن إبراهيم المعروف بالكبير سنة تسع ومائتين لما قام عليه أهل القيروان مع المنصور المعروف بالطنبدى.

فلما انهزم عن القيروان يوم الأربعاء للنصف من جمادى الأولى من هذه السنة وخرج أهل القيروان إلى زيادة الله فرغبوا فى العفو عنهم والصفح هدم سور القيروان عقوبة لهم، ثم بناه المعز بن باديس بن منصور الصنهاجى سنة أربع وأربعين وأربعمائة ومبلغ تكسيره اثنان وعشرون ألف ذراع وجعل السور مما يلى صبرة

---

(١) انظر: الروض المعطار ٤٨٧-٤٨٨.

(٢) القيروان: هى أَجَلُّ مدينة بأرض المغرب خلا قرطبة بالأندلس فإنها أعظم منها، وهى المدينة التى كان يقيم بها وُلاة المغرب، وبها كان مقام الأغلب وبنيه إلى أن أزال ملكهم أبو عبد الله المحتسب. المسالك والممالك للأصطخرى ٣٤.

صبرة كالفصيل، حائطان متصلان إلى مدينة صبرة وبينهما نحو نصف ميل.

ولا سبيل لتاجر ولا وارد أن يدخل مدينة القيروان ما يجب عليه فيه المكس إلا بعد جوازه على مدينة صبرة.

وللمدينة اليوم أربعة عشر بابًا منها المذكورة باب النخل والباب الحديث، وللفصيل بابان وباب الطراز (والباب الحديث) وباب القلالين وباب أبى الربيع، وباب سحنون الفقيه.

ومدينة صَبْرة[(١)] متصلة بالقيروان، بناها إسماعيل سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة واستوطنها وسماها المنصورية، وهى منزل الولاة إلى حين خرابها، ونقل إليها معد ابن إسماعيل أسواق القيروان كلها وجميع الصناعات ولها خمسة أبواب: الباب القبلى، والباب الشرقى، وباب زويلة وباب كتامة - وهو جوفى - وباب الفتوح ومنه كان يخرج بالجيوش.

ويذكر أنه كان يدخل واحد أبوابها كل يوم ستة وعشرون ألف درهم.

وكان سماط سوق القيروان قبل نقله إلى المنصورية متصلاً من القبلة إلى الجوف، وطوله من باب أبى الربيع إلى الجامع ميلان غير ثلث ومن الجامع إلى باب تونس ثلثا ميل، وكان سطحًا متصلاً منه جميع المتاجر والصناعات، وكان أمر بترتيبه هكذا هشام بن عبد الملك.

وخارج مدينة القيروان خمسة عشر ماجلاً للماء سقايات لأهلها من بنيان هشام ابن عبد الملك وغيره، أعظمها شأنًا وأفخمها منصبًا ماجل أبى إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب بباب تونس، وهو مستدير متناهى الكبر فى وسطه صومعة مثمنة فى أعلاها قصبة لرقبة مفتحة على أربعة أبواب (على أحد عشر رجلاً لا خلل بينهم كيلا يصل مخط، فإذا امتلأ الماجل كان دلكًا، وسطح هذه القصبة نحو ذراعين، كان ابن الأغلب يدخل إلى هذه القبة فى مركب يسمى بالزلاج)، ويتصل بهذا الماجل فى قبليه أقباب طويلة معقودة آزاجًا على آزاج.

---

(١) صَبْرَة: بلدة قريبة من القيروان، وتسمَّى المنصورية، وهى الآن خراب. مراصد الاطلاع ٢/ ٨٣٢.

وكان زيادة الله قد بنى على غربى هذا الماجل (قصرًا، وبجوفى هذا الماجل ماجل لطيف متصل به يسمى الفسقية) يقع فيه ماء الوادى إذا جرى (على جنبتين كبيرتين) تكسر فيه شدة جريان الماء، ثم يدخل منه إلى الماجل الكبير إذا ارتفع الماء فى الفسقية قدر قامتين على باب بين الماجلين يسمى السرح.

وكان هذا الماجل عجيب الشأن غريب البنيان، وكان عبيد الله يقول: رأيت بإفريقية شيئين لم أر مثلهما بالشرق:

الحفير الذى بباب تونس ـ يعنى الماجل ـ والقصر الذى بمدينة رقادة المعروف بقصر البحر.

وفى القيروان ثمانية وأربعون حمامًا، وأحصى ما ذبح بالقيروان فى بعض أيام عاشوراء من البقر خاصة فانتهى تسعمائة وخمسين رأسًا.

ومن عجائب القيروان أنهم يحتطبون الدهر من زيتونها ليس لهم محتطب غيره، وإن ذلك لا يؤثر فى زيتونها ولا ينقص منه.

وسنة اثنتين وخمسين سُبِيت القيروان وأُخْلِيت ولم يبق فيها إلا ضعفاء أهلها.

والقفيز بالقيروان، وأعمالها ثمانى ويبات، والويبة أربعة أثمان والثمنة ستة أمداد بمدّ أوفى من مُدِّ النبى ﷺ ومقدار تلك الزيادة فى القفيز كله اثنا عشر مدًا، فصار (القفيز القردى) مائة مدٍّ وأربعة أمداد بمدّ النبى ﷺ، وذلك بكيل قرطبة خمسة أقفزة غير ستة أمداد، ورطل اللحم والتين وسائر المأكولات عشرة أرطال فلفلية، وقفيز الزيت عندهم ثلاثة أرطال فلفلية، (والمسطر عندهم كيل يسع خمسة أقفزة من زيت).

* * *

ذكر مدينة رقادة[1]

وهى من القيروان على أربعة أميال، ودورها أربعة وعشرون ألف ذراع (وأربعون ذراعًا)، وأكثرها بساتين، وليس بإفريقية أعدل هواءً ولا أرق نسيمًا ولا أطيب تربة من مدينة رقّادة.

ويذكر أن من دخلها لم يزل ضاحكًا مستبشرًا من غير سبب، وذكروا أن أحد بنى الأغلب أرق وشرد عنه النوم أيامًا فعالجه إسحاق الذى ينسب إليه إطريقل إسحاق فلم ينم، فأمر بالخروج والمشى، فلما وصل إلى موضع رقادة نام، فسميت من يومئذ رقادة واتخذت دارًا ومسكنًا وموضع فرحة للملوك.

والذى بنى مدينة رقادة واتخذها دارًا ووطنًا إبراهيم بن أحمد وانتقل إليها من مدينة القصر الجديد، وبنى بها قصورًا عجيبة وجامعًا، وعمرت بالأسواق والحمامات والفنادق، ولم تزل بعد ذلك دار ملك لبنى الأغلب إلى أن هرب عنها زيادة الله من أبى عبد الله الشيعى، وسكنها عبيد الله إلى أن انتقل إلى المهديّة سنة ثمان وثلاثمائة.

ولأن ابتداء تأسيس إبراهيم لها سنة ثلاث وستين ومائتين فلما انتقل عنها عبيد الله إلى المهدية دخلها الوهن وانتقل عنها ساكنوها، ولم تزل تخرب شيئًا بعد شىء إلى أن ولى معد بن إسماعيل، فخرب ما بقى منها وعفا أثرها وحرث منازلها ولم يبق منها غير بساتينها.

ولما بناها إبراهيم بن أحمد وجعلها داره، منع بيع النبيذ بمدينة القيروان وأباحه بمدينة رقادة.

فقال بعض ظرفاء أهل القيروان: [من سريع]

يا سيد الناس وابن سيدهم ومن إليــه الرقاب منقــادهْ

(١) رَقَّادة: بلد كانت بإفريقيا، بينها وبين القيروان أربعة أميال كبيرة ذات بساتين، لم يكن بإفريقيا أطيب هواء منها، ولا أرقَّ نسيمًا، وقد خربت الآن. مراصد الاطلاع ٢/ ٦٢٤ والمسالك والممالك للأصطخرى ٣٤.

مـا حرم الشرب فى مدينتنا وهــو حـلال بأرض رقّاده[1]

قال محمد بن يوسف: إنما سميت بهذا الاسم لأن أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى القائم بدعوة الإباضية بأطرابلس لما نهض إلى القيروان لقتال ورفجومة كانوا قد تغلبوا عليها مع عاصم بن جميل - التقى بهم بموضع رقادة وهى إذ ذاك منية، فقتلهم هناك قتلاً زريعًا فسميت رقّادة؛ لرقاد جثثهم بعضها فوق بعض.

فأما مدينة القصر القديم فإن الذى أسسها إبراهيم بن الأغلب بن سالم سنة أربع وثمانين ومائة، وصارت دار أمراء بنى الأغلب وهى بقبلى مدينة القيروان وعلى ثلاثة أميال منها، بها جامع له صومعة مستديرة مبنية بالآجر والعمد سبع طبقات لم يبن أحكم منها ولا أحسن منظرًا، وحمامات كثيرة، وفنادق وأسواق جمة ومواجل للماء.

وإذا قحطت القيروان وفقد الماء فى مواجلها نقلوا الماء من مدينة القصر.

وكان لها من الأبواب: باب الرحمة قبلى، وباب الحديد قبلى وباب غلبون شرقى، وباب الريح شرقى، وباب السعادة غربى يقابل المقبرة الكبيرة.

وداخل المدينة رحبة كبيرة واسعة تعرف بالميدان، (ويجاور مدينة القصر بنية) تعرف بالرصافة.

ولما أتى إبراهيم مدينة القصر وانتقل إليها خرب دار الإمارة التى كانت بالقيروان بقبلى الجامع منذ فتحت.

وإذا خرج المتوجة إلى مصر من القيروان على باب الطراز تلقى مدينة القيروان يسرة، ويسلك بين مدينة رقادة ومدينة القصر، فأوّل ما يلقى وادى السراويل شتوى، ثم المنية المعروفة وهى كبيرة آهلة، ثم قرية زرور، وهى كثيرة البقول لا سيما الجزر، وأهلها قوم يضرب بهم المثل فى سوء الحال بإفريقية، ويقال: مشايخ زرور شهد منهم سبعة على قبضة إسفنارية، فقال الحاكم للطالب: زِدْبيِّنة.

ثم وادى الطرفا كبير شتوى إذا حمل أهلك ما حوله من القرى والمنازل،

(١) البيتان بلا نسبة فى مراصد الاطلاع ٢/ ٩٢٤.

وسعته إذا حمل أزيد من ثلاثة أميال.

ثم مدينة فلشانة، ومن القيروان إليها اثنا عشر ميلاً، كبيرة آهلة بها جامع وحمام ونحو عشرين فندقًا، وهى كثيرة البساتين وشجر التين، وأكثر تين القيروان الأخضر منها.

وأبواب الدور بمدينة فلشانة قصار، ليس تدخلها الدواب، فعلوا ذلك خوفًا من نزول العمال والجباة.

* * *

ذكر مدينة المهديّة

مدينة المهدية منسوبة إلى عبيد الله المهدى[1] الذى بناها على ما ذكر فى التاريخ، وبينها وبين القيروان ستون ميلاً. تخرج من القيروان فتنزل منزل كامل، ثم تخرج فيها فتأتى المهدية، وطريق آخر تخرج من القيروان إلى مدينة تُماجر مرحلة، إلى المهدية (مرحلة أخرى). ومدينة تماجر كبيرة آهلة بها جامع وأسواق وفنادق وحمام وماؤها زعاق، وفى وسطها غدير ماء وحولها غابة زيتون وشجر أعناب، وبين مدينة تماجر والمهديّة الوادى الملح الذى كانت فيه الوقعة المشهورة بين أبى يزيد وأبى القاسم قتل فيها من أصحاب أبى القاسم عدد لا يحصى (ففر منه أبو القاسم فى من كان يختص به.

والبحر قد أحاط بها من ثلاث جهاتها، وانما يدخل إليها من الجانب الغربى، ولها ربض كبير يعرف بزويلة فيه الأسواق، والحمام ومساكن أهلها، وبنى على الربض المعز بن باديس سورًا يحيط به، وطولها اليوم نحو ميلين وعرضها يضيق ويتسع وأوسعه أقل من بسط طولها، وجميع بنيانها بالصخر (ولمدينتها بابا حديد) لا خشب فيهما وزنة كل باب ألف قنطار، وطوله ثلاثون شبرًا فى كل مسمار من مساميرها ستة أرطال، وفى البابين صور الحيوان.

(١) المهديَّة: مدينة صغيرة استحدثها عبيد الله المستولى على المغرب وسمَّاها بهذا الاسم، وهى على البحر، وعبيد الله تحوَّل إليها من القيروان. المسالك والممالك للأصطخرى ٣٣.

وفى المهدية من المواجل العظام ثلاثمائة وستون غير ما يجرى إليها من القناة التى فيها، والماء الجارى بالمهدية جلبه عبيد الله من قرية منانش وهى على مقربة من المهدية فى أقداس ويصب فى صهريج داخل المهدية عند جامعها، ويرفع من الصهريج إلى القصر بالدواليب، وكذلك يستقى أيضًا بقرية منانش من الآبار ويصب فى مجلس يجرى منه فى تلك القناة.

وهى مرفأ لسفن الاسكندرية والشام وصقلية والأندلس وغيرها، ومرساها منقور فى حجر صلد يسع ثلاثين مركبًا، على طرفى المرسى برجان بينهما سلسلة من حديد، فإذا أريد إدخال سفينة أرسل حراس البرجين أحد طرفى السلسلة حتى تدخل السفينة، ثم مدّوها كما كانت بعد ذلك تحصينًا لئلا تطرقها مراكب الروم.

وعرض المدخل إلى المهديّة من القبلة إلى الجوف قدر غلوة، وردم عبيد الله من البحر مثل ذلك وأدخله فى المهدية فاتسع الموضع.

وفيه ستة عشر برجًا ثمانية منها فى السور الأول، وثمانية فى الزيادة، منها برج أبى الوزان النحوى، وبرج عثمان، وبرج عيسى وبرج الدهان نسبت إليهم لقرب مساكنهم منها.

(والجامع ودار البحر ودار المحاسبات فيما ردم من البحر وغير ذلك من المنازل)، والجامع سبع بلاطات متقن البناء حسنه.

وقصر عبيد الله كبير سرى المبانى بابه غربى، وقصر ابنه أبى القاسم بإذائه بابه شرقى بينهما رحبة فسيحة. ودار الصناعة بشرقى قصر عبيد الله اتسع أكثر من مائتى مركب، وفيها قبوان كبيران طويلان لآلات المراكب وعددها لئلا ينالها شمس ولا مطر.

وكان سبب بنيان عبيد الله للمهدية قيام (أبى عبيد الله) وجماعة كتامة عليه وما حاولوه من خلعه وقتل أهل القيروان رجال كتامة.

فكان ابتداؤه بالنظر فيها سنة ثلاثمائة وكمل سورها سنة خمس وانتقل إليها سنة ثمان فى شوال.

وكان لها أرباض كثيرة آهلة عامرة أقربها إليها ربض زويلة فيه الأسواق والحمامات.

وربض الحمى كان مسكنًا لأجناد إفريقية من العرب والبربر، قصرُ أبى سعيد وبقة وقاساس والغيطنة وربض قفصة وغيرها، ولم تزل دار ملك لهم إلى أن ولى الأمر إسماعيل بن القاسم سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، فسار إلى القيروان محاربًا لأبى يزيد واتخذ مدينة صبرة واستوطنها بعده ابنه معه، وحلّت أكثر أرباض المهدية وتهدّمت.

ومن المهدية إلى مدينة سلقطة ثمانية أميال، ومن المهدية إلى قصر لجم وهو المعروف بقصر الكاهنة ثمانية عشر ميلاً.

وذكر أن الكاهنة حصرها العدو فى ذلك القصر فحفرت سربًا فى صخرة صماء من هذا القصر إلى مدينة سلقطة يمشى فيه العدد الكثير من الخيل، وكان ينتقل إليها فيه الطعام سائر ما تحتاج إليه.

ومن مدينة سلقطة إلى قصر لجم هذا ثمانية عشر ميلاً أيضًا، وفى دور قصر لجم نحو ميل، وهو مبنى بحجارة طول الحجر منها خمسة وعشرين شبرًا ونحوها، وارتفاعه فى الهواء أربع وعشرون (قامة وهو من داخله مدرج كله إلى أعلاه وأبوابها طاقات بعضها فوق بعض بأحكم صناعة).

وترنوط فحص على ستة أميال من المهدية، (ومنها زاحف أبو يزيد مخلد المهدية) وبهذا الفحص كانت محلتة أيام حصاره المهدية.

وفى كتب الحدثان: إذا ربط الخارجى بترنوط، لم يبق لأهل السواد محلول ولا مربوط ـ أهل السواد أهل الساحل ـ وفيها: ويل لأهل السواد من مخلد بن كيداد[1].

والأخوان: منزل بين القيروان والمهدية، وفى هذا المنزل قتل أبو يزيد لميسرة الفتى يوم الأربعاء لعشر خلون من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.
قال على بن على بن ظفر يمدح أبا يزيد هذا: [من الكامل]

هذا وكم من وقعة مشهورة ... أبقيتهـــا مثلاً لكلّ ممثّـل
بثنية الأخـــوين يوم تركتهم ... متوسّدين وسائدًا من جندل

---

(١) الروض المعطار ١٣٣.

مدينة جلولا

ومن مدينة القيروان إلى مدينة جلولا[١] أربعة وعشرون ميلاً.

وبجلولا آثار وأبراج قائمة للأول وآبار عذبة وخرائب وجد فيها بعض الرعاة تاج ذهب بجوهرة، فأخذه منه ابن الأندلسى.

وبقرب جلولا منتزه يعرف بسردانية ليس بإفريقية موضع أجمل منه، فيه ثمار عظيمة وفيه من النارنج خاصة نحو ألف أصل وجلولا مدينة لها حصن وهى مدينة أولية قديمة مبنية بالصخر، وفيهاعين ثرة فى وسطها، وهى كثيرة الأشجار والثمار وأكثر رياحينها الياسمين، وبطيب عسلها يضرب المثل لكثرة ياسمينها وجرس نحلها له، وبها يربب أهل القيروان السمسم بالياسمين وبالورد والبنفسج، وبها قصب السكر كثير ومنها كان يرد إلى القيروان (كل يوم) من أحمال الفواكه والبقول ما لا يحصى كثرة. وحولها (الجنات وقبائل) ضريسة فى القرارات.

وفتح مدينة جلولا كان على يدى عبد الملك بن مروان[٢]، وذلك أنه كان فى جيش معاوية بن حديج التجيبى، فبعثه إلى مدينة جلولا فى ألف رجل، فحاصرها أيامًا فلم يصنع شيئًا، فانصرف راجعًا فلم يسر إلا يسيرًا حتى رأى فى ساقة الناس غبارًا شديدًا فظن أن العدو يتبعهم، فكر جماعة من الناس لذلك وبقى من بقى على مصافهم، فإذا مدينة جلولا قد تساقط من سورها حائط، فدخلها المسلمون، وغنموا ما فيها فانصرف عبد الملك إلى معاوية بن حديج، فاختلف الناس فى الغنيمة، فكتب (فى ذلك) إلى معاوية فراجع يقول إن العسكر ردة للسرية فقسم الفىء بينهم، فأصاب كل رجل منهم لنفسه مائتى درهم وللفرس سهمان.

قال عبد الملك: فأخذت لنفسى ولفرسى ستمائة درهم واشتريت بها جارية.

ويقال: بل نازلها معاوية بن حديج، فكان يقاتلهم على باب المدينة صدر النهار، فإذا مال الفىء انصرف فقاتلهم يومًا، فلما انصرف نسى عبد الملك قوسه

(١) مراصد الاطلاع ١/ ٣٤٣.

(٢) فتوح مصر والمغرب ٢٢١.

معلَّقة بشجرة فانصرف إليها، فإذا جانب من المدينة قد انهدم، فصاح فى أثر الناس فرجعوا فقد رأوا غبرة شديدة فظنوا أن العدوّ قد ضرب فى ساقتهم فغنموها.

قالوا: فلما كان من عبد الملك بن مروان ما كان ومنازعته لمعاوية بن حديج على فيئها ثقل على معاوية بن حديج، فكان يتجهمه ولا يقبل عليه، فرأى حنش الصنعانى عبد الملك بن مروان وهو متفكر متغير اللون، فقال له: ما شأنك؟ فقال: إنى أبعد قريش مجلسًا من الأمير، فقال له حنش: لا تغتم فو الله لتلين الخلافة (بعد هذا) وليصيرن الأمر إليك.

فلما أفضت الخلافة إلى عبد الملك، وبعث الحجاج لقتال عبد الله بن الزبير رحمه الله، أخذ حنشا الصنعانى أسيرًا فبعث به إلى عبد الملك، فقال له عبد الملك: ألست الذى بشرنى بالخلافة؟ قال: بلى قال: فلم ملت عنى إلى ابن الزبير؟ قال: رأيته يريد الله ورأيتك تريد الدنيا فملت إليه، فعفا عنه وأطلقه.

* * *

ومن الغرائب ببلاد إفريقية ببلاد كتامة منها

قال أبو جعفر أحمد بن محمد بن أبى خالد المتطبب ـ وقد ذكر الماء الذى يجرى فى الأشهر الحرم خاصة: إن عندنا بالمغرب (ببلاد كتامة) عين الأوقات معلومة، إنما يجرى ماؤها فى اليوم والليلة خمس مرات فى أوقات الصلوات الخمس وينقطع ما بين ذلك، وقد ذكرنا موضع هذه العين عند ذكر المراسى بعد هذا. وقد حدث جماعة ممن قصد إليها ورآها ووقف عليها بمثل ذلك.

وببلاد كتامة حجر اللازورد الجيد ومعادن النحاس والحديد.

وكانت بكنيسة شقبنارية فى سلطان الروم أعجوبة مرآة كانت إذا اتهم الرجل امرأته فنظر فى تلك المرآة يرى وجه المبتلى بها.

وكانت البربر قد تنصرت فكان منهم بربرى قد أظهر اجتهادًا فى النصرانية حتى صار شماسًا، واتهم رجل من الروم امرأته، فإذا بوجه البربرى الشماس، فدعا به الملك فقطع أنفه ومثل به وطرده من الكنيسة، فطرق قومه المرآه فكسروها، فأرسل الملك إلى حيهم فاستباحه.

مدينة سُوسة[1]

ومن القيروان إلى مدينة سوسة ستة وثلاثون ميلاً قد أحاط بها البحر من ثلاث نواح: الشمال والجنوب والشرق، وسورها صخر منيع حصين متقن البناء يضرب فيه البحر ويدخل إلى دورها من قنى من الجهة الشرقية.

وفى ركن مدينة سوسة الذى بين المغرب والقبلة منار عال يعرف بمنار خلف الفتى، وبها ثمانية أبواب أحدها باب كبير جدًا شرقى يعرف (بباب دار الصناعة) منها تدخل المراكب وتخرج، ولمدينة سوسة بابان غربيان يقابلان الملعب، والملعب بنيان عظيم للأوَّل أقباء مرتفعة واسعة معقودة بحجر النشفة الخفيف الذى يطفو على الماء المجلوب من بركان صقلية، وحوله أقباء كثيرة يفضى بعضها إلى بعض.

وحول مدينة سوسة آثار عظيمة للأول، وبنيان سوسة كلها بالصخر المحكم، وبسوسة أسواق كثيرة وهى مخصوصة بكثرة الأمتعة والثمر، ولحم سوسة أطيب اللحوم، وهى رخيصة الأسعار، والفواكه، كثيرة الخير، وهى قديمة البناء.

وكان معاوية بن حديج قد بعث إليها عبد الله بن الزبير فى جمع كثيف، وكان بلغه أن نقفور ـ بطريقًا من بطارقة الروم ـ أنفذه ملكهم فى ثلاثين ألف مقاتل فنزل بذلك الساحل، فسار عبد الله حتى نزل شرفًا عاليًا ينظر منه إلى البحر بينه وبين سوسة اثنا عشر ميلا، فلما بلغ ذلك نقفور رجع إلى مراكبه وصدر عن ذلك الساحل، فركب عبد الله بن الزبير فى جيشه حتى بلغ البحر ونزل على باب مدينة سوسة وانحط عن فرسه وصلّى بالناس صلاة العصر، والروم يتعجَّبون من أمره وقلة اكتراثه بهم، (فأخرجوا إليه جمعًا منهم كثيرًا من كماتهم رجالاً وركبانًا، فزحفوا إليه) وهو مقبل على صلاته لا يروعه ذلك ولا يهوله حتى إذا قضى صلاته، شدَّ على فرسه فركبه وحمل عليهم فانكشفوا عنه فهزمهم وولوا أدبارهم حتى لجؤوا إلى مدينتهم فانصرف عنهم.

(١) انظر: رحلة التجانى ٢٥ـ٤٥ والروض المعطار ٣٣٢ ومراصد الاطلاع ٢/ ٧٥٥.

ومدينة سوسة منيعة ممتنعة على من رامها، قد جبل أهلها على الشدة والبأس، وحاصرها أبو يزيد مخلد شهورًا، ثم انهزم عنها وكان عليها فى ثمانين ألف حصان، ففى ذلك يقول سهل بن إبراهيم الوراق: [من الكامل]

إنَّ الخوارجَ صدَّها عن سوسة ... منا طعان السمر والأقدام
وجلاد أسياف تطاير بينها ... فى النقع دون المحصنات الهام[1]

وقال أحمد بن بلج السوسى: [من الوافر]

ألم بسوسة وبغى عليها ... ولكن الإله لها نصير
مدينة سوسة للغرب ثغر ... تدين لها المدائن والقصور
لقد لُعِنَ الذين بغوا عليها ... كما لعنت قريظة والنضير
أعز الدين خالق كل شىء ... بسوسة بعدما التوت الأمور
ولولا سوسة لدهت دواه ... يشيب لهولها الطفل الصغير
سيبلغ ذكر سوسة كل أرض ... ويفشى أهلها العد الكثير[2]

والخروج إلى القيروان من سوسة على الباب القبلى المعروف بباب القيروان، ومقبرة سوسة عن يمين هذا الطريق.

وكان زيادة الله بنى سورها وكان يقول: ما أبالى ما قدمت عليه يوم القيامة وفى صحيفتى أربع حسنات: بنيانى المسجد الجامع، بالقيروان، وبنيانى قنطرة الربيع، وبنيانى حصن مدينة سوسة، وتوليتى أحمد بن أبى محرز قضاء إفريقية.

وخارج مدينة سوسة محارس وروابط ومجامع للصالحين، وداخلها محرس عظيم كالمدينة، مُسَوَّرٌ بسور متقن يعرف بمحرس الرباط، وهو مأوى للأخيار والصالحين، داخله حصن ثان يسمى القصبة، وهو بجوفى المدينة متصل بدار الصناعة بسفح الجبل الذى هو فى سنده شرقى وأعلى المدينة غربى.

---

(١) رحلة التجانى بلا نسبة ٢٨.

(٢) الأبيات لأحمد بن أفلح فى البيان المغرب لابن عذارى ١/ ٣٢٧ ورحلة التجانى ٢٨.

ومدينة سوسة فى سند عال ترى دورها من البحر إذا قصدوا من صقلية وغيرها، ولهذا الهيكل أربعة أدراج يصعد من كل واحد منها إلى أعلاه، وهو هيكل واسع بين بابه الذى يدخل منه والثانى الذى يخرج منه مسافة طويلة.

والحياكة بسوسة كثيرة ويغزل بها غزل يباع زنة المثقال منه بمثقالين من ذهب، وبسوسة تقصر ثياب القيروان الرفيعة.

وجباية ساحل القيروان: سوسة والمهدية وسفاقس وتونس لبيت المال خاصة غير الدخل والخراج الذى لغير بيت المال ثمانون ألف مثقال.

* * *

مدينة منستير[١]

ومن مَحَارِس سُوسَةَ المذكورة محرس المُنَسْتِير، الذى جاء فيه الأثر[٢] المتقدِّم الذِّكر.

ويُذْكر أن الذى بنى القصرَ الكبير بالمُنَسْتِير هو هرثمة بن أعين[٣] سنة ثمانين ومائة.

وله فى يوم عاشوراء موسمٌ عظيمٌ، ومجمع كثير.

---

(١) المُنَسْتير: مدينةٌ عتيقة بناها الرومان على ساحل البحر، بعيدةٌ بنحو اثنى عَشَر ميلاً من سُوسَة، تُحيطُ بها أسوارٌ متينةٌ عالية البناء، ودورها مَبْنيةٌ من الداخل بعناية كذلك.

وصف إفريقيا ٢/ ٨٤ وفى خُلاصة تاريخ تونس ٧٤ «المُنَسْتير: رباطٌ للمسلمين لحماية الثغر من نصارى البحر المتوسط، أسَّسه هرثمة بن أعين حين بَعَثَهُ الرَّشيد واليًا على إفريقيا عام ١٧٩هـ».

(٢) الأثر الوارد فى المُنَسْتير: «بساحل قمونية بابٌ من أبواب الجَنَّة، يقالُ له المُنَسْتير، مَنْ دَخَلَهُ فَبِرَحمة الله، ومَنْ خَرَج منه فبعفو الله». الحلل السندسية فى الأخبار التونسية ١/ ٢٢٨ ونزهة الأنظار ١/ ٥٠٠.

وورد أيضًا عن أنس قال: قال ﷺ: «مَنْ رَابَط بالمُنَسْتير ثلاثة أيام، وَجَبَتْ له الجَنَّة». الحلل السندسية ١/ ٢٢٩.

(٣) هرثمة بن أعين: عامل الرشيد على إفريقيا عام ١٧٩هـ.

وبالمُنَسْتِير البيوتُ والحجر، والطَّواحينُ الفارسيةُ، ومواجِلُ الماء[١].

وهو حِصْنٌ عالى البناء، متقن العمل، وفى الطَّبَقَة الثانية منه مسجدٌ لا يخلو من شيخ فاضلٍ، يكون مدَارُ القوم عليه، وفيه جماعةٌ من الصَّالحين والمُرَابطين[٢]، قد حبسوا أنفسهم فيه منفردين دون الأهل والعشائر.

قال محمد بن يوسف: هو قصرٌ كبيرٌ عالٍ، داخله رَبَضٌ[٣] وَاسِعٌ، وفى وسط الرَّبَضِ حِصْنٌ ثان كبير كثير المساكن والمساجد.

والقصَابُ العاليةُ طبقاتٌ بعضُها فوق بعضٍ، وفى القبلة منه صحنٌ فسيحٌ، فيه قبابٌ عَالية متقنة البناء، تنزلُ حولها النساءُ المرابطاتُ تعرف بقباب جامع. وبها جامعٌ مُتْقَنُ البناء، وهو آزاج[٤] معقودة كُلُّها، وأَقْبَاء لاخَشَبَ فيها، ولها حمَّامات كثيرة، وكان أهلُ القيروان يخرجون إليهم بالأموال والصَّدقات الجزْلَة.

وبقرب المُنَسْتِير مَلاَّحةٌ عظيمة[٥]، تُشْحَنُ فيها السفنُ بالملح إلى البلاد، وبقربه محارس خمسة مُتْقَنَةُ البناء معمورةٌ بالصَّالحين.

* * *

ذكر مدينة تونس

ومن القيروان إلى مدينة تونس مائة ميل، وهى ثلاث مراحل: فإلى فندق شكل مرحلة، وإلى مُنَسْتِير عثمان مرحلة، وإلى القيروان مرحلة.

وطريق آخر إلى منزل بَاشُو إلى الدَّوَاميس إلى القَيْرَوَان.

ودور مدينة تونس أربع وعشرون ألف ذراع[٦]، وفى سنة أربع عشرة ومائة بنى

---

(١) الماجل: الماء الكثير المجتمع، معرَّب. اللسان (مجل) ١٣/ ٣٢.

(٢) انظر: تاريخ البحرية الإسلامية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ٤٢.

(٣) الرَّبَضُ: ما حولَ المدينة، وقيل: هو الفضاء حول المدينة، ووسط الشيء. اللسان (ربض) ٥/ ١١١.

(٤) الأَزَجُ: بناءٌ مستطيلٌ مُقَوَّس السَّقف، جمعه آزُجٌ وآزاج. المعجم الوسيط (أزج) ١/ ١٥.

(٥) الروض المعطار ٥٥١.

(٦) وصف إفريقيا ١/ ٨٨.

عُبَيْد الله بن الحبحاب الجامعَ ودار الصناعة بمدينة تونس.

وأَهْلُهَا موصوفون بدناءة النفوس.

واسم مدينة تونس فى الأول: تَرْشِيش[١]. ويُقَال لبحرها بحرُ رَادِس، وكذلك يُسَمى مَرْسَاها مَرْسى رَادس[٢].

وافتتحها حَسَّان بن النُّعْمَان[٣] بن عَدِىّ بن بكر بن مغيث بن عمرو مزيقياء بن عامر الأزدى.

وروى جماعةٌ عن أبى المهاجر قال: سار حسَّان بن النعمان إلى أَرْطَة فقاتل الروم بِفَحْصِ تُونُسَ، فسأله الروم ألاَّ يدخل عليهم، وأن يضعَ الخَرَاجَ عليهم، ويقومُوا له بما يَحْمِلُه وأَصْحَابُه، فأجابهم إلى ذلك.

وكانت لهم سُفُنٌ مُعَدَّةٌ من ناحية الباب الذى يقال له بَابُ النساء فاحتملوا فيها أَهْلَهُم وأَمْوَالهم وهَرَبُوا ليلاً، وأَسْلَمُوا المدينة، فدخلها حَسَّان فحرَّق وخَرَّب، فبنى بها مسجداً، وبقى هناك طائفةٌ من المسلمين.

وكذلك كان من مكْرِ صاحب قرطَاجَنَّة أيضًا بَحسَّان بن النعمان أَنَّ الرُّومَ لما فروا عنها وبقى فيها مرْنَاق[٤] صَاحِبُها، ليس معه إلاَّ أَهلُه، بعث إلى حسَّان: هَلْ لَكَ أَنْ تُعَاهِدَنى وولدى وتقطع لى قَطَائِعَ أَشْتَرِطُها عَلَيْك، وأَفْتَحُ لك بابًا فتدخلَ المدينة على من فيها؟

فأجابه إلى مسألته، فاشترط عليه المنازل التى بين الجبلين التى يقال لها فَحْص مرْنَاق[٥]، وهى إذ ذاك ثلاثمائة وستون قرية، ثم فتح لهم الباب، فلم يجد بها أحدًا غيره وغير ولده وأهله، فتم له حسان ما اشترطه، وانصرف إلى القيروان قال: وأغارت الروم من البحر على من كان بقى من المسلمين فى مدينة تونس، وخرجت إليهم فى المراكب، فقتلوا مَنْ بها وسَبُوا وغنموا، ولم يكن للمسلمين

(١) نزهة الأنظار ١/ ١١٧.

(٢) وصف إفريقيا ١/ ٨٨.

(٣) صورة الأرض ٧٥ ووصف إفريقيا ١/ ٨٨.

(٤) الحلل السندسية فى الأخبار التونسية ١/ ٥٤٤ـ٥٤٥ ونزهة الأنظار ١/ ٢٢٩.

(٥) الحُلَل السُّنْدُسية فى الأخبار التونسية ١/ ٥٤٤ـ٥٤٥.

شىءٌ يُحَصِّنُهم من عَدُوِّهم، إنَّما كانوا معسكرين هناك، وبلغ حَسَّانُ ذلك فرحلَ إلى تونس، وأرسلَ أربعين رَجُلاً من أشراف العرب إلى عبد الملك بن مروان، وكتب إليه بما نال المسلمين من البلاء، وأقام هناك مُرَابطًا ينتظر رَأْىَ عبد الملك[١].

فلمَّا بلَغ ذلك عبد الملك، عَظُمَ عليه، وكان إذا ذاك التَّابعون متوافرين، فيهم اثنان من أصحاب رسول الله ﷺ أَنَسُ بن مالك، وزيد بن ثابت، فقالا للمسلمين: «مَنْ رَابَطَ بِرَادَسَ يومًا فلَهُ الجَنَّةُ حَتْمًا»[٢].

وقالا لعبد الملك: امْدُدْ هذه البلاد، وانْصُرْ أَهْلَها لتأمَنُوا من العَدُوِّ، ويكونَ لك ثوابُها وأَجْرُها، فإنها من البلاد المُقَدَّسَة المَرْحوم أهلُهَا، وهى حَرَسٌ لمقدونية»[٣] يريدون القيروان، وَرُوِىَ أنَّ ببحر رَادس خَرَقَ الخضْرُ عليه السَّلام السَّفينة وأَنَّ الملك الذى كان يأخذ كُلَّ سفينة غَصْبًا: الجَلَنْدَى[٤]، ملك قرطاجنة.

فخرق الخضر السَّفِينة ببحر رادس[٥]، وقتل الغلام بطَنَّبدة، وهى اليوم تُسَمَّى «المُحَمَّدِيَّة»، وهناك فارقَ موسى الخِضْرَ عليهما السلام وَطَنَّبْدَةَ: على أميال يسيرة من تونس.

فكتب عبد الملك بن مروان إلى أخيه عبد العزيز، وهو والى مصر أَنْ يُوَجِّهَ إلى معسكر تونس ألفَ قِبْطِىٍّ بأهله وولده، وأَنْ يحملَهم من مصر، ويحسنُ عَوْنَهم حتى يصلوا إلى تَرْشِيش[٦]، وهى تونس.

---

(١) الحلل السندسية ١/٥٤٨.

(٢) الأثر فى الحلل السندسية ١/٥٤٥.

(٣) فى الحلل السندسية «قمُّودة».

(٤) الحُلَل السندسية ١/٥٤٦.

(٥) ذكر صاحب الحُلَل السُّنْدُسية ١/٥٤٧ عن التجانى فى رحلته ٥ـ٨ أنَّ قولَ مَنْ قال: إنَّ السَّفينة إنَّما خرقت ببحر رَادس، وأنَّ الجدار أقيم بالمحمَّديَّة هو قولٌ يخالفه أكثر المفَسِّرين، فعن بعضهم أنَّ القرية التى استطعما أهلها: بَرْقة، وعن بعضهم أنها الجزيرة الخضراء بالأندلس، وقال بعضهم: أنطاكية وعن بعضهم: الأيْلة، فأَهْلُ أَيْلَةَ معروفون بالبُخْلِ، ويروى أنهم أَتَوْا إلى عمر بن الخطاب، فرغبوا إليه أن يثبتَ لهم قوله سبحانه: ﴿فَأَبوا أن يُضَيِّفُوهما﴾ [الكهف:٧٧] بالتاء المُثَنَّاة».

(٦) وصف إفريقيا ٢/ ٧٠ وتاريخ البحرية الإسلامية ٣٣.

وكتب إلى ابن النُّعْمَان أَنْ يَبْنِيَ لهم دارَ صِنَاعَة[١] تكونُ قُوَّةً وَعُدَّةً للمسلمين إلى آخر الدهر، وأَنْ يجعلَ على البَرْبَرِ جَرَّ الخَشَبِ لإنشاء المراكب؛ ليكون ذلك جاريًا عليهم إلى آخر الدهر، وأَنْ يصْنَعَ المراكبَ ويجاهد الرُّومَ في البَرِّ والبَحْرِ، وأَنْ يَغارَ منها على سواحل الروم فيشتغلوا عن القيروان، نظرًا للمسلمين وتحصينًا لشأنهم.

فَوَصلَ القِبْطُ إِلى حسَّان وهو مقيم بتونس[٢]، فأجرى البحرَ من مَرْسى رادس إلى دار الصِّناعة، وجَرَّ البَرْبَرُ الخشبَ، وجَعلَ فيها المراكب الكثيرة، وأمرَ القِبْطَ بعمارتها.

وَبِشَرْقِيِّ مدينة تونس بحيرةٌ كبيرة، دوُرُها أربعةٌ وعشرون ميلاً، في وسطها جزيرة تُسَمَّى «شَكْلَة» مقدار ميلين، تُنْبِتُ الكَلْخَ، وبها آثارُ قَصْرٍ خرب[٣].

فصارت دار صناعة تونس مُتَّصِلَةً بالمِينَى، والمِينَى مُتَّصِلٌ بالبُحَيْرَةِ، والبُحَيْرَةُ مُتَّصِلَةٌ بالبحر.

وعلى شاطِىء المِينَى مسجدٌ يُعْرَفُ بمسجد عبد الله، وبِقِبْلِيِّ المِينَى قَصْرٌ مَبْنِيٌّ بالحجارة مُتْقَنُ البِنَاءِ، وفي الجَوْفِ منه حائطٌ صخرٌ كالسور، فصار المدخل بالسُّفُن في هذا المِينَى بَيْنَ حائطِ القصر وهذا السور، وتعرضُ بينَهُما سِلْسِلَةُ حديدٍ تمنع المراكب من الدُّخولِ والخروج ما دامت مُتَعَرِّضَةً.

وهذا القصرُ يُعْرَفُ «بقصر السِّلْسِلَة».

وبقِبْلِيِّ القصر صهريجان كبيران، كان ملوكُ بني الأغلب يرسلون فيها ماء البحر وَيملَؤُنَهَا بالسَّمك.

وقد تقدَّم أَنَّ عُبَيْد الله بن الحَبْحَاب[٤] بنى دار الصِّناعة، فلعلَّ من روى ذلك

---

(١) انظر تفصيل ذلك في: تاريخ البحرية الإسلامية ٣٣-٤١.

(٢) إلى هنا النقل عن البكري في الحلل السندسية ١/٥٤٩.

(٣) الحُلَل السندسية ١/٥٤٥.

(٤) هو عُبَيْد الله بن الحَبْحاب السلولي الموصلي: أميرٌ، من الرؤساء النبلاء الخطباء، كان مولى لبني سلول، ونشأ كاتبًا، وولي مصر زمنًا. ونقله هشام بن عبد الملك إلى إفريقية سنة ١١٧هـ، أو قبلها، فسار إليها وضبط أمورها، وسَيَّر الغُزَاةَ إلى صقلية والسوس وأرض =

يريدُ أَنَّ عبيدَ الله جَدَّدَها وزادها تحصينًا، فلم تزلْ تونس معمورة من يومئذٍ، يغزو منها المسلمون بلادَ الرُّوم، ويكثرون فيهم النِّكاية ولهم الإِذَاية.

ومدينة تونس فى سَفْحِ جبلٍ يُعْرَف بجبلِ أُمِّ عمرو(١)، ويدورُ بمدينتها خندقٌ حَصِينٌ، ولها خمسةُ أبواب: بابُ الجزيرة قِبْلِىٌّ يُنْسَبُ إلى جزيرة شريك ويخرج منه إلى القيروان، ويقابله الجبل المعروف بجبل التوبة، وهو جبلٌ عالٍ لا يُنبتُ شيئًا.

فى أعلاه قَصرٌ مَبْنِىٌّ مشرفٌ على البحر، وبشرقى هذا القصر غارٌ منحنى الباب يُسَمَّى المعشوق، وبالغرب منه عين ماء، وبغربِىٍّ هذا الجبل جبلٌ يُعْرَف بجبل الصيادة، فيه قرى كثيرة الزيتون والثمار والمزارع، وفى هذا الجبل سبعة مواجل للماء، أقباء على غرار واحدٍ.

وبغربىّ هذا الجبل أشراف ومزارع مُتَّصلة بموضع يعرف بالملعب، فيه قصر لبنى الأغلب، قد غرس بجميع الثمار وأصناف الرّياحين.

وبشرقىّ مدينة تونس المِينَى والبحيرة - التى ذكرناها - وسَنَجةٌ وبشرقيها أيضًا باب قرطاجنة دونه داخل الخندق بساتين كثيرة، وآبار بسوانٍ تعرف سوانى المرج.

وباب السَّقَّائين جوفىّ، نُسب إلى السَّقَّائين؛ لأن بئرًا تعرف ببئر أبى القفار تقابِلُه، وهى بُئر كبيرة غزيرةٌ عذبة الماء، نَميرةٌ.

وهناك قصور لبنى الأغلب وبساتين، فيها أصناف الثمار والرَّياحين، ويتَّصل بها جبلٌ أَجْرَدُ يقالُ له جبل خفاجة، فى أعلاه آثار بنيان. وباب أَرْطة غَرْبِىٌّ، وتجاوره مقبرة تعرف بمقبرة سوق الأحد، ودون الباب من داخل الخندق غدير كبيرٌ يُعرفُ بالفَحَّامين. ورَبَضُ المرضى خارجٌ عن المدينة، وبقبلِىّ رَبَضَ المرضى مَلاَّحة كبيرة، منها ملحهم وملح مَنْ يجاورهم.

وجامع مدينة تونس رفيعُ البناءِ، مُطِلٌّ على البحر، ينظر الجالسُ فيه إلى جميع

= السودان، واتخذ بتونس «دار صناعة» لإنشاء المراكب البحرية، وأنشأ الجامع الأعظم بتونس «جامع الزيتونة». وفى أيامه انتشر مذهب الإباضية والصفرية فى برابرة المغرب، فثاروا، وكان بعض عُمّاله قد أساءوا السيرة، فاضطرب عليه أمر البلاد، فاستقدمه هشام إليه وعزله سنة ١٢٣هـ الأعلام ١٩٢/٤.

(١) فى الحلل السندسية ٥٤٣/١ «جبل أبى عمرو».

جواريه، ويُرْقى إلى الجامع من جهة الشرق على اثنتى عشرة درجة، وبها أسواق كثيرةٌ ومتاجرُ عجيبةٌ.

وبمدينة تونس خمسة عشر حَمَّامًا، وفنادق كثيرة رفيعة.

وعُضَادات أبواب دور مدينة تونس كُلُّها رخام بديعٌ، لوحان قائمان، وثالث معترض عليهما مكان العتبة.

ومن أمثالهم: «دور تونس أبوابها رُخامٌ ودَاخِلُها سُخَامٌ»(١).

ومدينة تونس دارُ عِلْمٍ وَفِقْهٍ، وَلِيَ منها قضاءَ إفريقية جماعةٌ كثيرة. ومع هذا الفضل الذى فيها، هى مخصوصة بالقيام على الأمراء والخلاف للولاة، خالفت نحو عشرين مَرَّةً، وامْتُحِنَ أهلُها أيَّام أبى يزيد(٢) بالقتل والسَّبْيِ وذهاب الأموال وقال الجربى صاحب الحدثان: [من الطويل].

فويلٌ لِتَرْشِيشَ وَوَيْلُ أَهْلِهَــا ... من الحَبَشِيِّ الأسودِ الُمتَغَاصِبِ(٣)

وقال بعض الشعراء: [من الطويل]

لَعَمْرُكَ مَا أَلْفَيْتُ تُونُسَ كَاسْمِهَا ... وَلَكِنَّنِى أَلْفَيْتُها وَهِيَ تُوحِشُ(٤)

وتصنع بتونس آنية للماء من الخزف تعرف بالرِّيحيَّة، شديدة البياض، فى نهاية الرِّقَّة تكادُ تشِفُّ، ليس يُعْلَمُ لها نظيرٌ فى جميع الأقطار وعامَّة الأمصار.

ومدينة تونس من أشراف مدائن إفريقيا، وأطيَبِها ثمرًا وأنفسها فاكهةً، فمن ذلك: اللُّوزُ الفَرِيك، يَفْرِكُ بعضُه بعضًا من رِقَّة قِشرِهِ، ويُحَتُّ باليد، وأكثرهُ حَبَّتان فى كُلِّ لوزة، مع طيب المضغة وعِظَمِ الحَبَّةِ.

والرُّمَّانُ الضعيفُ، لا عجم لِحَبِّه أَلْبَتَّةَ، مع صِدْق الحلاوة وكثرة المائية. والأُتْرُجُّ الجليل الطَّيِّب الطَّعْم الذَّكِيُّ الرائحة البديع المنظر.

(١) المثل فى الروض المعطار ١٤٣.

(٢) هو أبو يزيد الخارجى.

(٣) للجربى صاحب الحدثان فى معجم البلدان (تونس) ٢/ ٤٦٧ ومجمع أشعار معجم البلدان ١/ ٩٨.

(٤) بلا نسبة فى معجم البلدان (تونس) ٢/ ٤٦٧ والروض المعطار ١٤٤ ومجمع أشعار معجم البلدان ١/ ٥٢٢.

والتِّينُ الخارمى أسود كبير رقيق القشر، كثير العسل، لا يكاد يُوجَدُ له بذرٌ، والسَّفَرْجَلُ المتناهى كبرًا وطيبًا وعطرًا.

والعناب الرَّفيع فى قدر الجوز. والبصل الفلورى فى خَلْقِ الأترجّ، مستطيلٌ سابرىّ القشر، صادق الحلاوة، كثير الماء.

وبها من أجناس الحوت الذى لا يكون مثله فى غيرها ما لا يحصى كثرةً فى أجناس تجرى فى البحر مع شهور العجم، فى كُلِّ شهرٍ من تلك الشهور يجرى فيه جنسٌ منه، لا يوجَدُ فى البحر إلى دخول ذلك الشهر من العام المقبل. فَهُمْ مِنْ تَجدُّدِها فى لَذَّة موصولة، ونعمة غير مملولة، وكل جنس منها يصير ويبقى السنين صحيح الجرْمِ، طيِّب الطَّعم، منهاً جِنْسٌ يُعْرَف بالعبانق، وجنسٌ يعرف بالأكتوبرىّ، وجنسٌ يُعرف بالأشبارش وجنس يعرف بالملكوس، وجنسٌ يُعرف بالبقونس، ومن أمثالهم: «لولا البَقُونس لم يخالف أهل تونس»[1].

وفى الطريق بينها وبين القيروان منزلٌ يُقال له: (مجقَّة).

إذا كان أوانُ طِيب الزيتون بالساحل قصدته الزَّرَازِرُ فباتت فيه وقد حمل كل طائر منها زيتونتين فى مخلبيه، فيلقى الزيتون هناك. وله غَلَّةٌ عظيمةٌ تبلغُ سبعين ألف درهم.

* * *

ذكر مدينة قرطاجنة[2]

ومن مدينة تونس إلى قرطاجنة اثنا عشر ميلاً، ويقالُ إنَّ الذى بنى قرطاجنة: (ديدون الملك) زمن داود ـ عليه السلام.

ويقالُ إنَّ بين بناء قَرْطَاجَنَّة وبناء مدينة رومية اثنتين وسبعين سنة. ولو دخَلَها الدَّاخِلُ أيام عمره وتَدَبَّر فيها، لرأى كُلَّ يومٍ مستأنفٍ أُعْجُوبةً لم يَرَها فى السَّالف.

---

(١) الروض المعطار ١٤٤.

(٢) انظر فى وصف قرطاجنة: الروض المعطار ٤٦٢ـ٤٦٥ والحُلَل السُّنْدُسية ١/ ٥٢٢ ووصف إفريقيا٢/ ٩٨ ـ٩٩ ونزهة الأنظار ١/ ١٢٠ـ١٢٢.

وهى على شاطئ البحر، يصيبُ سورها أمواجه. وكان تكسير سورها أربعة عشر ألف ذراع.

«وقال أبو جعفر أحمد بن إبراهيم المتطبِّب[١] القيروانىّ فى مغازى إفريقية: إن موسى بن نُصَير[٢] لَّما دخل الأندلس، فأتى على ما أراد منها قال لهم: دُلُّونى على أسَنِّ شيخ فيكم، فَأُتِىَ بشيخٍ قد وقعت حاجباه عن عينيه من الكِبَر. فقال له موسى: مِنْ أَيْنَ أنت يا شيخ؟

قال: مِنْ قرطاجنّة إفريقية.

فقال له موسى: فما الذى أصارَك هنا؟ وكيف كان خبر قرطاجنة؟

قال له: أتعرفُ مَنْ بنى قرطاجنة؟

فقال له الشيخ: بناها قومٌ مِنْ بقية العادين الذين هلك قومهم بالرِّيح فبقيت بعدهم خرابًا ألف سنة حتى بناها أردمين بن لاوين بن نمرود الجبّار، وجلَب إليها الماء العذب من دلالا، فحفرَ له فى الجبال وبنى القناطر فى بطون الأودية حتى استوى جرى الماء فيه بعد عمل أربعين سنة، قال: فلمَّا حفرَ أساسَ تلك القناطر فى طول الأودية أُصِيبَ فيه حجرٌ عليه كتابةٌ، فإذا فيه: إنَّ هذه المدينة ليست تخربُ إلاَّ إذا ظهر فيها الملح. قال الشيخ: فبينما نحن ذات يوم فى مجرى قرطاجنة جلوسٌ، إذا بملحٍ على حجر، فعند ذلك رحلتُ إلى هاهنا»[٣].

وكان سببُ خراب قرطاجنة أن أنيبل[٤] ملك إفريقية ـ وكانت قرطاجنة دار

---

(١) هو أحمد بن إبراهيم بن أبى خالد، أبو جعفر القيروانى، ابن الجزار: طبيبٌ مؤرخ، من أهل القيروان، له زاد المسافر وقوت الحاضر فى الطب، والتعريف بصحيح التاريخ، والبغية فى الأدوية المركبة، وغيرها، توفى سنة ٣٦٩هـ الأعلام ١/ ٨٥.

(٢) موسى بن نُصير بن عبد الرحمن بن زيد اللخمى بالولاء، أبو عبد الرحمن: فاتح الأندلس أصله من وادى القرى بالحجاز، كان أبوه نُصير على حرس معاوية. ونشأ موسى بدمشق وولى غزو البحر لمعاوية، فغزا قبرص، وبنى بها حصونا، وخدم بنى مروان، وولى لهم الأعمال، فكان على خراج البصرة فى عهد الحجاج، وغزا إفريقية، وفتح الأندلس ولد عام ١٩ هـ وتوفى سنة ٩٧ هـ.

(٣) الحلل السندسية ١/ ٥٢١ والاستبصار ١٢٤.

(٤) فى الحلل السندسية ١/ ٥٢٣ «أنيبال».

مُلكهِ ـ مضى إلى بلد إيطالية الذى فيه مدينة رومة ولاقى قوّاد رُومة، وكان أهل رومة يومئذ لا ملك لهم، إنما كان تدبير مملكتهم إلى سبعين رجلاً من كبائرهم يخرجون من أنفسهم كل عام اثنى عشر قائدًا، يقرعون بينهم على نواحيها فيخرج كل واحدٍ إلى النَّاحية التى وقعت عليها قرعته، فهزمهم أنيبل وقتلهم فى عِدّة مواطن، حتى بعث إلى إفريقية بثلاثة أمداء من خواتم الذهب التى كانت فى أيدى أشراف من قتل منهم وملوكهم، فكتب إليهم: هذا عدد من قتلته من الأشراف والعقاد، فضلاً عن غيرهم.

فأقام فى بلاد إيطالية محاربًا لمدينة رومة ومُضيقًا على نواحيها نحوًا من ستّ عشرة سنة، فركب قائدٌ من قُوَّادهم يُقال له: (شبيون) فى المراكب خفية حتى أتى صقلّية، فحشر من اجتمع له بها، ثم مضى إلى بلد إفريقية وترك (أنيبل) محاصرًا لبلد رومة، فنصر على الإفريقيين، وعَمَّ بلد إفريقية قَتْلاً وسَبْيًا واحتراقًا، وبقى مُحاصِرًا لقرطاجنة، فبعث أهلها إلى أميرهم: أنيبل يعلمونه بما دَهَمَهُم من أهل رومة ويسألونه الإسراع لغياثهم، فعجب من ذلك أنيبل وقال: إنّى كنت أرى أنَّ التزامى محاصرة هذه المدينة يقطع اسم الرومانيين من الدُّنيا، فأظُنُّ أنَّ إله السماء لا يأذن لى بذلك.

ثم ركبَ المراكبَ وأسرع الرُّجوع إلى إفريقية، فزحفَ إليه شبيون قائد الرومانيين، فهزمه فى كل مَشْهَد.

فجعل أنيبل يخاطبه ويقول: أين كنتم معشر الرومانيين من هذه النجدة إذْ كُنَّا نُقَاتلكُم ونهزمكم فى أفنيتكم؟

فقال له شبيون: إذ كُنْتُم فى بلدنا قد بَعُد عنكم بَلَدُكم وحُصُونكم، ونحنُ فى حُصُونِنا وبلدنا كُنَّا أشد منكم خورًا، وكنتم أشدَّ منَّا استثباتًا، فلمَّا صرْنا فى بلدكم انتقل الأمرُ، وتبدَّل الحكم، فغلب عند ذلك أهل رومة على أهل إفريقية، وهدموا مدينة قرطاجنة.

وأعجب ما بقرطاجنّة: دار الملعب، وهم يُسَمُّونها الطَّياطِر[١] قد بُنيت أقواسًا على سوارى، وعليها مثلها ما أحاط بالدَّار وقد صورّ فى حيطانها جميع الحيوان

(١) الحُلَل السُّندسية ١/٥٢٦ والروض المعطار ٤٦٣ ونزهة الأنظار ١/ ١٢٠ ـ ١٢١.

وصور أصحاب جميع الصناعات.

وروى الثِّقاتُ عن عبد الرحمن بن زياد بن أَنْعَم[١] قال: كنتُ وأنا غلامٌ مع عَمِّي بقرطاجنة، نمشى فى آثارها، ونعبر بعجائبها، فإذا بقبرٍ مكتوب عليه بالحميرية: أنا عبد الله بن الأواس رسولُ رسولِ الله صالح[٢].

وفى رواية أخرى: أنا معتب، بُعِثْتُ إلى أهل هذه القرية، أدعوهم إلى الله، أتيتهم ضُحًى، فقتلونى ظُلْمًا، فحسيبهم الله.

وقال إسحاق بن عبد الملك المَلَشُونى: لم يدخل إفريقية نَبِيٌّ قطّ، وأَوَّلُ من دخلها بالإيمان حَوَارِىّ عيسى ابن مريم عليه السلام.

وفيما بين مدينة سُوسة[٣] ومدينة تونس، جزيرة شَرِيك[٤]، تُنْسَب إلى شَرِيك العَبْسى، كان عاملاً عليها.

وأُمُّ إقليم جزيرة شَرِيك: منزل بَاشُوا، وهى مدينةٌ كبيرةٌ آهِلَةٌ، بها جامع وحمَّامات، وثلاث رحاب، وأسواق عامرة وبها قصر أحمد بن عيسى، القائم على ابن الأغلب.

(١) عبد الرحمن بن زياد بن أَنْعَم المعافرى الإفريقى، أبو خالد: (٧٥ـ١٦١هـ) قاضٍ من العلماء اشتهر بالجرأة على الملوك وزجرهم عن الجور والعسف، وولد ببرقة، وهو أول مولود فى الإسلام بإفريقية، ونشأ بها، وولى قضاء القيروان مرتين. ثم رحل إلى بغداد، فاتصل بالمنصور العباسى قبل أن يلى الخلافة، وجمعت بينهما جامعة الاشتغال بالعلم، وأحبه المنصور، فكان رفيقه. ولمَّا وُلِّى المنصور الخلافة دعاه إليه، فوعظه ابن أنعم وحذّره من ارتكاب المظالم، وانتقد بعض أعماله، واستأذنه فى العودة إلى القيروان، فأذن له، ولم يجئه بعد ذلك توفى فى القيروان وأخباره كثيرة له مسند فى الحديث جزءان. الأعلام ٣/ ٣٠٧ وطبقات علماء إفريقية ٢٧ـ٣٣ وتاريخ بغداد ١٠/ ٢١٤.

(٢) الروض المعطار ٤٦٥ والاستبصار ١٢٤.

(٣) سُوسة: مدينة كبيرة عتيقة، بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط، على بعد ميل من تونس، اتخذها المسلمون قاعدة لنائب الوالى لما ملكوها وملكوا الشاطئ وصف إفريقيا ٢/ ٨٣ وصورة الأرض ٧٤ـ٧٥.

(٤) جزيرة شريك: تنسب إلى شريك العبسىّ، أحد عُمَّالها فى قديم الزمان وهو والد قُرَّة بن شريك والى مصر من قِبَل الوليد بن عبد الملك الذى يقول فيه الشاعر:

عجبًا ما عجبتُ مِمَّن أتانا ... حين أَمَّرْت قُرَّة بن شريك

الحلل السندسية ١/ ٥٣٢.

وكان يجرى إلى هذا المصنع الماءُ المجلوبُ من عين جقار إلى قرطاجنة على مسيرة أيام فى قناة عظيمة تُغَيَّب مَرَّةً تحت الأرض، وتكون فى موضع آخر فى قناطر، فوقه قناطر حتى تساوى السَّحاب.

ومن عين جقار كان عُبَيْد الله الشِّيعى[١] يشرب الماء، يَرِدُ عليه كُلَّ يومٍ سِتَّةَ أحمالٍ معروفة.

وبقرطاجَنَّة قصران من رخام يعرفان: بالأخْتَين[٢]، ليس فيهما حجرٌ سواه مُحْكم البناء، رُخَامُه كُلُّه مدخل بعضه فى بعض، وبهذين القصرين ماءٌ مجلوبٌ يأتى من قبل الجوف لا يعرف من أين منبعثه يَصُبُّ فى البحر، وعليه نواعير[٣] لقرى قرطاجنة، وبها سوارى قائمة، طولُ الظَّاهرِ فوق الأرض منها: أربعون ذراعًا. قد عقد عليه قبو من حجر النشفة: وهو الحجرُ الخفيف الذى يطفو فوق الماء.

وبها قُبَّةٌ لا يلحقها الرَّامى بأشَدِّ نَزْعِ السِّهام عَلْوًا وسُمُوًا، حولها سَطْحٌ مفروش بالفُسَيْفساء، خمسون ذراعًا فى مثلها.

وخرائب قرطاجنة اليوم قُرى رفيعة مفيدة عامرة، وأصناف ثمارها متناهيةٌ فى الطِّيب، لا يكاد يُرَى ما يفضُلُها.

وجُعِلت فيه صور الرِّياح، وجُعَل صورة الصَّبَا وَجهٌ مُسْتَبْشِرٌ، وصورة الدَّبُور

(١) هو الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا، أبو عبد الله، المعروف بالشِّيعىّ، ويلقَّب بالمُعَلِّم: ممهِّد الدولة للعبيديين، وناشر دعوتهم فى المغرب، كان من الدُّهاة الشجعان، من أعيان الباطنية وأعلامهم، من أهل صنعاء، اتَّصل فى صباه بالإمام محمد الحبيب (أبى المهدى الفاطمى) وأرسله محمد إلى «أبى حوشب» فلزم مجالسته وأفاد من علمه، ثم بعثه مع حُجَّاج اليمن إلى مكة وأرسل معه «عبد الله بن أبى ملا» فلقى فى الموسم رجالاً من «كتامة» فأخذوا عنه المذهب ورحل معهم إلى المغرب، ودعا «كُتَامة إلى بيعة» المهدى، وامتلك القيروان وأجلى عنها ملكها (زيادة الله الأغلبى) وبايع عبيد الله المهدى وأقام دولة، ثم قتله عُبَيْد الله المهدى بأن أمر اثنين من رجاله بقتله وقتل أخ له يعرف بأبى العباس. ، وكان قتله سنة ٢٩٨هـ الأعلام ٢/ ٢٣٠ ووفيات الأعيان ١/ ١٦٢ والمقدمة لابن خلدون ٣/ ٣٦٢.

(٢) الحُلل السُّندسية ١/ ٥٢٧.

(٣) النواعير: جمع ناعورة، وهى دولابٌ ذو دِلاءٍ أو نحوها، يدور يدفع الماء أو جَرِّ الماشية، فيخرج الماء من البئر أو النهر إلى الحقل. المعجم الوسيط (نعر) ٢/ ٩٤٢.

وَجْهٌ عابِسٌ.

ورخام قرطاجنة لو اجتمع أهل إفريقيا على نقله واستخراج جميعه ما أمكنهم ذلك لكثرته.

وفيها قَصْرٌ يُعْرف: بالمعلّقة، مُفْرط العظم والعُلُوِّ، أقباءٌ معقودةٌ وطبقاتٌ كثيرة، مُطِلٌّ على البحر، فى غربِيِّه قَصْرٌ يُعْرَف بالطَّيَاطر، وهو الذى فيه دار الملعب المذكور.

وهو كثير الأبواب والتراويح، وهو أيضًا طبقاتٌ كثيرةٌ، على كل باب صورة حيوان رخام، وصور جميع الصُّنَّاع.

وقصرٌ يُقَال له: قُومش، طبقات كثيرة أيضًا فى سوارى رخام مفرطة الكبر والعظم، يتربَّعُ على رأس السَّارية منها اثنا عشر رَجُلاً وبينهم سُفْرَةُ طعام أو شراب، وهى مشطَّبَةٌ كالثَّلج بياضًا، والمهاة صفاءً، بعض تلك السَّوارى قائمة، وبعضها ساقطة.

وبها قَبْوٌ عظيمٌ لا يدرك الطرف آخره، فيه سبعة مواجل للماء كبار تُعَرف بمواجل الشياطين، فيها ماءٌ قديم لا يدرى متى دخلها.

وبقرب قصر (قومش) سجنٌ، أقباءٌ بعضها فوق بعض، مُظلمٌ مهيب الدُّخول، فيه جُثَثُ الموتى على حالهم إلى اليوم، فإذا مُسُّوا تَلاَشوا.

وداخل المدينة مِينَى، كانت المراكب تدخُلُها بِشُرُعِها، وهى اليوم مَلاَّحَةٌ[1]، عليها قَصْرٌ ورباطٌ يُعْرَف ببرُج أبى سليمان، وفى وسط المدينة صهريج كبير حوله فى وقتنا هذا ألف وسبعمائة حنيةٍ قائمة سوى ما انهدمَ منها.

ويجزيرة شريك اجتمعت الروم بعد دخول عبد الله بن سعد بن أبى سرح[2]

(١) الحُلَل السندسية ١/٥٢٨.

(٢) عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح القرشى العامرى، من بنى عامر بن لُؤَى، من قريش: فاتح إفريقية، وفارس بنى عامر، من أبطال الصحابة. أسلم قبل فتح مكة وهو من أهلها، وكان من كُتَّاب الوَحْيِ للنبى ﷺ وكان على مَيْمَنَة عمرو بن العاص حين افتتح مصر، وولى مصر سنة ٢٥هـ بعد عمرو بن العاص، فاستمر نحو ١٢ عامًا، زحف إلى إفريقية بجيش فيه الحسن والحسين ابنا على وعبد الله بن عباس وعقبة بن نافع، ولحق بهم عبد الله بن الزبير، فافتتح =

المغرب، وتبادروا منها إلى مدينة إقليبية وما حولها، ثم ركبوا منها إلى جزيرة قوصرة، وهي بين صقليّة وإفريقية، وكانت إذ ذاك عامرةً، فيقال: إنهم أقاموا بها إلى خلافة عبد الملك بن مروان.

فأغزى عبد الملك بن مروان عبد الملك بن قطن في البحر، ففتح ما كان هنالك من الجزائر والقصور وخَرَّبها وقفل ظافرًا.

ومن تونس إلى منزل باشُوا[١] هذا مرحلةٌ، بينهما قرى كبيرة آهلة كثيرة الزيتون والشجر، بينهما قصر الزَّيت وفندق ريحان ووادى الرمان.

ومن قرية الدواميس إلى القيروان مرحلة بينهما قصور ومنازل وقرى.

وبحذاء جزيرة شريك في البَرِّ نحو الجنوب: جبل زغوان[٢]، وهو جبلٌ منيفٌ مشرف يُسَمَّى كَلب الزقاق؛ لظهوره وعُلُوِّه واستدلال المسافرين به أينما توجَّهوا، فإنه يُرَى على مسيرة الأيام الكثيرة ولعلُوِّه ترى السحاب دونه، وكثيرًا ما يُمْطَر سَفْحُهُ ولا يُمطر أعلاه.

وأهل إفريقية يقولون لمن يستثقلونه من الناس: «هو أثقل من جبل زغوان، وأثقل من جبل الرَّصاص»[٣]. وهو على تونس.

وقال الشاعر يخاطب حمامةً أرسلها بكتابٍ من القيروان إلى تونس: [وافر]

وَفي زَغْوَانَ فَاسْتَعْلَى عُلُوًا ... وَدَانَى فِي تَعَالِيكَ السَّحَـابا[٤]

وبزغوان قرى كثيرة آهلة، كثيرة المياه والثمار والبساتين منها فندق شكل المحلَّة المعروفة، وهي على مرحلة من تونس: قرية كبيرة آهلة، ومنها قرية قَلمَنْجَة، كان

= ما بين طرابلس الغرب وطنجة ودانت له إفريقيا كلها، وغزا الروم بحرًا، وظفر بهم في معركة «ذات الصوارى» سنة ٣٤هـ، واعتزل الحرب بين على ومعاوية بصفّين، ومات بعسقلان فجأة سنة ٣٧هـ وهو قائم يصلى. الأعلام ٤/ ٨٨ـ٨٩.

(١) منزل باشُوا: مدينة في إقليم الجزيرة واسعة العمل، خصبة، أوسع من سُوسة على صاحبها دخلاً، وأكثر منها جباية وأهلاً، ولا يدخلها صحيح إلا مرض، وجميع الفواكه بها، ولباشُوا أسواق في كل شهر تُحَضَّر لأيَّام معروفة. صورة الأرض ٧٥ والحلل السندسية ١/ ٥٢٤.

(٢) وصف إفريقيا ٢/ ١٠٤ـ١٠٥.

(٣) المثل في الروض المعطار ٢٩٤.

(٤) البيت بلا نسبة في الروض المعطار ٢٩٤.

أبو القاسم بن عَبَيْد الله شرع فى بنيانها، واتخذها مدينة يسكنها الغريب السَّابل من هوَّارة ونفوسة.

وهذا الجبل مأوى للصَّالحين وخيار المسلمين.

وبغربى جبل زغوان مدينة لربُس[1]، بينها وبين القيروان مسيرة ثلاثة أيام، وهى مدينةٌ مُسَوَّرَةٌ، لها رَبَضٌ كبيرٌ وبأرضها يكون أطيب الزعفران، ويعرف ببلد العنبر، وبها صار إبراهيم بن أبى الأغلب حين خرج من القيروان.

وفى سنة ستٍّ وتسعين ومائتين زحف إليها أبو عبيد الله الشيعىّ، ونازلها وبها جمهور أجناد إفريقية مع إبراهيم[2]، ففرَّ عنها ابن أبى الأَغْلَب فى جماعة من القُوَّاد والجُنْد إلى أطرابُلس، ودخلها الشيعىّ عُنْوَةً، ولجأ أهلها ومن بقى فيها من فَلِّ الجُنْدِ إلى جامعها، وركب بعض الناس بعضًا، فقتلهم الشيعىّ أجمعين حتى كانت تسيل الدِّماء من أبواب المسجد كسيلان الماء بوابل الغيث.

وقيل: إنه قُتِل داخل المسجد ثلاثون ألفًا وذلك من وقت صلاة العصر إلى آخر الليل.

وكانت وِلاية بنى الأغلب إفريقية مائة سنة وإحدى عشرة سنة[3].

ومن مدينة لرُبس إلى مدينة الأنصارين مسيرة يوم، نسبت إلى قومٍ نزلوها من الأنصار من ولد جابر بن عبد الله، وهى طيِّبةُ الأرض، كثيرة الرِّيع، وحنطتها أجَلُّ حنطة بإفريقية.

ومن مدينة القيروان إلى مدينة قَفْصَة[4] ثلاثة أَيَّام، وهى مدينةٌ مبنيَّةٌ كُلُّها على أساطينَ وطيقان رخام، قد بُنى خلالها بالصخر الجليل بأحكم عمل.

---

(١) فى الروض المعطار ٢٥ «الأُرْبُس» وكذا نزهة الأنظار ١/ ١٢٥.

(٢) هو إبراهيم بن سالم، كان رئيسًا شريف النفس فاضلاً نبيلاً عالمًا فصيحًا حسن السيرة، وَلاَّه إفريقية هارون الرشيد ليضايق على إدريس جدّ أشراف المغرب، فاحتال عليه إبراهيم فى خبر طويل نزهة الأنظار ١/ ٣٢٢.

(٣) انظر: الروض المعطار ٢٥.

(٤) قَفْصَة: مدينة قديمة بناها الرومان، وبقيت فى أيدى دوقاتهم إلى أنْ فتحها عبد الله بن سعد ابن أبى سَرْح. وصف إفريقيا ٢/ ١٤٣ ونزهة الأنظار ١/ ١٠٥.

ويذكر أنَّ بانى هذا السُّور: شنيان غلام نمرود، وقد زَبَرَ عليه اسمَهُ، وهو مقروءٌ فيه إلى اليوم، وسورها كأنما قد فرغ من عمله بالأمس.

وداخل مدينة قَفْصَة عينان نَضَّاختان تنبعان بنهرين خَرَّارين يسقيان بساتينها ومزروعاتها، وفى داخل جامعها عينٌ كبيرةٌ مبنيَّةٌ بالصَّخر من بُنْيان الأوَّل، أربعون باعًا فى مثلها.

وقَفْصَةُ أكثر بلاد القيروان فُسْتُقًا، ومنها ينتشر بإفريقية ويُحْمَل إلى مصر والأندلس وسِجِلْماسة. وبها تَمْرٌ مثل بيض الحمام، وهى تمير القيروان بأنواع الفواكه والتمر، وحولها أكثر من مائتى قصر، عامرة آهلة، تَطَّرِد فيها وحواليها المياه، تُعرَفُ بقصور قَفْصة. وجبايةُ قَفْصَة خمسون ألف دينار.

ومن قصور قَفْصة: مدينة طراق، وهى فى منتصف الطريق من قَفْصَة إلى فَجِّ الحِمار، وأنت تريد القيروان.

ومدينة طراق كبيرة آهِلَةٌ، بها جامعٌ وسوقٌ حافِلَةٌ، وإليها يُنْسَبُ الكساء الطراقِى، وهو من جهاز مصر، وهى كثيرة الفستق.

وتسيرُ من القيروان إلى مدينة نَفْزاوة[1] فى ستَّة أيام نحو الغرب، ولمدينة نَفْزَاوة عينٌ تُسَمَّى بالبربرية: تَاورْغَى، وهى عينٌ كبيرةٌ لا يُدْرِكُ لها قَعْرٌ.

ولمدينة نَفْزاوة سور صخر وطوب، ولها ستَّةُ أبواب، وبها جامع وأسواق حَافِلَةٌ، وهى على نهرٍ كثير النخل والثمار، وحواليها عيونٌ كثيرةٌ، وبقبليِّها مدينةٌ أَوَلِيَّةٌ تُعْرَفُ بالمدينة، عليها سورٌ، وبها جامِعٌ وحمام وسوق، وحولها عيون وبساتين.

وبين مدينة نَفْزَاوة وقابس ثلاث مراحل، وبينها وبين قفصة مرحلتان، وهى على ثلاث مراحل من قيطون بياضة، ومن قَيْطُون بَيَاضة إلى مدينة نفطَة مرحلة، إلى مدينة تُوزَر مرحلة، إلى مدينة نَفْزَاوة مرحلة.

ومن نَفْزَاوة تسيرُ إلى بلاد قسطيلية، وبينهما أرضٌ سوَّاخَةٌ لا يُهْتَدى الطريق

(١) تتكون نفزاوة من ثلاثة قصور، كثيرة السكان، لكنها مُسَوَّرَةٌ بأسوارٍ كئيبة، والأرضُ تَصلُح للتُّمور، ولا تُنْبِتُ أيَّ نوعٍ من الحبوب، والسكان فقراء؛ لأن مَلِكَ تونس يُثْقِلُ كواهلهم بالإتاوات، وهم على مسافة نحو ٥٠ ميلاً من البحر المتوسط. وصف إفريقيا ٢/ ١٤٥.

فيها إلا بخُشُبٍ منصوبة. وأَدلاَّءُ تلك الطريق: بنو موليت؛ لأنَّ هناك ظواعينَهم، فإنَّ ضَلَّ أحدٌ يمينًا أو شمالاً غرق في أرض دبياس، تُشبَّه في الرطوبة بالصابون. وقد هلكت فيها العساكر والجماعات ممَّن دخلَها ولم يَدْرِ أَمْرَها. وتُسَمَّى هذه الأرضُ بالسَّوَّاخَة.

وتصلُ هذه الأرضُ السَّوَّاخَةُ إلى مدينة غواسين، وقيل إلى مدينة غَدَامس[١].

* * *

ذكر بلاد قسطيلية

فأمَّا بلادُ قَسْطيلية، فإنَّ من مُدنها تُوْزر[٢] والحمّة ونفطة.

وتُوْزر: هي أُمُّها، وهي مدينةٌ كبيرةٌ عليها سورٌ مَبْنِيٌّ بالحجر والطُّوب، ولها جامع مُحْكَم البناء، وأسواقٌ كثيرة. وحولها أرباضٌ وَاسعَةٌ، وهي مَدينَةٌ حَصينَةٌ، لها أربعةُ أبوابٍ، كثيرة النَّخْلِ والبساتين والثمار، إلاَّ أَنَّ قَصَبَ السُّكَّر واللوز لا يصلحان بها. وحولها سَوَادٌ عظيمٌ من النَّخْلِ، وهي أكْثَرُ بلاد إفريقية تمرًا، ويخرجُ منها في أكثر الأيام ألف بعير موقورة تمرًا وأَزْيَد. شُرْبُها من ثلاثة أنهارٍ، تخرجُ من رمالٍ كالدرمك رِقَّةً وبياضًا، يُسَمَّى ذلك الموضع بلسانهم: سرش. وإنما تنقسمُ هذه الثلاثة الأنهار بعد اجتماع مياه تلك الرِّمال بموضعٍ يُسَمَّى: وادي الجمال، يكون قعرُ النهر هناك نحو مائتي ذراع، ثم يَنْقَسِمُ كُلُّ نَهرٍ من هذه الأنهار الثلاثة على ستَّة جداول، وتتشعَّب من تلك الجداول سواقي لا تُحصى كثرة، تجري في قنواتٍ

---

(١) غَدَامس: مدينة بالمغرب ثم في جنوبيّه، ضاربة في بلاد السودان بعد بلاد زافُون، تُدْبغُ فها الجلود الغدامسية، وهي من أجود الدِّباغ، لا شيء فوقها في الجودة كأنها ثياب الخزّ في النعومة والإشراق، وفي وسطها عَيْنٌ أزلية، وعليها أثر بُنيان عجيب روميّ، وأهلها بَرْبَر يُقال لهم: تناوريَّه. معجم البلدان (غدامس) ٣/ ٣٧٧.

(٢) تُوزَر: قاعدة البلاد الجريدية، وليس في بلادِ الجريد غابةٌ أكبر منها ولا أكثر مياهًا. وأَصْلُ مياهها من عيون تنبعُ من الرَّمل وتجتمع خارجَ البلد في وادٍ مُتَّسع، تتشعَّب منه جداول منها مذانب يقسِّمونها بينهم على أملاكٍ لهم مُقَرَّرة، ومقاسم من المياه معروفة. الحُلَل السُّنْدسية ١/ ٣٧٦ ونزهة الأنظار ١/ ١٠٥.

مبنية بالحجر على قسمة عدل لا يزيدُ بعضُها على بعض شيئًا، كُلُّ ساقية سعة شبرين فى ارتفاع فِتر، يلزم كُلُّ من يسقى منها أربعة أقداس مثقال فى العام، وبحساب ذلك فى الأكثر والأقَلِّ، وهو أنْ يَعْمَدَ الذى يكون له دولة السَّقْيِ إلى قدسٍ فى أَسْفَلِه ثقبَة بمقدار ما يسدُّها وَتَرُ النَّدَّاف، فيملؤها بالماء ويعلقه ويَسْقِي حائطه أو بُسْتَانَه من تلك الجداول حتى ينفدَ ماءُ القدس، ثم يملؤها ثانيةً، وهم قد علموا أنَّ سَقىَ اليوم الكامل هو مائةٌ واثنان وتسعون قدسًا.

ولا يُعْلَم فى بلدٍ مثلُ أُتْرُجِّها[١] جلالة وحلاوةً، وبها التُّرُنْجِين والمخيطا والأبلج.

وجباية قسطيلية مائتا ألف دينار، وأهلها يستطيبون لحم الكلاب[٢] ويُسَمِّنونها فى بساتينهم ويطعمونها التمر، ويأكلونها وأخبرنى مَنْ ضَافَ منهم رَجُلاً فأطعمه لحمًا استطابه واستحسنه فسأله عنه، فقال له: لحم جَرْوٍ مُسَمَّن.

ولا يُعْرَف وراء قسطيلية عمران ولا حيوان، إلاَّ الفَنَك.

إنَّما هى رِمالٌ وأَرَضُون سَوَّاخَة، وهم يخبرون أن قومًا منهم أرادوا معرفة ما وراء بلادهم، فاستعدُّوا الأزواد وذهبوا فى تلك الرِّمال أيامًا، فلم يَروا أَثَر العمران، وهلك أكثرهم فى تلك الرِّمال.

* * *

الطريق من مدينة القيروان إلى قلعة أبى طويل

وهى قَلْعَةٌ كبيرة ذاتُ مَنَعَة وحصانة، فلمَّا كان خراب القيروان انتقل إليها أكثر أهل إفريقية، وهى اليوم مَقْصدُ التّجار، وبها تحلُّ الرجالُ من العراق والحجاز ومصر والشَّام وسائر بلاد المغرب، وهى اليوم مُسْتَقَرُّ مملكة صَنْهَاجة، وبهذه القلعة كان احتضن أبو يزيد مخلَّد بن كَيْدَاد[٣] بن إسماعيل على ما نذكره فى موضعه من

(١) نزهة النظار ١/ ١٠٥.

(٢) الحُلَل السندسية ١/ ١٧٨ ورحلة التجانى ١٥٩.

(٣) هو أبو يزيد الخارجى، ويقال: وَيْلٌ لأهل السَّواد من مخلّد بن كيداد الحُلَل السندسية ١/ ٤٤٢.

هذا الكتاب ـ إن شاء الله .

تخرجُ من القيروان إلى وادى الرمال أربعون ميلاً، وهى قريةٌ زيتونها كثير، ورمالها حمر، ومنها إلى سبيبة: وهى مدينة أَوَّلِيَّة ذات أنهار وثمار، ومنها إلى قلعة الدِّيك، ومنها إلى السِّكَّة: قلعةٌ جليلة، وبها مجمع سوق، ومنها إلى مدينة مجانة المطاحن: وهى مدينةٌ قديمةٌ، وبها مقطع حجارة الأرحاء، وليس على الأرض مثلُه، ومنها إلى نهر قلاَّق: نهرٌ عظيم عليه آثارٌ قديمةٌ، وفى الشرق منه مدينة: تِبَسَّة[1]: وهى مدينة أوَّليةٌ، فيها آثارٌ للأوَّل كثيرة، وهى كثيرة الثمار والأشجار، ومنها إلى قرية: مِسْكِيَانَة[2]: وهى على نهر.

وهذه المواضع كُلُّها مُحَلاَّةٌ باسم من يأتى بَعْدُ ـ إن شاء الله ـ ومنها إلى مدينة بَاغَاية[3]: وهى مدينةٌ جليلةٌ أوليَّة ذات أنهارٍ وثمارٍ ومزارع ومسارح، على مَقْرُبَةٍ منها جبل: أَوْرَاس: وهو المُتَّصلُ بالسُّوس، وبهذا الجبل أقام أبو زيد مخلّد بن كيداد الزناتى.

ومن باغاية إلى مدينة قاساس: وهى مدينةٌ قديمةٌ على نهرٍ، وفى غربيِّها جبلٌ شامخ، ومنها إلى قبر مادغوس: وهو قبرٌ مثل الجبل الضَّخم، بُنِى بآجُرّ رقيق، قد خرق وبنى طيقانًا صغارًا، وعقد بالرَّصاص، وصُوِّرت فيه صور الحيوان من الأَنَاسِيِّ وغيرهم.

وهو مُدَرَّج النواحى، وفى أعلاه شجرة نابِتَةٌ، وقد أجمعَ على هَدْمِه من سَلَف، فلم يقدروا على ذلك.

وفى الشرق من هذا القبر بحيرة مادغوس، وهى مجمع لكل طائر وتسير من هناك إلى بلزمة لمزاتة: حصْنٌ أَوَّلِيٌّ، وهو فى بساط من الأرض، كثير المزارع والقرى، وفى قُرَاهُ حُصُونٌ كثيرة. وتسيرُ منها إلى مدينة نُقَاوَس[4]، وهى مدينة

---

(١) تِبَسَّة: مدينة عتيقةٌ حصينةٌ بناها الرومان فى تخوم نوميديا على بعد مائتى ميل جنوب البحر المتوسط، تحيط بها أسوار عالية متينةٌ سميكة، مُشَيَّدةٌ بحجرٍ ضخمٍ منحوت شبيه بحجر الكوليزى فى روما. وصف إفريقيا ٢/ ٦٣.

(٢) انظر عنها: العبر ٦/ ١٠٩ والروض المعطار ٢٥٨ وتاريخ إفريقيا والمغرب ٢٤.

(٣) انظر عنها: تاريخ إفريقيا والمغرب ١٠ والروض المعطار ٧٦ـ٧٧.

(٤) نكَاوَس: مدينة تُتَاخم نوميديا، بناها الرومان على بُعْدِ نحو ١٨٠ ميلاً من البحر المتوسط، =

كثيرةُ الأنهار والثِّمار والمزارع وبشرقيها مدينة اللُّوز.

وتسيرُ نْقَاوَس إلى مدينة طُبْنَة[١]: وهى مدينةٌ كبيرة، سورها اليوم من بناء المنصور أبى الدَّوانيق، وهى مِمَّا افتتح موسى بن نُصَيْر فبلغ سَبْيُها عشرين ألفًا، وهرب ملكهم: كَسِيلة.

وسورها مَبْنِىٌّ بالطوب، وبها قَصْرٌ وأرباضٌ، وداخل القصر جامعٌ وصهريج كبير يقع فيه نهرها، ومنه تُسْقَى بساتِينُها.

ويقالُ: إنَّ الذى بناها أبو جعفر عمر بن حفص المهلَّبى المعروف بهزارمرد، يسكنها العربُ والعجمُ، بينهما الاختلاف والحربُ، ويسكن حولها: بنو زقراح.

وقال محمد بن يوسف: إنَّ قصر طُبْنَة قديمٌ أَوّلىٌّ كبير جليلٌ، مبنىٌّ بالصخر الضخم، عليه آزاج كثيرة، ينزله العُمَّال، وهو مُلاَصِقٌ لسور المدينة من جهة القبلة، عليه باب حديد هو شرقىٌّ.

ولمدينة طُبْنَة من الأبواب: بابُ خاقان، مَبْنِىٌّ بالحجر، عليه باب حديد، وهو سرِّىٌّ. وبابُ الفتح: غربّى باب حديد أيضًا، وبينهما سماط يشقُّ المدينة من الباب إلى الباب.

وباب تهوذا: قبلىّ، عليه باب حديد، وهو سِرِّىٌّ أيضًا، والباب الجديد: حديدٌ أيضًا، وباب كُتَامة: جوفى.

وخارج المدينة بإزاء باب الفتح سورٌ مضروبٌ على فحص فسيح يكون مقدار ثلُثى مدينة طُبْنَة: بناه عُمر بن حفص هزارمرد.

ويَشُقُ سِكَك المدينة جداول الماء العذب، وبها أسواق كثيرة غير السّماط المذكور، ولها بساتين يسيرة مُلاَصِقَةٌ للرَّبَض، ومقبرتُها بشرقيها، وبقرب المقبرة

= وثمانين ميلاً من مسِيلة، تحيطُ بها أسوار مدينة عتيقة، ويجرى قربها نهر ينبت على ضفافه شجر التين والجوز.

(١) طُبْنَة: أعظم بلاد الزَّاب، بينها وبين المسيلة مرحلتان، وهى حَسَنَةٌ كثيرة المياه والبساتين والزروع والقطن والحنطة والشعير، وعليها سور تراب، وبها أخلاطٌ من الناس،وبها صنائع وتجارات ولأهلها تَصَرُّف فى ضروب من التجارات والتمر، وسائر الفواكه بها كثيرة. الروض المعطار ٣٨٧ ومراصد الاطلاع ٢/ ٧٧٩ ونزهة الأنظار ١/ ٩٥.

غديرٌ يُعْرَفُ بغدير فرغان، وهو بجوفيّ مُصَلَّى العيد.

وليس من القيروان إلى مدينة سِجِلْمَاسة مدينة أكبرُ منها، واسم نهرها: بيطام، وإذا حملَ سقَى جميعَ بسائِطها وفحوصها، ويقول أهلها: «بِيطام: بيت الطعام». لجودة زرعها.

وإذا كانت الحربُ بين العرب والمُوَلَّدين، استمدَّ العربُ بعرب مدينة تهوذا وسطيف، واستمدَّ المُوَلَّدون بأهل بِسْكِرَةَ وما والاها، وقال أحمد بن محمد المروذى فى قصة إسماعيل بن أبى القاسم:

سِرنَا وقـد حَلَّ بِقُرْبِ طُبْنَه
وصارَ منها أَهْلُها فى مِحْنَه
فأعظـمَ الله العزيزُ المنّـه
وبدَّلوا من بعــدنا نار جَنّة

وفج زَيْدَان[1] يُطِلُّ على مدينة طُبْنَة، وإياه عنى أبو عبد الله الشيعى فى قوله: [من الكامل].

مَنْ كان مُغْتَبطًا بلين حشيَّةٍ ... فَحَشِيَّتى وأَرِيكتى سَرْجِى
مَنْ كـــان يُعْجِبُه ويُبْهِجُـهُ ... نَقْرُ الدُّفُـوفِ ورَنَّةُ الصَّنْجِ
فأنـا الذى لا شىء يُعْجِبُنى ... إلاَّ اقتحـامى لجَّـة الوَهْـجِ
سَلْ عن جيوشى إذا طَلَعتُ بها ... يومَ الخميس ضُحىً من الفَـجِّ[2]

ومن طُبْنَةَ إلى مدينة مقرَّة: وهو بَلَدٌ كبير ذو ثمار وأنهار ومزارع، ومنها إلى قلعة أبى طويل.

ومن بَاغَايَة إلى بلد بِسْكِرَةَ[3]: أربعة أيام، وبِسْكِرَةَ: كورةٌ فيها مَدُنٌ كثيرة،

---

(١) مراصد الاطلاع ٣/١٠١٨.

(٢) الأبيات لعبد الله الشيعى فى مراصد الاطلاع ٣/١٠١٨ ومعجم البلدان (فج زيدان) ولعبد الله السبيعى فى مجمع أشعار معجم البلدان ١/١٧٣ وأظنه تصحيف.

(٣) بِسْكرة: مدينة عريقة فى القِدَم، أُسِّسَت أيام كان الرومان يحكمون بلاد البربر، وخُرِّبت بعد ذلك، ثم أُعِيد بناؤها لما دخلت الجيوش الإسلامية إلى إفريقيا، وهى الآن عامرة كما ينبغى =

وقاعدتها بسْكْرَة، وهى مدينةٌ كبيرة كثيرة النخل والزَّيتون وأصناف الثمار، وهى مدينة مُسَوَّرَةٌ عليها خندقٌ. وبها جامع ومساجد كثيرة وحمَّامات، وحواليها بساتين كثيرة، وهى فى غابةٍ كبيرة مقدار ستَّة أميال، فيها أجناسُ التُّمورِ، منها جنسٌ يعرفونه بالكسبا، وهو: الصيحانى، يضربُ به المثل لفضله على غيره، وجنسٌ يعرف بالليارى: أبيض أملس، كان عُبَيد الله الشيعىّ يأمر عُمَّاله بالمنع من بيعه، والتحظير عليه وبَعْثِ ما هنالك منه إليه، وأجناسٌ كثيرة يطولُ ذِكْرُهَا، لا يعدل بها غيرها.

وحول بِسْكْرَة أرباضٌ خارجة عن الخندق المذكور.

وبِبِسْكْرَة عِلْمٌ كثير، وأهلها على مذهب أهل المدينة[1]، ولها من الأبواب: باب المقبرة، وباب الحمَّام، وبابٌ ثالث.

سُكَّانُها المُولَّدون، وحولها من قبائل البربر: سدراته وبنو مغراوة: أهل بيت بنى خرز، وبنو يزمرتى.

وداخل مدينة بِسْكْرَة آبارٌ كثيرة عذبة، منها فى الجامع بئر لا تنزف[2] وداخل المدينة جنان يدخل إليها الماء من النهر، وبها جَبَلُ ملح، يقطع منه الملح كالصخر الجليل، ومنه كان عُبَيْد الله الشيعىّ وبنوه يستعملونه فى أطعمتهم. وتعرف بِبِسْكْرة النخيل.

قال أحمد بن محمد المروذى:

ثم أتى بِسْكْرَةَ النخيلِ
قد اغتدى فى زِيّه الجميل[3]

ومن مدنها: مدينة جمونة، ومدينة طولقة، ومدينة مْلِيلَى، ومدينة بنطيوس:

= تكثر فيها العقارب التى تقتل بلسعها حالاً، ولذلك يفارقها السكان فى الصيف لإقامة فى ممتلكاتهم خارجها إلى شهر نوفمبر. وصف إفريقيا ٢/ ١٣٩ وانظر: معجم البلدان (بِسْكِرة) ٢/ ١٨٢.

(١) أى مذهب الإمام مالك ـ رضى الله عنه.

(٢) لا تنزف: لا تجف وتمنع.

(٣) البيتان لأحمد بن محمد المروذى فى مراصد الاطلاع ١/ ٩٧.

وهى من بنيان الأوَّل.

وشُرْبُ بِسْكِرَةَ من نهر كبير يجرى فى جوفِيّها، منحدرٌ من جبل أوراس، وقرية من قرى بِسْكِرَةَ تُسَمَّى: مَلَشون منها: أبو عبد الله المَلَشُونى، وابنه اسحاق: عالمان، يُحْمَل عنهما العلم، سمع منهما أبو عبد الله بن ميمون ومقاتل وغيرهما.

أخبرنى أحمد بن عمر بن أنس قال: أخبرنى قاسم بن عبد العزيز أنَّ فى الطريق إلى بِسْكِرَةَ جبلاً يُعرف بزِيغيزى فى وسطة كهفٌ فيه رجلٌ قتيلٌ لم يُغَيره مَرُّ الزمان وتقادُم الدهور، تَبُضُّ جِراحُه دماء كأنما قُتِل منذ يومين، وتُخْبِر الكافَّةُ عن الكافة أنهم لا يعلمون متى قتل قدمًا، وقد نقله أهل تلك النواحى ودفنوه فى أفنيتهم تَبَرُّكًا به. ثم لم ينشبوا[1] أن وجدوه فى الكهف على حاله، يحدّث بذلك ثقات أهل تلك الناحية، والله فَعَّالٌ لما يشاء.

وقال محمد بن يوسف فى كتابه: إنَّ هذا القتيل فى شقّ جبلٍ بشرقى عين أربان، وهذه العينُ بين مدينة قرطاجنة ومدينة سبيبة المذكورة أيضًا. وذكر أنه يظهر كما ذبح من يومه، وأنّه هناك من قبل فتوح إفريقية، ولم يذكر أمْرَ دفنه، والله أعلم بأمره.

* * *

وطريق آخر من القيروان إلى قلعة أبى طويل

من القيروان فى قرى وعمارات إلى مدينة أبّة ثلاثة أيام: وهى مدينةٌ أَوَّلية يكون بها الزعفران الجيّد، وعلى ستة أميال منها مدينة لربْس المذكورة قبل هذا.

ومن مدينة أَبّة إلى نهر ملاق: وهو نهرٌ عظيم يسقى نواحى فحص بُل، ومن نهر مُلاَّق إلى مدينة تامديت: وهى مدينة فى مضيق بين جبلين فى سند وعر، ولها مزارع واسعة، وحنطتها موصوفة. ومنها إلى مدينة تيفاش: وهى مدينة أَوَّلِيَّة شامخة البناء، وتسمى تِيفَاش[2] الظالمة، وفيها عيون ومزارع كثيرة، وهى فى صفح

---

(١) أى لم يلبثوا أن وجدوه.

(٢) تِيفَش: مدينة بناها الأفارقة فى العصر القديم على بعد نحو خمسين ميلاً جنوبى عنابة، =

جبلٍ، وفيها آثار للأوّل كثيرة، ومنها إلى قصر الإفريقى: وهى مدينة جامعة على شَرَفٍ من الأرض، ذات مسارح ومزارع كثيرة، ومنها إلى وادٍ يُعْرَف بوادى الدَّنانير: وهو وادٍ خصيبٌ.

ومنها إلى مدينة تِيجَس: وهى مدينةٌ أَوَّلِيَّة شامخة البناء كثيرة الكلأ والرَّبيع.

ومنها إلى مدينة توبوت على بلاد كتامة، ويُسَمَّى هذا الطريق بالجناح الأخضر، ومنها إلى مدينة تَابَسْلكى: وهى صغيرة فى سفح جبلٍ يُسَمَّى أنف النسر.

ومنها إلى النهرين: وهى قرى كثيرة فى فحص عريض وبساط من الأرض مديد، ومنها إلى مدينة تامسلْت: وهى مدينة جليلةٌ للزَّرع والضَّرْع.

ومنها إلى مدينة دكّمه: وهى على نهر كبير ذات مزارع ومسارح.

ومنها إلى مدينة الغدير: تخرج منه عيون نهر سهر، وهو نهر المسيلة وهو المعروف بالوادى الرئيسى ـ على ما نذكره بعدُ ـ إن شاء الله.

ومنها إلى قلعة أبى طويل.

* * *

الطريق من القيروان إلى مدينة بُونة

تخرجُ من القيروان إلى جَلُولاء[١] ـ كما تقدَّم ـ ومنها إلى أَجَر[٢]: ولها حِصْنٌ، وبها قنطرةٌ، وهو موضِعٌ وَعْرٌ كثير الحجارة، مُتكابِد المسالك مأْسَدَة[٣] لا يكاد

= وكانت فى الزمان الغابر مُتَحَضِّرةً كثيرة السكان، مُزْدَانةً ببناءات جميلة، لكنها دُمِّرت عند مجىء الأعراب إلى إفريقيا، ثم عُمِّرت من جديد، ثم استولى عليها أعراب آخرون. وصف إفريقيا ٢/ ٦٣.

(١) جَلُولاء المقصودة هنا: مدينة مشهورة بإفريقيا، بينها وبين القيروان أربعة وعشرون ميلاً، وبها آثار وأبراج من أبنية الأول، وهى مدينة أَزَلِيَّةٌ مبنيَّة بالصخر، وبها عَيْنٌ ثَرَّةٌ وسطها، وهى كثيرة الأنهار والثمار، وأكثر رياحينها الياسمين، وبطيب عسلها يضرب المثل لكثرة ياسمينها، فتحت على يدى عبد الملك بن مروان. معجم البلدان (جَلُولاء) ٢/ ٧١.

(٢) أَجَر: بالتحريك قرية لها حِصْنٌ وقنطرة، وهى موضع وعْرٌ، كثير الحجارة صعب المسلك، لا يكاد يخلو من الأسد. معجم البلدان (أجر) ١/ ٩٠.

(٣) أى كثير الأسد فيه.

يخلو من أسدٍ، دائم الرِّيح العاصفة، ولذلك يقولون: إذا جئت أجر فَعَجِّل، فإنَّ فيه أسداً يَفْرِى، وحجراً يبرى وريحًا تذرى.

وحولها قبائل من العرب والبربر: ضريسة ومرنية.

ومنها إلى الفهمين، وهى قرية كبيرة، وبها سوق جامعة. ومنها إلى جزيرة أبى حمامة، ومنها إلى الأنصاريين، وقد تقدَّم ذكرها.

وبقرب هذا الموضع فَحْص[١] بل: وهو من أطيب أرض إفريقية مزدرعًا ومن جزيرة أبى حمامة خمس مراحل إلى مدينة بُونَةَ: فى قرى وعمارة أَوَّل المراحل من مدينة بونة إلى القيروان، زانه خصوص، وقرارات للبربر، بها عيون ماء فى شَعْرَاء عظيمة، شجرها كُلُّه زان، ومنه يُجْلَب إلى إفريقيا.

* * *

(ذكر مدينة بُونَة)[٢]

ومدينة بُونَة: مدينة أَوَّلية، وهى مدينة أقشتين العالم بدين النَّصْرَانية، وهى على ساحل البحر من نَشَزٍ من الأرض منيع مُطلّ على مدينة سبوسى، وتُسَمَّى اليوم مدينة زاوى، وبينها وبين المدينة الحديثة نحو ثلاثة أميال، ولها مساجد وأسواق وحمَّام، وهى ذاتُ ثمر وزرع، وقد سُوِّرت بُونة الحديثة بعد الخمسين وأربعمائة.

وفى بوُنَة الحديثة بئرٌ على ضفّة البحر، منقورةٌ فى حجرٍ صَلْدٍ تُسَمَّى بئرَ النَّثْرة، منها يشربُ أكثر أهلها.

---

(١) قال ياقوت: الفَحْصُ بفتح أوَّله وإسكان ثانيه وآخرهُ صاد مهملة، بالمغرب من أرض الأندلس، مواضع عدَّة تُسَمَّى الفحص.
وسألت بعض أهل الأندلس ما تعنون به؟ قال: كل موضع يُسْكن سهلاً كان أو جبلاً، بشرط أن يزرع، نسميه فحصًا، ثم صار علمًا لعدة مواضع. معجم البلدان (فحص) ٣ / ٤١٥.

(٢) بُونَة: مدينة بإفريقيا بين مرسى الخزر وجزيرة بنى مزَغَنَّاى وهى مدينةٌ حصينةٌ مُقتدرةٌ كثيرة الرُّخص والفواكه والبساتين القرنية، وبها معدن الحديد، وهى على البحر، ويُطِلُّ على بُونة جبل زَغُوغ. مراصد الاطلاع ١ / ٢٣٢ ومعجم البلدان (بُونة) ١ / ٤٠٢ ونزهة الأنظار ١ / ١٢٤.

وبغربِيِّ هذه المدينة ماءٌ سايخٌ يَسْقى بساتينها، وهو مُسْتَنْزَهٌ حَسَنٌ. ويطلَ على بُونَةَ جبل زَغُوغ[١]، وهو كثير الثلج والبرد، ومن العجائب: أَنَّ فيه مسجدًا لا ينزل عليه شيءٌ من ذلك الثلج، وإنْ عَمَّ الجبلَ كُلَّهُ.

ومدينة بُونَه: قرية بحريّة، كثيرة اللَّحم واللبن والحوت والعسل وأكثر لُحْمَانِهم البقُر، إلاَّ أنه يصحُّ به السُّودان ويسقم البِيضَان.

وحول بُونَة قبائل كثيرة من البربر: مَصْمُودة وأوربة وغيرهما.

وأكثر تجارها أندلسيون. ومُسْتَخْلَص بُونَةَ غير جباية بيت المال: عشرون ألف دينار.

وبشرقيّ مدينة بُونَة، مدينة مَرْسَى الخَرَز[٢]: فيه المرجان، وهى مدينةٌ قد أحاط بها البحر إلاَّ مَسْلكًا لطيفًا، ربُّما قطعه البحر فى الشتاء، عليها سورٌ وبها سوقٌ عامرةٌ، وقد صُنِعَ بها مرفأٌ للسفن منذ مُدَّة قريبة.

وفى هذه المدينة تُنْشأ السفن والمراكب الحربية التى يغزى بها إلى بلاد الرُّوم، وإلى هذه المدينة يقصد الغُزَاة من كُلِّ أفقٍ؛ لأنَّ مقطعها يقرب من جزيرة سردانية، بينهما نحو مَجْرَاين وبإزاء مدينة مرسى الخرز، بئر وَبئة الماء تُعَرف ببئر أَزْرَاق، يقولُ أهلُها: طعنةٌ بمزراق، خيرٌ من شربة من بئر أزراق.

وهذه المدينة كثيرة الحيَّات، فاسدة الهواء، يمتاز أَهلُها من غيرهم بِصَفْرَةِ ألوانهم، ولا يكادُ يخلو عُنُق أحدٍ منهم من تميمةٍ.

وجباية هذه المدينة عشرة آلاف دينار.

* * *

(١) معجم البلدان (بونة) ١/ ٤٠٢.

(٢) نزهة الأنظار ١/ ١٢٤.

الطريق من القيروان إلى طبرقة

من مدينة القيروان إلى مُنَسْتِير عثمان[١] ستّ مراحل، : وهي قريةٌ كبيرة بها جامع وفنادق كثيرة وأسواق وحمّامات، وبئر لا تنزف، وقَصْرٌ للأوّل مَبْنِيٌّ بالصخر كبير.

وأرباب المُنَسْتِير قومٌ من قريش من ولد الربيع بن سليمان وهو اخْتطّها عند دخوله إفريقية، وبها عربٌ وبربر وأفارقة ومنها إلى مدينة بَاجَة ثلاث مراحل فى قرى غير متصلة.

«ومدينة بَاجَة[٢]: كبيرة، كثيرة الأنهار، وهى على جبلٍ يُسَمَّى عين الشمس فى هيئة الطَّيْلَسَان، يَطَّرِد حواليها المياه، وفيها عيون الماء العذب، ومن تلك العيون عين تُعْرَف بعين الشمس هى تحت سور المدينة، والباب هناك منسوب إليها، ولها أبوابٌ غير هذا.

وفى داخل الحصن[٣] عين أخرى عَذْبَةٌ غزيرة الماء، وحصنها أَوَّلى مَبْنِيٌّ بالصخر الجليل أتقن بناء، ويقال إنه من عهد عيسى - عليه السلام. ولها رَبَضٌ كبيرٌ فى شرقِيّ الحصن، وسور الحصن ممّا يلى الرَّبَض مهدوم، وبها جامع متقن البناء قبلته سور المدينة، وفيها خمسة حَمَّامات، ماؤها من العيون وفنادق كثيرة.

وبها ثلاث رحاب لبيع الأطعمة، وعيون خارجها لا تحصى كثرة وهى دائمةُ الدَّجن والغَيْم، كثيرة الأمطار والأنداء، قلمّا يصحى[٤] هواؤها، وبها يضرب المثل فى كثرة المطر.

ولها نَهْرٌ من جهة الشرق، جارٍ من الجوف إلى القبلة، على ثلاثة أميال منها،

---

(١) النص نقله ياقوت عن البكرى فى معجم البلدان (مُنَستير) ٤/ ٣٢٩.

(٢) باجة: من مشترك البلدان، وهى خمس مدن، والمادة بتمامها نقلها ياقوت عن البكرى فى معجمه البلدان (باجة) ١/ ٢٥١.

(٣) فى معجم البلدان (البلد).

(٤) فى معجم البلدان (نصَح).

وحولها بساتين عظيمة تطَّرد فيها المياه، وأرضها سوداء مُتَشَقِّقة يجود بها جميع أنواع البذور، وبها حمصٌ وفولٌ قلما يُرَى مِثْلُهُ، وتُسَمَّى: هُرَى إفريقية؛ لِرَيْعِ زرعها وكثرة رفاعِهَا، وإنها خصيبة ليِّنة الأسعار أمحلت البلاد أو أخصبت. وإذا كانت أسعار القيروان نادرةٌ، لم يكن للحنطة بها قيمةٌ، ربما اشْتُرِى وَقْرُ البعير من الحنطة بدرهمين.

ويَرِدُها كُل يوم من الدوابّ والإبل العدد العظيم الآلاف[1]، والأكثر لانتقال[2] المِيَرة فلا يؤثِّر ذلك فى سعرها لكثرة طعامهم»[3].

ثم تسير منها مرحلة إلى باسلى: وهى قرارات للبربر ببلد ورداحة على عيون عذبة.

ومن قرى باجة: المغيرية، قريةٌ شريفةٌ فيها آثار عظيمة عجيبة للأوَّل من كنائس قائمة البنيان، محكمة العمل كأنَّما رُفِعت عنها الأيدى بالأمس، وكلها مفروشة بالرُّخام النفيس، يقف عليها من الغربان عدَدٌ لا يُحْصَى كثرةً، حتى يُظنَّ المرءُ أَنَّ غِرْبان الأرض قد تجمَّعت هناك، ويزعمون أَنَّ بها طلسمًا.

وامتحن أهل مدينة باجة أيام أبى يزيد بالقتل والسَّبْى والحرق قال الراجز فى هجوه لأبى يزيد[4]: [من الرجز]

وبعدها باجـة أيضًا أفسـدا
وأهلها أَجْلَى ومنهـا شَرَّدا
وهدَّم الأسواق والقصورا
والدُّورَ قد فَتَّشَ والقُبُـورا[5]

ولم يزل النَّاسُ يتنافسون فى ولاية باجة، وكان المتداولون فيها لذلك بنى[6]

(١) فى معجم البلدان (باجة) ١/ ٢٥١ «الآلاف».
(٢) فى معجم البلدان (باجة) ١/ ٢٥١ «تنقل».
(٣) إلى هنا النقل عن البكرى فى معجم البلدان فى هذه المادة.
(٤) هو أبو يزيد مخلد بن يزيد الشيبانى، وقد سبقت ترجمته.
(٥) الأشطر بلا نسبة فى معجم البلدان (باجة) ١/ ٢٥١ ومراصد الاطلاع ١/ ١٤٨.
(٦) فى الأصل «بنو».

على بن حُمَيد الوزير، فإذا عُزِل منهم أحدٌ، لم يزل يسعى ويتلطَّف ويهُادى ويُتَاحِفُ حتى يرجعَ إليها.

فقيل لبعضهم: لِمَ ترغبون فى ولاية مدينة باجة؟

فقال: لأربعة أشياء: قمْحُ عِنْدَةَ، وسَفَرْجل زانة، وعنب بِلَطَة، وحوت دَرْنَة.

وبها حوتٌ بُورِىٌّ، ليس له فى الآفاق نظير، يخرج من حوت واحدٍ عشرة أرطال شحم وأكثر، إذا كان من جلّتها.

وكان يُحْمَل إلى عُبَيْد الله[١] حُوتُها فى العسل فيحفظه ويظل طريًا.

ودَرْنَة[٢]: بين طَبَرْقَة وباجة. ومنها إلى مدينة طَبَرْقة[٣]، وهى على شاطئ البحر، وفيها آثارٌ للأوَّل، وبنيانٌ عجيبٌ، وهى عامرةٌ، لورود التجّار إليها، وبها نَهْرٌ كبيرٌ تدخُلُهُ السُّفُن الكِبار وتخرج فى بحر طَبَرْقَة.

وروى أنَّ الكاهنة[٤] قتلت بطبرقة.

«وبشرقى مدينة طبرقة على مسيرة يوم وبعض آخر: قلاعٌ تُسَمَّى بقلاع بَنْزَرْت[٥]، وهى قلاعٌ يأوى إليها أهل تلك الناحية إذا خرج الرُّومُ غزاةً إلى بلادهم، فهى مفزعٌ لهم وغَوْثٌ، وهى رباطاتٌ للصالحين.

(وقال محمد بن يُوسف فى ذكر السَّاحِل من طَبَرْقَة إلى مرسى تونس، فقال: مَرْسى القُبَّة: عليه مدينة بَنْزَرْت: وهى مدينةٌ على البحر يَشُقُّها نهرٌ كبيرٌ كثير الحوت، ويقع فى البحر، وعليها سور صخر، وبها جامعٌ وأسواق وحمَّامات وبساتين، وهى أَرْخَص البلاد حوتًا، وافْتَتَحها مُعَاوية بن حُدَيْج[٦] سنة إحدى

---

(١) يعنى الملقَّب بالمهدى جد ملوك مصر معجم البلدان ١/ ٢٥١.

(٢) دَرْنَة: موضعٌ بالمغرب قرب أنطابلس من عمل باجة. مراصد الاطلاع ٢/ ٥٢٤.

(٣) طَبَرْقَة: مدينة صغيرة وَبِيَّةٌ، بها عقارب قاتلة، وبها فى البحر معدن المرجان، وليس يُعرف فى الأرض معدن المرجان إلاَّ بها. المسالك والممالك للأصطخرى ٣٤.

(٤) الحلل السندسية ١/ ٥١٦.

(٥) معجم البلدان (طبرقة) ٣/ ٢٤٧ و(بنزرت) ١/ ٣٩٣.

(٦) معاوية بن حُدَيْج بن جَفْنة بن قنبر، أبو نعيم الكندى ثم السكونى: الأمير الصحابِىّ، قائد الكتائب ـ كما نعتَه الذهبى ـ وَالِى مصر ـ كان ممن شهد صفّين فى جيش معاوية بن أبى سفيان، وَلاَّه معاوية إمْرَةَ جيش جَهَّزه إلى مصر، وكان الوالى عليها محمد بن أبى بكر =

وأربعين، وكان معه عبد الملك بن مروان، فشذَّ عن الجيش فَمَرَّ بامرأة من العجم من عمل بَنْزَرْت فَقَرَتْهُ وأكرمَتْ مثواه، فشكر ذلك لها، فلمَّا وُلِّى الخلافةَ كتب إلى عامله بإفريقية فى المرأة وأهل بيتها، فأحسن إليهم وظاهَر النِّعَم لديهم)[1].

وتوالى هذه المراسى مذكورة بعد هذا فى موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله.

وعلى ساحل هذه القلاع بحيرة تنسبُ أيضًا إلى بَنْزَرْت، يدخل إليها ماء البحر الكبير، فيوجد فيها فى شهرٍ ما من السنة صِنْفٌ من الحوت لا يشبه غيره، ولا يوجد هناك فى غير ذلك الشهر.

وفى هذه البحيرة أعجوبة، وهى أَنَّ الصيَّاد إذا أتاه البَحَّار لشراء الحُوت، يقول لهم: على أىِّ شىءٍ أُرْسِلُ شبَكتى؟ فيتفق معهم على عدَّة معلومة، فيأتى الصيَّاد بحوت يُقال: إنه أُنثى الصنف المعروف بالبُورِىّ، فيرسلُها فى البحيرة ثم يتبعها بشبكته فَيُخْرِجُ العدَّة التى اتفقوا عليها، لا يكاد يُخْطِئُ.

وعلى مَقْرُبَةٍ من هذه البحيرة بُحَيْرَتان: إحداهما حُلْوَةٌ، والأخرى ملْحَة، فيصُبُّ كل واحدة منهما فى الأخرى نصف العام على السَّوَاء، فلا يتغير لواحدة منهما طعم.

وبغربِىِّ مدينة بُونة بِرْكَةٌ بينها وبين بُونَة مسيرة يوم طولُها ثلاثة أميال فى مثلها، وفيها سَمَكٌ جليلٌ، وفيها الطائر المعروف بالكيكل، يُعَشِّش على ماء تلك البحيرة ويفرخ فيها، فإذا أَحَسَّ بحيوان فى البَرِّ دفع عشَّ فراخه قُدَّامَهُ إلى وسط البركة وهو الطائر الذى يُسَمَّى بمصر بالخواص، يُصْنَع من جلوده الفراء ويُباع بالأثمان الغالية.

= الصدّيق من قِبَل عَلِىّ بن أبى طالب فقتل محمدًا، وأخذ بيعة أهل مصر لمعاوية، ثم وَلِى إمرة مصر ليزيد ووَلِىَ غزو المغرب مرارًا، آخرها سنة ٥٠هـ، واستولى على صقليّة، وفتح بنزرت، وأُعِيد إلى مصر وعُزِل عنها سنة ٥١هـ، وتوفى بها سنة ٥٢هـ، وبقيت فيها ذرّيته إلى القرن الثامن الهجرى، له فى إفريقيا آثار منها: آبار فى القيروان تعرف بآبار حُدَيج، وهى خارج باب تونس منحرفة إلى الشرق، وكان أعور، ذهبت عينه يوم دهقلة ببلاد النوبة عاقلاً حازمًا واسع العلم مقدامًا، وهو ابن «كَبْشَة» بنت معدى كرب الشاعرة.

الأعلام ٧/ ٢٦٠-٢٦١ وانظر أيضًا: الإصابة - ترجمة ٨٠٦٤ والمُحَبَّر ٢٩٥ والبيان المغرب ١/ ١٧ وشذرات الذهب ١/ ٥٨ وتهذيب التهذيب ١٠/ ٢٠٣.

(١) معجم البلدان (بنزرت) ١/ ٣٩٢.

الطريق من قلعة أبى طويل إلى مدينة تنس

يخرجُ من القلعة إلى مدينة المسِيلَة(١)، وهى: مدينة جليلة على نهر يُسَمَّى بنهر سَهْر، أسسها أبو القاسم إسماعيل بن عُبَيْد الله سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة.

وكان المتولِّى لبنائها علىّ بن حمدون بن سمَّاك بن مسعود بن منصور الجذامىّ المعروف بابن الأندلسىّ(٢)، واستعمله عليها فلم يزل عليها إلى أن هَلَك فى فتنة أبى يزيد، وبقى ابنه جعفر فيها وصار أميرًا على الزاب كُلِّه إلى أَنْ خرَجَ عنها فى سنة ستين وثلاثمائة على ما نحن ذاكروه فى موضعه إن شاء الله تعالى.

وهى مدينةٌ فى بساط من الأرض، عليها سوران، بينهما جدول ماء جارٍ يستديرُ بالمدينة، وله منافذ يسقى منها عند الحاجة.

وللمدينة أسواقٌ وحمَّامات، وحولها بساتين كثيرة، ويجود عندهم القطن، وهى كثيرة اللَّحْم، رخيصة السِّعر، وبها عقارب مُهْلِكة لا يتخلّص من لسعتها.

وبقرب منها جبل عجيسة وهوَّارة وبنى برزال، ولهم كانت أرض المسيلة. وبقبلىّ مدينة المسيلة موضعٌ يعرف بالقباب، فيه قبابٌ من بُنْيَان الأوَّل، وعلى مَقْرُبَة منها مدينة للأوَّل خَرِبَةٌ يقال لها: بشليقة، فيها جدولان من ماء عذب جلبته الأَوَّل إليها يقال لها: تارقًا أنو ودى، تفسيره: ساقية السمن.

---

(١) مسِيلَة: مدينة عتيقة بناها الرومان فى تخوم نوميديا داخل الأراضى على بعد نحو ١٤٠ ميلاً من بجَاية، والأسوارُ المحيطةُ بها جميلة، بخلاف الدور فإنها قبيحة، والسُّكَّان كُلُّهم صُنَّاعٌ أو فلاَّحون. وصف إفريقيا ٢/ ٥٢ ومراصد الاطلاع ٣/ ١٢٧٣ والبلدان (مسيلة) ٤/ ٢٦٧.

(٢) علىّ بن حمدون بن سمَّاك بن مسعود بن منصور الجذلمى، ويقال له ابن الأندلسى: أوَّل من وَلِىَ إمرة «الزاب» بإفريقية فى عهد الفاطميين وكان على اتصالٍ بهم وهم فى المشرق، قبل ظهور دعوتهم، فلمّا تملكوا فى المغرب ولّوه على الزاب، فأقام فيها إلى أن كانت فتنة أبى يزيد مخلد بن كيداد فى أيام القائم بأمر الله الفاطمى، فأمره القائم بأن يجند قبائل البربر ويوافيه إلى «المهدية» فنهض بعسكر ضخم، وقارب باجة بإفريقية، فهاجمه أيوب بن أبى يزيد، فاقتتلا، فسقط ابن حمدون من بعض الشواهق فمات سنة ٣٣٤هـ الأعلام ٤/ ٢٨٢، وراجع المقدمة لابن خلدون ٤/ ٨٢.

وقال أحمد بن محمد المروذى يذكر نزول إسماعيل بالمسيلة، والشيعة تسمِّيها المحمَّدية: [من الرَّجز]

ثُمَّ إلى مدينة مَرْضيَّهْ
أُسِّتْ على التَّقْوى مُحَمَّدِيّهْ
أَقْبَلَ حتى حَلَّها ضَحِيَّهْ
بالنُّور من طَلْعَته المُضيَّهْ
فَحَلَّ فى عَسْكَرِ المسيلهْ
فى هَيْئَة كاملة جميلهْ
للنَّصْر فى أرجائه مخيلهْ
بنعمة من ذى العُلَى جليلهْ

ونهر سَهُر[1] الذى عليه مدينة المسيلة منبعثه من عيون داخل مدينة غدير وَارُّوا وهى مدينة كبيرة أوليّة بين جبال فيها عين ثرّة عذبة عليها الأرحاء وعين أخرى، وتحتهما عين خرّارة يقال لها عين مُخَلّد تجتمع فيها، ومن هناك منبعث نهر سَهْر.

وبمدينة الغدير جامع وأسواق عامرة وفواكه كثيرة وهى رخيصة الطعام واللحم وجميع الثمار، قنطار عنب فيها بدرهم، وسكانها هوارة يعتدون فى ستين ألفًا.

وبشرقى مدينة الغدير قرية أوّلية يقال لها طَرْفَلَة لا تعدل بها قرية وهم يقولون طَرْفَلَة طَرَفٌ من الجنة، ومدينة الغدير ما بين سوق حمزة وطُبْنَة وهى على مرحلتين من طُبْنَة.

وتسير من مدينة المسيلة إلى نهر يسمى جوزة، ومن جوزة إلى مدينة أشير وقال محمد بن يوسف إنّ الذى بنى أَشِير[2] زيرى[3]، والدليل على ذلك ما أنشده عبد الملك بن عيشون[4]: [من السَّريع]

---

(١) انظر: الاستبصار ١٦٧ وتاريخ إفريقيا والمغرب ١٢.

(٢) أشير: مدينة فى جبال البربر بالمغرب فى طرف إفريقيا، مقابل بَجَّانة فى البر. مراصد الاطلاع ١/ ٨٥.

(٣) هو زيرى بن مناد الصنهاجى، وهو جَدُّ المعزّ بن باديس.

(٤) الأبيات لعبد الملك بن عيشون فى الروض المعطار ٦٠.

يا أيُّها السَّائلُ عن عَزْبنا وعن محلّ الكفر أشير
عَنْ دَارِ فِسْقٍ ظَالِم أَهْلُها قد شُيِّدت للكفر والزُّور
أَسَّسَها[١] الملعونُ زيريَّها فَلَعنهُ الله على زَيرِى

وهى جليلة حصينة يذكر أنه ليس فى تلك الأقطار أحصن منها ولا أبعد متناولاً ومرامًا، ولا يوصل إلى شىء منها بقتال إلاّ من موضع يحميه عشرة رجال، وهو فى شرقيها الذى ينفذ إلى عين مسعود وسائر نواحيها تزل عنها العيون فكيف الأقدام.

وهى مع ذلك بين جبال شامخة محيطة بها دائرة عليها، وداخل مدينتها عينان ثرتان لا يبلغ لهما غور ولا يدرك قعر، إحداهما تعرف بعين سليمان والأخرى بعين تالانتيرغ.

والذى بنى سورها بلجّين يوسف بن زيرى بن مناد الصنهاجى سنة سبع وستين وثلاثمائة، وخرَّبها يوسف بن حماد بن زيرى، واستباح أموالها، وفضح حرمها وذلك بعد أربعين وأربعمائة، ثم تراجع الناس إليها بعد خمس وخمسين وأربعمائة.

وتسير من مدينة أَشِير إلى قرية تسمّى سوق هَوَّارة، ومنها إلى قرية تسمى سوق كرام وهى على نهر شلف، ومنها إلى مدينة مليانة[٢]: وهى مدينة رومية فيها آثار وهى ذات أشجار وأنهار، تطحن عليها الأرحاء، جَدّدَها زيرى بن مناد وأسكنها ابنه بلجّين[٣]، وهى عامرة، ومنها إلى مدينة الخضراء وهى مدينة جليلة كثيرة البساتين وهى على نهر إذا حمل دخل بعضها، ومنها إلى مدينة قديمة مدينة بنى واريفن، وهى واسعة المسارح كثيرة الكلأ، ومنها إلى مدينة قارية: وهى مدينة لطيفة ذات أعين كثيرة وهى فى سفح جبل، ومنها إلى مدينة تَنَس.

ومدينة تَنس[٤] بينها وبين البحر ميلان، وهى مسورة حصينة داخلها قلعة صغيرة

(١) فى معجم البلدان داشير ١/ ١٦٤ «أشمخها».
(٢) انظر فى مليانة: آثار البلاد ٢٧٣ والاستبصار ١٧١ والروض المعطار ٥٤٧.
(٣) فى الروض المعطار (بلكين).
(٤) تَنَس: مدينة كبيرة، وهى عدوة إلى الأندلس، إلاّ أنها وَبِيَّة. =

صعبة المُرتَقى ينفرد بسكانها العمال لحصانتها.

وبها مسجد جامع وأسواق كثيرة، وهى على نهر يسمى: تناتين يأتيها من جبل على مسيرة يوم فيأتيها من القبلة ويستدير بها من جهة الجوف والشرق ويريق فى البحر، وبها حمّامات.

وتَنَس هذه التى تسمى تَنَس الحديثة. وعلى البحر حصن يذكر أهل تَنَس أنّه كان القديم المعمور قبل هذه الحديثة، وتَنَس الحديثة أسسها وبناها البحريون من أهل الأندلس منهم الكَرْكَدَنُّ وابن عائشة[١] والصَّقر وصُهَيْب وغيرهم، وذلك سنة اثنتين وستين ومائتين.

ويسكنها فريقان من أهل الأندلس من أهل ألبيرة وأهل تدمير، وأصحاب تَنَس من ولد إبراهيم بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن حسين بن عَلِىٍّ بن أبى طالب.

وكان هؤلاء البحريون من أهل الأندلس يشتون هناك إذا سافروا من الأندلس فى مرسى على ساحل البحر، فتجمَّع إليهم بَرْبَر من هذا القطر، ورغبوا فى الانتقال إلى قلعة تَنَس وسألوهم أَنْ يتخذوها سوقًا ويجعلوها سُكنَى، ووعدوهم بالعون والرِّفق وحُسْن المجاورة والعِشْرة، فأجابوهم إلى ذلك، وانتقلوا إلى القلعة وخَيَّمُوا بها، وانتقل إليهم مَنْ جاورهم من أهل الأندلس وغيرهم.

فلمَّا دخل عليهم الرَّبيعُ، اعتلُّوا واستَوْبَئُوا الموضعَ، فركبَ البحريّون من أهل الأندلس مراكبهم، وأظهروا لمن بقى منهم أنهم يمتارون، فحينئذٍ نزلوا قرية بجَّانة[٢]، وتغلبوا عليها، على ما يأتى ذكره - إن شاء الله.

ثُمَّ إنَّ الباقين بتَنَس لم يزالوا فى تَزَيُّد ثروةً وعددًا. ورحل إليهم أهل سوق إبراهيم، وكانوا فى أربعمائة بيت، فوسَّع[٣] لهم أهل تَنَس فى منازلهم وشاركوهم

= انظر فى تَنَس: الروض المعطار ١/ ١٣٨ والاستبصار ١٣٣ والمسَالك والممالك للأصطخرى ٣٤ ووصف إفريقيا ٢/ ٣٥.

(١) معجم البلدان ١/ ٤٥٧، فى الأصل «وأبو».

(٢) فى معجم البلدان (بجاية).

(٣) فى الأصل «فتوسّع».

فى أموالهم، وتعاونوا على البنيان واتخذوا الحِصْنَ الذى فيها اليوم.

ولها بابان إلى القبلة وباب البحر وباب ابن ناصح وباب الخوخة شَرْقِىٌّ يخرجُ منه إلى عين تعرف بعين عبد السَّلام، ثَرَّة عذبة.

وكَيْلُهم يُسَمَّى الصَّحفة، وهى ثمانيةٌ وأربعون قادوسًا والقَادوسُ: ثلاثَةُ أَمْدَاد بِمُدِّ النَّبِىِّ ﷺ ورَطْلُ اللَّحْمِ بها سَبْعٌ وستون أوقية، ورطلُ سائر الأشياء: اثنتان وعشرون أوقية، ووزن قيراطهم ثلث درهم عدلٍ بوزن قُرْطبة، والجارى عندهم قيراط ورُبْع درهم وصقل وحبَّتَان مضروبة كُلُّها. ودِرْهَمُهم: اثنتا عشرة صقليةً عددًا.

وقال سعيد بن واشكل[1] التيهرتى فى علَّته التى مات بها بِتَنَس: [طويل]

نَأَى النَّوْمُ عَنِّى واضْمَحلَّتْ عُرَى الصَّبْرِ
وَأَصْبَحْتُ عن دارِ الأَحِبَّة فى أَسْرِ

وأصبحتُ عن تيهرت فى دار معزل[2]
وأَسْلَمَنى مَرُّ القضاءِ من القدر

إلى تَنَس دار النُّحوس فإنَّها
يُسَاقُ إليها كُلُّ مُنْتقض العمر

بلادٌ بها البرغوثُ يحملُ راجلاً
ويَأْوِى إليها الذِّئْبُ فى زُمَر[3] الحَشْرِ

ويَزْحَفُ فيها العامّ فى كُلِّ ساعةٍ
بجيشٍ من السودان تغلَّب بالوتر[4]

ترى أهلَها صَرْعَى دوى أُمِّ مِلدم
يروحون فى سُكْرٍ ويَغْدُون فى سُكْرِ[5]

(١) فى مراصد الاطلاع ١/ ٢٧٧ (سعيد بن أشكل).

(٢) فى معجم البلدان ١/ ٤٥٧ «غربة».

(٣) فى معجم البلدان ١/ ٤٥٧ «زمن».

(٤) فى معجم البلدان ١/ ٤٥٧ «يُغلب بالوفر».

(٥) الأبيات لسعيد بن أشكل فى مراصد الاطلاع ١/ ٢٧٧ ومعجم البلدان (تنس) ١/ ٤٥٧.

وقال غيره: [من الرمل]

أَيُّها السَّائلُ عن أَرْضِ تَنَسْ　　مقعـد اللـؤم المُصَفَّى والدَّنَسْ
بَلْدَةٌ لا ينزلُ القَطْرُ بهـــا　　والنَّدى فى أهلها حَرْفٌ دَرَسْ
فصحــاءُ النُّطْقِ فى لا أبدا　　وَهُمُ فى نَعَمْ بكم خـرس
فمتى يَلْمُـمْ بهـــا جَاهِلُهَا　　يَرْتَحِلْ عن أَرْضِها قَبْلَ الغَلَسْ
وماؤها من قُبْحِ مـا خُصَّتْ به　　نَجَسٌ يجرى على نَجَسْ
فمـتى تَلْعَـــنْ بـلادًا مــرَّةً　　فَاَجْعَـلِ اللَّعْنَـةَ دَأْبًا لِتَنَـسْ[١]

فأمَّا الطريقُ من تَنَس إلى تيهرت فإلى باجة، إلى مدينة الغزاة، إلى تيهرت خمس مراحل.

* * *

الطريق من القيروان إلى مرسى الزيتونة

[٢] [من القيرون إلى مَجَّانة على ما تقدَّم، ومنها إلى مدينة تَيْجَس، ومدينة تَيْجَس عليها سور صخر رومى، ولها رَبَضٌ، وبها أسواق وجامع وَحمَّام، وبها من قبائل البربر: نفزة وورغروسة وبنو نموا وكزناية وحمزة من زناتة.

ثم تسير من مدينة تَيْجَس[٣] إلى مدينة قُسَنْطينة، وهى مدينة أَوَّلية كبيرة، أهلَةٌ ذات حصانة ومَنَعَة، ليس يُعْرَف أحصنُ منها وهى على ثلاثة أنهار عظام، تجرى فيها السُّفن، قد أحاطت بها، تخرجُ من عيون تُعرف بعيون أشقار، تفسيره: سود.

وتقع هذه الأنهار فى خندق بعيد القعر، متناهى البُعد، قد عُقِدَ فى أسفله قنطرة على أربع حنايا، ثم بُنِى عليها قنطرة ثانية، ثم على الثانية قنطرة ثالثة من

(١) إلى هنا النقل عن البكرى فى معجم البلدان (تنس) ١/ ٤٥٧ والأبيات بلا نسبة فى الروض المعطار ١٣٩ ومعجم البلدان ١/ ٤٥٧ (تنس).

(٢) من هنا النقل عن البكرى فى معجم البلدان (ميلة) ٤/ ٥١.

(٣) تَيْجَس: بمقربة من تيفاس بقرب وادى الدنانير عند قصر الإفريقى وهى مدينة أوَّلية شامخة البناء كثيرة الكلأ والربيع. الروض المعطار ١٤٦.

ثلاث حنايا، ثم بنى فوقهن بيت ساوَى حافتى الخندق، يعبر عليه إلى المدينة، ويظهر الماء فى قعر هذا الوادى من هذا البيت كالكوكب الصغير لعمقه وبعده، ويُسَمَّى هذا البيت: العبور؛ لأنه معلَّق فى الهواء][1].

ويسكن قُسَنْطينة قبائل شَتَّى من أهل مِيلَة ونفزاوة وقَسْطيلية، وهى لقبائل من كتامة. وبها أسواق جامعة ومتاجر رابحة وبينها وبين مرسى سِقدة مسيرة يوم.

[ومن مدينة قُسَنْطينة إلى مدينة مِيلَة، وفى سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة فى شوال خرج المنصور من القيروان غازيًا لكتامة، فلمَّا قرب من مِيلَة زَحَفَ إليها بانيًا على استلام أهلها واستباحتهم، فخرج إليها النساء والعجائز والأطفال بعد أن عَبَّأ جيوشه لمحاربتها ونشرَ البنودَ، وضربَ الطبول، فلمَّا رأى مَنْ خَرَجَ إليه منها بَكَى وأمرَ أَنْ لا يقتل منهم أحد من أهلها، وأمرَ بهدم سورها، وتَسْيير مَنْ فيها إلى مدينة بَاغَاية، فخرجوا جماعتهم يريدونها وقد تحمَّلوا ما خَفَّ من أمتعتهم، فلقيهم ماكش[2] بن زيرى بعسكره فأخذ جميع ما كان معهم.

وبقيت مِيلَةُ خرابًا، ثُمَّ عُمِّرت بعد ذلك، وعليها سور صخر اليوم وبها جامع وأسواق وحمَّامات، والمياه تطَّرِد حولها، يسكنها العرب والجند والمولَّدون، وهى من غُرَر[3] مدن الزاب][4].

ولمدينة مِيلَة بابٌ شرقى يعرف بباب الرُّوس، وعلى مقربة منه جامعها، وهو مُلاَصقٌ لدار الإمارة، وباب جوفى يعرف بباب السفلى، ويليه داخل المدينة عين تُعرف بعين أبى السباع مجلوبة تحت الأرض من جبل بنى ياروت[5]، يشقُّ منها سوقها ساقية فإذا قَلَّ الماء فى الصَّيف أُجْرِيت يوم السَّبْت والأحد من الجمعة لا غيرُ، ولها حمامان فى رَبَضِها، وبها عَيْنٌ تُعْرَف بعين الحُمَّى: يُرَشُّ منها على المحموم فيبرأ لبركتها وشِدَّة بردها. ثم تسيرُ من مدينة مِيلَة إلى مَرْسَى الزيتونة، وهو جبل جيجل.

---

(١) إلى هنا النقل عن البكرى فى مادة (ميلة) فى معجم البلدان ٤/ ٥٤.

(٢) فى معجم البلدان (ميلة) ٤/ ٥٣٥٦ (ماكس).

(٣) فى معجم البلدان (أصل).

(٤) ما بين المعقوفين نقله ياقوت فى مادة (مِيلَة) ٤/ ٣٥٦.

(٥) معجم البلدان ٤/ ٣٥٦ وفيه بنى ساورت وهو تحريف.

[الطريق من مدينة أشِير إلى مرسَى الدَّجاج

تخرجُ من مدينة أشير إلى شعبة: وهى قرية، ومنها إلى مضيق بين جبلين، ثم تُفضى إلى فَحْص أفيح، تجمع فيه عروق عاقر قرحا: ومن هذا الموضع تحمل إلى الآفاق، وهناك مدينة تُسَمَّى: حمزة(١)، نزلَها وبناها حمزة بن الحسن بن سليمان ابن الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ، والحسن ابن سليمان هو الذى دخل المغرب، وكان له من البنين: حمزةُ هذا، وعبد الله، وإبراهيم، وأحمد، ومحمد والقاسم، وكُلُّهم أعقبَ، وعَقِبُهم هناك.

وتسيرُ من حمزة إلى بلياس، وهى فى جبلٍ عظيم، ومن بلياس إلى مرسى الدجاج](٢)، ومدينة مرسى الدجاج: قد أحاط بها البحر من ثلاث نواح، وقد ضرب بسور من الضفّة الغربية إلى الضفة الشرقية، ومن هناك يَدْخل إليها. وأسواقُها ومسجد جامعها داخل ذلك السور، له بابٌ واحد، ولها مَرفأ غير مأمون لضيقه وقرب قعره، وبها عيونٌ طيِّبة يسكنها الأندلسيون وقبائل منَ كتامة، وبشرقيّها مدينة بنى جنَّاد، وهى أصغر منها.

ومَنْ أرادَ الطريق من القيروان إلى مرْسى الدجاج، فإنه يأخذ إلى المسِيلة ـ على ما تقدَّم، ثم إلى أوزقور: وهى عينٌ عذبَةٌ باردَةٌ عليها شجرة عظيمة، وهذا آخر حَدّ بلد صَنْهاجة إلى سوق ماكسن: وهى مدينةٌ على وادى شلف لصنهاجة عليها سورٌ، ولها عيونٌ، إلى سوق حمزة(٣): وهى مدينةٌ عليها سورٌ وخندقٌ، وبها آبارٌ عذبَةٌ، وهى لصنهاجة، وكان نزلها حمزة بن الحسن بن سليمان بن الحسين بن على بن الحسن بن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ إلى بنى جنَّاد: وهى مدينة صغيرة على جبَلٍ بينها وبين البحر نحو ميل، ومنها إلى مرسى الدَّجاج.

---

(١) حمزة: مدينة بالمغرب، انظر: مراصد الاطلاع ٢/ ٤٢٥ والبلدان (حمزة) ٢/ ١٨٢.

(٢) ما بين المعقوفين نقله ياقوت نصًا عن البكرى فى معجم البلدان (حمزة) ٢/ ١٨٢.

(٣) قال ياقوت: سوق حمزة: بَلَدٌ آخر بالمغرب، وهى مدينة عليها سورٌ، ينزلها صنهاجة، منسوبة أيضًا إلى حمزة بن حسن بن سليمان وهى فى قرب من الأول. معجم البلدان (حمزة) ٢/ ١٨٢.

الطريق من مدينة أشير إلى مدينة جزائر بنى مَزْغَنَّى

من أَشِير إلى الْمَدْية[١]: وهى بلدٌ جليلٌ قديمٌ، ومنها إلى قَزْرونة: وهى مدينة على نهر كبير عليه الأرحاء والبساتين، ويُقَالُ لها متيجَة، ولها مزارع ومسارح، وهى أكثر تلك النواحى كتَّانًا ومنها يُحْمَل، وفيها عيونُ سائحة وطواحينُ ماء.

ومنها إلى مدينة أغزر، ومنها إلى مدينة جزائر بنى مَزْغَنَّى: وهى مدينةٌ جليلةٌ قديمة البنيان، فيها آثار للأوَّل، وآزاج محكمةٌ تدلُّ أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم. وصحْن دار الملعب فيها قد فُرِش بحجارة مُكوَّنة صِغار مثل الفُسيفساء، فيها صور الحيوان بأحكم العمل وأبدع صناعة، لم يغيرّها تقادم الزمان ولا تعاقب القرون، ولها أسواق ومسجدٌ جامع.

وكانت بمدينة بنى مَزْغَنَّى كنيسة عظيمةٌ، بقى منها جدار مُدِيرٌ من الشرق إلى الغرب، وهى اليوم قبلة الشريعة للعيدين تفَصَّصٌ كثير النقوش والصُّور، ومرساها مأمونٌ، له عَيْنٌ عَذْبة، يقصد إليه السفن من إفريقية والأندلس وغيرهما.

ومن أشِير إلى تَامَغَلْت ثلاثون ميلاً، وهى مدينةٌ مبنيَّةٌ فى سطح جبل على رأس الصحراء.

* * *

الطريق من القيروان إلى تنس

من القيروان إلى مدينة الغُزَّة على ما تقدَّم، ثم منها إلى مدينة تَاجَنَّة[٢]: وهى مدينة سَهْليةٌ آهِلَةٌ عليها سورٌ، وبها جامعٌ، سُكَّانُها قجانة، وحولها كزناية. ومن مدينة تاجَنَّة إلى مدينة تَنَس.

(١) الْمَدْيَة: ـ مدينة بناها الأفارقة فى تخوم نوميديا على بعد نحو ثمانين ميلاً فى البحر المتوسط، وتقع فى سهلٍ خصيبٍ جدًا، تحيطُ بها جداول ماء كثيرة وبساتين، سكّانها أثرياء ويرتدون لباسًا أنيقًا ويسكنون دورًا. وصف إفريقيا ٢/ ٤١.

(٢) تَاجَنَّة: مدينة صغيرة بإفريقية، بينها وبين تَنَس مرحلة وبين سوق إبراهيم مرحلة. معجم البلدان (تاجَنة) ٢/ ٤٢٥.

(الطريق من الغزة إلى تيهرت)[١]

فإن أردتَ من الغُزَّةِ إلى مدينة تيهرت، فمن مدينة الغُزَّة إلى تَاجموت على مضيق مكناسة إلى عين الصبحى: عَيْنٌ خَرَّارةٌ فى سفح جبل لمطماطة، إلى تاغربيت إلى مدينة تيهرت.

(ومدينة تيهرت مُسَوَّرَةٌ لها أربعة أبواب[٢]: باب الصفا وباب المنازل وباب الأندلس وباب المطاحن. وهى على نهرٍ يأتيها من جهة القبلة يُسَمَّى: مِينة، وهو فى قِبْلِيِّها[٣].

ونهرٌ آخر يجرى من عيون تجتمع تُسَمَّى: تاتُش، ومن تَاتُش شرب أهلها وبساتينها، وهو فى شرقيّها، وفيها جميع الثمار، سفرجَلُها يفوق سفرجل الآفاق حُسْنًا وطعمًا وشمًا وسفرجلها يُسَمَّى الفارس[٤].

وهى شديدة البرد، . كثيرة الغيوم والثلج، قال بكر بن حمَّاد وهو أبو عبد الرحمن، وكان ثقةً مأمونًا حافظًا للحديث، سمع بالمشرق من ابن مُسَدد وعمر بن مرزوق وبشر بن حجر، وبإفريقية من سحنون وغيرهم، وسكن بتيهرت، وبها توفى، فقال: [سريع]

مـا أخْشَنَ البردَ وريعانه ... وأطـرف الشمسَ بتيهـرتِ

تبدو من الغيم إذا مَـا بَدَتْ ... كأَنَّهـا تُنْشَرُ من تَخْـتِ

فنحنُ فى بحرٍ بلا لُجَّـة ... تجرى بنا الرِّيحُ على السَّمْتِ

نفرحُ بالشمس إذا مـا بَدَتْ ... كفَرْحَـةِ الذِّمـى بالسَّبْـتِ[٥]

---

(١) انظر فى تَيْهَرت: الروض المعطار ١٢٦ والاستبصار ١٧٨ والمسالك والممالك للأصطخرى ٣٤.

(٢) فى الأصل: «ثلاثة».

(٣) فى معجم البلدان (تاهرت) ٢/ ٤٢٦ «قبلتها».

(٤) فى معجم البلدان (تاهرت) ٢/ ٤٢٦ (بالفارس).

(٥) الأبيات لبكر بن حمَّاد فى معجم البلدان (تاهرت) ٢/ ٤٢٧ ومجمع أشعار معجم البلدان ١/ ١٥٥.

ونظر رجلٌ من أهل تَيْهَرت إلى تَوَقُّدِ الشمس بالحجاز فقال: «احرقى ما شئت، فوالله إنَّك بتاهرت لذليلةٌ».

وهذه تاهرت الحديثة وعلى خمسة أميال منها تيهرت القديمة، وهى حِصْنٌ لبرقجانة، وهو فى شرقى الحديثة.

ويقال: إنَّهم لَمَّا أرادوا بناء تيهرت، كانوا يبنون النهار، فإذا جَنَّ اللَّيْلُ وأصبحوا وجدوا بنيانهم قد تَهَدَّم، فبنوا حينئذ تيهرت السُّفْلَى وهى الحديثة. وبقبليّها: لواطة وهوَّارة فى قرارات، وبغربيّها: زواغة، وبجوفيها: مطماطة وزناتة ومكناسة)[١].

وقد ذكرنا أنَّ شرقيها حصنًا لبرقجانة، وهو تيهرت القديمة.

(وكان صاحب تيهرت: ميمون بن عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن رستم بن بهرام، وبَهْرَام هذا مَوْلَى أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه، وهو بهرام بن ذو شرار بن سابور بن بايكان بن سابور ذى الأكتاف: الملك الفارسىّ.

وكان ميمون رأس الإباضيّة وإمامهم وإمامَ الصُّفْرِية والواصلية، وكان يُسَلَّم عليه بالخلافة، وكان مجمع الواصلية قريبًا من تيهرت، وكان عددهم نحو ثلاثين ألفًا فى بيوت كبيوت الأعراب يحملونُها.

وتعاقب مملكة تيهرت بنو ميمون وبنو أخويه عبد الرحمن وإسماعيل بن الرستميَّة إلى سنة ستٍّ وتسعين ومائتين، فوصل أبو عبد الله الشيعىّ إلى مدينة تيهرت فدخلَها بالأمان، ثم قتلَ فيها من الرستمية عددًا كثيرًا، وبعث برءوسهم إلى أخيه أبى العباس، وطِيفَ بها بالقيروان ونُصِبت على باب رقَّادة، وملك بنو رستم تيهرت مائة وثلاثين سنة)[٢].

(وذكر محمد بن يوسف أنَّ عبد الرحمن بن رستم كان خليفة لأبى الخطَّاب عبد الأعلى بن السمح بن عبيد بن حرملة أيَّام تَغَلُّبه على إفريقية، فلمَّا قتل محمد ابن الأشعث الخزاعى أبا الخطاب، وذلك فى صفر سنة أربع وأربعين ومائة، هرب عبد الرحمن بأهله وما خَفَّ من ماله وترك القيروان، فاجتمعت إليه الإباضية، واتَّفقوا على تقديمه وبنيان مدينة تجمعهم فنزلوا موضع تيهرت اليوم، وهو غَيْضَة

(١) معجم البلدان (تاهرت) ٢/ ٤٢٧.
(٢) معجم البلدان (تاهرت) ٢/ ٤٢٧.

أَشبَةٌ، ونزل عبد الرحمن منه موضعًا مَرْبعًا لا شَعْراء فيه، فقال البربر: نزل تاقَدْمت، تفسيرُه: الدُّفُّ، وشَبَّهوه بالدُّفِّ لتربيعه.

وأدركتهم صلاةُ الجمعة، فَصَلَّى بهم هنالك، فلمَّا انقضت الصَّلاةُ ثارت صيحةٌ عظيمةٌ على أَسَدٍ ظهر فى الشَّعْرَاء فأخذ حيًا وأُتِىَ به إلى الموضع الذى صَلُّوا فيه، وقُتِل هناك.

فقال عبد الرحمن بن رستم(١): هذا بَلَدٌ لا يفارقه سَفْكُ دمٍ ولا حربٍ أبدًا.

وابتدأوا من تلك الساعة فبنوا فى ذلك الموضع مسجدًا، وقطعوا خشبهُ من تلك الشعراء، فهو كذلك إلى اليوم، وهو مسجد جامعها، وهو من أربعة بلاطات، قال: وكان موضع تيهرت مِلْكُها لقوم مستضعفين من مراسة وصَنْهَاجَة، فأرادهم عبد الرحمن على البيع فأبوا، فوافقهم على أَنْ يُؤدوا إليهم الخراجَ من الأسواق ويبيحوا لهم بنيان المساكن، فاختطُّوا وبنوا، وسُمِّى الموضعُ: معسكر عبد الرحمن بن رُسْتُم إلى اليوم)(٢).

قال: وبتيهرت أسواقٌ عامرةٌ، وَحَّمامات كثيرة، يُسَمَّى منها اثنى عشر حمَّامًا، وحواليها من البَرْبر أُمَمٌ كثيرة. ومُدُّهم الذى يكتَالُون به خمسةُ أقفزةٍ ونصف قُرْطُبِّيةٍ. وقنطار الزيت وغيره عندهم: قنطاران غير ثلث إلاَّ المجلوب من الفُلْفُلِ وغيره، فإنّه قنطارُ عِدْلٍ. ورطلُ اللحم عندهم خمسة أرطال.

***

(١) عبد الرحمن بن رستم، مؤسّس الدولة الرستمية (١٤٤-٢٩٦هـ) فى المغرب الأوسط (الجزائر)، ويقال إنه من أصل فارسى، كانت عاصمة هذه الدولة مدينة تاهرت، ولجأ عبد الرحمن إلى تقوية دولته فعقد حلفًا مع دولة خارجية أخرى قامت فى سِجِلماسة وهى دولة بنى مدرار، وتوفى سنة ١٦٨هـ وترك الأمر شورى فى سبعة أشخاص من بينهم ابنه عبد الوهاب الذى مالت الأغالبة إلى مبايعته وسلمت عليه بالخلافة، بينما اتخذ المخالفون جانبًا معارضًا، ولهذا سُمُّوا بالنكّار أو النكّرية. انظر: فى التاريخ العباسى والفاطمى، لأحمد مختار العبادى ٢٢٦.

(٢) ما بين المعقوفين بنصه فى معجم البلدان (تيهرت) ٢/ ٤٢٧.

الطريق من تنَس إلى أشِير

وإن أردت طريق السَّاحل من تَنَس إلى أشِير زِيرى، فمن تَنَس إلى بنى جلّيداش: مدينة لطيفةٌ لمطفرة، يسكنها الأندلسيون والقرويون، ولا يدخلها برقجانى من وقت غدرهم بها.

وهى بلدةٌ طَيْبةٌ، بها عيونٌ عذبة، وهى مُطلّةٌ على فحص شلف.

وهناك مدينة شلف على نهر، بها سوقٌ عَامِرَةٌ تُعرف بِشِلْفِ بنى واطيل لزواغة، ومنها إلى بنى واريفن لمطغرة على نهر شلف، بها حوانيت، إلى مدينة ملْيَانة[1]: وهى أَوَّلِيَّةٌ شريفةٌ، جدَّدها زِيرى بن مناد، وأسكنها ولده بلّجين، وهى مُشْرِقَةٌ على جميع ذلك الفحص الذى فيه بنو واريفن وغيرهم، وهى عامرة آهِلَةٌ على نهرٍ، ولها آبارٌ عذبَةٌ وسوق جامعة، ومنها إلى مدينة أشير.

* * *

الطريق من تيهرت إلى البحر

وإنْ أردتَ الطريق من تيهرت إلى البحر، فإنَّك تَمُرُّ بين قبائل البربر حتى تأتى شلف بنى واطيل، ومن هناك إلى الغُزَّة يومان، والغُزَّة: ساحل تيهرت، وبقرب هذا الموضع على البحر قلعة مغيلة دلول: وهى فى أعلى جبل منيف هناك شديد الحصانة، بينها وبين البحر خمسة فراسخ، وبها عين ماء تُسمى عين كُردى.

وبين قلعة دلول ومدينة مستغانم مسيرة يومين، وهى على مقربة من البحر، وهى مدينة مُسَوَّرةٌ ذات عيون وبساتين وطواحين ماء ويُبْذَر فى أرضها القطنُ

(١) مَلْيَانة: مدينة كبيرة جدًا وقديمة، بناها الرومان وأطلقوا عليها اسم ماكّنانة، لكن العرب حرَّفوا هذا الاسم. وذكر أحمد توفيق مدنى فى كتابه الجزائر صـ٢٤٠ أن مَلْيانة من تأسيس الملك الصنهاجى بلَّقين بن مناد فى القرن الرابع الهجرى.

ولمليانة دور متقنة الصنع، فى داخلها كُلّها سقايات جميلة، يكاد يكون سُكَّانها كلهم صنَّاعًا.
وصف إفريقية ٢/ ٣٤.

فيجود، وهى بقرب مصبّ نهر شلف فى البحر، وبغربى هذه المدينة على نحو ثلاثة أميال منها مدينة تامزغران: وهى مدينة مُسَوَّرة لها مسجد وجامع، وعلى مقربة منها قلعة هَوَّارة، ويسمُّونها: تاسقدالت: وهى قلعةٌ فى جبلٍ، لها ثمارٌ ومزارع، وتحت هذه القلعة يجرى نهر سيرات: وهو النهر الذى يسقى به فَحْص سيرات، وطول الفحص نحو أربعين ميلاً، ليس منه شىءٌ إلا ينالُه ماء هذا النهر، إلاَّ أنه اليوم غامِرٌ غير عامرٍ ولا أهل فيه؛ لأن الخوف أجلى أهْلَهُ.

وفى ساحل هذا الفحص مدينة أرزاو: وهى مدينةٌ روميّة خالية فيها آثارٌ عظيمة للأوّل باقية، يحارُ مَنْ دخل فيها لكثرة عجائبها.

وبقرب مدينة أرزاو جبلٌ كبير فيه قلاعٌ ثلاث مُسَوَّرةٌ، ورباطٌ يقصدُ إليه، وفى هذا الجبل معدن للحديد وللزئبق، وإذا أرسلت النار فى شجرة تفاوحت منه أرياحٌ عطرة.

وبين مدينة أرزاو هذه ووهران أربعون ميلاً.

ومدينة وَهْرَان: حصينةٌ ذات مياه سائحة، وأرحاء ماء وبساتين، ولها مسجد جامع، وبنى مدينة وهران: محمد بن أبى عون ومحمد بن عدوُن وجماعة من الأندلسيين البحريين الذين ينتجعون مرسى وهران باتّفاق منهم مع نفزة وبنى مُسْقِن، وهم من أزداجة، وكانوا أصحاب القرش سنة تسعين ومائتين، فاستوطنوها سبعة أعوام.

وفى سنة سبع وتسعين ومائتين زحفت قبائل كثيرة إلى وهران يطالبون أهلَها بإسلام بنى مُسْقِن ليهم لدماءٍ كانت بينهم، فأبى أهل وهران من إسلامهم إليهم، فنصبوا عليهم الحرب وحاصروهم ومنعوهم الماء.

فخرج عنهم بنومُسقن ليلاً هاربين، واستجاروا بأزداجة[1] وأجاروهم وتغلَّبوا على أهل مدينة وهران، وخرجوا عنها مُسَلّمين فى أنفسهم، وأسلموا ذخائرهم وأموالهم، وخُرِّبت وهران وأُضرِمت نارًا وذلك فى ذى الحجة من هذه السنة.

ثم عاد أهل وهران إليها فى السنة بعدها، سنة ثمان وتسعين ومائتين بأمر أبى

---

(١) أزداجة: بطن عظيم من البربر انظر: جمهرة أنساب العرب ٤٩٥.

حُمَيد دوَّاس بن صولات، ويقال داود عامل تيهرت، وابتدؤا بنيانها فى شعبان من هذه السنة، فعادت أحسن ممَّا كانت، وولَّى عليهم داود بن صولات، وابتدؤا بنيانها فى شعبان من هذه السَّنة، فعادت أحسن مَّما كانت، وولَّى عليهم داود بن صولات اللهيصى محمد بن أبى عون.

فلم تزل فى عمارة وكمال وزيادة وحُسْنِ حال إلى أن أوقع يَعْلَى بن محمد بن صالح اليفرنى بأزداجة بجبلٍ قيدر، وفَرَّق جماعتهم، وكانت الوقيعة بينهم يوم السبت للنصف من جمادى الأولى سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة. فدخل يعلى مدينة وهران، وملكها ثم نقل أهلها إلى مدينته المعروفة، وذلك فى ذى القعدة من العام المؤرّخ، وخربت مدينة وهران وحرقها، وبقيت كذلك سنين، ثم تراجع الناس إليها وبنيت)[1].

وفى عمل وهران قرية أهلها موصوفون بعظم الأجساد، ومعروفون بشدة الأبدان، أخبرنى غير واحد أنه رأى الرجل الكامل فى الخلق المعهود يكون إلى دون منكب الرجل منهم، وأنه كان منهم رجلٌ يحملُ ستَّة نفرٍ ويخطو بهم خطوات، يحمل على عاتقه اثنين، ويتأبط اثنين، ويحمل على ذراعيه اثنين، وأنَّ رجلاً منهم أراد عمل بيت فاقتطع ألف نخلة وحملها على ظهره وسوَّى منها بيتًا مُعَرَّشًا.

* * *

الطريق من وهران إلى القيروان

تخرجُ من وهران إلى تَانْسَالمت: قرية لأزداجة بها سوق وعين عَذْبَةٌ، وهى فى طريق جبل جَيْدَر، ومنها إلى جراوة لعْزيزوا وهى سوق عبيدون بن سنان الأزداجى، ومنها إلى قصر ابن سنّان، ثم الجادَّة على ما تقدَّم، وهى خمسٌ وعشرون مرحلة.

وطريق آخر من وهران إلى القيروان على بلد قسطيلية، من وهران كما ذكرنا

(١) معجم البلدان (وهران) ٤/ ٤٦٤.

إلى قصر منصور بن سنان، ثم إلى العلويين: وهى مدينة يعلى بن باديس، عليها سور، وهى على نهر كبير وداخلها عيون.

ومنها إلى نهر سِى سِى بن دمر: وهو نهر كبير عليه بساتين كثيرة، ومنها إلى أحساء عقبة بن نافع القرشى[1]، وهى: آبار كثيرة مبنية بخشب العرعار، وتعرف بآبار العسكر، يريدون عسكر عقبة، ويُسمَى بالبربرية: أرسان.

ثم تمشى فى مفاوز ربَّما نزلها بنو مغراوة ثلاث مراحل أو أربعًا إلى ساقية ابن خزر، يسمونها إزمرّين، عليها قصر خرب حوله ثمار ونخيل، إلى مدن بنطيوس: وهى ثلاث مدن يقرب بعضها من بعض، وفى كل مدينة جامع، فالاثنان لأهل السنَّة، والثالثة لقوم من الخوارج يعرفون بالواصلية، إباضيَّة، إحداهما يسكنها قومٌ من الفُرسْ يُعرفون بنى جُرَيج.

وبغربيها نهر جارٍ ينحدر إليها من ناحية الجوف، وهذا النهر يسقى الثلاث المدن، والثانية يسكنها المُوَلَّدون، والثالثة يسكنها البربر، وأكثر ثمارها النخل والزيتون.

والثلاث المدن فى سهلة عريضة أَرِيضة، عليها كُلُّها أسوار وخنادق، وبغربيها صحراء بنطيوس، تُسقى بثلث النهر المذكور. وإذا كمل الرجل فيها زريعته عرف مبلغ إصابته من الطعام لا يخطئ.

وآبارها ملحة، وبقرب منها قرى كثيرة، وبجوفى بنطيوس طولقة: وهى ثلاث مدن، كُلُّها عليها أسوار طوب وخنادق وحولها أنهار، وهى كثيرة البساتين بالزيتون والأعناب والنخيل والشجر وجميع الثمار، إحداهما يسكنها المُوَلَّدون، والثانية يسكنها اليمن، والثالثة يسكنها قيس.

---

(١) عَقبة بن نافع بن عبد القيس الأموى القرشى الفهرى (١ق هـ ـ٦٣هـ) فاتح من كبار القادة فى صدر الإسلام، وهو بانى مدينة القيروان، وُلد فى حياة النبى ﷺ ولا صحبة له، وشهد فتح مصر، وكان ابن خاله عمرو بن العاص، فوجهه عمرو إلى إفريقية سنة ٤٢هـ واليًا عليها فافتتح كثيرًا من تخوم السودان وكورها فى طريقه، وعلا ذكره، فولاه معاوية إفريقية استقلالاً سنة ٥٠ هـ، وسير إليه عشرة آلاف فارس فأوغل فى بلاد إفريقية حتى أتى وادى القيروان فبنى فيه مسجدًا لا يزال إلى اليوم يعرف بجامع عقبة، وبلغ فى تقدمه البحر المحيط ودفن بالزاب. الأعلام ٤/ ٢٤١.

ثم من بنطيوس إلى مدينة بِسْكِرَة[١]، وقد تقدَّم ذكرها.

ومنها إلى مدينة تهوذا[٢]، وتعرف بمدينة السِّحر، وهى مدينة آهلةٌ كثيرة الثمار والنخل والزرع، وتهوذا مدينة أوَّلية، بنيانها بالحجر، ولها أموال كثيرة، وحولها رَبَضٌ قد خندق على جميعه واستدار بالمدينة، وبها جامع جليل ومساجد كثيرة وأسواق وفنادق، ونهرٌ يَصُبُّ فى جوفيّها من جبل أوراس، سُكّانها العرب وقومٌ من قريش. وإن كانت بينهم وبين من يجاورهم حربٌ، أرسلوا ماء النهر فى الخندق المحيط بمدينتهم فشربوا منه وامتنعوا من عدوّهم به.

وفى المدينة بئرٌ لا تُنْزَح، أَوَّلِيَةٌ، وآبارٌ كثيرة طَيِّبة.

وأعداؤهم: هَوَّارة، ومكناسة إباضِيَّة، وهم بجوفيها.

وأهل تهوذا على مذهب أهل العراق، وحولها بساتين كثيرة من أصناف الثِّمار، وضروب البذور تجود بها، وحواليها أزيد من عشرين قرية.

وروى أبو المهاجر عن رجاله عن شَهْر بن حَوْشب أنَّ النَّبىَّ ﷺ نَهَى عن سُكْنَى هذه البقعة الملعونة التى يقال لها تهوذا»[٣].

ويقال إنه قال: «سوف يُقْتَل بها رجالٌ من أُمَّتى على الجهاد فى سبيل الله، ثوابهم ثواب أهل بدر وأهل أُحُد، والله ما بَدَّلوا حتى ماتوا».

وكان شَهْرُ بن حَوْشب يقول: واشوقاه إليهم، وكان يقول: سألت بعض التابعين عن هذه العصابة فقال: ذلك عقبة بن نافع قتَلَه البربر والنصارى بمدينة يقال لها تهوذا، فمنها يحشرون يوم القيامة وسيوفهم على عواتقهم حتى يقفوا بين يَدَى الله تعالى.

---

(١) بِسْكِرة: مدينة عريقة فى القِدَم، أُسِّسَت أيام الرومان يحكمون البربر، وخُرِّبت بعد ذلك، ثم أُعيدَ بناؤها لَمَّا دخلت الجيوش الإسلامية إلى إفريقيا.
أمَّا السكان فمؤدبون، لكنهم فقراء، لأن أرضهم لا تنتج شيئًا غير التمر. وصف إفريقيا ٢/ ١٣٨.

(٢) انظر فى تهوذه: الروض المعطار ١٤٢-١٤٣ والاستبصار ١٧٤ وهى بالدال المهملة فى نزهة الأنظار ١/ ٢١٦.

(٣) الأثر فى الروض المعطار ١٤٢.

قال أبو المهاجر: قَدِم عُقْبَةُ بن نافع مصر، وعليها عمرو بن العاص من خلافة معاوية بن أبى سفيان، فنزل منزلاً من بعض قُرَاها ومعه عمرو بن العاص وعبد الله بن عمرو وجماعة، فلمَّا تناولوا الطعامَ ضَرَبت حِدَأَةٌ على الطعام الذى بين أيديهم، فأخذت منه عرقًا، فقال عقبة: اللَّهمَّ دُقَّ عُنُقَهَا.

قال: فأقبلت الحدَأَةُ مُنْقَضَّة حتى ضربت بنفسها الأرض، فاندَقَّ عَنُقَها، فاسترجع عمرو فَسَمِعَه عُقْبَةُ يترجَّعُ، فقال: مَابَالُك يا أبا عبد الله؟ قال: بلغنى أَنَّ نفرًا من قريش يخرجون إلى هذا الموضع فيُسْتشهدون جميعًا.

فقال عقبة: اللَّهُم وأنا منهم.

ثُمَّ إنَّ عُقْبَة بن نافع خرج من عند يزيد بن معاوية فى جيشٍ على غزو المغرب، فمَرَّ على عبد الله بن عمرو وهو بمصر، فقال له عبد الله: يا عقبة لعلَّك من الجيش الذين يدخلون الجنَّة برحالهم.

قال أبو المهاجر: فبلغ عقبة بن نافع فى غزواته إلى السُّوس الأَدْنَى والأقصى والبحر المحيط، وأدخل فيه فَرَسَهُ حتى بلغَ الماءُ لَبَبَ فرسه وانصرفَ إلى إفريقية، فلمَّا دنا منها تفَرَّق أصحابُهُ عنه فَوْجًا فوجًا، فلمَّا وصلَ إلى مدينة طُبْنَة، أَذن لسائرمَنْ بَقِى فى عِدَّة يسيرة، وقال فى طريقه: أَمُرُّ إلى مدينة تهوذا وإلى مدينة باديس وأعرف ما يكفيهما من العدَّةِ والجيوش، وكانتا فى ذلك الوقت من أعظم مدائن المغرب.

فلمَّا انتهى إلى مدينة تهوذا اعتمده كَسِيلَة بن لَهْزَم[1] فى جيوش الروم وأقبلت إليه جيوش الروم وعساكر البربر، وقد علموا بافتراق عساكر عقبة، فزحفوا إليه، فكسر عقبة وأصحابُه أجفان سيوفهم وقاتلوا حتى قتلوا جميعًا.

وقبر عقبة معروف بمدينة تهوذا، ولَمَّا أراد معدّ بن إسماعيل بن عُبَيْد الله تحريف قبلة مسجد القيروان، وقلَعَ من محرابه آجُرًّا وذلك سنة خمس وأربعين وثلاثمائة، بلغه أَنَّ أَهلَ القيروان يذكرون دُعَاء عُقْبة للقيروان وتأسيسه جامعها، وأنهم يقولون: إنَّ الله عزَّ وَجَلَّ يمنعه منه بدعاء صاحب نَبِيِّه ﷺ، فأمر معدٌ لعنَهُ الله بنبش قبر عقبة وإحراق رِمَّته بالنار، وبعث إلى مدينة تهوذا لذلك خمسمائة بين

(١) نزهة الأنظار ١/ ٢١٧.

فارسٍ وراَجلٍ، فلما دنوا من قبره وحاولوا أمرهم به، هَبَّت ريحٌ عَاصِفَةٌ ولاحت بروقٌ خاطِفَةٌ، وقَعْقعت رعود قاصفة كادت تهلكهم، فانصرفوا ولم يعرضوا له.

ومنها إلى مدينة باديس مرْحَلَةٌ، وبمدينة باديس حصنان فيهما جامع وأسواق وبسائط ومزارع جليلة يزدرعون بها الشعير مرَّتين فى العام على مياه سائحة كثيرة عندهم.

ومن باديس إلى قيطون بياضة، وهو أوّل بلد سماطة، ومنه يفترق الطريق إلى بلاد السودان، وإلى أطرابلس وإلى القيروان إلى مدينة نفطة مرحلتان: وهى مدينة مَبْنِيَّةٌ بالصَّخر، عامِرَةٌ آهِلَةٌ، بها جامع ومساجد وحمَّامات كثيرة، وهى كثيرة المياه السائحة وشُرْبُ جميع بلاد قسطيلية بوزنٍ إلاّ نَفْطة[1] فإن شُرْبها جُزَاف.

وجميع أهلها شيعة، وتُسَمَّى الكوفة الصغرى.

إلى مدينة تَوْزَر[2]، وهى آخر أقاليم بلاد قسطيلية ـ وقد تَقَدَّم ذكرها وبينها وبَين بِسْكِرَة خمسة أيام، ثم تسير منها إلى قَفْصَة مرحلتان ومن مدينة قَفْصَة مرحلتان إلى فَجِّ الحمار، وبه فندق ومواجل للماء. إلى الهروية، وهى آخر قرى قَمُّونية، إلى مدينة مَذْكود، وهى أُمُّ أقاليم بلد قَمُونيَّة[3]، بها جامع وحمَّامات وأسواق ومساجد كثيرة وفنادق عِدَّة، وآبار عذبة الماء بعيدة الرِّشاء.

وحولها ثمارٌ كثيرة من جميع الأصناف، أكثرها شجر التين وهو يفوق تين إفريقية طيبًا.

ومنها يُحْمَلُ التِّينُ زبيبًا إلى القيروان، فيكون أغلى من سائر التين ثمنًا وأكثر طلبًا، وهى فى غابة من شجر التين الأخضر لا تظهر لمن قَصَدَها حتى يبلغها.

ومن مدينة مَذْكود إلى جمونس الصابون: قرية كبيرة آهِلةٌ بها آبارٌ عذبةٌ. وهى

(١) نزهة الأنظار ١/١٠٦.

(٢) تَوْزَر: مدينة عتيقة بناها الرومان فى صحراء نوميديا على جدول ماء صغير، يأتى من بعض الجبال من ناحية الجنوب، وكانت أسوارها متينة تحيط بأرض شاسعة، لكن المسلمين خَرَّبوها وخَرَّبوا فى نفس الوقت عدة قصور جميلة. وصف إفريقيا ٢/١٤٢ ورحلة التجانى ١٥٧ـ١٧٢.

(٣) تاريخ إفريقيا والمغرب ٤٧.

فى سند جبل حولها رملٌ كثير وشجر الزيتون وبها جامع وسوقٌ عامرَة وحمَّام.

وفيها قصرٌ كبيرٌ، وهو مخزن لجماعة أهلِهَا، بها غدير ماء كبير، ولها قرى كثيرة عامرة مفيدة، إلى قرية: مجدول. آهلة كبيرة أيضًا مثل التى قبلها صفةً ولها غدير أيضًا يعرف ببحيرة مجدول، منه شربهم، ولهم آبار كثيرة طيِّبة، ومنها إلى بنى دَعام: قرية جامعة عامرة، إلى مدينة القيروان وذلك من وهران إلى القيروان على قسطيلية ثلاث وأربعون مرحلة.

* * *

الطريق من تنَس إلى تيهَرت

ومن أراد الطريق من تَنَس إلى تيهرت، فمن تَنَس إلى الغَزَّة[١] على ما تقدّم، إلى تاجموت على مضيق مكناسة، إلى عين الصبحى: عين كبيرة فى سند جبل لمطماطة، إلى تاغريبت، إلى مدينة تيهرت.

ومدينة الخَضْراء على مقربة من تَنَس، وهى مدينة كبيرة على نهر خَوَّار عليه الأرحاء، وإذا حمل دخل المدينة، وحولها بساتين كثيرة، وَيكْتَنفُهَا من قبائل البربر: مدغرة وبنو دمر ومديونة وبنو واريفن، وهى مدينة تَنَس، ومدينة إغزر، وقد تقدَّم ذكرها، وهى أقزرْنة متِيجة.

ومدينة سَطِيف[٢] على مرحلتين من المسيلة، تخرج من المسيلة إلى غدير واروا، يسكنه بنو يغمراسن: من هَوَّارة، على عيون طيِّبة يعتُّدون فى ستين ألفًا، وقد تقدَّم ذكرها.

ومنها إلى مدينة سَطِيف، وهى مدينة كبيرة جليلة أَوَّلية، كان عليها سورٌ خَرَّبته كتامة مع أبى عبد الله الشيعى؛ لأنها كانت فى الأول لكتامة، غلبتهم عليها

(١) الغَزَّة: من المشترك، وهى مدينة بإفريقيا، بينها وبين القيروان نحو ثلاثة أيام فى طريق الجزائر. مراصد الاطلاع ٢/ ٤٩٤.

(٢) سَطِيف: مدينة فى جبال كتامة بين تَاهَرْت والقيروان ببلاد المغرب ومنها خرج أبو عبد الله الشيعى داعية عُبَيْد الله المُسَمَّى بالمهدى. مراصد الاطلاع ٢/ ٧١٥ ومعجم البلدان (سطيف) ٣/ ٤٦.

العرب، وكانوا يعشّرونهم إذا دخلوها، وهى اليوم دون سور، لكنها عامرة جامعة كثيرة الأسواق رخيصة الأسعار.

وبين سطيف والقيروان عشر مراحل، وبينها وأقزرنة عشر مراحل أيضًا. ومدينة تاناجللت على مرحلة من مدينة سطيف، على مقربة من مدينة ميلة المذكورة قبل هذا.

وتاناجللت: مدينة لكتامة عامرة آهلة، ليس بها مسجد.

وغدير واروا المذكور على مرحلتين من طُبْنَة. وبين تاناجللت ومدينة القيروان ثمانى عشرة مرحلة.

وبين مدينة وهران ومدينة تلمسان مرحلتان.

* * *

(ذكر مدينة تلمسان وما والاها من المغرب)[١]

وهى مدينة مسورة فى سفح جبل شجرة الجوز، ولها خمسة أبواب ثلاثة منها فى القبلة: باب الحمام، وباب وهب، وباب الخوجة، وفى الشرق: باب العقبة، وفى الغرب: باب أبى قرة، وفيها آثار للأوَّل قديمة، وبها بقية من النصارى إلى وقتنا هذا، ولهم بها كنيسة معمورة، وكثيرًا ما يوجد الرِّكاز[٢] فى تلك الآثار، وكان الأول قد جلبوا إليها ماء من عيون تسمى لوريط بينها وبين المدينة ستة أميال.

وهذه المدينة تلمسان قاعدة المغرب الأوسط لها الأسواق، ومساجد، ومسجد جامع، وأشجار، وأنها عليها الطواحين، وهو نهر سطفسيف، وهى دار مملكة زناتة وموسطة قبائل البربر، ومقصد لتجار الآفاق، ونزلها محمد بن سليمان[٣] بن

---

(١) انظر فى تلمسان: وصف إفريقيا ٢/ ٧ـ٤٦ والروض المعطار ١٣٥ـ١٣٨ والاستبصار ١٧٦.

(٢) الرِّكاز: ما ركزه الله تعالى فى الأرض من المعادن فى حالتها الطبيعية، والكنز، والمال المدفون قبل الإسلام. المعجم الوسيط (ركز) ١/ ٣٧٠.

(٣) محمد بن سليمان بن عبد الله الحسنى الطالبىّ: مؤسّس إمارة آل سليمان فى تلمسان وأطرافها =

عبد الله بن حسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ومن ولده عيسى أبو العيش[١] بن إدريس بن محمد بن سليمان الذى بنى جراوة، وكان أميرها وبها توفى، ولم تزل تلمسان دارًا للعلماء والمحدثين وحملة الرأى على مذهب مالك.

وفى الجنوب من تلمسان قلعة ابن الجاهل، وهى قلعة منيعة كثيرة الثمار والأنهار، ويتصل بها جبل تارف، وهو وما يليه جبال معمورة، إلى مدينة تيزيل: وهى أول الصحراء ومنها يسافر إلى مدينة سِجِلْمَاسَة، وإلى وارجلن إلى القلعة، وهى مدينة معمورة فيها آثار للأول وبها مسجد.

وفى الشمال من تلمسان منزل يسمى باب القصر فوقه جبل يسمى جبل البغل ينبعث من أسفله نهر سطفسيف، ويصب فى بركة عظيمة من عمل الأول، ويسمع لوقوعه فيها خرير شديد على مسافة، ثم ينبثق منها بحكمة مدبرة إلى موضع يسمى المهماز، وإلى ولج الحناء إلى جنان الحاج حتى يصب فى نهر أسر، ثم ينصب فى نهر تافنا، وهو نهر يصل إلى مدينة أرشقول، وهناك ينصب فى البحر، وأرشقول ساحل تلمسان، بين مدينة أرشقول على نهر تافنا، وتلمسان فحص أزيدور طوله خمسة وعشرون ميلاً.

ومدينة أرشقول على نهر تانى يقبل من قبليها ويستدير بشرقيها، ويدخل فيه السفن اللطاف من البحر إلى المدينة، وبينهما ميلان، وهى مسورة.

وبمدينة أَرَشْقُول مسجد جامع حسن فيه سبعة بلاطات، وفى صحنه جب كبير وصومعة متقنة البناء، وفيها حمامان أحدهما قديم، ولها من الأبواب باب الفتوح غربى، وباب الأمير قبلى، وباب مَرْنيسة شرقى محنيّة كلها عليها منافس، وَسَعَةُ

= وُلِدَ بالمدينة، وكان صغيرًا حين قُتِل أبوه بوقعة «فخّ» بمكة، واشتدَّ ضغط العباسيّين على الطالبيين فى الحجاز والعراق، فخرج محمد إلى إفريقيا، ونزل تلمسان، فكانت له ولبعض بنيه إمارتها وإمارة ما حولها.

قال ابن حَزْمٍ: وهم ـ أى أحفاده ـ بالمغرب كثير جدًا. توفى نحو ٢٣٠هـ الأعلام ١٤٩/٦.

(١) عيسى بن محمد بن سليمان الحسنى الطالبىّ: أميرٌ من أحفاد سليمان بن عبد الله المقتول «بفخ»، وكان مع أبيه فى تلمسان، والأرجحُ أن تكون ولادته فيها بعد هجرة أبيه إلى المغرب، وانتقل إلى مدينة آرشْقُول (وهى ساحل تلمسان) فولى إمارتها، واستمرَّ بها إلى أن تُوفّى سنة ٢٩٢هـ وتوارثها بنوه من بعده. الأعلام ١٠٧/٥ وجمهرة الأنساب ٤٢.

سورها ثمانية أشبار وأمنع جهاتها جوفيها، وبها آبار عذبة لا تَغُور تقوم بأهلها ومواشيهم، ولها ربَضٌ من جهة القبلة وكَيْلُهم ستون مُداً بمُدِّ النبى ﷺ، ويُسَمُّونه عمورة، ورطلهم اثنتان وعشرون أوقية ودرهمهم ثمانى خراريب، والخروبة أربع حبات، وكان يسكنها التجار ونزلها عيسى بن محمد بن سليمان المذكور قبل هذا ووليَها وتوفى فيها سنة خمس وتسعين ومائتين، وولد له فيها إبراهيم بن عيسى الأرشقولّى، ووليها بعده ابنه يحيى بن إبراهيم، وهو الذى حبسه أبو عبد الله الشيعى سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة.

وتُقَابِلها جزيرة فى البحر تُسَمَّى جزيرة أَرَشْقُول[1] بينها وبين البر قدرُ صوت رَجُلٍ جَهيرِ الصوت فى سكون البحر، وهى مستطيلة من القبلة إلى الجوف عالية منيفةٌ. وإليها لجأ الحسن بن عيسى بن أبى العيش صاحب جراوة، وتخلّى مما كان بيده لّما غلب، على ذلك موسى بن أبى العافية[2] على ما نُبَيِّنه بعد هذا ـ إن شاء الله تعالى ـ فكتب موسى بن أبى العافية إلى صاحب الأندلس عبد الرحمن بن محمد يسأله نُصْرَتَه عليه، ويُقَرِّبُ له المَأْخَذَ، وأعانه على ذلك أبو محمد عبد الملك ابن أبى حَمَامة عند موسى بن محمد بن جَدير، فأمر عبد الرحمن أهل بجّانة وغيرهم من أهل السواحل بإقامة خمسة عشر مركبًا حربية، ثم جهَّزها بالرجال والسلاح والأزودة والأموال، فأحاطت بهذه الجزيرة، وقتلوا كثيرًا ممن كان فيها

(١) وصف إفريقيا ٢/ ١٦.

(٢) موسى بن أبى العافية بن أبى بسَّال بن أبى الضحَّاك المكناسىّ: مؤسس الإدارة المكناسية بمراكش، وتُسَمَّى إمارة آل أبى العافية. كانت له بلدة مكناسة وعقد له ابن عمّه مَصَالة بن حَبُوس على سائر ضواحى المغرب وأمصاره سنة ٣٠٥هـ، بالإضافة إلى عمله من قبل وهو: السَّول، وتازا، وكرسيف وأقرَّهُ عُبَيْد الله المهدى الفاطمى، ثم ضَمَّ إليه مدينة فاس سنة ٣١٣هـ.

وقاتَل الأدارسة وأجلاهم عن بلادهم، وصار فى مُلْكه سنة ٣١٧هـ من أحواز تيهرت إلى السُّوس الأقصى، وملك تلمسان سنة ٣١٩هـ وانتظم فى مُلْكه المغربان الأقصى والأوسط، وأقام فى العِدْوَة الغربية ونقضَ دعوة المهدى الفاطمى فى هذه السنة، وخطب لعبد الرحمن الناصر الأموى فظلت الحرب سجالاً إلى أن قُتِلَ موسى فى بعض الصحارى سنة ٣٤١هـ وكان شجاعًا داهية.

الأعلام ٧/ ٣٢٤ وانظر: تاريخ ابن خلدون ٦/ ١٣٤ـ١٣٥ والاستقصا ١/ ٨٠ـ٨٣ والبيان المغرب ١/ ١٩٤ـ١٩٩.

وحاصروهم حتى كادوا يهلكون عطشًا لما نفدت مياه البحر جِبَابِهم حتى تَدَارَكَهُم الله بغيثٍ وابلٍ، فلم يَطْمَعْ فيهم أهل الأسطول حين سَقوا وانصرفوا قافلين، فوصلوا إلى المرّية فى شهر رمضان سنة عشرين وثلاثمائة، ثم ظفر البوريُّ ابن موسى بن أبى العافية بالحسن بن عيسى الذى لجأ إلى أَرَشْقُول، وبعث به إلى عبد الرحمن بن محمد سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة.

* * *

ذكر الحصون التى بساحل تلمسان سوى مدينة أرشقول

مدينة أَسْلَن، وهى شرقى أَرَشْقُول: حصينة، وهى مدينة قديمة عليها سور صخر وبها جامع وسوق، يسكُنُها مَغِيلة، ولها نهر يصب فى البحر من شرقيها يسقى منه بساتينهم وثمارهم، وهى مقطوعة منحوتة السور بنهر من كل ناحية، ولها عيون تجرى بينها وبين البحر، وكان عبد الرحمن افتتحها، وبعث إليها محمد ابن أبى عامر حُمَيْد بن يزد فبناها وجدَّدَها.

فأما الطريق من أرشقول إلى القيروان[1]، فمنها إلى أسلن، ومن أسلن إلى قصر ابن سنان مرحلة لطيفة، ثم الطريق على ما تقدّم من أسلن إلى تيهرت أربع مراحل، ومن تيهرت إلى القيروان تسع عشرة، ومنها إلى حصن تانكرمت، وهو أيضًا على الساحل، ستة أميال وله مزارع واسعة وبسائط حصيبة، وعلى مرحلتين من أسلن مدينة فكان بينهما نهر سى، وعليه المنزل فى المرحلة الأولى، ومدينة فكّان[2] كانت سوقًا قديمة من أسواق زناتة، فمدنها يعلى بن محمد بن صالح اليفرنى[3]، وكان ابتداء تأسيسه لها سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة، وارتحل إليها أهل

(١) انظر: وصف إفريقيا ٢/ ١٦ ومقدمة ابن خلدون ٤/ ٣٤ـ٣٦.

(٢) فى البيان المغرب ٢/ ٢١٦ و٢٢٢ «آفكان» بالهمزة الممدودة. وفى معجم البلدان (أفكان) ١/ ١٨٧ قالوا: هو اسم مدينة ليَعْلَى بن محمد، ذات أَرْحِيَة.
أمَّا البكرى فقيَّدها بالكاف المشدَّدة بلا همزة «فكَّان».

(٣) يَعْلَى بن محمد بن صالح اليَفَرْنَى: أميرٌ من أشراف البربر، من أهل تاكرونة، كانت له مدينة (آفكان) فى إفريقيا استقلالاً، ابتدأ بتأسيسها سنة ٣٣٨ هـ، وفى هذه السنة دخل وهران =

المعسكر، وهى فى سفح جبل أوشيلاس وهو بجوفيها، ولهذا الجبل شعراء غامضة، وبقلبها نهر سيرة، ومنبعثه من عيون بشرقيها عليه الأرحاء والبساتين من كلتا ضفتيه، وبغربى فكان أسفل بساتينها مجمع الأودية: وادى سيرة، ووادى سى، ووادى هنت، وعلى مدينة فكان سور طوب، وبها جامع وحمام وخنادق.

وبين هذا الحصن وحصن مرنيسة البير ثلاثة أميال، وهو حصن حصين، ومنها إلى حصن ابن زينى ثلاثة أميال أيضًا، ولهذا الحصن نهر كثير الثمار.

ومن بنى زينى إلى حصن الفروس ميلان، وهو على كنة جبل على ضفة البحر، ومنه إلى حصن الوردانية ميلان، وهو مثله على جبل بساحل البحر ومن الوردانية إلى حصن هنين أربعة أميال، وهو على مرسى جيد مقصود، وهو أكثر الحصون المتقدمة الذكر بساتين وضروب ثمر، يسكنها قبيلة تسمى كومية، وبين هذا الحصن ومدينة ندرومة الجبل المعروف بتاجرة، ومسافة ما بين هذا الحصن والمدينة ثلاثة عشر ميلاً.

ومدينة نَدْرُومة[١] هى فى طرف جبل تاجرا، وغربيها وشماليها بسائط طيبة ومزارع وبينها وبين البحر عشرة أميال، وساحلها وادى ماسين، وهو نهر كثير الثمار، وله مرسى مأمون وعليه حصنان ورباط حسن مقصود يتبرك به، إذا سرق فيه أو أتى بفاحشة لم تتأخر عقوبته قد تعارفوا ذلك من بركته وحُسْن صَنْع الله فيه. ومدينة نَدْرُومة مُسَوَّرة جليلة لها نهر وبساتين وفيها من جميع الثمار، ولها سور ومساجد وجامع.

وبين مَرْسَى ماسين وتَرْنَانا عشرة أميال، وهى مدينة مُسَوَّرَةٌ ولها أسواق وجامع، وبساتين كثيرة، وبينها وبين ندرومة ثمانية أميال، ويسكن مدينة ترنانا، فخذ من بنى دمر يسمون بنى يلول، وكان بها عبد الله الترنانى بن إدريس بن

= ومَلَكها، واستمرَّ فى إمارته إلى أنْ قتَلَهُ جوهر (قائد جيش معد بن إسماعيل) صاحب إفريقيا غدرًا سنة ٣٤٧هـ. الأعلام ٨/ ٢٠٤.

(١) نَدْرومة: مدينة تابعة لملك تلمسان، أسس هذه المدينة الرومان قديمًا عندما كانوا يحكمون المنطقة، وبنوها على بقعة واسعة فى سهل، بعيدة بنحو ميلين من الجبل، واثنى عشر ميلاً من البحر المتوسط، ويمرُّ قربها نهرٌ قليل الأهمية. وصف إفريقيا ٢/ ٣٥٠ و٢/ ١٣.

محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - وعلى ساحل ترنانا حصن تونت، وهو حصن منيع على جبل منيف قد أحاط به البحر من ثلاث جهات، وله مرتقى وعر من ناحية الشرق ولا يطمع فيه أحد، وينزله قبيل من البربر يعرفون ببنى منصور، وفى جبل الحصن معدن الإثمد، وله بساتين وشجر كثير، يحمل من زبيب تينه إلى ما يليه من النواحى. وعلى هذا الساحل أيضًا حصن أبى جنون، وحصن كاربيوا.

قال: ومن مدينة ترنانا إلى تابحريت عشرة أميال، وهى مدينة مسورة على ساحل البحر، لها مسجد جامع متقن البناء مشرف على البحر ولها أسواق جامعة، وهى محط السفن ومقصد التجار لقوافل سجلماسة وغيرها، ويسكنها من البربر مدغرة، وهم أعدل من هناك من قبائلهم.

وفى الشرق من تابَحْريت مدينة مصكاك بينهما نحو ثلاثة أميال، وهى مدينة مسورة على شاطئ البحر ذات بساتين، وسوقهم بِتَابَحْرِيت، وهى أقدم من تابحريت وإنما جدَّد مدينة تابحريت الحاج بن مرامر بعد العشرين وأربعمائة، وتابَحْرِيت ساحل مدينة وَجْدَة[1] بينهما أربعون ميلاً، ومن تلمسان إلى مدينة وجدة ثلاث مراحل، ومن تلمسان إلى الحمَّة[2]، ومن الحمة إلى قرية تسمى بالشهباء، ومنها إلى مدينة وجدة.

ومُدُّ وَجْدَة يسمى بالوَجْدَات، وهى مدينتان مسورتان، أحدث إحداهما يعلى ابن بلجين الورتغنينى بعد الأربعين وأربعمائة، يسكن فى المحدثة التجار، وفيها الأسواق، والجامع خارج المدينتين على نهر قد أحدقت به البساتين، وهى كثيرة الأشجار والفواكه، طيبة الغذاء، جيدة الهواء، يمتاز أهلها من غيرهم فى نضارة ألوانهم ونعمة أجسامهم، ومراعيها أنجع المراعى وأصلحها للظلف والحافر، ينتهى شحم شاة من شياههم مائتى أوقية.

---

(١) وَجْدَه: مدينة قديمةٌ بناها الأفارقة فى سَهْلٍ فسيح جدًا على بعد نحو ٤٠ ميلاً جنوب البحر المتوسط، وعلى نفس البعد تقريبًا من تلمسان، محاذية غربًا مفازة أنكاد. وصف إفريقيا ٢/ ١٢ـ١٣.

(٢) الحمَّة: مدينة بإفريقيا من عمل قسنطينية، من نواحى الجريد. وهى من مشترك البلدان. مراصد الاطلاع ١/ ٤٢٧.

وعلى مقربة من تابحريت مدينة تَافَرْجنّيت، وهى ساحل جراوة، وعلى مدينة وَجْدَة طريق المارة والصادرة من بلاد المشرق إلى سِجِلْماسة[١] وغيرها من بلاد المغرب، والطريق منها إلى سجلماسة، تخرج من وجدة إلى صاع، وهى قرية ذات نهر وثمار ومزارع، ومنها إلى تَامَلَلْت، ومنها إلى جبل بنى يَرْنيان ومنه إلى قير، ومنه إلى الأحساء، ومنها إلى الأَمْسَلى، ومنه إلى دار الأمير، ومنه إلى سِجلماسة.

* * *

الطريق من وَجْدَة إلى فاس

تخرج منها أيضًا إلى صاع، ومنها تَابَرِيدا، تفسيره: تَلُّ الأمير، ومنه إلى مكْنَاسَة، وهم أهل أخصاص، ومنها إلى مدينة فاس.

فأمّا الطريق من وَجْدَة إلى مليلَة، فإلى صاع ومنها إلى أجرسيف مرحلة، وهى قرية عامرة على نهر ملوية، يأتيها من جانب مُطْغَرة، والمخاضة إليها من جهة القبلة، ومن أجرسيف إلى قلوع جارة، وهى حِصْنٌ منيع فى أعلى جبل لا مُتَنَاوَلَ له ولا مطمعَ فيه، ومنه إلى مدينة مليلَة، وهى: مدينة مُسَوَّرَةٌ بسور حجارة، وداخلها قَصَبَةٌ مانعة[٢]، وفيها مسجد جامع وحمام وأسواق، وهى مدينة قديمة، ويذكر أن بنى البورى بن أبى العافيه المكناسى جددوها، ويسكنها بنوورْتَدى، وهم يَقْتَرِعون على من يدخل عندهم من التجار، فمن أصابته قُرْعَةُ الرجل منهم كان تَجِرُه على يده، ولم يصنع شيئًا إلاَّ تحت نظره وإشرافه، فيحميه عمَّن يريدُ ظُلمَهُ ويأخذُ منه الأجرَ على ذلك، ويأخذ منه الهديَّة لنزوله عنده.

وذكر محمد بن يوسف وغيره أن عبد الرحمن الناصر لدين الله افتتحها سنة أربع عشرة وثلاثمائة، وبنى سُورها معقلاً لموسى بن أبى العافية وقال أحمد بن محمد بن موسى الدارانى الرازى يذكر ذلك.

---

(١) سجِلْمَاسة: مدينة وسطة من حَدّ تاهرت، إلاَّ أنها منقطعةٌ لا يُسْلك إليها إلاَّ فى القفار والرمال، وهى قريبة من معدن الذهب المسالك والممالك للأصطخرى ٣٤.

(٢) مراصد الاطلاع ٣/ ١٣١١.

والملك النـــاصر لدين الله ... فِيما يَحُوطُ الدِّينَ غَيْرُ سَاه
بنىَ لموسَى عـدَّة مدينـة ... مَنِيعـةً شاهقــةً حَصِينَـة
ذَلّت لهـا تيهرت والأَفَارِقَة ... ولَمْ يطق بُنيَانَها العمالقة

وكَيْلُهم يُسَمُّونه المُدَّ، وهو خمسة وعشرون مُداً بمُدِّ النبى ﷺ، ورطلهم مثل رطل نكُور، اثنتان وعشرون أوقية، والأوقية خمسة عشر درهما، وقنطارهم من جميع الأشياء بهذا الرطل، والدراهم بها عدة قراريط كل قيراط خمسة أثمان درهم.

فأما الطَّرِيق من القيروان إلى ملِيلَة، فمن القيروان إلى صَاع على ما تقدَّم قبل هذا، ومن صَاع إلى ملِيلَة على ما ذكرنا آنفا، وذلك ثلاث وثلاثين مرحلة، وذلك من ملِيلَة إلى مدينة جَرَاوة مرحلتان، ثم الطريق من جراوة كما يأتى بعد هذا فى الطريق من فاس إلى القيروان كذلك إحدى وثلاثون مرحلة، وبقبليّ مدينة ترنانا على مقربة منها حصنان، أحدهما حصْنُ الزنجراعة والآخر حصن بنَى، منازلهما منيعة ومزارعها طَيِّبة مُتَّسِعَةٌ، وحِنْطَتُهَا تقاوم حنطة سائر تلك النواحى، وهى بلاد سهلية جبلية.

* * *

ذكر المراسى واتصالها

ومن المراسى مرسىَ ملِيلَة صَيْفِيّ، يوازيه من بَرّ الأندلس مرسى مدينة شلوبينة وسنذكر اتصال المراسى من نكُور آخذًا إلى الشرق وما يحاذيها من مراسى الأندلس إلى مرسى ملِيلَة.

ويلى مرسى ملِيلَة إلى الشرق، مرسى مدينة جراوة، وهو مأمون، وله نهر يريق فى البحر وبينه جزائر ملوية فى البر ثمانية أميال، ويقابله من بر الأندلس مرسى قمجلة بينهما مجريان، ويليه إلى الشرق مرسى عجرود، وهو مرسى صيفى يكون بغربيه، وفيه آبار وهو مسكون، ويوازيه من بر الأندلس مرسى دلاية بينهما مجريان، ويليه إلى الشرق مرسى تَرْنَانة، وهو صيفى وعليه سكنى وله آبارها ماء،

وبينه وبين مرسى عَجْرُود عشرة أميال، ويحاذيه من بَرّ الأندلس مرسى مرية بجانة.

ويليه مرسى مدينة أرشقول[١] المذكور قبل هذا، وجزيرة أرشقول في هذا المرسى، ويقابل هذا المرسى من بَرّ الأندلس قابطةُ بنى أسود، بينهما مجريان، ويليه إلى الشرق مرسى أَسْلَن.

فأما اتّصال المراسى من مرسى أَسْلَن إلى الشرق، فأَدْنَى المراسى إليها مرسى الماء المدفون والسُّكْنَى منه على مَقْرُبَة، وله عيونُ ماءٍ تَسِيلُ فى البحر، وبينهما ثلاثة عشر ميلاً، ويُقَابله من بَرِّ الأندلس مرسى الرَّاهب، بينهما مجريان وثلث.

ويليه مرسى جبل وَهْرَان مرسى كبير شتوى سكن من كل ريح، بينهما ستة أميال، ويقابله من بَرِّ الأندلس مرسى أَشْكُوبرش، المرسى القديم الذى نزله البحريون قبل نزولهم بجّانة بينهما مجريان ونصف.

ويليه إلى الشرق أيضًا مرسى عين فروج[٢]، وهو مرسى شتوى مأمون، وله آبار ماء، والسكنى منه على مقربة، وبينه وبين وهران فى البر أربعون ميلاً، ويقابله من بر الأندلس مرسى آقلة، وهو مرسى مدينة على البحر غير مسكونة، وفيها ماء مجلوب، وأَحْسَاء ماء، ومرساها غير مأمون. ويوازيه من بر الأندلس مرسى قرطاجنة.

ويليه مرسى مَغِيلة بنى هاشم، وهو مرسى صيفىّ لا يكنُّ من ريح، وله رباط على ضفة البحر مسكونٌ وماؤه كثير، وبينه وبين قصر الفُلُوس[٣] خمسة وثلاثون ميلاً، ويقابله من برّ الأندلس مرسى قبطيل تدمير.

ويليه مرسى مدينة تَنَس وهو صيفىّ، يكنّ بشرقيه وغربيه، وله ماء معين، بينهما مَراسٍ لِطَاف، ويقابل مرسى تَنَس من بر الأندلس مرسى شنتبول.

ويلى مرسى تَنَس إلى الشرقى مرسى جزيرة وقور بينهما أزيدُ من عشرين ميلاً،

(١) تاريخ البحرية الإسلامية ٥٣.

(٢) فى تاريخ البحرية الإسلامية صـ٥٣ عين فروج بالخاء المعجمة: فرضة تاهرت.

(٣) قصر الفلوس: من مرافئ وهران، وهى مدينةٌ مُحْدَثَةٌ، لها سور وهى لطيفةٌ جدًا، وسورها من تراب طابية، وماؤها من عين ماء جارية. صورة الأرض ٧٨-٧٩.

وله نهر لطيف يصبُّ فى البحر، والجزيرة قريبة من البرّ، ويقابلُ من بر الأندلس مرسى لقننت ويقطع البحر بينهما فى خمس مجارٍ، ثم مرسى شَرْشَال، عليه مدينة عظيمة للأوّل غير مسكونة، وله أحساء ماء يكنّ بشرقيه وغربيه، ويقابل من بر الأندلس مرسى مريرة، بينهما خمس مجار ونصف، وكان لمدينة شَرْشَال مبنى ارْتَدَم، وفيها رِبَاطَاتٌ يجتمعُ إليها فى كل عام خلقٌ كثير.

ويليه جبل شنوة، وله مرسى يسمى البطَّال، وهو غير مسكون، يكنّ بغربيّه، وله ماءٌ يسير، ويقابل من عُدْوَة الأندلس جبل قرون، بينهما خمسُ مجارٍ ونصف، ثم مرسى هور، ثم إلى أنْفِ القناطر، وهناك آثار قناطر قائمة، ثم إلى مرسى الذيّان، ويليه مرسى جنابية جزيرة، وهناك مدينة للأوّل غير مسكونة لها نهر يريق فى البحر، ويقابل من بر الأندلس مرسى دانية، وبينهما ست مجارٍ.

ويليه مرسى الجزائر وتعرف بجزائر بنى مزغنى، وقد تقدم ذكر مدينتها، وهو مرسى مأمون شتوى بين جزيرة سطفلة من الشرق إلى الغرب، وبين البر وبالمرسى عين عذبة، ويقابل من برِّ الأندلس مرسى بنشكله[1] بينهما ست مجارٍ.

ويلى هذا المرسى من المراسى المشهورة مرسى الدّجاج[2]، وهو صيفى غير مأمون، ويقابل من جزاز الأندلس جزيرة ميورقة، وبقرب منها مرسى مدينة بجاية أولية آهلة عامرة بأهل الأندلس، وبشرقيها نهر كبير تدخله السفن محملة، وهو مرسى مأمون شتوى، قد خرج عن محاذة جزيرة الأندلس، ثم مرسى مأمون، ومرسى بجاية[3] هو ساحل قلعة أبى طويل، وعلى هذا المرسى فى تلك الجبال قبائل كتامة، وهم شيعةٌ يكرمون مَنْ مَالَ إلى مذاهبهم ويُبَرِّرُون من وافق اعتقادهم، وجزيرة جُوبَة قبل مرسى بجاية.

ثم يلى مرسى بجاية مرسى سبيبة، وعلى مرسى سبيبة فى جبال كتامة عين الأوقات معروفة، وإذا كانت أوقات الصلوات جرى الماء فيها، فإذا خرجت الأوقات غاض وانقطع، ومن هذا المرسى تدخلُ السفن إلى جزيرة العافية.

---

(١) تاريخ البحرية الإسلامية صـ٥٤.

(٢) من مراسى المغرب الأوسط. تاريخ البحرية الإسلامية ٥٤

(٣) بجاية: من مراسى المغرب الأوسط. انظر: تاريخ البحرية الإسلامية ٥٣.

ثم مرسى جيجل فيه آثار للأول، وهو معمور اليوم، وعلى هذه المواضع كلها من جبال كتامة معادن النحاس، ومنها يحمل إلى إفريقية وغيرها، وبهذا الجبل حجر اللاَّزورد الطيب، ومن هذا المرسى إلى مرسى الزيتونة وقد تقدم وصفه، وهذا الجبل أوَّلُ حَدِّ الجبل الذى يعرف بجبل الرحمن، وهو جبل عظيم خارج فى البحر يقابل جزيرة سَرْدَانية، وهو كثير الثمار والأنهار، يسكنه قبائل البربر من كتامة وغيرها، وفيه مزارع كثيرة ومراعٍ مريعة، ومنه يحمل عودُ الخرط إلى إفريقية وما وَالاَها، وفيه أسواقٌ كثيرة ومراسٍ، ومنها مرسى الخرَّاطين، ومرسى الشجرة، وفى آخره مرسى القلّ.

ومنه تسير إلى مرسى أَسْتُورة، وهو مرسى مدينة تَاسِقْدَة، وهى مدينة أَوَّلية قديمة فيها آثار للأوّل عجيبة، ثم إلى مرسى الروم وهو شتوى مأمون، إلى جزيرة عُمَر إلى مرسى تكوش، مرسى مأمونٌ فيه قرى كثيرة يتصل به جبلٌ كثير الفواكه والخير.

ثم إلى رأس الحمراء، ثم إلى مرسى ابن الألبيرى، ثم إلى مرسى الخرُّوبة، ثم إلى مرسى منيع، وهو مرسى بُونَة[١]، وبقربه بئر النَّثْرة المذكورة، وهى بئر منقورةٌ فى صخرة صماء من عمل الأوّل على ضفة البحر، إذا ارتجّ البحر وصل إليها، ومن مرسى بُونةَ تخرج الشوانى غازية إلى بلاد الروم وجزيرة سَرْدَانية وكرشقة وما وَالاَها.

ثم مدينة مرسى الخرز[٢]، ثم مرسى طبرقة[٣]، ويلى طبرقة من المراسى المشهورة مرسى قرطاجنة، وبينهما من المراسى الصغار مرسى أنف أبى خليفة، قبالته جزائر الأخوين، ثم مرسى الروم، ثم مرسى القبة، وهو مرسى بنزرت، وعلى مقربة منه جزيرة قملاريه منه يقطع قواطع الطير من الأندلس وغيرها إلى بلاد الروم، وهناك ترتقب سكون الريح لطيرانها فتستعلى على أوطانها ثم مرسى رأس الجبل، وهو مشتى مأمون، ثم مرسى الثنية، ثم رباط قصر أبى الصقر، وقبالته جزائر الكراث التى قتل فيها زيادة الله عمومته وإخوته، ثم مرسى رباط

(١) صورة الأرض ٧٧ وتاريخ البحرية الإسلامية ٥٢.

(٢) صورة الأرض ٧٦.

(٣) صورة الأرض ٧٦.

قصر الحجامين، ثم مرسى قرطاجنة.

ثم مرسى قصر الأمير، بينه وبين مدينة تونس ثمانية أميال فى البر، وهو متصل بها فى البحيرة المحفورة، وهذا القصر على الخليج المحفورة فى البحر إلى مدينة تونس، ثم مرسى كبير يسمى رادس، وقد تقدم ذكره، وما ورد فيه عند ذكر مدينة تونس.

ويلى مرسى تونس[١] إلى القبلة من المراسى الكبار مرسى سُوسَة وبينهما من المراسى الصغار رباط الحمّة، ثم جون النخلة، ثم مرسى بُونَة فى قبليّه جزيرتان إحداهما تعرف بالجامور الكبير والأخرى بالجامور الصغير وهى أصغر.

ثم جبل أَدَار يظهر منه جبل صَقَلّية، وفى هذا الجبل قوم متعبّدون تَخَلَّوا عن الدنيا وسكنوا فى هذا الجبل مع الوحش، لِبَاسُهم البردى، وعيشهم من نَبَاتِ الأرض، ومن صَيْدِ البحر، يتناولون من ذلك ما يكون بُلْغَةً لهم، إذا جَاعُوا، والدعوة من أكثرهم مستجابة، وهذا الجبل معروف بالتزام هؤلاء فيه منذ فُتِحت إفريقية.

ثم جون الملاَّحة، ثم مرسى مدينة إقليبية: مدينة كبيرة أهلة، ثم المرسى المدفون وهو بحر صعب كثيراً ما تُعْطَبُ فيه السفن، ثم مرسى مدينة ريهان، ثم مرسى هرقلة، ثم مرسى قصر ابن عُمَر الأغلبى، ثم مرسى مدينة سُوسَة[٢].

ثم تسير من مرسى سُوسَة إلى ناحية القبلة إلى مرسى خفانص، وهو مشتى عليه قصر كبير مَحْرَسُ رباط، ثم إلى مرسى محرِس المُنَسْتِير، وليس بإفريقية أجل من هذا المحرس، وقد مضى ذكره، وبقرب هذا المرسى مَلاَّحة لمطة، وهى ملاَّحة كبيرة، ومِلْحُها لا يفوقه ملح، ومنها يحمل إلى ما جاورها من البلاد.

ثم إلى مرسى قصر القُورِيَّتين، وهما جزيرتان فى البحر كبيرتان تشق السفنُ بينهما، ومنهما إلى مدينة المهديّة على ساحل القيروان[٣]، ومَحَطٌّ للسفن لمن قَصَدَها من جميع الجهات.

(١) تاريخ البحرية الإسلامية ٥٢.

(٢) تاريخ البحرية الإسلامية ٥٢.

(٣) تاريخ البحرية الإسلامية ٥٢.

* فأما سلوك السفن من المهديّة إلى الإسكندرية:

فمن مرسى المهديّة إلى مرسى سلقطة وعليه قصر، إلى مرسى قبودية وهى قصورٌ، إلى رأس الجسر وهو أول القصير، إلى الزرقاء الكبيرة والصغيرة، وهما جزيرتان من الماء، إلى جزيرة قرقنة، وهى جزيرة كبيرة فيها سبعة أجباب وفيها آثار قديمة، ويدخل فيها أهل الساحل مواشيهم ويبذر أكثرها وهى قبالة مدينة سفاقس.

ثم إلى رأس الرَّمْلَةِ، ثم إلى الجرف، ثم إلى قصر الروم وهو بحر مَيِّتٌ، ثم إلى مدينة قابس.

ثم إلى جزيرة جَرْبة، وهى جزيرةٌ معمورةٌ يسكنها قوم من البربر خوارج، وهى كثيرة الذهب، وبينها وبين البرّ الكبير مجاز، وهى آخر القصر إلى الشرق، وأهلُها غَدَّارُون شِرَارٌ لا تُؤْمَنُ ناحيتهم، وطول هذا القصر فى البحر نحو خمسين ميلاً، وفى داخل البحر من داخل القصر بنيان من بنيان الأوَّل فهو يسمى قصر البيت، وتجرى من قصر البيت إلى الشمال نحو خمسين ميلاً إلى جزيرة نموشت وجزيرة أنبدوشة.

ثم تخرج السفن من جزيرة جَرْبَة إلى مرسى الأندلسيين، ثم إلى قصر الدرق، وهو بحرمَيِّتٌ، ثم إلى عُقَيْبلات يدخل إليها فى مجلة فى البحر، ثم إلى جبل قنطبير.

وجبل قنطبير المتقدم الذكر هو موضع مخوف فى البحر، ثم إلى مرسى مدينة أَطْرَابُلس، ومَرْسَاها مأمون جيد، ولها دار صناعة للأساطيل، ثم تخرج منه إلى رأس الشعراء، ثم إلى لبدة، ثم إلى رأس قانان، ثم إلى قصر العبادى، ثم إلى سرت، ثم إلى أَجْدَابية، ثم إلى اليهودية، ثم إلى حجر عبدون، ثم إلى عين أبى زياد، ثم إلى رأس أَوْتَان وفى رأس أوتان قالة الشينى، ثم إلى سُوسَة بَرْقة، ثم إلى شُقَّة الفلفل، ثم إلى شُقَّة التَّيْس، ثم إلى مرسى درنَى، ثم إلى مرسى يَتْنَى، ثم إلى طُبْرُق، ثم إلى جزيرة الطرفا، ثم إلى جزائر الحمام، ثم إلى وادى ملالى، إلى رأس المَلاَّحة إلى مرسى الزيتونة، إلى مرسى عمارة، إلى مرسى السلوم إلى رأس العَوْسَج إلى الكنائس إلى الشقراء إلى بوصير إلى مِينَى الزُّجَاج إلى مِينَى الأندلسيين إلى منارِ الإسكندرية.

* فأمَّا سلوكُ السُّفن من الإسكندرية إلى أنطالية:

فإنها تخرج من مدينة الإسكندرية إلى بوقير، ثم إلى دمياط، ثم إلى بحيرة تَنّيس، ثم إلى جزيرة دَبْقُو، وهى التى تصنع فيها الثياب الدُّبَيْقية، ثم إلى تيدارميماس، وفيها قصر مبنى للصحابة رضى الله عنهم، ثم إلى غَزَّة، ثم إلى مَلاَّحة الواردية، ثم إلى عَسْقَلان، ثم إلى قَيْسَارِيَّة، ثم إلى يَافَا، ثم إلى رأس الكرمان، ثم إلى حَيْفَا، ثم إلى عكَّة، وفيها قنطرة مبنيَّة للأوَّل تدخل تحتها السفن بشُرُعِها، ثم إلى مدينة صُور، وهى داخل البحر، وهى ساحل بيت المَقْدِس، ثم إلى صَيْدَا، ثم إلى بيروت، ثم إلى أَطْرَابُلس الشام، ثم إلى الَّلاذقية، ثم إلى أنطاكية، ثم إلى أنطالية، ومن أنطالية تدخل إلى الجزائر المؤلَّفَة.

فهذا مَسْلَكُ المراكب من مدينة أَسْلَن على التوالى إلى هذا الموضع، وقد بقى فى أقاصى المغرب مَرَاسٍ نذكرها إن شاء الله حتى نوصلها بأصيلى.

أخبر مُؤْمِن بن يُومر الهَوَّارى: أَنَّ بجزيرة آوى مَشْتَى على ضفّة البحر، وهذه الجزيرة تمشى منها الرفاق مُوَاجِهة للمشرق شهرين مَشْىَ الإبل إلى مدينة نُول، ومدينة نُول آخر بلد الإسلام، وأول العمران من الصحراء.

وتسيرُ السفن من ساحل نُول إلى وادى السُّوس ثلاثة أيام، ثم من وادى السُّوس إلى مرسى أمقدول، وهو مرسى مشتى مأمون، وهو ساحل وادى السُّوس، ثم إلى مرسى قوز، وهو رباطٌ يَعْمُرُهُ الصَّالحون وهو ساحل أغمات، ثم إلى مرسى أسفَى، ثم إلى البيضاء وهو رأسُ جبلٍ داخل فى البحر، ثم إلى جزيرة فضالة، وهو ساحل بلد تَاسَمْنَى بلد برغواطة، ثم إلى مرسى ماريفن.

ثم إلى وادى سلَى، وهناك مدينةٌ أَوَّلِيَّة آثارها قائمة تسمى شلَّة، وفى ناحية الشرق من وادى سلَى على البحر غارٌ عظيم، وفى أعلاه منافس كأفواه الآبار، وظهرُ الغَارِ مزروعٌ.

ثم إلى وادى سبو، ثم إلى وادى سفدد، ولا يسكن فى وادى سَفْدَد أبيض اللون إلا اعتلَّ وَقَلَّ ما يَسْلَمُ من علَّته، وإنما يسكنه السُّودان، وإذا رَأَوْا رَجُلاً أبيضَ اللون قد دخل عندهم ينادى بعضهم بعضًا: ميزميز، ثم من وادى سفدد إلى حوض أَصيلة، ثم على ما تقدَّم.

ذكر بلد نكور[١] وَحَدُّهُ

ينتهى من جانب الشرق إلى زواغة جراوة الحسن بن أبى العيش. ومسافة ذلك نحو خمسة أيام، ويجاورهم من هاهنا مطماطة وأهل كيدان، ولمرنيسة الكدية البيضاء، وغساسة أهل جبل هرك، وقلوع جارة التى لبنى وَرْتَدى.

وينتهى من جانب الغرب إلى قبيل من غمارة يعرفون ببنى مروان، وبنى حميد إليهم، تنسب الحميدية، وإلى مسطاطة وصنهاجة، ومن ورائهم أوربة حزب فرجون، وبنو وليد وزناتة أهل تابريدا وبنو يرنيان وبنو مراسن حزب قاسم صاحب صاع والكدية المعروفة بتاوررت[٢].

والمراسى المنسوبة إلى نكور مرسَى ملوية وهرك وكرط ومرسى الدار وأوفنيس من مراسى تمسامان، وهو الجبل المعروف بأبى الحسن الذى لجأ إليه بنو صالح[٣]، ووادى البقر والمزمَّة، بينه وبين مدينة نكور خمسة أميال، والمزمة فى القبلة من المرسى، ويقابله من برِّ الأندلس مدينة مالقة، ويقطع الغدير بينهما فى مجرى ونصف، ومرسى باديس ومرسى بقوية وبالش مرسى صَنْهَاجة وغيرها.

ومدينة نكور بين رواب منها جبل يقابل المدينة يعرف بالمصلّى، وبها جامع على أعمدة، من خشب العرعار، وهو والأرز أكثر خشبها، ولها أربعة أبواب فى القبلة باب سليمان وبين القبلة والجوف باب بنى ورياغل، وفى الغرب باب المصلَّى،

(١) نُكور: ميناء صغير فى شمال المغرب الأقصى على شاطئ البحر المتوسط على مصبّ نهر صغير يُسَمَّى وادى أكال بين مْلِيلَة والحسيمة. وهذا الوادى على صغره يحملُ الماء الكثير، فهو يجمعُ واديين: أحدهما وادى نكُور، ومخرجه من ناحية كزناية، والثانى من وادى عيسى، ومخرجه من بلاد بنى ورياغل (قبيلة عبد الكريم الخطابى) وقد زالت نكور اليوم، وربما كانت قريبة جدًا من فرضة تميد.

انظر: تاريخ المغرب وحضارته للدكتور حسين مؤنس ٤٢٦ والمسالك والممالك للأصطخرى ٣٤ والروض المعطار ٥٧٦ـ ٥٧٧.

(٢) صورة الأرض ١٠٢ـ ١٠٣.

(٣) أسَّس بنو صالح دولة نكور من ٩١هـ إلى ٤٧٣هـ. انظر فى ذلك: تاريخ المغرب وحضارته ٤٢٥ـ ٤٢٧.

وفى الجوف باب اليهود، وسورها من اللبن، وبها حمامات كثيرة وأسواق عامرة مفيدة، وهى بين نهرين أحدهما: نكور ومخرجه من بلاد كزناية من جبل بنى كوين، والثانى: نهر غيس مُنْبَعَثُهُ من بلد بنى ورياغل، ومسافة مجرى كل نهر منهما إلى مَصَبِّه فى البحر مسيرة يوم وبعض ثان، وعلى نهريها الأرحاء، ومن جبل كوين أيضًا ينبعث النهر المعروف بنهر وَرْغَة، وهو من مشهور أنهار أرض المغرب، ويجتمع نهر نكور وغيس بموضع يقال له أكدال، ثم يتشعب هناك جداول، وفى طرف هذا الموضع رباط نكور.

وعلى نهر غيس بنى سعيد بن صالح مسجدًا على صفة مسجد الإسكندرية بمحارسه وجميع منافعه، وَعُدْوةُ غيس هذه يقال لها تاكراكرى، وهى منيعة، وفيها يتناتج كراع آل صالح.

وبين مدينة نكور وبين البحر خمسة أميال وهو فى جوفيها، وهى كثيرة البساتين والفواكه لا سيما الكمثرى والرمان، وقال أيوب بن إبراهيم النكورى: [من الوافر]

أيا أَمَلى الذى أَبْغِى وَسُؤْلِى ... وَدُنْيَاىَ الَّتِى أَرْجُــو وَدِينِى

أَأَحْرِمُ مِنْ يَمِينك رِىَّ نَفْسِى ... وَرِزْقُ الخَلْـقِ فى تلك اليميـنِ

وَيُحْجَبُ عَنْ يَمِينك لَحْظُ طَرْفِى ... ونُور الأَرْضِ مَن ذَاكَ الجبيـنِ

وقَدْ جُبْتُ الْمَهَامة من نُكُــورٍ ... إِلَيْــكَ بِكُلِّ نَاحِيَــةٍ أَمِيـنِ[1]

وكَيْلُ نكور يسمونه الصَّحْفَة، وهى خمسة وعشرون مدًا بمدِّ النبى ﷺ، ويسمون نصف الصحفة السدس، والرطل عندهم فى جميع الأشياء اثنتان وعشرون أوقية، وقنطارهم مائة رطل، ودراهمهم عدد بلا وزن.

والذى أسسها وبناها سعيد بن إدريس بن صالح بن منصور الحِمْيَرى[2]،

(١) الأبيات لإبراهيم بن أيوب النكورى فى الروض المعطار ٥٧٦ وفيه (أمون) مكان (أمين).

(٢) سعيد بن إدريس بن صالح بن منصور الحميرى: أميرٌ مغربى يمانىّ الأصل كان جَدُّه صالح أحدَ الأعيان القادمين إلى المغرب من اليمن فى الفتح الأوَّل ونزل فى مرسى قرب نكُور فى شمالى المغرب بالرِّيف على البحر المتوسط وأسلمَ على يده بَرْبَرُ تلك الناحية من صنهاجة وغمارة. =

وصالح بن منصور هو المعروف بالعبد الصالح، وهو الذى افتتحها زمان الوليد بن عبد الملك، ودخل أرض المغرب فى الافتتاح الأول، فنزل مرسى تمسامان على البحر بموضع يقال له بدكون بوادى البقر، وبين مرسى تمسامان ومدينة نكور عشرون ميلاً، وهو مرسى صيفى لا يكن، ويقابله من بر الأندلس مدينة طونيانة، وعلى يده أسلم بربرها، وهم صنهاجة وغمارة، ثم ارتد أكثرهم لما ثقلت عليهم شرائع الإسلام وقدموا على أنفسهم رجلاً يسمى داود ويعرف بالرَّندى[١] وكان من نفزة.

وأخرجوا صالحًا من البلد، ثم تلافاهم الله بهداه وتابوا من شركهم وقتلوا الرندىّ، واستردوا صالحًا، فبقى هناك إلى أن مات بتمسامان ودفن بقرية يقال لها الأقطى على شاطئ البحر، وقبره بها يعرف إلى اليوم، وكان له من الولد المعتصم وإدريس أمهما صنهاجية وعبد الصمد، فولوا المعتصم ومكث فيهم يسيرًا، ومات فولِّى سعيد بن إدريس، وهو الذى بنى مدينة نكور على ما تقدم.

وقد كان صالح بن منصور أنزل نفرًا من البربر موضعًا يحاذى مدينة نكور فى الضفة الثانية من النهر، وكانوا يقيمون هناك سوقًا، فنقلهم سعيد[٢] إلى المدينة التى أسسها، وغزا المجوس لعنهم الله مدينة نكور سنة أربع وأربعين ومائتين، فتغلبوا عليها وانتهبوها، وسَبُوا من فيها إلا من خلصه الله بالفرار، وكان فيمن سبوا أَمَةَ الرحمن وخنعولة ابنتا واقف بن المعتصم، ففداهما الإمام محمد بن عبد الرحمن. وأقامت المجوس بمدينة نكور ثمانية أيام.

وقامت البرانس على سعيد بن إدريس وقدموا على أنفسهم رجلاً يسمى سكن، وتألَّبُوا عليه من كل جهة، وغزوه فى عقر داره، فأظهر الله عليهم وهزمهم، وقُتِلَ رَئِيسُهم وافترق جمعهم ورجع من بقى منهم إلى الطاعة، ومات سعيد بن

= وبعد وفاته انتهى الأمْرُ إلى حفيده سعيد سنة ١٦٧، وانتعشت مدينة نكور، وقصدتها مرافق البحر من مرسى المرية، واستمرَّ مُلْكُ سعيد ٦٧ سنة، توفى سنة ٢٣٤ بنكور. الأعلام ٣/ ٩١-٩٢.

(١) انظر: تاريخ المغرب وحضارته ٤٢٧.

(٢) هو سعيد بن إدريس بن صالح بن منصور الحميرى (من ١٤٣- إلى ١٨٨هـ) تاريخ المغرب وحضارته ٤٢٥.

إدريس بعد أن ملكهم سبعًا وثلاثين سنة، وَوُلِّى ابنه صالح بن سعيد[١].

وكان لسعيد من الولد: منصور، وحمود، وصالح، وزيادة الله، والرشيد، وعبد الرحمن الشهيد، ومعاوية، وعثمان، وعبد الله، وإدريس، وكان عبد الرحمن فقيهًا بمذهب مالك، وحج أربعًا، وعبر إلى الأندلس للجهاد، فقطع عليه ابن حفصون الطريق فقتل من معه، وتخلّص عبد الرحمن على فرسه، وحضر غزوة أبى العباس القائد واستشهد فيها.

وقام على صالح أخوه إدريس فى بنى ورياغل وكزناية، فالتقوا بجبل كزناية المعروف بكوين، فانهزم صالح وانتهب إدريس معسكره، واستمر إلى مدينة نكور ليدخلها، فامتنعوا عليه، ومنعه خليفة صالح عليها فقال له: «إن صالحًا قد قتل»، فقال: «إذا صَحَّ عندى ذلك لم أدافعك»، فلما لم يجد عندهم ما يريد نزل الجبل المطل على المدينة، وأتى صالح فى جوف الليل فى خاصة من أصحابه فدخل المدينة، فلما كان من الغد أقبل إدريس على فرسه، وعليه درعه، وهو لا يعلم بأمر أخيه، فأدخلوه المدينة فأرجله فتيان صالح عن دابته، وأتوا به صالحًا أخاه، فأمر بحبسه فى داره، ثم أشار عليه قاسم الوسنانى صاحب صاع والكدية بقتله وألح عليه فى ذلك، فأمر الموالى بقتله فامتنعوا، فأمر فتى من فتيانه يقال له عَسْلُون فقتله.

وامتنعت مكناسة[٢] على صالح وحبسوا مغارمهم، فكتب إليهم يوعدهم فختم الكتاب وأدخله فى مخلاة، وشدّها على حماره، وبعثه مع ثقة من ثقاته وقال له: «إذا توسطت بلاد مكناسة فاترك الحمار بما عليه وانصرف»، ففعل فأصابت مكناسة حمار صالح، وكان معروفا بينهم، وأخذوا المخلاة، فلما قرءوا الكتاب ائتمروا على عقر الحمار والتمادى على امتناعهم. ثم انصرف رأيهم إلى جمع ما كان عليهم لصالح، فجمعوه وجلَّلوا الحمار بملحفة مروية وأتوا صالحا بالحمار مُجَلَّلا، ومغارمهم موفاة واستعتبوه فأعتبهم، ومات صالح بن سعيد بعد أن ملك ثمانية وعشرين عاما.

(١) حكم صالح بن سعيد نكُور ٦٢ عامًا من ١٨٨ـ إلى ٢٥٠هـ تاريخ المغرب وحضارته ٤٢٧.
(٢) انظر: وصف إفريقيا ١/ ٢١٤ـ٢١٧.

فولُّوا ابنه سعيدًا[1]، وكان أصغر ولده، فلما توطَّد له الأمر واستوثق، دخل عليه عبيدهم الصقالبة فسألوه العتْقَ، فقال لهم: «أنتم جُندنا وعبيدنا، وأنتم كالأحرار، لا تدخلون المواريث ولا تُجرى عليكم المقاسم، فما طلبكم للعتق؟»، فألحوا عليه فى ذلك فأبى، فناله منهم جفاء وغِلظة، وقدَّموا أخاه عبيد الله وعمه الرَّضِى المُكَنَّى بأبى على، وزحفوا بهما إلى القصر، فحاربهم سعيد من أعلى القصر بالفتيان والنساء حتى انهزموا. وقامت عليهم العامة فأخرجوهم إلى قرية فوق المدينة تعرف بقرية الصقالبة، فتحصنوا بها سبعة أيام، وحشد سعيد، وخرج إليهم، وظفر بهم بعد حرب شديدة، وكان الرَّضِى عمه وصهره وكانت ابنته طالت تحته فحبسه مع أخيه عبيد الله، وقتل من خرج معهما من بنى عمه، منهم الأغلب، وأبو الأغلب، ثم وَكَّل بأخيه عبيد الله من أوصله إلى مكة، فأقام بها حتى مات.

فامتعض سعادة الله بن هارون، وهو ابن عم الأغلب لقتل ابن عمه، وقال: «قتل سعيد ابن عمى وأبقى عمه وأخاه وذنْبُهما واحد»، فألّب عليه بنو يصلين أصحاب جبل أبى الحسن، ثم عقد أمره معهم وسعادة الله مع سعيد بنكور وهو لا يعلم، فلما أعلن بنو يصلين بالخلاف على سعيد، جمع أصحابه، وخرج إليهم ومعه سعادة الله.

فلما التحمت الحرب تحيز سعادة الله فيمن تبعه إلى بنى يصلين وخذل سعيدا، فانهزم سعيد، وأخذت بنو يصلين بُنُودَه وطُبُوله وقتلوا من مواليه نحو ألف رجل وأتوا مع سعادة الله حتى حاصروا بنكور، فكانت لسعيد الكرة عليهم فهزمهم، وأسر ميمون بن هارون أخا سعادة الله وقتله.

وسار سعادة الله إلى تمسامان، وخرق سعيد دوره وخرَّبها، ثم صالح سعيدا، فانصرف إلى نكور، وكان شجاعا بئيسًا، فخرج سعادة الله بعد ذلك فى خاصته إلى بلاد بطوية وبنى ورتدى فأدخلوه قلوع جارة، ونَهَدَ بهم إلى مرنيسة وزناتة، فقتل فاستملك له جميع ذلك البلد، وانصرف سعادة الله إلى مدينة نكور، فأقام بها مصافيًا لسعيد.

(١) سعيد بن صالح، حكم نكور من ٢٥٠ـ إلى ٣٠٥ هـ. تاريخ المغرب وحضارته ٤٢٨.

وتزوج أحمد بن إدريس بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسين بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه أخت سعيد أم السعد بنت صالح وابتنى بها، وسكن معها مدينة نكور إلى أن مات، ولما تغلب عبيد الله الشيعى كتب إلى أهل المغرب يدعوهم إلى الدخول فى طاعته والتدين بإمامته، وكتب بمثل ذلك إلى سعيد بن صالح، وكتب بأسفل كتابه أبياتا كثيرة، منها: [البحر الطويل]

فَأنْ تَسْتَقِيمُوا أَسْتَقِمْ لِصَلاَحِكُمْ ... وَإِنْ تَعْدِلُوا عَنِّى أَرَ قَتْلَكُم عَدْلاً

وأعلُو بِسَيْفِى قَاهِرًا لِسُيُوفِكُم ... وأَدْخِلُهَا عَفْوًا وَأَمْلَؤُها قَتْلاً

فأجاب رجل من شعراء الأندلس من أهل طليطلة أمره يوسف بن صالح، وتلقب بالأحمس وكان شاعر آل صالح فى ذلك العصر بأبيات كثيرة، منها[1]: [من الطويل]

كَذَبْتَ وبَيْت اللَّه لاَ تُحْسِنُ العَدْلاَ ... ولا علم الرَّحْمَنُ مِنْ قَوْلك الفَصْلاَ

فَمَا كُنْتَ إلاَّ جاهلاَ ومُنَافقًا ... تُمَثّل لِلْجُهَّال فى السُّنَّة المثلا

وهمَّتنا العُلْيَا لِدِين مُحَمَّدِ ... وقد جَعَل الرَّحْمَنُ هِمتَّك السُّفْلَى

فكتب عبيد الله الشيعى إلى مَصَالة بن حَبُوس[2] عامله على تيهرت يأمره بالمسير إلى بلد نكور ومحاربة سعيد بن صالح، فخرج مصالة لذلك من تيهرت غرة ذى الحجة سنة أربع وثلاثمائة، فنزل من مدينة نكور على مسيرة يوم بموضع يسمى نسافت، فخرج إليه سعيد بن صالح فحاربه ثلاثة أيام مكافيًا له.

---

(١) تاريخ المغرب وحضارته ٤٢٨.

(٢) مَصَالة بن حَبُوس المكناسى: أميرٌ بَرْبرى، كانت له رياسة مكْنَاسة، القبيلة وبلادها فى الشطر الثانى من المائة الثالثة الهجرية، وعَظُم أمرها فى حياته فتغلَّب على قبائل البربر. ولَمَّا استولى عُبَيْد الله المهدى على المغرب، كان مَصَالة بن حَبُوس من أكبر قُوَّاده، وولاَّه المهدى على مدينة تاهَرْت والمغرب الأوسط، وزحفَ مَصَالَةُ إلى المغرب الأقصى سنة ٣٠٥هـ واستولى على فاس وعلى سِجِلْماسة، واستنزل يحيى بن إدريس من إمارته بفاس إلى طاعة عُبَيْد الله، وأبقاه أميرًا على فاس، وعقد لابن عمِّه موسى بن أبى العافية أمير بلدة مكناسة على سائر ضواحى المغرب وأمصاره، وقفلَ إلى القيروان، فقتله محمد بن خزر الزناتى. الأعلام ٧/ ٢٢٧ وانظر أيضًا: تاريخ ابن خلدون ٦/ ١٣٤ والبيان المُغْرِب ١/ ١٩٧.

وكان مع سعيد رجل من شجعان البرابر وأعلامهم يقال له حمد بن العياش من بنى بطوقت دعته نفسه إلى أن يقصد محلة مصالة فيفتك به، فوافى المحلة فى سبعة فوارس، واقتحم على مصالة، فتصايح الناس فكاثروهم، فأخذ حمد أسيرا ومن معه، فأمر مصالة بضرب عنقه فقال حمد: «ليس مثلى يُقتل»، قال مصالة: «ولم؟»، قال: «لأنك لا تطمع فى سعيد إلا بِى وعلى يدىَّ»، فاستبقاه وقرَّبه وألطف مكانه حتى أنس به، ثم أعطاه قطعة من العسكر، فقصد بها من جانب كان يعلم الغرّة به حتى دخل عسكر سعيد من المأمن، ومن حيث لا يُظن به، ففرق جمعه وغشى سعيدا ما لم يتأهب له، وتتابعت عليه العساكر، فنظر أمرا لا يستطيع المقام عليه، فبعث إلى مدينة نكور، فأخرج كل ما كان فى قصره وما معهم، وصاروا بحزيرة فى مرسى نكور ومعهم صالح بن سعيد وإدريس والمعتصم ابنا سعيد أخواه[1].

وظاهر سعيد بين درعين هو وفتيانه وخاصته، وقاتل حتى قتل واستبيح عسكره ودخل مصالة مدينة نكور يوم الخميس لثلاث خلون من المحرم سنة خمس وثلاثمائة، وانتهب مدينة نكور، وسبى النساء والذرية، وبعث بالفتح إلى عبيد الله وبعث برأس سعيد بن صالح، ومنصور بن إدريس بن صالح وغيرهم من بنى صالح بن منصور، فطيف بها فى مدينة القيروان، ونصبت بمدينة رقادة، وفى ذلك يقول أبو جعفر أحمد بن المروذى فى أرجوزة:

لَمَّا طغَى الأَرْذَلُ وابْنُ الأَرْذَلِ ... فى عُصْبَةٍ من الطَغام الجُهَّلِ
قَال نكور دون ربى معقلى ... أتاه مختوم القَضَاءِ الفَيْصَلِ
من الإله كالحريق المشعل ... فحل أرضا طالما لم تُحَلَّلِ
حَطَّم أَهْلَ كُفْرِها بالكَلْكَلِ ... وجَماء رَأْسَ رَأْسِها المُبَذَّلِ
على القنا من الرماح الذُّبَّلِ ... ذو لَمَّةٍ شَاعِثَةٍ لم تُغْسَلِ
وِلحْيَةٍ غَبْراءَ لَمْ تُرَجَّلِ

وركب من نجا من ذرية سعيد بن صالح وأهله البحر من مرسى نكور، ونزلوا

(١) تاريخ المغرب وحضارته ٤٢٨.

مالقة[١]، وبَجَّانة[٢]، فأمر عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله بإنزالهم والتوسع لهم وحباهم بالكساء الرفيعة والصِّلات الجزلة، وخيَّرهم بين المقام بدار مملكته أو المُقام بمالقة، فاختاروا المقام بمالقة لقربها من بلدهم ورجائهم العودة إليه، وتكرر مصالة فى البلد نحو ستة أشهر، ثم استخلف عليه رجلا من أصحابه يقال له دلول، وانصرف إلى تيهرت، فافترق عن دلول من كان معه من المشارقة وبقى فى قليل من أصحابه.

فلما صحَّت الأنباء بذلك عند بنى سعيد أزمعوا الانصراف إلى بلدهم ثقة بمحبة رعيتهم، لهم وميلهم إليهم، فاتفقوا على ركاب البحر فى مراكب مختلفة، فمن وصل منهم قبل صاحبه فالولاية له، وهم إدريس والمعتصم وصالح، فركبوا البحر من مالقة فى ليلة واحدة ووقت واحد وريح واحدة، فوصل أصغرهم سنا صالح ابن سعيد إلى مرسى نكور من ليلته، وأصبح له بالمرسى المعروف بوادى البقر بتمسامان، فتسامع البربر بقدومه فتسارعوا إليه من كل جانب وجاءوه من كل جهة وعقدوا له الإمرة ولقبوه باليتيم لصغره، وزحفوا إلى دلول، فأخذوه وجميع أصحابه فصلبوهم أجمعين على ضفتى نهر نكور.

وكتب صالح بالفتح إلى عبد الرحمن بن محمد[٣]، فقرئ كتابه بجامع قرطبة ونسخه فى سائر بلاد الأندلس، وأمر بإمداد آل صالح بما يجل من الأخبية الشريفة والآلة العجيبة والكساء الرفيعة، والسروج، والحلى والبنود والطبول والدروع وجميع السلاح حتى عوضهم الله أكثر مما زال عنهم،

فتوطد الملك لصالح بن سعيد واعتاق البحر أخويه شهرين يترددان فيه، ثم وصلا بعده إلى نكور سالمين، فسلما له الأمر. ومات صالح بعد أن ملك عشرين

---

(١) مَالَقَة: مدينة بالأندلس عامرة من أعمال مريَّة، سورها على شاطئ البحر بين الجزيرة الخضراء والمريّة، نُسِبَ إليها جماعة من أهل العلم، منهم: عزيز بن محمد اللخمى المالقِى، وسليمان بن المعافرى المالَقِى معجم البلدان (مَالَقَة) ٤/ ١٩٧.

(٢) بَجَّانة: مدينة بالأندلس من أعمال كورة ألبيرة، خَرُبَت، وقد انتقل أهلُها إلى المرية، وبينها وبين المريّة فرسخان، وبينها وبين غرناطة مائة ميل، وهى ثلاثة وثلاثون فرسخًا. معجم البلدان (بجانة) ١/ ٢٧٠.

(٣) تاريخ المغرب وحضارته ٤٢٨.

سنة، ولم يزل آل صالح على السنة والجماعة[1] والتمسك بمذهب مالك بن أنس رضى الله عنه، وكان صالح وابنه سعيد يصليان بالناس ويخطبان ويحفظان القرآن.

فولى الأمر المؤيد بن عبد البديع بن صالح بن سعيد بن إدريس بن صالح بن منصور، فزحف إليه موسى بن أبى العافية فحاصره حتى تغلب عليه، فقتله واستباح المدينة وانتهبها، وهدم أسوارها، وخرب ديارها ونسف آثارها، وتركوها بلاقع تسفى عليها الرياح، وتعوى فيها الذئاب، وبلغ منها ما لم يبلغ بعضه مصالة ابن حبوس، وذلك سنة سبع عشرة وثلاثمائة.

ثم ولى أيوب إسماعيل بن عبد الملك بن عبد الرحمن بن سعيد بن إدريس بن صالح، فبنى المدينة القديمة التى أسسها صالح بن منصور وعمرها، وأعاد السوق فيها وسكنها إلى سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة.

ففيها أخرج القاسم الشيعى، صاحب إفريقية صندلاً الفتى الأسود إلى أرض المغرب مددًا لميسور الفتى إذ أبطأ خبره عليه. فخرج الصندل من المهدية فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، فوصل إلى جراوة الحسن بن أبى العيش فاستراح فيها أياما، ثم سار إلى هراس وكتب إلى إسماعيل بن عبد الملك صاحب نكور يأمره بالقدوم عليه، وقد كان خرج من نكور وصار بقلعة أكرى، فبعث إليه رسلا وكتب أنه فى الطاعة، فلم يرض منه صندل بذلك، وبعث إليه رسلا يستحثونه فى المسير إليه، فقتلهم إسماعيل عن آخرهم، فلما أتى صندلا خبر قتلهم زحف إلى قلعة أكرى فنزل قريبا منها بموضع يقال له نسافت، وهو الموضع الذى قتل فيه مصالة بن حبوس سعيد بن صالح. فغلب صندل على القلعة بعد قتال ثمانية أيام ومعارك قتل فى آخرها إسماعيل وأكثر أصحابه، وذلك يوم الجمعة فى شوال من السنة المذكورة، وغنم الصندل كل من كان فى القلعة من نساء إسماعيل وقرابته، وأخذ له ولدين طفلين، وولى على المدينة رجلا من كتامة اسمه مرمازو، وصار إلى صاحبه ميسور وهو على فاس يحاصرها.

وكان موسى بن المعتصم بن محمد بن قرة بن المعتصم بن صالح بن منصور،

(١) تاريخ المغرب وحضارته ٤٢٨.

وموسى هو المعروف بابن رومى بجبل أبى الحسن مع بنى يصلين. فلما زال صندل تراجع أهل نكور وقدموا على أنفسهم ابن رومى، وقتلوا مرمازو وجميع من كان معه، وبعثوا برأس مرمازو وجميع أصحابه إلى أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد.

وقام على موسى بن رومى عبد السميع بن جرثم بن إدريس بن صالح بن إدريس بن صالح بن منصور، فأخرجه من بلد نكور، وذلك سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.

فصار موسى إلى الأندلس ونزل بجانة بأهله وولده ومعه أخوه هارون بن رومى، ونزل بمالقة ابنا عمه جرثم بن أحمد ومنصور بن الفضل. ثم استدعى أهل نكور جرثم بن أحمد بن محمد بن زيادة الله بن سعيد بن إدريس بن صالح، فعبر البحر إليهم فولوه على أنفسهم، وذلك سنة ستة وثلاثين وثلاثمائة، وكان بها إلى ذى الحجة سنة ستين.

وتوالت الولاية هناك فى بنى جرثم إلى سنة عشر وأربعمائة، فغلبت عليهم أزداجة، وانتقل بنو جرثم إلى مالقة، ثم انتقلت أزداجة إلى بلدهم بناحية وهران، ورجع بنو جرثم إلى بلد نكور وهو مدينة المزمة، ثم غلب على بلد نكور يعلى بن الفتوح الأزداجى[1]، وأخرج بنى جرثم من جميع بلاد نكور، وهى اليوم بأيدى ذرية يعلى بن الفتوح، وذلك سنة ستين وأربعمائة.

ويلى مرسى تمسامان المذكور إلى الشرق مرسى كرط وهو غير مكنٍ، وفيه آبار، بينهما خمسة عشر ميلاً، ويقابله من بر الأندلس مرسى قرية بلس، ويقطع الغدير بينهما فى يوم وليلة، ويليه إلى جانب الشرق طرف هرك بينهما عشرة أميال تمشى فيه المراكب الصغار، وله أحساء، ويقابله من بر الأندلس مرسى شاط، ويقطع الغدير بينهما فى مجرى ونصف، ويليه إلى شرق جون بين طرف هرك ومدينة مليلة، ويقابل هذا الجون من بر الأندلس مرسى المنكب بينهما مجريان.

ويليه إلى جانب الشرق مرسى مليلة ونهرها فى البحر بينه وبين طرف هرك مسيرة أميال، ويقابله من بر الأندلس مرسى مدينة شلوبينية.

(١) انظر: تاريخ المغرب وحضارته ٤٢٨-٤٢٩.

فأما الطريق من مدينة نكور إلى مدينة القيروان فمن نكور إلى بنى يصليتن على نهر تمسامان، ومنها إلى نهر قرط مرحلة، ثم إلى قلوع جارة مرحلة، إلى وادى ملوية مرحلة، إلى مدينة جراوة مرحلة. فذلك ست مراحل، ثم الطريق كما تقدم.

ويجاور بلد نكور بلد عمارة فمنه مجكسة، وتنبأ بذلك الصقع أبو محمد حاميم ابن من الله بن حريز بن عمرو بن وجفوال بن وزروال الملقب بالمفترى، وببلد مجكسة جبل حاسيم المنسوب إليه، وهو على مقربة من مدينة تيطاوان، وأجابه بشر كثير قروا بنبوته، وجعل لهم الصلاة صلاتين عند طلوع الشمس، وعند غروبها يسجدون على بطون أكفهم، ووضع لهم قرآنًا بلسانهم فما ترجم منه بعد تهليل يهللونه: «حلنى من الذنوب يا من يحل البصر ينظر فى الدنيا، حلنى من الذنوب يا من أخرج مرسى من البحر». ومنه: «آمنت بحاميم وبأى خلق يريدون أبا حاميم، وكذلك كان يكنى، وآمن رأسى وعقلى وما أكنه صدرى وما أحاط به دمى ولحمى»، وآمنت بتانقيت، وهى عمة حاميم أخت أبى خلف من الله، وكانت كاهنة ساحرة، وكانت لحاميم أيضًا أخت تسمى دجو، وكانت ساحرة كاهنة، من أجمل الناس، وكانوا يستغيثون إليها فى كل حرب وضيق ويزعمون، أنهم يجدون نفعًا، وفرض عليهم صوم الخميس كله، ويوم الأربعاء إلى الظهر فمن أكل فيهما غرم خمسة أثوار لحاميم، ووضع لجميعهم صوم سبعة وعشرين يومًا من رمضان، وأبقى فرض صوم ثلاثة أيام، ويوم الفطر الرابع، وجعل عيدهم فى الثانى من الفطر.

وفرض زكاتهم العشر من كل شئ، وأسقط عنهم الحج والطهر والوضوء، وأحل لهم أكل أنثى الخنزير، وقال: إنما حرم ذكورها، وذلك فى قرآن محمد ﷺ، وحرم عليهم الحوت حتى يذكى، وحرم عليهم البيض من جميع الطير، وأنشد أبو العباس فضل بن مفضل بن عمر المذحجى لعبد الله بن محمد المكفوف الطنجى يهجو حاميم ويذكر فسقه: [من الطويل]

وقالوا افتراءً إن حَامِيمِ مُرْسلٌ إليهم بدين واضَح الحقّ باهرِ
فقلتُ كَذَبْتُم بَدَّد الله شَمْلكم فما هو إلا عاهرٌ وابنُ عَاهرِ

فإن كان حَامِيمُ رَسُولاً فإنَّنى بإرسال حـاميمَ لأوَّلُ كـافِرِ
رووا عن عجوزٍ ذاتِ أفك فهيمة تُفَارِقُ فى أسحارهـا كُلَّ ساحرِ
أحاديثُ إفك حَاكَ إبليسُ نسجها يُسِرُّونَها واللـه مُبْدِى السرائرِ

وقتل حاميم المفترى بمصمودة الساحل من أحواز طنجة سنة خمسة عشر وثلاثمائة، وكان له من البنين محمد وبه كان يكنى، وعبد الله وعيسى، ودخل عيسى الأندلس زمان عبد الرحمن بن محمد، ولعيسى فى بلادهم قدر ويعرف بابن المفترى، وبنو وجفوال رهط حاميم ينزلون على نهر رأس وهو على ثلاثة أميال من مدينة تيطاوان.

وكان فى بعض جبال مجكسة رجل من السحرة المهرة يعرف بأبى كيسة، وكان أهل موضعه يسمعون منه ولا يعصونه طرفة عين، وإذا عصاه أحد أو خالفه حول كساه الذى يلتحف فيه، فتصيب ذلك الرجل عاهة لحينه أو جائحة، وإن كانوا جماعة أصابهم مثل ذلك، وكان يخيل إليهم كأن برقة تلوح من تحت كسائه، ولبنيه وعقبه حتى الآن مزية فى تلك الناحية ومنزلة وحظوة على من سواهم.

ومن أعاجيب بلد غمارة إمرؤ بوحلاوت، وكان فى بنى شداد منهم، وكان معه عدل مملوء برؤوس الحيوان وأنيابها من بريها وبحريها، قد نظمها فى حبل واتخذها كالسبحة، فإذا سأله أحد عن شئ من الحدثان وما هو كائن علق منه تلك السبحة وقلده إياها، ثم قلقلها عليه وانتزعها، وجعل يشمها قطعة قطعة إلى أن تمسك فى يده ما أمسك منها، ثم طفق يخبره خبره، وما الذى سأله عنه، وعما يدور له من مرض أو موت أو ربح أو خسارة أو إقبال أو إدبار أو عبرة أو غير ذلك فلا يكاد يخطئ.

ومن أعاجيب بلد غمارة أن عندهم قوما يعرفون بالرقادة،وهم فى وادى لو عند بنى سعيد، وبنى قطيطن، وعند بنى بروتن يغشى على الرجل منهم يومين وثلاثة فلا يتحرك ولا يستيقظ، ولو بلغ به أقصى مبلغ من الأذى، ولو قطع قطعا، فإذا كان بعد ثلاثة من غشيته استيقظ كالسكران، ويكون يومه ذلك كالواله لا يتجه لشيء ولا يخبر بشيء، فإذا أصبح فى اليوم الثانى أتى بعجائب مما يكون فى ذلك العام من خصب أو جدب أو حرب أو غير ذلك، وهذا أمر مستفيض لا يخفى.

وأخبرنى غير واحد أنه رأى بمرسى باديس رجلا قصير القامة مصفر اللون يكرمه أهل ذلك الموضع ويقدمونه ويذكرون أنه ينبط المياه فى المواضع التى لا يعمد فيها ماء عيونا وآبارا، وأنه يخبر بقرب الماء وبعده، وأنه إنما يستدل على ذلك باستنشاق هواء ذلك الموضع لا غير.

والمواربة عند أهل غمارة كلها كثيرة متعارفة يفخر بها نساؤهم، وذلك أن الرجل إذا دخل بامرأته البكر واربها شباب آهل ناحيتها فاحتملوها وأمسكوها عن زوجها شهرا أو أكثر، ثم يرونها، وربما فعل ذلك بها مرارا على قدر جمالها وبمقدار الرغبة فيها تفضل لذاتها، ولا يتم إكرام الضيف عندهم إلا بأن يؤنسوه بنسائهم الأيامى منهم، يبيّت الرجل مع ضيفه أخته أو بنته أو من لم تكن ذات زوج من نسائه، ولا يتركون ذا عاهة يستقر ببلدهم، ويقولون إنه يفسد النسل، وهم يرغبون فى الرجل الجميل الشجاع، وهم مخصوصون بالجمال، ولهم شعور يسدلونها كشعور النساء ويتخذونها ضفائر ويطيبونها ويتعممون بها.

* * *

ذكر مدينة سبتة[1]

وهى على ضفة البحر الرومى، وهو بحر الزقاق الداخل من البحر المحيط، وهى فى طرف من الأرض داخل من الغرب إلى الشرق ضيق جدا: والبحر محيط بها شرقا وشمالا وقبلة، ولو شاء ساكنوها أن يوصلوه من ناحية الشمال لوصلوه فتكون جزيرة منقطعة، وقد حفر من تقدم فى ذلك الموضع نحو غلوتين، وهى مدينة كبيرة مسوَّرة بسور صخر محكم البناء بناه عبد الرحمن الناصر لدين الله، وحماماتها يجلب الماء إليها على الظهر من البحر. وبمدينتها حمام قديم يعرف بحمام خالد. ولها ربض من جانب الشرق فيه ثلاثة حمامات، وجامعها على البحر القبلى المعروف ببحر بسول له خمسة بلاطات وفى صحنه جبان، ولها مقبرة فى الجبل مطل على البحر، ومقبرة أخرى بجوفها على بحر الرملة.

وأهلها عرب وبربر، فعربها تنسب إلى صدف، وبربرها من ناحية أصيلة والبصرة

(١) انظر فى سبته: الروض المعطار ٣٠٣ـ٣٠٤.

ولم تزل دار علم.

وبشرقى مدينتها جبل منيف، كان محمد بن أبى عامر ابتدأ فيه بناء سور لم يتم، وهذا الجبل مطل على الربض المذكور الذى فيه الحمامات، وما بينهما كروم، ودار الإمارة فى جوفى المدينة، وطولها من السور الغربى الذى يدخل منه إلى المدينة قاطعا إلى الشرق إلى آخر الجزيرة خمسة أميال، والمدينة فى الجانب الغربى منها، ولسورها الغربى تسعة أبراج، والباب فى البرج الأوسط، وبين يدى هذا السور سور لطيف يستر الرجل، ويتصل به خندق عميق عريض عليه قنطرة خشب أمامها بستان وآبار ومقبرة.

والسور القبلى على أجراف عالية، والشرقى والجوفى فيه تطامن، ولها باب ثان مما يلى الجوف فى برج يعرف ببرج سابق يدخل منه إلى دار الإمارة، وذرع المدينة من السور الغربى إلى الشرقى ألفان وخمسمائة ذراع وذرع ما يأخذ ثقاف الربض المتصل بالسور الغربى سبعة آلاف وأربعمائة ذراع.

وهى مدينة سكنها الأول وبها آثارهم بقايا كنائس وحمامات، وماؤها مجلوب من نهر أويات مع ضفة البحر القبلى فى قنا إلى الكنيسة التى هى اليوم الجامع.

وكان صاحبها أليان: وهو الذى أجاز طارق بن زياد وأصحابه إلى الأندلس، فلما غزا عقبة بن نافع القرشى أرض المغرب وصار إلى سبتة خرج إليه أليان بهدايا وتحف، ورغب إليه فى الأمان فأمَّنه وأقرَّه فى موضعه.

ثم دخلها العرب بعد ذلك وعمَّروها، ثم قام عليهم بربر طنجة فأخرجوهم منها وأقفروها، فبقيت خرابا يعمرها الوحش مدة، ثم دخلها رجل من غمارة يسمى ماجكن وكان مشركا، فعمرها وأسلم ورأس فيها، ثم وليها بعد هلاكه ابنه عصام، ثم ابن ابنه مجبر بن عصام، وفى دولتهم دخلها قوم كثير من أهل قلشانة أيام المحل، فاشتروا من البربر وبنوا فيها واستوطنوها، وكانوا مع ذلك يؤدون الطاعة إلى قريش العدوة من الحسينين حتى افتتحها عبد الرحمن الناصر لدين الله، ووليها الرضى بن عصام بعد موت أخيه مجبر، ودخلها عامله وقائده فرج بن عفير يوم الجمعة فى صدر ربيع الأول سنة تسع عشر. والملك من سبتة إلى طنجة على طرق، وهى مساكن قبائل معمورة كلها.

ذكر طنجة[(١)]

فأما كورة طنجة، فهى مساكن صنهاجة، وطريق الساحل من مدينة سبتة إلى طنجة تخرج من المدينة فى بسيط تعمره نحو ميل، ثم تدخل فى حد بنى سمفرة: وهم أهل جبل مرسى موسى، ثم تخرج إلى وادى مدينة اليم والقصر الأول.

وبطون معمورة تتشعب من أربع قبائل: دغاغ وأصادة وبنى سمفرة وكتامة. وبطون صنهاجة تفترق من قبيلتين: من قار بن صنهاج، وحزمار بن صنهاج، وفى القصر الأول سكنى بنى طريف، وحوله غراسات كثيرة، وتدخل المراكب فى هذا الوادى إلى حائط القصر، وبين مخرج هذا الوادى وموقعه فى البحر نحو سكتين، ومن سبتة إلى هذا القصر مرحلة، ومن القصر إلى طنجة مرحلة.

قال محمد بن يوسف: إذا خرج الخارج من طنجة إلى سبتة فى البحر فإنه يأخذ إلى جانب الشرق، وأول ما يلقى جبل المنارة ثم مرسى باب اليم، وهو غير مكن، وفيه سكنى ورباط، وواد لطيف يريق فى البحر، وبين طنجة وبينه ثلاثون ميلا فى البر، وفى البحر نصف مجرى.

ويقابل باب اليم من جزيرة الأندلس مرسى جزيرة طريف، وبينهما ثلث مجرى، ثم يلقى بعد باب اليم وادى زلول، عليه ثمار وعمارة كثيرة ثم وادى باب اليمّ يصب فى البحر، حوله بساتين، وعليه سكنى وعمارة لمعمورة، ثم حجر نابت فى البحر يعرف بالمنجة، ثم مرسى موسى، وهو مرسى مأمون مشتى إلا من اللبش، وفيه نهر يريق فى البحر، وكان عليه حصن هدمه بنو محمد ومعمورة سنة اثنتين وثلاثمائة، ثم بناه أمير المؤمنين الناصر فهدموه أيضا سنة أربعين.

وحول هذا الحصن فى غربيه قبائل من البربر فى ساحل رمل فيه ماء طيب، وهو مُتَضَيَّد أهل سبتة. وبين مرسى موسى ومرسى باب اليم فى البر ثمانية أميال. وبإزاء مرسى موسى من بر الأندلس بورت لب، ويقطع الغدير بينهما فى نصف مجرى.

(١) انظر فى طنجة: صورة الأرض ٨١.

ومرسى موسى موضع أكثر بقع الأرض قردة، وهى تحكى ما ترى من فعل من مَرَّ بها من الناس، فإذا رأت النواتى يجدفون فى القوارب أخذت عيدانا وجعلت تحكى عملهم.

ويليه مرسى جزيرة تورة. وفى بره قرية تعرف بتورة، فنسبت الجزيرة والمرسى إليها، وهى جزيرة فى البحر كهيئة جبل منقطع عن البر يقابلها فى البر على شاطئ البحر أجراف عاليه والمرسى بينها وبين تلك الأجراف.

ثم مرسى بليونش، وبليونش: قرية كبيرة آهلة كثيرة الفواكه. وبغربيها نهر يريق فى البحر، عليه الأرحاء، وبينه وبين مرسى جزيرة تورة فى البر خمسة أميال، ثم موضع يعرف بالقصر على خندق يجرى فيه ماء كثير فى الشتاء، ويقل فى الصيف. وبهذا القصر آثار للأوَّل من أقباء وغير ذلك.

ثم موضع يعرف بماء الحياة، عيون على ضفة البحر منبعثة بين الأحجار من تحت شرف رمل طيبة عذبة، يصل إليها الموج وينبط الماء العذب فى هذا الرمل بأيد حفر.

ويذكر أن بهذا الموضع نسى فتى موسى الحوت. ويوجد فى هذا الموضع خاصة دون غيره حوت ينسب إلى موسى، عرضه مقدار ثلثى شبر، وطوله أكثر من شبر، لحمه فى أحد جانبيه، والجانب الآخر لا لحم فيه، إنما جلدته على الشوك، ولحمه طيب نافع من الحصاة، مقوٍّ للباءة.

ثم مرسى لطيف يعرف بمرسى دنيل، بإزائه فى البر قرية تعرف بهواة، عامرة بها عيون عذبة، ثم حجر نابت فى البحر يعرف بحجر السودان ثم مدينة سبتة.

* * *

الطريق من سبتة إلى تِيطاوان [١]

وطريق البرِّ من سَبْتَةَ إلى موقع وادى المَنَاوِل فى البحر القبلى من سبتة ستة أميال، ثم إلى وادى نفزة، ومخرجه من جبل أبى جميل وعليه مساكن بنى عفَّان ابن خلف، وعلى هذا النهر الموضع المعروف بالقصر، وهو قصر للأوَّل قائم فيه حمام، وعلى هذا النهر آثار للأول كثيرة.

ثم إلى نهر أَسْمير، ومُنْبَعَثُه من جبل الدرقة وَجرْيَتُه من الغرب إلى الشرق، وعلى ضفته قرارات لبنى كترات من مصمودة.

ثم إلى الموضع المعروف بِقَبْ مُنْت؛ وهو الجبل الداخل فى البحر بقبلىّ سَبْتَة، يسكنه أيضا بنو كترات وبنو سكين.

ثم إلى نهر اليلى ومنبعثه أيضا من جبل الدرقة.

ثم إلى موضع يعرف بتاورص قرية عبد الرحمن بن فحل من بنى سكين من مصمودة، لها مزارع وأرَضُون، ومياه عذبة.

ثم إلى مدينة تيطاوان وهى بسفح جبل إيشقار، وهو متصل بجبل الدرقة ويبلغ إلى جبل رأس الثور إلى مرسى موسى بالبحر الغربى.

ومدينة تيطاوان على أسفل وادى راسن، وقال محمد: وادى مجكسة، وهذا النهر يتسع هناك وتدخله المراكب اللطاف من البحر إلى أن تصل تيطاوان؛ ومسافة ما بين البحر وبينها عشرة أميال، وهى قاعدة بنى سكّين، فيها قصبة للأول ومنارٌ وبها مياه كثيرة سائحة عليها الأرحاء، وبجوفيها جبل يعرف ببلاط الشوك يُركب منه لبنى سكين مائة فارس.

وبين مدينة تيطاوان وجبل الدرقة سكة، وهو قاعدة بنى مرزوق بن عوف من مصمودة وسكناهم منه بمواضع يقال له صدينة، قرية ذات مياه سائحة وهى أطيب تلك البلاد مزارع؟ وهذا الجبل فى غاية المنعة وفى أعلاه مسارح واسعة ومُروج

(١) تِيطاوان: بقرب مليلة، مدينة قديمة كثيرة العيون والفواكه والزرع، طيِّبة الهواء والماء، وتُعرف الآن بالمغرب باسم تطوان. الروض المعطار ١٤٥ والاستبصار ١٣٧.

خِصبة للماشية، وهذه القرية المذكورة فى قِبْلىّ الجبل، وبين القبلة والغرب منه الجَبل المنسوب إلى حَاميم المُفترِى المتقدم الذكر.

وجبل الدرقة يتصل ببلاد غمارة ويسكن آخره من غمارة بنو حسين بن نصر، ثم إلى نهر راسن، ومنبعثه من موضع يُعرف بتيطسوان من جبل بنى حاميم.

ثم إلى سوق بنى مغراوات، وهو آخر بلد مجكسة فى غربى نهر راسن، ومُجتمع هذه السوق يوم الثلاثاء وهى جامعة.

ثم إلى فج الفرس، وبه قرارات لقبائل من مصمودة، ويركب لهم مائتا فارس.

ثم إلى مدينة ويناقام، وهى كانت قاعدة حَمُّود بن إبراهيم، وهى فى سفح جبل، ولها ثمار ومياه كثيرة على نهر سسهور، وهو بلد طيب، ومنبعث سسهور من جبل تامورات، وهو من مساكن مَتْنَة من صنهاجة.

وبين ويناقام وجبل الدرقة ميلان، وهو ما بين الغرب والقبلة من المدينة، وهو الجبل الذى يمتنع فيه صنهاجة إذا خالفوا على الملوك.

وبجبل الدرقة يتصل جبل حبيب بن يوسف الفهرى.

وبين الدرقة وطنجة سِكّتان.

* * *

فأما الطريق من سَبْتة إلى مدينة تيقيساس

فإلى نهر راسن كما تقدم، ثم تدخل أرض غمارة، ثم تسير فى بنى جفو، ثم فى بنى نفقاوة، وهم من بنى حُمَيد من غمارة أيضا وهم على نهر لاو، وهو نهر كبير تجرى فيه السفن، ولهم نتاج معروف وخيلهم معروفة بالحُمَيْديّة.

ثم إلى بنى مسارة وهم السكّان حول تيقيساس وهم أيضا من بنى حميد.

ومن المواضع المشهورة والمنازل المعمورة ما بين سبتة وطنجة نهر أليان وقصر أليان فيه آثار للأول كثيرة، وفى غربى هذا النهر موضع يعرف بكروشت، وهو آخر غمارة ومصمودة، ويتصل بهم هناك متنة من صنهاجة، ونهر الخليج وهو شرقى طنجة وموقعه فى البحر تدخله المراكب.

وجبل رأس الثور يسكنه قبائل كثيرة من مصمودة.

ونهر مجاز الفروق نهر كبير جدا، ونهر فرْميول وعنصره من جبل عين الشمس وجبل مترارة، وهو جبل وَعْرٌ كثير الشجر والمياه.

ومن هذا الجبل إلى البحر المعروف بالزقاق وادى الرمل، وهو كثير الثمرة طيب المزارع.

وعين الشمس عين ثَرَّةٌ فى قرية نصر بن جرو، عامرة آهلة بها جامع وبساتين كثيرة وأسواق، ويوم سوقها يوم الجمعة، ومن سبتة إليها مرحلة.

ويتصل بعين الشمس جبل تارَمْليل: قاعدة بنى راسن، لها قرارات حِسَان وبساتين ومسجد جامع، وهى وسط بلد مصمودة، وهذا الموضع يقابل تيطاوان، ويتصل هذا الجبل إلى مدينة باب اليم إلى البحر الغربى

ومجازفكّان، وهو موضع ملواثة يركب لهم خمسمائة فارس.

وهناك الموضع المعروف بالرّصافة وكدية تافرغالت، وفيها قرارات كثيرة لمتنة، يُركب لهم منها نحو ثمانين فارسا.

ونهر أوربة، وعنصره من قرية تعرف بالأقولس، وحواليه أرَضون كثيرة الربيع طيبة الزرع وهى قنبانية طنجة.

* * *

ذكر مدينة طنجة[١] وتعرف بالبربرية وليلى

افتتحها عقبة بن نافع وقتل رجالها وسَبَى[٢] من فيها، وهى على شاطئ البحر المعروف بالزقاق مُسَوَّرة متقنة البناء، وهى محطّ السفن اللطاف؛ لأن الريح الشرقية توذى فيها، وهى طنجة البيضاء القديمة المذكورة فى التواريخ، وفيها آثار

(١) طنجة: كورة عظيمة تحيط بمدن وقرى وبَوَادٍ للبربر كثيرة، ومدينتها العظمى التى هى القصبة تسمَّى فاس. المسالك والممالك للأصطخرى ٣٤.

(٢) الحلل السندسية ١/ ٥٤٩.

للأول كثيرة: قصور وأقباء وغيران وحمام، وماؤها مجلوب فى قنًا ورخام كثيرة وصخر منجور، وتحفرُ خرائبها فيوجد فيها أصناف الجواهر فى قبور أولية وغيرها من المواضع، وهى آخر حدود إفريقية فى الغرب، وقيل إن عمل طنجة مسيرة شهر فى مثله وإن ملوك المغرب كانت دار مملكتهم مدينة طنجة، وإن ملكا من ملوكها كان فى عسكره ثلاثون فيلا.

ومسافة ما بين مدينة القيروان وطنجة ألف ميل، وقد غلب على مدينة طنجة القديمة الرمل، والعمارة اليوم فوقها.

وهناك جامع حسن وسوق عامرة، وبإزاء طنجة فى البحر المحيط وإزاء جبل أدلنت الجزائر المسماة فرطناتش أى السعيدة، سميت بذلك لأن شعراءها وغياضها كلها أصناف الفواكه الطيبة العجيبة دون غراسة ولا عمارة، وأن أرضها تحمل الزرع مكان العشب وأصناف الرياحين العطرة بدل الشوك، وهى بغرب بلد البربر مفترقة متقاربة فى البحر المذكور.

* * *

الطريق من مدينة طنجة إلى مدينة فاس

من مدينة طنجة إلى قلعة ابن خروب مرحلة، وهى مدينة كبيرة على ظاهر لها ثمر وشجر وهى كثيرة الزرع والضرع، وهى لكتامة من بطون مصمودة، وبقرب هذه القلعة قرية كبيرة لعرب خولان آهلة كثيرة الخير، وهى على نهر زلول، وهذا النهر تلقاه قبل الوصول إلى قلعة ابن خَرُّوب، وبالقرب منها أيضا دمنة عشيرة بلد طيب لصنهاجة.

ثم قرى متصلة لكتامة، إلى حاضرة سوق كتامَى وهى قاعدة إدريس بن القاسم ابن إبراهيم، كبيرة شريفة على نهر وادلكس بها سوق عامرة وجامع.

ثم تسير إلى قصر دنهاجة، وهو على تلٍّ وتحته نهر عظيم وفيه آثار للأول، وبه كان ينزل ملوك المغرب فى قديم الدهر.

وجبل صرصر بقبلى هذا القصر ينزله بطون كتامة وأصادة، ثم تسير من هذا

القصر إلى مدينة البصرة[١]، وهى مدينة كبيرة واسعة، وهى أوسع تلك النواحى مرعًى وأكثرها ضرعًا، ولكثرة ألبانها تُعرف ببصرة الذِبَّان، وتعرف أيضا ببصرة الكتَّان كانوا يتبايعون فى بدء أمرها فى جميع تجاراتهم بالكتان، وتعرف أيضا بالحمراء لأنها حمراء التربة، وسورها مبنىٌّ بالحجارة والطوب، وهى بين شَرَفين، ولها عشرة أبواب، وجامعها سبعة بلاطات وبها حمامان، ومقبرتها الكبرى فى شرقيها فى جبل، ومقبرتها الغربية تعرف بمقبرة قضاعة.

وماء المدينة زُعاف، وشُرْبُ أهلها من بئر عنبة على باب المدينة تعرف ببئر ابن ذلفا، وخارجها فى جناتها عيون كثيرة وآبار عذبة.

ونساء بصرة مخصوصات بالجمال الفائق والحُسن الرائق ليس بأرض المغرب أجمل منهن.

قال أحمد بن فتح المعروف بابن الخزاز[٢] التيهرتى يمدح أبا العيش بن إبراهيم ابن القاسم: [من الرجز]

قبح الإله اللهــو إلا قينـةً ... بصـريةً فى حُمْـرَةٍ وبَيَـاض
الخمرُ فى لحظَاتهــا والوردُ فى ... وَجْنَاتِهـا والكَشْحُ غير مُفَـاضَ
فى شكْل مرجى ونُسْكِ مُهَاجرٍ ... وعفــاف سُنِّى وَسَمْـتِ إبَاضِ
تَاهَرْتُ أنت خَلِيَّـــةٌ وبريـة ... عُوِّضْتُ منـك ببصرةٍ فاعتاضِ
لاَ عُـذْرَ للحمـراء فى كَلَفِى بها ... أو تستفيـضَ بأَبْحُرٍ وحِيَــاضِ
مـا عذرهــا والبحر عيسى ربّها ... ملك الملـوك ورائض الرواضِ[٣]

ومدينة البصرة مُحدثة أيضا أُسست فى الوقت الذى أسست فيه أصيلة أو قريبا منه[٤].

ومن مدينة البصرة إلى نهر ردات مرحلة، وهو فى أصل جبل وفى أعلى الجبل

(١) المسالك والممالك للأصطخرى ٣٤.
(٢) الروض المعطار ١٠٨.
(٣) الأبيات لابن الخزاز فى الروض المعطار ١٠٩ ومعجم البلدان (بصرة ١/٣٤٨).
(٤) ينقل ياقوت هذه المادة نصًا عن المسالك والممالك للبكرى. انظر: معجم البلدان (البصرة) ١/٣٤٨.

مدينة تسمى كرت وهى اليوم خَرِبَة.

ومن كرت إلى موضع يقال له حنّامة ـ قال محمد جنيارة ـ ويعرف بالجبل الأشهب، وهى قرى كثيرة عامرة.

ومنه إلى قرية صغيرة على نهر عظيم يسمى سبو مرحلة، ومنه إلى مدينة فاس مرحلة، ومن أخذ من طنجة على أصيلة فمن طنجة إلى مدينة أصيلة مرحلة، ثم إلى سوق كتامَى المذكور قبل هذا.

ومن مدينة البصرة طريق آخر إلى مدينة فاس، فمنها إلى وادى ورغة، ثم إلى مدينة ماسنة مرحلة، وهى مدينة عيسى بن حسين الحسنى المعروف بالحجَّام، وهى على نهر كبير.

ثم إلى مدينة سداك فى بلد مغيلة، وهى قاعدة خلوف بن يحمد المغيلى، ثم إلى مدينة فاس ـ فذلك سبعة أيام.

ومدينة أصيلة[1] أول مدن العدوة من جانب الغرب، وهى فى سهلة من الأرض حولها رواب لطاف والبحر بغربيّها وجوفيّها، وكان عليها سور له خمسة أبواب وجامعها خمسة بلاطات، وإذا ارتج البحر بلغ الموج حائط الجامع، وسوقها يوم الجمعة، وماء آبار المدينة شريب، وبخارجها آبار عذبة: بئر عدل وبئر السانية وآبار كثيرة.

ومقبرتها فى شرقيها، ومرساها مأمون والمدخل إليه من الشرق، ويستدير بالمرسى من ناحية الجوف جسر من حجارة مخلوقة تكُفُّ عن السفن المُرَفَّأة فيها هيجان البحر.

ومدينة أصيلة محدثة، وكان سبب بنيانها[2] أن المجوس خرجوا فى مرساها مرتين: فأما الأولى فأتوا قاصدين وزعموا أن لهم بها أموالا وكنوزا، فاجتمع البربر لقتالهم، فقالوا: لم نأت بالحرب وإنما لنا كنوز فى هذا الموضع، فكونوا ناحية حتى نستخرجها فنشاطركم فيها، فرضى البربر بذلك فاعتزلوا، وحفر المجوس موضعا فاستخرجوا دخنًا كثيرًا عفنًا، فنظر البربر إلى صفرته فظنوه ذهبا

(١) انظر فى أصيلة: الروض المعطار ٤٢-٤٣ والاستبصار ١٣٩.

(٢) الروض المعطار ٤٢.

فبدروا إليه، فهرب المجوس إلى مراكبهم وأصاب البربر الدخن فندموا ورغبوا إلى المجوس فى الخروج واستخراج المال، فأبوا وقالوا: قد نقضتم عهدكم فلا نثق بعذركم.

وساروا إلى الأندلس، فحينئذ خرجوا بإشبيلية، وذلك سنة تسع وعشرين ومائتين فى أيام الإمام عبد الرحمن بن الحكم[١].

وأما خروجهم الثانى هناك فإن الريح قذفتهم فى ذلك المرسى من الأندلس، وعطبت لهم على باب المرسى من ناحية الغرب مراكب كثيرة، ويعرف ذلك الموضع بباب المجوس إلى اليوم، وكانت تقوم فيه سوق جامعة ثلاث مرات فى السنة، وهو وقت اجتماعهم وذلك فى شهر رمضان وفى عشر ذى الحجة وفى عاشوراء.

وكان الموضع ملكا للواتة، فابتنى فيه قوم من كتامة واتخذوه جامعا وتسامع الناس أمرها من الأندلس وأهل الأمصار فقصدوها فى الأوقات المذكورة بضروب السلع وخيَّموا فيها.

ثم بنوا شيئا بعد شىء فعمرت، فقدمها القاسم بن إدريس فملكها وبنى سورها وقصرها وبها قبره، ووليها إبراهيم ابنه، ثم حسين بن إبراهيم ثم القاسم بن حسين، ثم صار أمرها إلى حسن الحجام منهم، حتى استولى عليهم ابن أبى العافية على ما تقدم.

وكان الحجام يستعمل عليها الولاة.

---

(١) عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الأموى، أبو المطرف: رابع ملوك بنى أميّة فى الأندلس. ولد فى طُلَيْطِلة، وكان أبوه واليًا فيها قبل ولايته المُلك، وبُويع بقرطبة سنة ٢٠٦ هـ بعد وفاة أبيه بيوم واحد. . وهو أوَّل من جرى على سنن الخلفاء فى الزينة والشكل وترتيب الخدمة، وكسا الخلافة أبهة الجلالة، فشيّد القصور، وجلب الماء العذب إلى قرطبة، وبنى له مصنعًا كبيرًا يرتاده الناس، وبنى الرصيف وعمل عليه السقائف، وبنى المساجد فى الأندلس، ومنها جامع إشبيلية وسورها، وعمل السقاية على الرصيف، واتخذ السكّة (النقود) بقرطبة، وضرب الدراهم باسمه، ولم يكن فيها ذلك منذ فتحها العرب وكان عالى الهمة، له غزوات كثيرة، أديبًا ينظم الشعر، مُطَّلعا على علوم الشريعة وبعض فنون الفلسفة، يُشَبَّه بالوليد بن عبد الملك فى سياسته وتأنيه، مدة ولايته ٣١ سنة و٣ أشهر، ووفاته بقرطبة (١٧٦ـ٢٣٨هـ). الأعلام ٣/ ٣٠٥.

قالوا: وتفسير أصيلة: جيِّدة، وبقبلىّ أصيلة قبائل لواتة وبنو زياد من هوّارة زلول، وبغربيها هوارة الساحل، وغار كبير على البحر وإذا مدّ وصل إليه، وبين القبلة والغرب منها عين تعرف بعين الخشب ثَرَّةٌ، وبقبليّها خندق يعرف بخندق المعزة وخندق آخر يعرف بخندق السرادق، وبغربيها خندق يعرف بتاشت، فيه مراعى مواشى أهلها.

وكيْلهم يسمى مدا وهو عشرون مدا بمد النبى ﷺ مثل الفنقة القرطبية، وكيل الزيت يسمونه قليلة وهى مائة واثنتا عشرة أوقية، ففى القنطار عشرون قليلة.

وأصيلة بغربى طنجة][1]، وأول ما يلقى الخارج من مدينة أصيلة واديها، وهو يُخاض، ثم مسجد عن يمين الطريق، ثم وادى نبرش يخاض أيضا، وهى قرية آهلة عامرة كثيرة الثمار والعيون، وهى للواتة، بينها وبين البحر قدر نصف ميل.

ثم ساحل رمل، ثم نهر كبير يُعبر فى المراكب عليه سُكنى أهل شاهدامت: وهى قرية كبيرة عامرة بها ملاَّحة، ثم ساحل رمل، ثم بركة عذبة وهى بركة قدرها مائتى ذراع، فيها ما تعَذُبٌ، بينها وبين البحر نصف ميل، فى قبليها حجارة عالية، تهب من هذه البركة ريح عاصفة شديدة تؤذى المراكب وتقلبها إذا غفل رُكَّابُها.

ثم ساحل يقابله بلد سطة، ثم جرمة يصعد منها إلى قرية كقمارية، بها يُقطع الطواجن، عامرة لصنهاجة.

ثم جبل اسبرتيل داخلٌ فى البحر متصل بالبر، فيه عيون عذبة ومسجد رباط، وبين الجبل ومدينة أصيلة ثلاثون ميلا، وإذا خرجت المراكب من أسبرتيل بالريح الشرقية، لم يكن لها بد من البحر المحيط إلا أن تدور الريح الغربية، ويقابل جبل أسبرتيل من بر الأندلس جبل الأغر على سَمْت واحد، ويقطع الغدير بينهما فى ثلثى مجرى بالريح القبلية من ذلك البر، ومن الأندلس بالريح الجوفية.

ثم تسير من هذا الموضع إلى موضع يعرف بالقالة، ثم إلى مدينة طنجة ـ.

ومن جبل أسبرتيل إلى مدينة طنجة أربعة أميال.

* * *

---

(١) إلى هنا النقل عن البكرى فى الروض المعطار ٤٢.

الطريق من سبتة إلى مدينة فاس[١]

ومن سبتة إلى دمنة عشيرة المذكورة مرحلة، ومنها إلى موضع يعرف بالكنيسة قرية مقيدة على ظاهر لكتامة.

ثم إلى وادى مغار لكتامة أيضا قرار كبير، بلد للزرع والضرع، إلى الحجر المعروف بحجر النسر قاعدة بنى محمد فى الغرب ومنه بلد رهونة، فى الشرق بنو فترَكان من غمارة.

وتفترق الطريق من الحجر، فمن تيامن أخذ إلى أفتيس: مدينة جنوب بن إبراهيم لكتامة، وهى مدينة صالحة كثيرة الخير وهى من الحجر غربا، وهى على نهر وادلكس المذكور قبل هذا، وجريته من الشرق إلى الغرب وهو يلقاه عند أفتيس إليها.

ثم يهبط إلى مدينة سوق كتامى فيسمى هناك وادلكس.

ثم إلى مدينة نشومس: مدينة ميمون بن القاسم، وهى مدينة أَوّلية عليها سور صخر، كبيرة آهلة كثيرة المياه والثمار، ويسمى بذلك الموضع بسغدد، ويتسع هناك، وعليه رباط يعرف برباط حارة الأحشيس: وهى قرية آهلة يتصل بها فحص مديد يعرف بفحص أبى شيار.

ثم تسير من أفتيس إلى زهجوكة: مدينة إبراهيم بن محمد، ومنها قام إبراهيم وبنوه وملكوا دار طنجة إلى حد سبتة وهى لزرهونة.

وبعدها مدينة يُجّاجين: مدينة جيدة مفيدة على نهر عذب، بها جامع وأسواق وحمام، ويعرف بالجبل الأشهب وهو على نهر سوسق: نهر كبير كنهر قرطبة، وهى من بلد جنيارة وفيها عيون، وهى لجنون بن محمد، وسكانها بنو مسارة من مصمودة.

وبعدها مدينة أصادة، فيها آثار ستة أميال أو نحوها، ويجاورها على الطريق أربعة أصنام.

---

(١) انظر: الروض المعطار ٤٣٤ـ٤٣٥ ووصف إفريقيا ١/١٩٣ـ٢٠٥.

ثم تأتى مجاز الخشبة على وادى ورغة فى بلد شريف وقرارات كثيرة شبيه بالمدن.

ثم قرى متصلة وأكبرها قرزاوة بنى حصين، إلى بلد مغيلة، فترقى عقبة الأفارق وتلقى حصن زالغ على يسار الطريق.

ثم قلعة ورطيطة، ثم فحص محلّى، ثم قرية خندق سدرواغ يفترق من هناك الطريق إلى كلتا عدْوَتَىْ فاس، وذلك من مدينة سبتة إلى مدينة فاس ستة أيام.

وطريق آخر إلى فاس من سبتة: إلى تيطاوان مرحلة، أول ما يلقى الخارج من سبتة وادى أويات يجرى فى خندق عليه أرحاء شتوية، وبينه وبين المدينة ميلان، ومنه جلب أليان الماء إلى سبتة على أزاج[1]، وبعضها قائم فى تلك الخنادق إلى اليوم.

ثم إلى وادى المنازل، ثم إلى وادى نكرة.

ثم الطريق كما تقدم من سبتة إلى طنجة حتى تأتى فج الفرس، ثم إلى فج الصارى بطرف جبل حبيب بن يوسف، وهو جبل كثير العيون، وبسند هذا الفج مما يلى الجوف حارة تعرف بمراد، وبين هذا الفج ومدينة أفتيس مرحلة.

ثم من أفتيس كما تقدم آنفا، وبين الفج وأفتيس قلعتان إحداهما قلعة ابن خرُّوب المذكورة.

* * *

ذكر مدينة فاس [2]

[ومدينة فاس مدينتان مقترنتان مسوَّرتان بينهما نهر يطرد وأرحاء وقناطر، وعدوة القرويين فى غربى عدوة الأندلس، وعلى باب دار الرجل فيها رحاه وبستانه بأنواع الثمر وجداول الماء تخترق داره.

وبالمدينتين أزيد من ثلاثمائة رحًى وفيهما نحو عشرين حماما، وهى أكبر بلاد

(١) الآزاج جمع أزج، وهو بناء مستطيلٌ مُقَوَّس السقف. المعجم الوسيط (أزج) ١/ ١٥.

(٢) انظر فى فاس: الروض المعطار ٤٣٤ـ ٤٣٥ ووصف إفريقيا ١/ ١٩٣ـ٢٠٥.

المغرب: «فاس بلد بلا ناس»، وكلتا عدوتى فاس فى سفح جبل، والنهر الذى بينهما مخرجه من عين غزيرة فى وسط مرج ببلاد مطغرة على مسيرة نصف يوم من فاس.

وأُسست عدوة الأندلسيين فى سنة اثنين وتسعين ومائة، وعَدوة القروِيِّين فى سنة ثلاث وتسعين ومائة فى ولاية إدريس[1] بن إدريس، ومات إدريس[2] بمدينة ملِيلَى من أرض فاس على مسافة يوم من جانب الغرب، وكانت وفاته سنة ثلاث عشرة ومائتين فى شهر ربيع الأول.

ولعدوة الأندلسيين من الأبواب باب الفتوح قبلى منه يخرج إلى القيروان، وباب الكنيسة شرقى يقابل ربض المرضى، وباب أبى خلوق شرقى، وباب حصن سعدون جوفى، وباب الحوض غربى يقابل عدوة القرويين، وباب سليمان مثله، ومن هذين البابين يخرج أهل هذه العدوة إلى الحرب إذا كان بينهم اختلاف، وتقوم الحرب حينئذ بموضع يعرف بكدية المنول، وباب الفوارة، وبها جامع حسن فيه ستة بلاطات طولها من الشرق إلى الغرب وعمده أرجل كذان، وله صحن فسيح فيه أصول جوز وشجر وساقية تعرف بساقية مصمودة غزيرة الماء.

---

(١) الحلل السندسية ٢/ ٢٥.

(٢) هو إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن المُثَنَّى، أبو القاسم (١٧٧ـ٢١٣هـ): ثانى ملوك الأدارسة فى المغرب الأقصى، وبانى مدينة فاس، ولد فى وَلِيلى بجبل زرهون على نحو ٣٠ كم من مكناس، وتوفى أبوه وهو جنين، فقام بشئون البربر راشد (مولى أبيه إدريس وأمينه)، وقتل راشد سنة ١٨٦هـ، فقام بكفالة إدريس أبو خالد العبدى، حتى بلغ الحادية عشرة، فبايعه البربر فى جامع وَلِيلَى سنة ١٨٨هـ، فتولى ملك أبيه وأحسن تدبيره، وكان جوادًا فصيحًا حازمًا، أَحَبَّته رعيته، واستمال أهل تونس وطرابلس الغرب والأندلس إليه (وكانت فى يد العباسيين بالمشرق، يحكمها ولاتهم) وغصت وليلى بالوفود والسكان، فاختطَّ مدينة فاس سنة ١٩٢هـ، وانتقل إليها، وغزا بلاد المصامدة فاستولى عليها، وقبائل نفزة من أهل المغرب الأوسط، فانقادت إليه، وانتظمت له كلمة البربر وزناتة، واقتطع المغربين الأقصى والأوسط عن دعوة العباسيين من لدن السوس الأقصى إلى وادى شلف. وصفا له مُلك المغرب، وضرب السكّة باسمه، وتوفى بفاس سنة ٢١هـ.

الأعلام ١/ ٢٧٨ وانظر أيضًا: الاستقصا ١/ ٧٠ـ٧٥ وتاريخ ابن خلدون ٤/ ١٣ والبيان المغرب ١/ ١٠٣ وجذوة الاقتباس ٩٥ ومقاتل الطالبيين ٤٩١.

وبهذه العدوة تفاح حلو يعرف بالأطرابلسى جليل من الطعم يصلح بها وله غلة ولا يصلح بعدوة القرويين، وسميد عدوة الأندلسيين أطيب من سميد العدوة الثانية لحذقهم بصنعته.

وكذلك رجال عدوة الأندلسيين أشجع وأنجد من القرويين، ونساؤهم أجمل من نساء القرويين، ورجال القرويين أجمل من رجال الأندلسيين، ولعدوة القرويين من الأبواب باب الحصن الجديد قبلى يخرج منه إلى زواغة، وباب السلسة شرقى يخرج منه إلى عدوة الأندلسيين، وباب القناطر شرقى، وباب سياج يحيى بن القاسم جوفىّ يخرج منه أيضا إلى زواغة[١] وإلى المخاض وإلى وشتاته ومغيلة، وباب سوق الأحد غربى منه يخرج إلى زواغة، وبها جامع فيه ثلاثة بلاطات طولها من الشرق إلى الغرب بناه إدريس بن إدريس، وله حصن كبير فيه زيتون وشجر وله سقائف، وبها نحو من عشرين حماما وهى أكثر بساتين ومياها.

وعدوة الأندلسيين يجرى الماء عليهم أولا ويجود بهذه العدوة الأترج ويعظم ولا يجود بعدوة الأندلسيين، وكلتا العدوتين جليلة الخطر عظيمة القدر.

وموقع وادى فاس بوادى سبو، وبغربى عدوة القرويين فى بلد مغيلة موضع يقال له السيخ ساخ بأهله، ومن هذا الموضع انهزم البورى بن أبى العافية سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة هزمه بنو محمد واحتووا على معسكره.

وبنهر فاس الحوت المعروف باللبيس كثير، وقال محمد بن إسحاق المعروف بالبجلى[٢] يمدح عدوة القرويين: [من البسيط]

يا عـدوة القرويّين التى كَرُمَـت ... لا زال جَانِبُـكِ المحبـور[٣] ممطورا

ولا سرى الله عنك[٤] ثوب نعمته ... أرضٌ تجنَّبَـت الآثـامَ والزُّورا[٥]

---

(١) معجم البلدان (فاس) ٣/ ٤١١.

(٢) فى معجم البلدان (فاس) ٣/ ٤١١ ومجمع أشعار معجم البلدان «الجليلى».

(٣) فى معجم البلدان ومجمع أشعار معجم البلدان (المحبوب).

(٤) فى معجم البلدان ومجمع أشعار معجم البلدان (عنها).

(٥) الأبيات لمحمد بن إسحاق الجليلى فى معجم البلدان (فاس) ٣/ ٤١١ ومجمع أشعار معجم البلدان ١/ ٣٣٢.

وأنشد إبراهيم بن محمد الأصيلى والد الفقيه أبى محمد المفضل بن عمر المدوجى يهجو فاسا: [من البسيط]

دخلت فاسًا ولى شوقى إلى فاس والجُبْنُ[١] يأخـذ بالعينين والرأس
فلست أدخـل فاسًا لو حييتُ ولو أُعْطِيتُ فاسًا بمـا فيهـا من الناس[٢]

وقال أحمد بن فتح قاضى تيهرت فى كلمة له يهجو أهل فاس: [من البسيط]

اسْلَح على كـل فاسى مَرَرْتَ به فى العدوتينِ مَعًا لا تُبْقِيَنْ أحـدا
قومٌ غُذُوا اللُّؤْمَ حتى قال قائلهم مَنْ لا يكونُ لئيمًا لَمْ يَعِش رَغَدًا[٣]

ومدهم يسع من الطعام ثمانين أوقية، ومديهم يسمونه اللوح وفيه من هذا المد مائة وعشرون مدا، وجميع المأكولات من الزيت والعسل واللبن، والزبيب يباع عندهم بالأوراق.

وحواليها من قبائل البربر ترهنة ومغيلة وأوربة وصدينة وهوارة ومكناسة وزواغة.

ولما وصل موسى بن نصير إلى طنجة مال عياض بن عقبة إلى قلعة يقال لها سقوما[٤] على مقربة من فاس ومال معه سليمان بن أبى المهاجر وسألا موسى الرجوع معهما، فأبى وقال: هؤلاء قوم فى الطاعة، فأغلظا له القول حتى رجع فقاتل أهل سقوما، فكان لهم على العرب ظهور.

ثم تسوَّر عليهم عياض بن عقبة من خلفهم فى قلعتهم، فانهزم القوم واشتد القتل فيهم فبادوا وقلت أوربة إلى اليوم، فذكر ابن أبى حسان[٥] أن موسى لما افتتح سقوما كتب إلى الوليد بن عبد الملك: أنه صار إليك يا أمير المؤمنين من

---

(١) فى معجم البلدان (والحِيْن).
(٢) البيان لإبراهيم بن محمد الأصيلى فى معجم البلدان (فاس) ٣/ ٤١١.
(٣) البيتان لأحمد بن فتح فى معجم البلدان (فاس) ٣/ ٤٤٠.
(٤) انظر فى فتح سقوما: الاستبصار ١٩٤ والروض المعطار ٣٢٨ وتاريخ إفريقيا والمغرب ٤٤.
(٥) هو أبو محمد عبد الله بن أبى حسان اليحصبى، فقيه مالكى، ومؤرخ من أهل القيروان، توفى سنة ٢٢٧ على الأرجح. رياض النفوس ١/ ٢٨٤-٢٨٩ وترتيب المدارك وتقريب المسالك ٣/ ٣١٠-٣١٥.

سبى سقوما مائة ألف رأس.

فكتب إليه الوليد: ويحك أظنها من بعض كذباتك، فإن كنت صادقا فهذا محشر الأمم[١].

* * *

ذكر بنى إدريس[٢]

وفاس هى دار مملكة بنى إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه، وكان نزول إدريس عند دخوله المغرب بوليلى، وهى طنجة بالبربرية، وذكر محمد أن وليلى على مسافة يوم من فاس وفيها مات إدريس ابن إدريس، فهذه غير طنجة.

وهى بغربى مدينة فاس مدينة عظيمة أوَّلية، فنزل على إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربى المعتزلى فتابعه على مذهبه، وذلك فى سنة اثنين وسبعين ومائة، وخرج إلى ماسنة فى شعبان سنة ثلاث وسبعين ومائة، وخرج أيضا إلى تازى، وهو موضع من أعمال بنى العافية، يوجد فى جبل منه الذهب وهو أعتق الذهب وأجوده، وكان خروجه إليها فى جمادى الآخرة سنة أربع وسبعين ومائة، ومات بوليلى.

وذكر أبو الحسن على بن محمد بن سليمان النوفلى عن أبيه وغيره فى خروج إدريس إلى أرض المغرب غير ما ذكره المؤرخون، قال إن إدريس بن عبد الله انهزم من وقعة حسين صاحب فخ[٣]، وكانت وقعة فخ يوم السبت يوم التروية سنة تسع

---

(١) تاريخ إفريقيا والمغرب ٤٥.

(٢) انظر للمزيد: تاريخ المغرب وحضارته ٣٦٩ـ٤١٩ للدكتور حسين مؤنس الفصل بعنوان «دولة الأدارسة فى المغربين الأقصى والأوسط).

(٣) يقول د/ حسين مؤنس فى تاريخ المغرب وحضارته ٣٧٢ـ٣٧٣ وقد جرت العادة أن يبدأ تاريخ الأدارسة بحادث معركة «فخ» التى وقعت فى سنة ١٦٩/٧٨٦م فى خلافة الهادى العباسى، فقد أوقعت فيها قواته مذبحة بجماعة من العلويين من أحفاد الحسن بن على بن أبى طالب، وقد كان فيها ستة إخوة من أبناء عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب، منهم =

وستين ومائة فاستتر مدة وألحَّ السلطان فى طلبه، فخرج به راشد مولاه وكان عاقلاً شجاعًا أبدًا ذا حزم ولطف، فى جملة الحاج منحاشًا عن الناس بعد أن غير زيِّه وألبسه مدرعة وعمامة غليظة وسبرة كالغلام يخدمه، وإن أمره ونهاه أشرع فى ذلك، فسلما حتى دخلا مصر ليلا.

فبينما هما متحيِّران يمشيان فى بعض طرقها لا هداية لهما بالبلد إذ مرا بدار مشيدة يدل ظاهرها على باطنها ونعمة أهلها، فجلسا فى دكان على باب الدار، فرآهما صاحب الدار فعرف فيهما الحجازية، وتوسم فى خلقتهما الغريبة فقال، أحسبكما غريبين، قالا: نعم، قال: وأراكما مدنيين ـ قالا: نعم نحن كما ظننت.

فإذا الرجل من موالى بنى العباس، فقال إليه راشد وقد توسم فيه الخير فقال له: يا هذا قد أردت أن ألقى إليك شيئا ولست أفعل حتى تعطينى موثقا أن تفعل إحدى خلتين: إما أويتنا وتتقرب إلى الله بالإحسان إلينا وحفظت فينا نبيك محمد ﷺ، وإن كرهت ما ألقيته إليك سترته علينا، فأعطاه على ذلك موثقًا فقال له: هذا إدريس بن عبد الله[1] بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب خرج من موضعه مع الحسين بن على فسلم من القتل، وقد جئت به أريد بلاد البربر فإنه بلد ناء لعله يأمن فيه ويُعْجز من يطلبه، فأدخلهما منزله وسترهما حتى تهيأ خروج رفقة إلى إفريقية فاكترى لهما جملا وزودهما وكساهما.

فلما عزم القوم على الشخوص قال لهما: إن لأمير مصر مَسَالح[2] لا يجوز مصر أحد إلا فتشوه، وهاهنا طريق أعرفها لا يسلكها الناس، فأنا أحمل هذا الفتى

= إدريس منشئ الدولة الإدريسية، وسليمان الذى قُتل فى «فخ»، ولحق حفيده سليمان بن محمد بن سليمان بعمه إدريس فى المغرب الأقصى، فأقطعه ناحية تلمسان، وعيسى الذى هاجر أحفاده إلى المغرب الأوسط واستقروا فيه، وكان لهم شأن بناحية أَرْشَقول، وكان من الناجين أيضًا يحيى الذى فَرَّ إلى الديلم جنوبى بحر قزوين، وحاول إقامة دولة، واستقدمه الرشيد على أمان إلى بغداد، وهناك مات».

(١) تاريخ المغرب وحضارته ٣٧٨.

(٢) المَسالح: جمع مَسْلَح، وهو موضع السِّلاح، وكُلُّ موضع مخافة يقف فيه الجند بالسِّلاح للمراقبة والمحافظة، والقوم المُسَلَّحون فى ثغرٍ أو مَخْفَرٍ للمحافظة. المعجم الوسيط سلح ٤٤٤/١.

معى - يعنى إدريس - فى هذه الطريق الغامضة البعيدة فألقاك به - يقول لراشد - فى موضع كذا وهنالك تنقطع مسالح مصر، فركب راشد فى أحد شقى المحمل ووضع متاعه فى الشق الآخر ومضى مع الناس فى القافلة، وخرج الرجل على فرس له وحمل إدريس على فرس آخر فمضى به فى الطريق الغامضة، وهى مسيرة أيام حتى تقدما الرفقة وأقاما ينتظرانها حتى وردت، فركب إدريس مع راشد حتى إذا قربا من إفريقية تركا دخولها وسارا فى بلاد البربر حتى انتهيا إلى بلاد فاس وطنجة، فأقام إدريس بين ظهرانى البربر حتى انتهى إلى الرشيد خبره، فكربه وشكا ذلك إلى يحيى بن خالد البرمكى[1] فقال: أنا أكفيك خبره يا أمير المؤمنين، فأرسل إلى سليمان بن حريز الجزرى، وهو رجل من ربيعة وكان متكلما من يرى رأىَ الزيدية وكان حلوا شجاعا أحد شياطين الإنس، وكانت له إقامة فى الزيدية إذ كان متكلمهم، وهو الذى جمع الرشيد بينه وبين هشام بن الحكم حين ناظره فى الإمامة.

فأرغبه يحيى بن خالد فى مال، ووعده عن نفسه وعن الخليفة بمواعد عظيمة، ودعاه إلى قتل إدريس والتلطف فى ذلك، فأجابه، فأعطاه مالا جزلا، ووجه معه رجلا يثق به وبشجاعته، ودفع إلى سليمان قارورة فيها غالية مسمومة، فانطلق مع صاحبه فلم يزالا يتغلغلان حتى وصلا إلى إدريس، وكان إدريس عالما بسليمان ورئاسته فى الزيدية، فلما وصل إليه قال: إنما جئت إليك وحملت نفسى على ما حملتها عليه لمذهبى الذى تعرفنى به، وإن السلطان طلبنى لمحبتى فى الخروج معكم أهل البيت، فجئتك لآمن فى ناحيتك وأنصرك بنفسى، فسرَّه قوله وقبله وأحسن مثواه وأكرم نزله وأنس به - وكان سليمان يجلس فى مجالس البربر فيظهر الدعاء إلى ولد رسول الله - ﷺ ويحتج لأهل هذه المقالة كاحتجاجه بالعراق، فأعجب ذلك إدريس منه فمكث عنده مدة وهو يطلب عِزَّته ويرصد الفرصة فى

(١) هو يحيى بن خالد بن برمك، أبو الفضل، الوزير السرى الجواد: سَيِّد بنى برمك وأفضلهم،وهو مؤدب الرشيد العباس ومعلمه ومربيه.
رضع الرشيد من زوجة يحيى مع ابنها الفضل، فكان يدعوه: يا أبى.
ونكبه الرشيد فى نكبة البرامكة، حيث قبض عليه وسجنه فى «الرقة» إلى أن مات (١٢٠-١٩٠هـ). الأعلام ٨/ ١٤٤.

أمره ويرمق باب الحيلة عليه، حتى غاب راشد مولاه غيبة فى بعض أموره، فدخل عليه ومعه القارورة، فلما انبسط إليه وخلا وجهه قال: جعلنى الله فداك فى هذا القارورة غالية حملتها معى، وليس ببلدك من الطيب ما يُتخذ هذا منه، فجئتك بها لتطيب بما فيها، ووضعها بين يديه، ففتحها إدريس وتغلف منها وشمها، وانصرف سليمان إلى صاحبه، وقد أعد فرسين قبل ذلك مُضمرين، فركباهما وخرجا مركضين يطلبان النجاة، فلما وصل السم إلى دماغ إدريس وكان فى خياشيمه سقط مغشيًا عليه[1] لا يعقل ولا يدرى من يختص به ما شأنه، فبعثوا إلى راشد فجاء مسرعا فتشاغل بمعالجته والتخبر فى أمره.

وقطع سليمان وصاحبه على فرسيهما بلادا فى مدة ذلك.

وأقام إدريس فى غشيته عامة نهاره وعروقه تضرب ثم مات، وتبيَّن راشد أمر سليمان بن حريز فركب فى طلبه فى جماعة من أصحابه، فجعلت الخيل تنقطع تحت أصحابه ويتخلفون لشدة السير.

وحث الطلب حتى لحقه راشد، فانحرف إليه سليمان ليمنعه من نفسه فخبطه راشد بالسيف فكتع يده وضربه بالسيف على وجهه ورأسه ثلاث ضربات، كل ذلك لا يُصيب مقتلا مع دفع سليمان عن نفسه وما كان عليه من الجنة.

وقام فرس راشد لشدة حمله عليه، ونجا سليمان بحشاشة نفسه وصاحبه قد خذله، فلم يغن عنه شيئا ولم يكن عنده إلا الهرب، ثم نزل سليمان بعد أن أمن الاتباع وعصب جراحه.

قال أبو الحسن النوفلى: فحدثنى من رآه بعد قدومه العراق مكتّعًا[2].

وذكر أحمد بن الحارث بن عبيدة اليمانى نحو رواية النوفلى فقال: إن إدريس ابن عبد الله أفلت من وقعة فخ فوقع، بمصر على بريدها يومئذ واضح مولى

---

(١) شكَّك فى ذلك الدكتور حسين مؤنس، يقول: والحكاية لا يمكن قبولها ولكنها تصويرشعبى لاستنكار الناس لموت هذا الرجل بعد سنتين أو أربع من قيام دولته، فإن موت الرجال فى عنفوان قومهم يروع النفوس، وخاصة إذا جاء فجأة ونتيجة لمرض باطنى مجهول. تاريخ المغرب وحضارته ٣٨٢.

(٢) مقاتل الطالبيين ٤٨٩.

صالح بن المنصور وكان يتشيع، فحمله على البريد فوقع بأرض طنجة، فوجه إليه الرشيد رجلا من مواليه يقال له الشمَّاخ فى هيئة المتطبب، وكان بإدريس وجع يجده فى أسنانه، فوضع الشماخ فى ذلك الموضع ذرورًا مسمومًا وخرج من ساعته، فقتل السم إدريس فطلب الشماخ فلم يظفر به حتى أتى الرشيد فولاه بريد مصر[١].

وقال غيره: إنما أمره أن يستعمل ذلك الذرور والسنون فى السحر وفرَّ هو فى جوف الليل.

قال محمد بن إبراهيم بن محمد بن القاسم: الصحيح عندنا أنه سَمَّهُ فى دلاعة قطعها بسكين قد سم أحد جانبيه، فلما قطعها ناوله الذى باشر السم وأكل الآخر.

وكان واضح مولى صالح بن المنصور، يميل إلى آل أبى طالب، فبلغ الرشيد ما صنع بإدريس فأمر بضرب عنقه وصلبه.

قال النوفلى: وكانت مدة إدريس التى أجابته فيها البربر إلى أن مات بوليلى سنة خمس وسبعين ومائة ثلاثة أعوام وستة أشهر.

وقال غير هؤلاء إن داود بن القاسم بن إسحاق بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب هو الذى أفلت من وقعة فخ وهرب إلى المغرب، وذرية داود هذا بفاس وبنو إدريس يناكحونهم، وانصرف داود إلى المشرق فإنه إنما فَرَّ حين خرج أخواه على المنصور.

قال على النوفلى: أخبرنى عيسى بن جنّون قاضى أرشقول لإدريس بن عيسى ودخل الأندلس غازيا أن سليمان بن عبد الله بن حسن بن حسن دخل المغرب أيضا ونزل تلمسان، وبه كمل عدد ولد عبد الله بن حسن ستة لأنهم محمد وإبراهيم وإدريس وعيسى ويحيى وسليمان كما ذكروا.

قال: فولد سليمان بن محمد بن سليمان، فمن ولده: محمد ويحيى وسليمان محل قريشى فى القبلة.

قال النوفلى: ومات إدريس ولا ولد له وجارية من جواريه حُبلى، فقام راشد

(١) النص فى مقاتل الطالبيين ٤٩٠.

بأمر البربر حتى ولدت غلاما فسماه باسم أبيه إدريس، وقام بأمره[1] وأدبه وأحسن تأديبه، وكان مولده فى ربيع الآخر سنة خمس وسبعين ومائة، وتوفى راشد سنة ست وثمانين ومائة.

ولهذا التبنى والاتصال قال محمد بن السمهرى يهجو القاسم بن إدريس بن إدريس: [من الكامل]

وَقُلْ للزِّنيم زَنيم طَنْجَة عِش بِهَا ... لا يحسدنَّكَ فى بلادكَ حَاسِدُ

مَنَّتك نَفْسُك أن تكون خليفةً ... هيهاتَ هَذَا من حديثك باردُ

لَمَّا رَأَيْتُك للئام مُصَافيًا ... أَيْقَنْتُ حَقًا أَنَ جَدَّك رَاشِدُ

وقيل إن راشد مولى عيسى بن عبد الله أخى إدريس بن عبد الله، وقام بأمر الغلام أبو خالد يزيد بن ألياس الفارسى، وأخذ بيعة البربر له يوم الجمعة السابع من ربيع الأول سنة سبع وثمانين ومائة وهو ابن إحدى عشر سنة، وقتل أبا ليلى إسحاق وهو القائم به وبأبيه يوم السبت لست خلون من ذى الحجة سنة اثنتين وتسعين ومائة، وبعث رأسه إلى المشرق مع أحمد وسليمان ابنى عبد الرحمن.

ثم نزل مدينة فاس فى عدوة الأندلسيين[2] وأقام بها شهرا، وذلك سنة اثنتين وتسعين ومائة.

وكانت عدوة القرويين غياضا، فى أطرافها أبيات من زواغة، فأرسلو إلى إدريس فدخل عندهم فأسس مدينة القرويين سنة ثلاث وتسعين ومائة، ثم خرج إلى نفيس فى المحرم سنة سبع وتسعين، ثم غزا نفزة وتلمسان ورجع سنة تسع وتسعين ومائة.

قال داود بن القاسم بن إسحاق بن عبد الله بن جعفر: كنت مع إدريس بن إدريس فى المغرب، فخرجت معه يوما إلى قتال الخوارج فلقيناهم وهم فى ثلاثة أضعاف عددنا، فقاتلناهم قتالا شديدا، فأعجبنى إدريس فى ذلك اليوم وجعلت أديم النظر إليه فقال: ويحك لم توالى النظر إلىَّ؟ قلت: لخصال، أما أولها فإنك

(١) فى حيلة راشد للاحتفاظ بسلطان الأدارسة ينظر د/ حسين مؤنس تاريخ المغرب وحضارته ٣٨ـ٣٨٣.

(٢) تاريخ المغرب وحضارته ٣٨٣.

تبصق بصاقا مجتمعا وأنا أطلب قليل ماء أبل به حلقى فلا أجده.

قال: ذلك لاجتماع قلبى وذهاب بصاقك لذهاب عقلك.

قال: قلت والثانية لما أرى من منّتك.

قال: إن النبى ﷺ صلّى علينا.

فقلت: والثالثة لما أرى من حركتك وقلة قرارك على الدابة.

قال: ذلك رُمح إلى القتال فلا تحسبه رُعْبا وأنا الذى أقول: [طويل]

أليسَ أبونا هــاشم شدَّ أزرَهُ وأَوْصَى بنيه بالطِّعــان وبالضَّرْبِ

فلسنا نَمَلُّ الحربَ حتى تملنـا ولا نَتَشكَّى ما نَؤُولُ من النصبِ

وتوفى إدريس بوليلى سنة ثلاث عشرة ومائتين وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة بِحَبَّةِ عِنب غُصَّ بها، فلم يزل مفتوح الفم سائل اللعاب حتى مات، وولد إدريس محمدا وأحمد وعبيد الله وعيسى وإدريس وجعفرا ويحيى وحمزة وعبد الله والقاسم وداود وعمر.

وتولى الأمر بعده ابنه محمد، وفرَّق البلاد على إخوته على رأى جدَّته كنْزَة أم إدريس بن إدريس[1]، واتَّخَذ محمد بن إدريس مدينة فاس قرارا فولّى القاسم أخاه البصرة وطنجة وما والاهما.

وولّى عمر صنهاجة وغمارة، وولى داود هوارة تاسلمت، وولى يحيى دايَ وما والاها، وولى عيسى وازَقّور وسلى، وولى حمزة الأودية بقرب وليلى، وولى عبد الله لمطة وما والاها، وتصاغر الباقون من إخوته أن يقسم لهم فصاروا مع إخوتهم.

فقام عليه عيسى أخوه صاحب وازقور ونكث طاعته، فكتب إلى القاسم يأمره بمحاربة عيسى أخيهما إذ كان يحاذيه فى البلد فأبى القاسم من ذلك وخالف أمر محمد، فكتب إلى أخيه عمر بمثل ذلك، فأجابه وسارع إلى نصرته وخرج يريد عيسى بمعسكره، فلما قرب من أحواز فاس كتب إلى محمد يستمده ومضى

(١) هذا التصرّف الغريب بناء على نصيحة جدته كنزة بتقسيم الدولة بين إخوته الكثيرين، كان سببًا فى ضعف الدولة، وهى لم يكتمل نموها تاريخ المغرب وحضارته ٣٨٦.

لوجهه، فأوقع بأخيهما عيسى قبل لحاق مدد محمد وأخرجه عن بلد وازقور وهرب إلى سلى ثم أمر محمد أخاه عمر بمحاربة القاسم أخيهما، فحاربه وتغلب على ما كان من بلده بيده، فتزهَّد القاسم وبنى مسجدا على ضفة البحر بأصيلة ولزمه، وتوفى عمر بن إدريس بقرب ذلك ببلد صنهاجة بموضع يقال له الفرس وكان مُنْيَة له، ونقل إلى مدينة فاس فدفن بها، وهو جد الحموديين القائمين بالأندلس على ما نذكره بعد هذا إن شاء الله.

ثم هلك محمد بن إدريس وولى الأمر بعد محمد ابنه على باستخلافه له، ثم هلك فولى الأمر بعده ابن أخيه يحيى بن يحيى بن محمد بن إدريس، ثم إن يحيى ابن يحيى دخل على يهودية فى الحمام يقال لها حنة وقد راودها على نفسها فتغير عليه أهل فاس ووثب عليه عبد الرحمن بن سهل الجذامى، وهو جد أحمد بن أبى بكر بن عبد الرحمن الذى هو صاحب فاس، فأخرجه عن مدينة فاس فهرب إلى عدوة الأندلسيين فمات بها من ليلته.

وكانت زوجة يحيى بن يحيى هذا عاتكة بنت على بن عمر بن إدريس بن إدريس، فلم تخرج مع زوجها يحيى بن يحيى، فأتى على بن عمر أبوها بجنده فدخل عدوة القرويين وملكها، وانتقل الأمر عن بنى محمد بن إدريس إلى بنى عمر بن إدريس.

ثم قام على على بن عمر عبد الرازق الخارجي وكان صفريًا، ويقال إنه من ثغر الأندلس، وكان قيامه من جبل مديونة وهو بقبلى فاس، فدارت بينهم حروب كانت الدائرة فيها على علىّ، فهزمه الخارجى، وأخرجه عن مدينة فاس وفر على إلى بلد أوربة ـ وأجاب عبد الرزاق أهل عدوة الأندلسيين ولم يجبه أهل عدوة القرويين وبعثوا إلى يحيى بن القاسم الذى يعرف بالعدَّام، فولوه على أنفسهم فلم يزل بها حتى قتله ربيع بن سليمان فى سنة اثنتين وتسعين ومائتين.

فتقدم يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس إلى مدينة فاس[1] فدخلها ورجع الأمر إلى بنى عمر، فلم يزل بيد يحيى حتى قدم مصالة بن حبوس سنة سبع وثلاثمائة على ما ذكرنا قبل هذا.

---

(١) الحُلل السندسية ٢/ ٥ـ٢٦.

فلما أجلى بنى صالح عن بلد نكور تقدم إلى مدينة الزيتون، وهى كانت قاعدة يحيى بن إدريس بن عمر قبل دخوله فاس وكانت موئله الذى يعتد بها ويعول عليها، فخرج إليه يحيى مدافعًا له فانهزم يحيى وانفض جمعه ولم تقم له قائمة بعد إلى أن هلك فى سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وكان هلاكه بالمهدية أيام حصار أبى يزيد لها، وكان أعلى بنى إدريس قدرًا بالمغرب لم يبلغ احد منهم مبلغه.

قال النوفلى: وكان مَصَالة بن حَبُّوس[1] لما قدم المغرب قدمته الأولى سنة خمس وثلاثمائة ابتدى موسى بن أبى العافية بالإحسان وقدمه فى المغرب، وكان موسى كلما رجا بالظهور عزه يحيى بن إدريس وقطع به عن أمله ـ فلما رجع مصالة بن حبوس إلى المغرب ثانية سنة عشر وثلاثمائة سعى موسى بيحيى عنده، فأجمع مصالة على القبض عليه وطمع فى ماله وما عنده، فلم يزل يتحيل له حتى أقبل على معسكره، فقبض عليه، وانتزع جميع ما أتى به وأمره باستجلاب ما عنده من الأموال، فأحضره مالاً عظيمًا وأخرجه عن بلده وصار ما كان بيده من البلدان إلى حسن بن محمد الحجَّام وإلى موسى بن أبى العافية.

قال القاضى محمد بن عمر الصدفى: لما أجلى مصالة بن حَبُّوس يحيى بن إدريس، التاثت به الحالة وانفض جمعه ومن كان معه، ثم أخذه بعد ذلك موسى ابن أبى العافية[2] فخرب مدينته وسجنه دهرًا طويلاً بمدينة لكاى، ثم أطلقه ثم نزع بنفسه إلى أصيلة وسكنها وأقطعه بنو إبراهيم شيئًا يقوم منه معاشه.

قال: وكان أبوه إدريس قد دعا الله بأن يميته بأرض غربة جوعًا، فلما كان فى سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة توجه نحو المهدية فوافق قيام أبى يزيد وفعل الشيعة بأنفسهم، فلم يصل إليهم ومات جوعًا فى حصار أبى يزيد بإفريقيا.

وقدم مصالة بن حبوس على فاس ريحان بن على الكتامى وذلك سنة سبع وثلاثمائة، فأقام بها إلى سنة ست عشرة وثلاثمائة، فقام حسن بن محمد بن القاسم بن إدريس الذى يعرف بالحجَّام[3] فنفاه ودخلها وملكها عامين، وإنما سماه

(١) فى سقوط دولة الأدارسة ينظر: الحلل السندسية ٢/ ٢٥ـ٢٦.

(٢) تاريخ المغرب وحضارته ٣٩١.

(٣) الحلل السندسية ٢/ ٢٥ وتاريخ المغرب وحضارته ٣٩٢.

حجامًا عمه أحمد بن القاسم بن إدريس الكرتى، وذلك أنه جرى بينهما أمر أفضى بهما إلى الاختلاف والتدابر حتى زحف كل واحد منهما إلى الآخر، فالتقيا بموضع يعرف بالمدالى من بلد صنهاجة، فحمل حسن على غلام لعمه فدعسه بحربة أثبتها فى مكان المحجم، فأخبر عمه بفعله، ثم شد على آخر فأصابه فى ذلك الموضع، وقيل لأحمد أيضًا، وضرب ثالثة فوافق ذلك الموضع.

فقال أحمد: صار ابن أخى حجامًا، فلزمه ذلك، ولذلك قال شاعر من شعرائهم: [طويل]

وسُمِّيتُ حَجَّامًا ولستُ بحـاجمٍ ... ولَكِنْ لضربٍ فى مكانِ المَحَاجِمِ

وكان حسنُ الحجَّام فى آخر بلد المدالى يملك فاسًا، فأوقع بموسى بن أبى العافية، رجل من رؤساء البربر وقعة شنعاء لم يكن بالمغرب بعد دخول إدريس فيه أعظم منها، أجلت هزيمته له عن أزيد من ألفى قتيل، وقتل فى جملتهم ابنًا لموسى يسمى منهل فغدره على أثر ذلك بفاس حامد بن حمدان الهمدانى ويعرف باللوزى نسب إلى قرية بإفريقية، فحبسه عند نفسه وأغلق أبواب المدينة دون عسكره، وذلك كان شأن أهل فاس لا يتركون عسكر رئيس يدخل مدينتهم، فلما صار فى سجن حامد أرسل إلى موسى بن أبى العافية فأتاهم ودخل فاسًا وتغلب على عدوة القرويين وتغلب بعد ذلك على العدوة الأخرى، ثم جعل يلحف[1] على حامد فى قتل حسن الحجَّام بابنه منهل، وحامد يدافعه عنه واندلقت ساقه وجاز إلى عدوة الأندلسيين فمات بها.

وقتل موسى عبد الله بن ثعلبة بن محارب الأزدى وقتل معه ابنيه محمد ويوسف، وهرب ابنه محارب بن عبد الله، فلحق بقرطبة، وقيل بالمهدية، وأراد أيضًا قتل حامد بن حمدان الهمدانى فهرب إلى المهدية.

واستولى موسى بن أبى العافية على جميع المغرب وأجلى آل إدريس أجمعين[2] عن مواضعهم وانحاشوا عن البلد، وصار جميعهم فى حجر النسر مقهورين، وهو حصن بناه إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس سنة سبع عشرة

(١) اى يُلِحّ بشدَّة.

(٢) تاريخ المغرب وحضارته ٣٩٣.

وثلاثمائة، واعتزم موسى على محاصرتهم وإستئصالهم حتى عزله فى ذلك أكابر أهل المغرب وقالوا: قد أجليتهم وأفقرتهم، أتريد أن تقتل آل إدريس أجمعين وأنت رجل من البربر؟ فانكسر عن ذلك ولاذ عنه بعسكره، وتخلف لمراقبتهم ومنعهم من التصرف قائد جليل كان عندهم يكنى أبا قمح، فكانت محلة أبى قمح بتاوررت واستخلف موسى ابنه مدين بفاس حتى قدم حميد بن يعلى فى سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة إلى المغرب ومعه حامد بن حمدان الهمدانى.

فلما أيقن مدين بقدومهما هرب من فاس وولى حميد حامدًا على فاس، وتظاهر بنو إدريس على أبى قمح فهزموه وغنموا أكثر عسكره قالوا: فبذلك سموا ذلك الموضع الكوم وتفاءلوا به وجعلوه شعارًا بينهم.

ووثب بفاس أحمد بن بكر بن عبد الرحمن بن أبى سهل الجذامى، فقتل حامدًا وبعث برأسه وولده إلى موسى بن أبى العافية، فبعث بهما موسى إلى قرطبة مع سعيد بن الزراد.

وكان صار حميد بن يصلى عن موسى وعن المغرب بغير عهد، فهو كان سبب سجنه بإفريقيا حتى هرب إلى الأندلس.

ثم قدم ميسور الفتى إلى المغرب فى سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة على ما تقدم قبل هذا فخرج أحمد بن بكر صاحب فاس يومئذ إلى معسكره فحبسه ميسور ووجه به إلى المهدية.

فقدم أهل فاس على أنفسهم حسن بن قاسم اللواتى وحارب ميسور مدينة فاس سبعة أشهر، ثم قفل عنهم فلم يزل حسن واليًا عليها إلى أن قدم أحمد بن بكر منطلقًا من المهدية، فتخلى له حسن عما كان بيده، وذلك سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة.

ولما ورد ميسور إلى المغرب حاصر موسى بن أبى العافية وتولى معظم تلك الحروب بنو إدريس، حتى جلى موسى بن أبى العافية إلى الصحراء وصار كما كان بيده إلى آل إدريس والرئاسة منهم فى بنى محمد بن إدريس بن إدريس، وهم حسن وجنّون وإبراهيم بنو محمد بن القاسم، وكان محمد متخلفًا فى إخوته وعشيرته لا قدر له.

ثم صارت النباهة والقدر لبنيه، وإبراهيم بن محمد هو المعروف بالرهونى، وكان الذى يلزم صخرة النسر منه جنون وحنون من أبناء إبراهيم، واسم جنون القاسم.

ولمحمد بن إسحاق الشاعر المعروف بالنحيلى فى جنّون هذا أهاج كثيرة مقذعة، وذلك أنه غلب على أُمٍّ ولدٍ كانت له، فهويها جنّون وصارت عنده فاستعان عليه بابن عمه أحمد بن القاسم بن إدريس، فكتب إليه يرغب أن يصرفها إليه وأعلمه بما يلحقه فى فعله من قبح الأحدوثة، فلم يلتفت إلى مقالته ولا انتفع محمد بن إسحاق بشفاعته، فاستأذن محمد بن إسحاق أحمد بن القاسم فى هجائه، فأذن له فى ذلك وعاهده أن لا يرى منه على هجائه له مكروها أبدًا.

فمما هجاه به: [كامل]

أترى سلاحك إذ كَدَتْك قصيدتى	يُنْقِيه سَيْلٌ قد طما من سَفْدَدِ
أو بحر طنجا فى عصوفات الصَّبى	وبحر سَبْتَة يا لئيمًا فاردد
أو نِيلُ مِصْرَ إذا ارتمَى أَذيَه	تعلو سَوَاحِلُه بموجٍ مُزْبِدِ
جَنُّون يزعُمُ أنَّه مُتَلَوِّطٌ	وهو المنيكُ إذا خلا بالأمردِ
ابنا محمّد الزنيم لأنتمُ	شرّ الورى مِمَّن يروح ويغتدِى
إن كان جنّون من آل محمّدٍ	فأنا كفورٌ بالنَّبِيِّ محمَّدِ

وقد ذكرنا خبر سَفْدَد واختلاف أسماء هذا النهر باختلاف المواضع، فأما قوله: (أو بحر طنجة فى عصوفات الصبى) فإن الريح الشرقية تؤذى فيه أشد إذاية وكذلك فى جرفيه.

وكان أعلى بنى محمد كلهم أيدًا أبو العيش بن جنون بن محمد، وكان له من البلد ما بين أجاجن وقيل إيزاجن، وهو بقبلى حجر النسر إلى مدينة فاس.

وكان أحمد بن إبراهيم بن محمد عالمهم، كان يحفظ السير والتواريخ وكان نسابة عاقلاً حليمًا وكان مبجلاً لعلمه، وكان يعرف أحمد الفاضل، وكان له ماجرّ من أجاجن إلى مدينة سبتة، وكان شديد الميل إلى خلفاء بنى أمية وكثير التشيع فيهم، وهو الذى استشار محمد بن عبد الله بن أبى عيسى قاضى الجماعة

فى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة فى دخـول الأندلس، والغزو مع أمير المؤمنين عبد الرحمن[١].

فلما أعلم عبد الرحمن بذلك أمره بمخاطبته واستحثاثه فى القدوم وأن يُعلمه أنه لا ينزل مرحلة من الأندلس ما بين نزوله بالجزيرة الخضراء إلى نزوله بمحلة بلاط حميد من أقصى الثغر، وذلك ثلاثون محلة ـ إلا أمر أمير المؤمنين ببنيان قصر فى كل محلة ينزلها ينفق فيه ألف مثقال ليكون أثر إقباله إلى الأندلس باقيا مع الأيام.

ولم يكن فى بنى إدريس من شُهِرَ بالعلم شهرته إلا محمد الأكبر بن القاسم بن إدريس وهو المعروف بالكَرْتى، وكان له علم وقدر بالمغرب، وهو الذى استجلب بكر بن حماد[٢]، ووفد على أمير المؤمنين عبد الرحمن منهم حسن بن القاسم المعروف بجنون وعيسى بن جنون بن محمد بن القاسم، وذلك يوم الإثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شوال سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، فأقاما فى كرامته إلى شهر صفر من العام الذى يليه، ثم انصرفا إلى بلدهما.

ولما دخلت سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة أجمع بنو محمد بن القاسم على هَدْم مدينة تيطاوان فهدموها، ثم تعقبوا ما فعلوا وأرادوا بنيانها، فضج أهل مدينة سبتة من بنيانها وزعموا أنها تضر بمدينة سبتة وتقطع عنها مرافقها، فأعجل عبد الرحمن أمير المؤمنين إخراج الجيوش إليهم وتجهيز العساكر نحوهم، وذلك سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة، والقائد أحمد بن يعلى، حتى وصل إلى مدينة سبتة ونفذ عهد عبد الرحمن إلى حميد بن يصلى، وكان والى تيجيساس، بالتقدم إلى سبتة والتظافر بأحمد بن يعلى على حرب بنى محمد.

واجتمع العسكران فسفر حميد بن يصلى إلى بنى محمد على ابن معاذ، فأجابوه إلى التخلى عن مدينة تيطاوان على أن يبعثوا بأبنائهم إلى أمير المؤمنين فقدم أحمد بن يعلى عليه بحسن بن أحمد الفاضل بن إبراهيم بن محمد ومحمد

(١) هو عبد الرحمن بن الحكم.

(٢) هو بكر بن حمّاد بن سمك الزناتى، أبو عبد الرحمن القاهر (ت ٢٠٠ـ٢٩٦هـ): شاعرٌ عالم بالحديث ورجاله، فقيه من أفاضل أهل المغرب، ولد بتاهرت بالجزائر، ورحل إلى البصرة سنة ٢١٧هـ، ثم إلى القيروان، وعاد منها إلى تاهرت سنة ٢٩٥ هـ، فتوفى بها وشعره كثير. الأعلام ٢/ ٦٢ والبيان المغرب ١/ ١٥٣.

ابن عيسى بن أحمد بن إبراهيم، ووصل إلى قرطبة يوم السبت لتسع خلون من رجب سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة.

وعيسى هو أبو العيش، فبعث حسن فى ابنه يحيى وبعث محمد فى ابنه حسن، فوصلا إلى قرطبة يوم الأربعاء لأربع بقين من ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة، فمكثا بقرطبة وصدر أبواهما إلى بلادهما بالحباء والكرامة المجددة.

وولد ليحيى وحسن بقرطبة البنون، ثم هلكا: هلك يحيى سنة تسع وأربعين، وهلك حسن سنة خمسين، ودفنا بمقبرة الربط وصلى عليهما منذر بن سعيد القاضى.

وخلف يحيى ابنا يسمى حسينا، وخلف حسن ابنين يسميان محمدا وحسينا أيضا، فلم يزالوا مستقرين بقرطبة إلى خلافة المستنصر بالله، فبعث بهم أعلاما من ثقات أهل مملكته، وذلك فى رجب سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، فوصلوا بهم إلى أحمد وحسن ابنى إبراهيم بن محمد بن القاسم، ويحيى بن أحمد أبو هذا الغلام قد هلك، فأنزل أحمد بن إبراهيم ابن ابنه حسين بن يحيى على ما كان لأبيه.

فأما ذريَّة عمر بن إدريس جد الناجمين بالأندلس فإن عمر ولد عليا بسرية، وإدريس أمه زينب بنت عبد الله بن داود بن القاسم الجعفرى، وعبيد الله لجارية يقال لها ربابة، ومحمدا.

فأما علىّ فإنه أعقب من الذكور اثنى عشر ذكراً وابنة واحدة وهى عاتكة التى تقدم ذكرها، امرأة يحيى بن يحيى بن محمد بن إدريس، وأكثر عقب هؤلاء بأوربة ومنهم بمدينة فاس ومنهم بكتامة.

وحمزة بن على منهم، قتله موسى بن أبى العافية بيده، ظفر به بمدينته التى كانت تدعى بنى عوسجة، وقتل معه ولديه هارون ويحيى، وكان حمزة هذا قد حضر مع حسن بن محمد الحجّام هزيمته لموسى وحضر قتل منهل ابنه، وكان حمزة قد علق منهلا على بابه ببنى عوسجة فقتلهم بثأره.

وحسن بن عبيد الله بن على منهم ابتلى بالجذام، وجنون بن إدريس بن على، أجلاه موسى بن أبى العافية إلى زناتة فسبتة برغواطة فعقبه هناك عندها.

وعقب أبى العيش بن على منهم بالأندلس.

وأما إدريس بن عمر بن إدريس فهو لباب ولد عمر بن إدريس، وبولده تكرر الأمر إلى أن كثرهم بنو محمد بن القاسم بن محمد بن إدريس ومحمد بن إدريس بن عمر هو المعروف بابن ميالة ويكنى أبا العيش، ولم يزل مواليا للناصر عبد الرحمن رحمه الله، وقد ذكرنا خبر ابنه يحيى بن إدريس وملكه بمدينة فاس، وأنه كان أعلى بنى إدريس حالا بالمغرب، وذكرنا موته بالمهدية.

قال على النوفلى: كان يشهد مجلس يحيى بن إدريس العلماء والشعراء، وكان أبو أحمد الشافعى من جلسائه وممن يتكلم عنده فى العلم، وكان ينسخ له عدة الوراقين وشجعه[1] الناس من الأندلس وغيرها فيحسن إلى جميعهم وينصرفون عنه أكرم منصرف.

وكان لإدريس بن عمر خمسة من الولد الذكور غير هذين ولهم عقب كثير، فأما عبيد الله بن عمر بن إدريس فولد حمزة والقاسم وأبا العيش، لم تسمَّ لنا أمهم وهى مملوكة بربرية، وعليًا وإبراهيم ومحمدا، ويقال لمحمد الشهيد، أمهم زواغية، فأما حمزة فكان شجاعا جوادا متقدما وله عقب كثير ببلد غمارة وزنانة، وأما على بن عبيد الله فلم يُعقِّب من ولده إلا جنُّون وهم بكورة الجزيرة، وأما إبراهيم فكان عَقِبُه بحجر النسر وأحد بنيه أعقب ببلد زناته، وأما القاسم بن عبيد الله فله عَقِب كثير ببلد زناته، ومحمد الشهيد عقبه أيضا ببلد زناته، وأما أبو العيش بن عبيد الله فولد حمودا ويحيى، فأما يحيى فله بنون بيَّازعذرا، وأما حمود فولد القاسم وعليا وفاطمة، فأما على فولى الخلافة بالأندلس سنة سبع وأربعمائة واغتاله فتيان من الصقالبة فى حمام بقصر قرطبة فقتلاه ثم قُتلا به، وكان له من الولد يحيى وإدريس وولّى عهده منهما يحيى، وكان صاحب المغرب وكان إدريس أخوه صاحب مدينة مالقة.

فلما قُتل علىٌّ استدعى البربر القاسم أخاه وأدخلوه القصر وبايعه الناس وخطب له بالخلافة، فأنَفَ من ذلك ابنُ أخيه يحيى لما تقدم من عهد أبيه له، وتظافر مع إدريس أخيه على عمهما لتصوره عليهما فى خلافة أبيهما، واتفقا على

(١) أى يقصدونه ويبغون عطاءه.

أن يعبر يحيى إلى مالقة لطلب حقه، ويعبُر إدريس إلى المغرب.

فجاز يحيى إلى إشبيلية أربع عشرة وأربعمائة واستمر إلى قرطبة، واستخلف يحيى بقرطبة وتسمى بالمعتلى وخطب له بالخلافة، ثم إن البربر اضطربوا عليه ففر من قرطبة إلى مالقة، ورجع عمّه القاسم إلى قرطبة مدة أخرى وتسمى بالمأمون، ثم عزله ابن أخيه يحيى، فخرج من قرطبة إلى إشبيلية ومكث بها إلى أن أخرجه محمد بن عبّاد وصار بشريش، فحصره بها ابن أخيه يحيى حتى أخذه وبنيه هناك فسجنهم، واستوثق الأمر ليحيى بن علىّ حتى قتل فى المحرم سنة سبع وعشرين وأربعمائة.

فلما وصل الأمر إلى أخيه، خُطب له بالخلاف فى سبتة وتسمَّى بالعزيز بالله.

ثم عبر البحر إلى مالقة فتسمى بالمتأيِّد بالله، وخطب له بالخلافة بمالقة وأعمال البربر بالأندلس وبالمرية وأعمالها، وتوفى يوم الإثنين لأربع عشرة ليلة بقيت للمحرم سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة، وكان ولى عهده حسن بن يحيى صاحب سبتة فتسمى بالمستنصر بالله، فجاز إلى الأندلس وبويع له بمالقة ونواحيها وبغرناطة وجهاتها إلى أن توفى سنة أربع وثلاثين وأربعمائة.

فولى إدريس بن يحيى أخوه وبويع له يوم الخميس لست خلون من جمادى الآخر سنة أربع وثلاثين وأربعمائة، وتَسَمَّى بالعالى وخُطب له بذلك بمالقة وغرناطة وقرمونة وأعمالها إلى أن خلع سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة.

وقام محمد بن إدريس بن على وتسمى بالمهدى، وخُطب له بالخلافة هناك إلى أن تُوفى سنة أربع وأربعين وأربعمائة.

وقام بالأمر بعده ابن أخيه إدريس بن يحيى بن إدريس بن على وتسمّى بالموفق، ولم يُخطب له بالخلافة وبقى أشهر يسيرة، ثم دخل عليه العالى إدريس بن يحيى وبويع له مرة ثانية بمالقة وبقى إلى أن توفى سنة ست وأربعين وأربعمائة.

وقام بالأمر بعده ابنه محمد بن إدريس وتسمَّى بالمستعلى ولم يُخطب له بالخلافة، فأقام بمالقة إلى أن تغلَّب عليها باديس بن حبُوس بن ماكسن فى صدر سنة سبع وأربعين وأربعمائة، فانقطعت دولة بنى على بن حمّود من يومئذ.

ثم استدعى محمد بن إدريس هذا من مدينة مليلة، وهو مستقر بالمرية لا يُعرف مكانه لخمول ذكره، فعبر إليها وذلك فى شهر شوال سنة تسع وخمسين وأربعمائة، فقام به جماعة بنى ورْتدى بمليلة وبقلوع جارة ونواحيهما، وهو هناك باق على ذلك إلى وقتنا هذا وهو آخر سنة ستين وأربعمائة.

* * *

ذكر ممالك برغواطة[1] وملوكهم

أخبر أبو صالح زمُّور بن موسى بن هشام بن وارد يزن البرغواطى، وكان صاحب صلاتهم حين قدم على الحكَم المستنصر بالله رسولا، من قبل صاحب برغواطة أبى منصور بن عيسى بن أبى الأنصار عبد الله بن أبى عفير يحمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف، وكان وصوله إلى قرطبة فى شوال سنة اثنين وخمسين وثلاثمائة، وكان المترجم عنه بجميع ما أخبر به الرسول الذى قدم معه، وهو أبو موسى عيسى بن داود بن عشر بن السطاسى من أهل شلة مسلم من بيت خيرون بن خير.

فأخبر زمُّور أن طريفًا[2] أبا ملوكهم من ولد شمعون بن يعقوب بن إسحاق وأنه كان من أصحاب ميسرة المطغرى المعروف بالحقير ومغرور بن طالوت.

وإلى طريف نسبت جزيرة طريف[3]، فلما قتل ميسرة وافترق أصحابه احتل طريف ببلدتا مسنى، وكان إذ ذاك ملكا لزناتة وزواغة، فقدمه البربر على أنفسهم وولى أمرهم، وكان على ديانة الإسلام إلى أن هلك هناك وتخلف من الولد أربعة، فقدم البربر ابنه صالحا منهم.

---

(١) عن زندقه برغواطة ينظر: تاريخ المغرب وحضارته ٣٧٥ـ٣٧٨.

(٢) هو طريف أبو صالح من أتباع ميسرة المطغرى الصفرى، صارت له زعامة برغواطة، فرأسهم دهرًا طويلاً، يقال حكم خمسين سنة. تاريخ المغرب وحضارته ٣٧٥.

(٣) جزيرة طريف: جزيرة على البحر الشامى فى أوَّل المجاز المسمّى بالزقاق، ويتصل غربيها ببحر الظلمة، وهى مدينة صغيرة، وعليها سور تراب، ويشقها نهر صغير، وبها أسواق وفنادق وحمَّامات ومنها إلى الخضراء ثمانية عشر ميلاً. الروض المعطار ٣٩٣.

قال زمور: وكان مولد صالح بعد موت النبى ﷺ بمائة عام سواء.

قال: وحضر صالح مع أبيه حروب ميسرة الحقير وهو صغير.

قال: وكان من أهل العلم والخير فتنبأ فيهم وشرع لهم الديانة[1] التى هم عليها إلى اليوم، وادعى أنه نزل عليه قرآنهم الذى يقرؤونه إلى اليوم.

قال زمور: وهو صالح المؤمنين[2] الذى ذكره الله عز وجل فى قرآن محمد ﷺ فى سورة التحريم.

وعهد صالح إلى ابنه ألياس بديانته وعلَّمه شرائعه وفقهه فى دينه وأمره ألا يظهر ذلك إلا إذا قوى وأمن، فإنه يدعو حينئذ إلى ملته ويقتل من خالفه، وأمره بموالاة أمير الأندلس.

وخرج صالح إلى المشرق ووعد أنه ينصرف إليهم فى دولة السابع من ملوكهم، وزعم أنه المهدى الأكبر الذى يخرج فى آخر الزمان لقتل الدجال، وأن عيسى ابن مريم يكون من أصحابه ويُصَلّى خلفه، وأنه يملأ الأرض عدلا كما مُلئت جَوْرًا[3]، فتكلم لهم فى ذلك كلاما كثيرا نسبه إلى موسى الكليم عليه السلام وإلى سَطِيح الكاهن وإلى ابن عباس.

وزعم أن اسمه فى العربىِّ صالح وفى السريانى مالك وفى الأعجمى عالم وفى العبرانى وربيا وفى البربرية ورياورى، : أى الذى ليس بعده شيء، وتولى ألياس الأمر بعد خروج أبيه، يُظهر ديانة الإسلام ويُسرُّ الذى عهِدَ إليه به أبوه خوفا وتقيّة، فكان طاهرا عفيفا لم يلبس بشى من الدنيا إلى أن هلك بعد أن ملك خمسين سنة.

---

(١) عن تنبؤ صالح ينظر: تاريخ المغرب وحضارته ٣٧٦ ـ٣٧٧.

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وإِنْ تَظَاهرا عليه فَإِنَّ الله هُوَ مَوْلاهُ وجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمنين﴾ [سورة التحريم، آية ٤].

(٣) استبعد الدكتور حسين مؤنس الكثير مِّما يدعى على صالح بن طريف حيث يرى هذا الزعيم القبلى المارق ـ بحسب ما تقول المصادر ـ يترك الرياسة لابنه، ويرحل هو إلى المشرق فى رحلة غامضة، وقال إنه سيعد وفى صورة المهدى المنتظر الذى يملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جورًا، والغالب أنه خرج للحج واختفى بطريقة ما، وأشاع ابنه وخليفته إلياس هذه الشائعة لكى يتولى الحكم ويسيطر على عقول أتباعه وقلوبهم. تاريخ المغرب وحضارته ٣٧٧.

وولد ألياس جماعة منهم يونس، فتولى الأمر بعد أبيه فأظهر ديانتهم ودعا إليها وقتل من لم يدخل فيها حتى أخلى ثلاثمائة مدينة وسبعا وثمانين مدينة، حمل جميع أهلها على السيف لمخالفتهم إياه، وقتل منهم بموضع يقال له تاملّوكاف، وهو حجر نايف عالٍ وسط السوق، سبعة آلاف وسبعمائة وسبعين قتيلا، وقتل من صنهاجة خاصة في وقعة واحدة ألف وَغْدٍ، والوغد عندهم المنفرد الوحيد الذى لا أخ له ولا ابن عم، وذلك فى البربر قلّيل وإنما أحصوا الأقل ليستدل به على الأعظم الأكثر.

قال زمّور: ورحل يونس إلى المشرق وحج ولم يحج أحد من أهل بيته قبله ولا بعده.

ومات يونس بن إلياس[1] بعد أن ملك أربعا وأربعين سنة.

وانتقل الأمر عن بنيه بقيام أبى غفير يحمد بن معاد بن الْيَسَع بن صالح بن طريف عليهم، فاستولى على الملك، ودان بدين آبائه واشتدت شوكته وعظم أمره، وكانت له وقائع كثيرة فى البربر مشهورة لا تُنسى مع الأيام، منها وقيعة تيمغسن، وكانت مدينة عظيمة، أقام القتل فى أهلها ثمانية أيام من الخميس إلى الخميس، حتى شرقت دورهم ورحابهم وسككهم بدمائهم، ومنها وقعة بموضع يقال له بهت عجز الإحصاء عن عدد من قتل فيها.

وكانت لأبى غفير من الزوجات أربع وأربعون زوجة كان له منهن من الولد بعددهن.

ومات أبو غفير بعد أن ملك تسعا وعشرين سنة، وذلك عند ثلاثمائة من الهجرة.

وولى الأمر بعده من بنيه عبد الله أبو الأنصار، وكان سخيا ظريفا يفى بالوعد والعهد ويحفظ الجار ويكافئ على الهدية بأضعافها، وكان أفطس شديد أدمة الوجه ناصع بياض الجسم طويل اللحية، وكان يلبس السراويل والملحفة ولا يلبس القميص، ولا يعتم إلا فى الحرب ولا يعتم أحد فى بلده إلا الغرباء، وكان يجمع جنده وحشمه فى كل عام ويظهر أنه يغزو من حوله، فتهاديه القبائل وتستألفه فإذا

(١) تاريخ المغرب وحضارته ٣٧٧.

استوعب هداياهم وألطافهم فرق أصحابه وسكنت حركته، فملك فى دعة اثنتين وأربعين سنة ودفن بأنسلخت وبها قبره.

وولى بعده من بنيه ابنه أبو منصور عيسى بن أبى غفير، وهو ابن اثنين وعشرين سنة، وذلك سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة، فصار بسيرة آبائه ودان بديانتهم واشتدت شوكته وعظم سلطانه، وكان أبوه قد وصَّاه قبل موته بموالاة صاحب الأندلس، وكذلك يوصى جميعهم المرشح للملك بعده، قال زمور: وقال له: يا بنى أنت سابع الأمراء من أهل بيتك، وأرجو أن يأتيك صالح بن طريف كما وعد، انتهى كلام زمور.

وقال أبو العباس فضل بن مفضل بن عمرو المدحجى: إن يونس[1] القائم بدين برغواطة أصله من الشدونة من وادى جربت، وكان قد رحل إلى المشرق فى عام واحد مع عباس بن ناصح وزيد بن سنان الزناتى صاحب الواصلية وبرغوت بن سعيد الترارى وجد بنى عبد الرزاق ويعرفون ببنى وكيل الصفرية، ومناد صاحب المنادية المنسوب إليه القلعة المعروفة بالمنادية قريبا من سجلماسة وآخر ذهب عنى اسمه، فأربعة منهم فقهوا فى الدين وادعى ثلاثة منهم النبوة، منهم يونس صاحب برغواطة.

قال: وكان يونس شرب دواء الحفظ فلقن كل ما سمع حفظه، وطلب علم النجوم والكهانة والجان ونظر فى الكلام والجدال، وأخذ ذلك من غيلان.

ثم انصرف يريد الأندلس، فنزل بين هؤلاء القوم من زناتة، فلما رأى جهلهم استوطن ببلدهم، وكان يخبرهم بأشياء قبل كونها مما تدل عليه النجوم عندهم فتكون على ما يقول و قريبا منه، فعظم عندهم.

فلما رأى ذلك منهم وعرف ضعف حلومهم وسخافة عقولهم أظهر ديانته ودعا إلى نبوته، وسمى من اتبعه بربطى لما كان من بربط، ثم أحالوه بألسنتهم وردوه إلى لغتهم فقالوا: برغواطى.

قال فضل بن مفضل: وقال سعيد بن هشام المصمودى فى وقعة بهت قصيدة طويلة اخترنا منها أبياتا: [من الوافر]

---

(١) انظر: تاريخ المغرب وحضارته ٣٧٧.

قفى قَبْلَ التَّفَرُّق فَاخبْرينا وَقُولى وَاخبِرى خَبَرًا مُبينًا
هُمُوم بَرابَر خسروا وَضَلُّوا وَخَابُوا لا سقَـوْا مَـاءً مَعينا
ألاَيم أُمَّـةً هلَكَـتْ وَضَلَّتْ وزَاغَتْ عن سبيلِ المُسْلمينا
يقولــونَ النَّبىُّ أبو غُفَيْر فَأَخزَى اللّـهُ أُمَّ الكَاذبينَا
أَلَمْ تَسْمَع ولَمْ تَرَ يَوْمَ بَهْت عَلى آثـار خَيْـلهم رَنِينَـا
رَنِينَ الباكيــاتِ فَبَيْنَ ثَكْلَى وَعَــاوِيَةٍ وَمُسْقطـة جَنِينَا
سَيَعْلَمُ قَوْمُ تامَسْنَى إذَا مَـا أَتَوا يَوْمَ النّشُـورِ مُهَيْمنينا
هُنَـاك يُونُس وبَنُو أبيــه يَقُـــودُون البَرابرَ مُهْطعينَا
إِذَا وُرِيَا وَرَى زَمّتْ عليهم جَهَنَّــمُ قَائـد المُستَكْبـرِينَا
فليسَ اليـومَ رِدتُّكم ولَكِنْ لَيَــالِيَ كُنْتُـمْ مُتَمَيْسـرِينَا

هذا البيت يصدق قول زمّور البرغواطى: أن طريفًا كان من أصحاب ميسرة فيشهد له.

وأما هذا الضلال الذى شرع لهم فإنهم يقدمون مع الإقرار بالنبيين الإقرار بنبوة صالح بن طريف ونبوة من تولى الأمر بعده من ولده، وأن الكلام الذى ألف لهم وَحْيًا من الله تعالى لا يشكون فيه، تعالى الله عن ذلك، وصوم رجب وأكل شهر رمضان وخمس صلوات فى اليوم وخمس صلوات فى الليلة والتضحية فى اليوم الحادى عشر من المحرم، وفى الوضوء غسل السرَّة والخاصرتين ثم الاستنجاء ثم المضمضة وغسيل الوجه ومسح العنق والقفا وغسل الرجلين من الركبتين، وبعض صلواتهم إيماء بلا سجود وبعضها على كيفية صلاة المسلمين، وهم يسجدون ثلاث سجدات متصلة ويرفعون جباههم وأيديهم عن الأرض مقدار نصف شبر.

وإحرامهم أن يضع إحدى يديه على الأخرى ويقول: ابسمن ياكُش، تفسيره بسم الله، مقر ياكُش، تفسيره الكبير الله، ويضعون أيديهم مبسوطة فى الأرض طول ما يتشهدون ويقرأون نصف قرآنهم فى وقوفهم ونصفه فى ركوعهم، ويقولون فى تسليمهم بالبربرية: الله فوقنا لم يغب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء، ثم يقول مقر ياكش خمسا وعشرين مرة، إيحن ياكُش مثل ذلك ومعناه:

الواحد الله، وردام ياكش مثل ذلك ومعناه: لا أحد مثل الله.

وهم يجمعون يوم الخميس ضحًى، وصيام يوم من كل جمعة فرض من فروضهم ويصوم الجمعة الأخرى التى تليه أبدا. ويأخذون العشر من الزكاة من جميع الحبوب ولا يأخذون من المسلمين شيئا، ويتزوجٍ من النساء ما استطاع على مباعلتهن والانفاق عليهن بلا حد عدد، وأن لا يتزوّج من بنات عمه إلا ثلاث جدود، ولا يتسرون ولا ينكحون للمسلمين ولا ينكحون فيهم ويطلقون ويراجعون ما أحبوا.

ويقتل السارق بالإقرار أو بالبينة ويرجم فى الزنا عندهم وينفى الكاذب ويسمونه المُغيَّر، والديَّة عندهم مائة من البقر، ورأس كل حيوان عليهم حرام، والحوت لا يؤكل إلا أن يزكى والبيض عندهم حرام والدجاج مكروهة إلا أن يضطرو إليها.

وليس عندهم أذان ولا إقامة وهم يكتفون فى معرفة الأوقات بزقاء الديوك ولذلك حرموها، وكان يبصق فى أيديهم فيلعقونه تبركا به ويحملون بصاقه إلى مرضاهم فيستشفون به، وصار أهل برغواطة أعلم الناس بالنجوم وأحذقهم بالقضاء بها، وكانوا أجمل الناس رجالا ونساء وأشدهم أيدا، كانت الجارية البكر منهن تثب ثلاث حمر مصطفة ولا يمس ثوبها شيئا من الحمر، ولا تقدر على ذلك ثيِّب.

وقرآنهم الذى وضع لهم صالح بن طريف ثمانون سورة أكثرها منسوبة إلى أسماء النبيين من لدن آدم، أولها سورة أيوب وآخرها سورة يونس وفيها سورة فرعون وسورة قارون وسورة هامان وسورة يأجوج ومأجوج وسورة الدجال وسورة العجل وسورة هاروت وماروت وسورة طالوت وسورة الجراد وسورة الجمل وسورة الحنش ـ وكان يمشى على ثمان أرجل ـ وفيها سورة غرائب الدنيا، وهناك العلم العظيم عندهم.

* * *

ذكر كلمات مترجمة من أول سورة أيوب
وهى استفتاح كتابهم [(١)]

بسم الله الذى أرسل الله به كتابه إلى الناس، هو الذى بين لهم به أخبارهم.

قالوا: علم إبليس القضية، أبى الله ليس يطيق إبليس أن يعلم كما يعلم الله.

سل أى شىء يغلب للألسن فى الأقولة، ليس يغلب الألسن فى الأقولة إلا الله بقضائه باللسان الذى أرسل الله بالحق إلى الناس استقام الحق.

انظر محمدا، وعبارة ذلك بلسانهم أيمنى مامت فمامت محمد كان حين عاش استقام الناس كلهم الذين صحبوه حتى مات، ففسد الناس، كذب من يقول إن الحق يستقيم وليس ثم رسول الله، وهى سورة طويلة.

قال زمور: إن بنى صالح بن طريف يركبون وقت أخباره فى ثلاث آلاف ومائتى فارس، وإن قبائل برغواطة الذين يدينون لهم وهم على ملتهم: جراوة وزواغة والبرانس وبنو أبى ناصر ومنجصة وبنو أبى نوح وبنو واغمر ومطغرة وبنو بورغ وبنو ضمر ومطماطة وبنو وزكسبت، وعددهم ينتهى أكثر من عشرة آلاف فارس، وممن يدين لهم من المسلمين وينضاف إلى مملكتهم زناتة الجبل وبنو أفلوسة وبنو كونة وبنو يسكر وأصادة وركانة وإيزمين ومنادة وماسنة ورصانة وترارتة، ومبلغ عددهم نحو اثنى عشر ألف فارس.

قال زمور: وليس فى عسكرهم طبول ولا بنود.

وعد زمور من أنهار بلادهم الجارية أزيد من مائة نهر أعظمها نهر ماسنات، وهو يجرى من القبلة إلى الجوف، وبين عنصره وموقعه فى البحر مسيرة ستة أيام، ونهر وانسيفن يقع فى نهر شلة تحت الرباط فى البحر المحيط.

ولم تزل برغواطة فى بلادها معلنة بدينها وبنو صالح بن طريف ملوكها إلى أن قام فيهم الأمير تميم اليفرنى[(٢)]، وذلك بعد عشرين وأربعمائة من الهجرة، فغلبهم

---

(١) تعالى الله سبحانه وتعالى عن قولهم علوًا كبيرًا.

(٢) هو تميم بن زيرى بن يَعلى بن محمد بن صالح، أبو الكمال اليفرنى: أمير شالة (فى الرباط =

على بلادهم وسباهم وجلا من بقى منهم واستوطن ديارهم وانقطع أمرهم وعفا أثرهم ولم يبق لضلالهم باقية ولا من أواصر كفرهم آصرة.

وتميم هذا كان ذا جد وإيثار للعدل، وهو الذى قتل أحد بنيه لاغتصابه جارية من التجار بوادى شلة.

وجميع بلاد برغواطة اليوم على مِلَّة الإسلام.

* * *

الطريق من مدينة فاس إلى مدينة القيروان

وهى أربعون مرحلة نذكر مشهورها، أول ما تخرج من فاس على باب الفتوح من عدوة الأندلسيين إلى مرج ابن هشام إلى وادى سبوا، وهو على نحو أربعة أميال من فاس، عليه قرى كثيرة.

ثم تسير منه إلى موضع يُعرف بعقبة البقر إلى خندق الغول لمكناسة، وفى قرى متصلة وعمارات غير منفصلة وأنهار كثيرة لأزداجة وغيرها، إلى قلعة جُرماط وكانت معقل أبى منقذ بن موسى بن أبى العافية، وكان بها جامع وأسواق وحمام.

وفى الجوف منها على عشرة أميال مدينة تسول المعروفة بعين إسحاق قاعدة موسى بن أبى العافية، وكانت على ثلاثة أجبل.

وبها جامع وأسواق وحمام وعين عذبة، بنى عليها موسى قُبة فخربها ميسور

= المغرب) ودفينها. من بنى «يفرن» وهم قبيلة من زناتة نازعت الدولة المغراوية التى كانت تملك المغرب، وانتزعت منها مقاطعتى «شالة» و«تادلة» وما والاهما حوالى سنة ٣٨٥هـ.

وآلت إمارة يفرن شالة إلى صاحب الترجمة، سنة ٤٢٤، فزحف منها إلى فاس، وقاتله صاحبها يومئذ: حمامة بن المعز المغراوى، واستولى عليه تميم مُدَّة خمس سنوات، وجمع حمامة قبائل من (وَجدة) عاد بها لقتال تميم، فانصرف هذا إلى قاعدة إمارته «شالة» سنة (٤٢٩) وأقام بها يوالى الغارات على «برغواطة» إلى أن توفى سنة ٤٤٦هـ، وتناقل المؤرخون إيقاع تميم باليهود أيام استيلائه على فاس، وأنه قتل منهم نحو ستة آلاف. الأعلام ٣/ ٨٧ والاستقصا ١/ ٢٢٠.

القائد الشيعى.

ومن فاس إلى قلعة جرباط يسكنها اليوم مطغرة مرحلتان، وقال محمد: مرحلة إلى مدينة جُرادة ست مراحل، وقال محمد ثمان، منها اثنتان فى الصحراء.

فمن جرماط إلى قرية وليلى، وبها كان يسكن زاوى ابن أخى موسى بن أبى العافية، إلى فجٍّ تازى لمكناسة، إلى وادى وارُجّين نهر ملح لمكناسة، ثم إلى وادى صاع.

ثم الصحراء إلى مدينة جُرَاوَةَ[1]:

وهى فى سهلة من الأرض كان عليها سور مَبْنِىٌّ بالطوب، وداخلها قَصَبَةٌ وحولها أَرْبَاضٌ فى جميع جهاتها وعيون ملحة، وداخلها آبار عذبة وخمسة حمامات أحدها ينسب إلى عمرو بن العاص وجامع من خمسة بلاطات على أعمدة حجارة أسسها أبو العيش عيسى بن إدريس[2] بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن حسن سنة تسع وخمسين ومائتين، وكان لها بابان شرقيان وثالث غربى ورابع جوفى وحولها بسائط عريضة للزرع والضرع، وجبل ممالو فى قبليها وفيه حصن بناه الحسن بن أبى العيش، حواليه بساتين ومياه تطَّرد، وبينه وبين المدينة أربعة أميال.

ويتصل بالحصن فى أسفل الجبل شعارى[3] أَشِبَةٌ[4] لا تُسلك، وحول جراوة عدة قرى لقبائل من البربر: مطغرة، وبنى يفرن، وودانة، ويغمر الجبل، وبنى راسين وبنى ياداش، وبنى وريمش وغيرهم.

وكان لأبى العيش ومن خلفه مدينة تلمسان أيضا وما والاها.

---

(١) جُرَاوَة: بالضمِّ: موضع بإفريقيا، وهى جُراوة مكناسة. مراصد الاطلاع ١/ ٣٢١ والروض المعطار ١٦٢.

(٢) عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان الحَسَنى الطالبى، أبو العيش: أميرٌ من آل سليمان بن عبد الله المقتول بفخ ولد ونشأ فى تلمسان وبنى مدينة جُرَاوة وتولى إمارتها ودفن بها. الأعلام ٥/ ١٠٠.

(٣) الشعار: الشجر المُلْتَف والمكان ذو الشجر. المعجم الوسيط (شعر) ١/ ٤٨٧.

(٤) أَشِبَ الشجرُ أَشَبًا، اشتدَّ التفافُه وكَثُر حتى لا مجازَ فيه فهو أَشِبٌ، ويقالُ مكانٌ أَشِبٌ وبلدةٌ أَشِبَةٌ. المعجم الوسيط (أشب) ١/ ١٨.

وأسر ابن ابنه الحسن فى الحصن المذكور. البورى بن موسى بن أبى العافية سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة، وكان قد انتقل إلى الحصن من جراوة بأهله وماله وولده وفى ذلك يقول بكر بن حماد[1] فى شعر طويل: [من الكامل]

سَائِلْ زواغة عن فِعَــالِ سُيُوفِه ... وَرِمَاحِـه فى العارضِ المُتَهَلِّلِ

وديارُ نَفْزَةَ كيف داسَ حرِيمَهـا ... والخيـلُ تَمْـرَغُ بالوشيـج الذُّبَّلِ

عَمَّتْ مَغِيلَةُ بالسيــوف مَذَلَّةٌ ... وسَقَى جراوة من نقيع الحَنْظَلِ

ولجراوة مرسى تافرجنيت. ومن جراوة إلى ترنانة: وهى سوق عامرة مرحلة، ومنها إلى مدينة تلمسان مرحلة، يسكنها زناتة، وقد تقدم ذكرها.

إلى مدينة تاندة، وهى مدينة كبيرة آهلة على نهرين، أحدهما حمة، ومنه شربهم وعليه أرحاؤهم، إلى قصر ابن سنان الأزداجى، حوله بساتين كثيرة على نهر كدال، إلى مدينة يلل، وهى كبيرة آهلة كثيرة الأشجار يسكنها هوارة وبها مسجد جامع، إلى مدينة الغزة: يسكنها مكناسة، وهى مدينة تيهرت، وقد مر ذكرها، ثلاث مراحل، إلى حصن تامغيلت، مرحلتان.

وهو مبنى بالطوب على نهر لهم ربض وسوق، يسكنه لواتة ونفزاوة.

إلى مدينة هاز على نهر شتوى، وهى خالية، أجلى أهلها زيرى بن مناد الصنهاجى. إلى بورة، نهر جار يسكن حوله بنو يرناتن، وهم كانوا أصحاب هاز.

وبورة: كثيرة العقارب، وبها سويقة.

ومنها إلى حصن موزية، وبقرب هذا الحصن قصر من بنيان الأول بالصخر يعرف بقصر العطش حوله ماء ملح، ومدينة عظيمة للأول أيضا خالية مبنية بالصخر الجليل تُسمى مدينة الرمانة تنفجر تحتها عيون طيّبة ثَرَّة طيّبة تسيل إلى مدينة المسيلة، وقد تقدم ذكرها.

ومدينة للأوَّل أيضًا خالية تسمى بالبربرية تاورست تفسيره الحمراء، وهى مبنية بالصخر على نهر عذب.

ومن حصن موزية إلى مدينة المسيلة، وقد تقدم ذكرها.

---

(١) هو بكر بن حمّاد بن سمك الزناتى، وسبقت ترجمته.

ومنها إلى مدينة أَدَنَة[١]، وهى خالية أَخْرَبَها على بن حمدون المعروف بابن الأندلسى فى سنة أربع وعشرين وثلاثمائة فى وقوع ميسور الفتى إلى المغرب، وبلد أدنة بلد كثير الأنهار والعيون العذبة، وهناك عين الكتّان: عين عذبة فى مفازة عليها أربع نخلات بينها وبين المسيلة مرحلة، وبشرقيها وادى مقرة، عليه سبع قرى منها قرية يكسم، وزَيْتُها أطيب الزيوت، وبين عين الكتان وأدنة نهر سَهَر ونهر النساء، ونهر أبى طويل وعين الغزال وبين نهر سَهَر ونهر النساء ثلاثة أميال، وسُمى بذلك، لأن هوارة أغاروا على نساء أدنة وذهبوا بهن فأدركهم أهل أدنة فاستنقذوا النساء هناك. والغنيمة وقتلوا جماعة من هوارة.

ومن أدنة إلى مدينة طُبْنَة مرحلتان، وقد تقدم ذكر مدينة طبنة، وحواليها بنو زنراج، ومنها إلى نهر الغابة.

ثم تمشى ثلاث مراحل فى مساكن العرب وهوارة ومكناسة وكبينة وورقلة، يطل عليها وعلى ما والاها جبل أَرْوَاس، وهو مسيرة سبعة أيام، وفيه قلاع كثيرة يسكنها قبائل هوارة ومكناسة، وهو على رأى الخوارج الإباضية[٢].

ومن هذا الجبل قام أبو يزيد مُخَلَّد بن كيداد النفزى الزناتى على أبى القاسم ابن عبيد الله، وفى هذا الجبل كان مستقر الكاهنة.

إلى مدينة باغاية[٣]، وهى حصن صخر قديم، حوله رَبَضٌ كبير من ثلاث نواح، وليس فيما يلى الناحية الغربية ربض إنما يتصل بها بساتين ونهر، وفى أرباضها فنادقها وحَماماتها وأسواقها، وجامعها داخل الحصن، وهى فى بساط من الأرض عريض كثير المياه، وجبل أوراس مُطل عليه.

---

(١) فى تاريخ إفريقيا والمغرب (أذنة) بالذال المعجمة صـ١١ وفى الأعلاق النفيسة ٣٥١ (أربة) وهو تحريف.

(٢) الإباضية: أصحاب عبد الله بن إباض الذى خرج فى أيام مروان بن محمد فوَجَّه إليه عبد الله ابن محمد بن عطية، فقاتله بتبالة. وقيل إنَّ عبد الله بن يحيى الإباضِىّ كان رفيقًا له فى جميع أحواله وأقواله، قال: إنَّ مخالفينا من أهل القبلة كُفَّار غير مشركين، ومناكحتهم جائزة، وموارثتهم حلال، وغنيمة أموالهم من السِّلاح والكراع عند الحرب حلال، وما سواه حرامٌ وحَرَامٌ قَتْلُهم وسَبْيُهم فى السِّرِّ غِيلَةً إلاَّ بعد نصب القتال. الملل والنحل ١/ ١٣٤.

(٣) بَاغَاية: مدينة كبيرة فى أقصى إفريقيا، بين مُجَّانة وقُسنطينة الهواء. مراصد الاطلاع ١/ ١٥٤.

ويسكن فى حصن هذه المدينة قبائل مزاتة وضريسة، وكلهم إباضية، وهم يظعنون فى زمن الشتاء إلى الرمال حيث لا مطر ولا ثلج خوفا على نتاج إبلهم.

وإلى مدينة باغاية لجأ البربر والروم، وبها تحصَّنوا من عقبة بن نافع القرشى، فدارت بينهم حروب عظيمة وكانت الدائرة فيها على أهل باغاية، فهزمهم عقبة بن نافع وقتلهم قتلا ذريعا، ولجأ فلهم إلى الحصن وغنم منهم خيلا لم يروا فى مغازيهم أصلب ولا أسرع منها فى نتاج أوراس[١].

فرحل عنهم عقبة ولم يقم عليهم كراهة أن يشتغل بهم عن غيرهم، وأهلها اليوم كلهم رأى الإباضية.

وكيل الطعام بباغاية بالويبة، وهى أربعة وستون مداً بمدِّ النبى ﷺ. وهو قفيز ونصف قفيز قرطبى، وقفيز الزيت قروى وهو خمس ربع قرطبى، ورطل اللحم عندهم عشرون رطلا فلفلية.

ومن باغاية إلى مدينة مجَّانة[٢]، وهى كبيرة عليها سور طوب، وبها جامع وحمامات ومعادن كثيرة، منها معدن فضة للواتة يسمى الوريطسى، وتعرف بمجانة المعادن ولها قلعة مبنية بالحجر فيها ثلاثمائة وستون جبا قد تقدم ذكرها.

وهذه المدينة للعرب وحولها لواتة، وهذه القلعة تعرف بقلعة بسر بن أرطأة[٣] افتتحها عنوة، بعثه إليها موسى بن نصير، وبعث خمس غنيمتها إليه.

وبين باغاية ومجَّانة فندق مسكيانة ووادى ملاق، وهو واد صعب كثير الدهس وعر المخائص، وتسير من مجانة إلى مَرْمَاجِنَّة[٤]، وهى مدينة لطيفة بها جامع وفندق وسوق وهى فى بساط مديد، وهذه طريق الصيف.

فأما طريق الشتاء فتأخذ من مسكيانة[٥] إلى مدينة تبسًّا[٦] لأن وادى ملاق تتسع

(١) تاريخ إفريقيا والمغرب ١٠ والروض المعطار٧٧.
(٢) انظر عنها: الروض المعطار ٥٤٠ والاستبصار ١٦٢.
(٣) تاريخ إفريقيا والمغرب ٤٠.
(٤) مَرْماجنَّة: قرية بإفريقيا لهوَّارة، قبيلة من البربر. مراصد الاطلاع ٣/ ١٢٦٠.
(٥) انظر عنها: الروض المعطار ٣٠٤ والاستبصار ١٦١.
(٦) تَبسَّة: بلد مشهور من إفريقيا، بينه وبين قفصة ستّ مراحل فى قفر سببية، وهو بلدٌ قديمٌ به آثار الملوك، وقد خرُب الآن، ولم يبْق با إِلاَّ مواضع يسكنها الصعاليك لحُبِّ الوطن، لأن =

من سلوك تلك الطريق.

ومدينة تبسًا مدينة كبيرة كثيرة الفواكه أولية مبنية بالصخر الجليل، أخرب بعض سورها أبو يزيد مخلد بن كيداد، وهى على نهر كبير كثير الفواكه والأشجار لا سيما الجوز، فإن المثل يضرب بجلالته هناك وكبره وطيبه.

وفيها أقباء يدخلها الرفاق بدوابهم فى زمن الثلج والشتاء، يسع القبو الواحد ألفى دابة وأكثر.

ومنها إلى مدينة سبيبة[1]، أولية مبنية بالحجارة أى بالصخر، بها جامع وحمامات تطرد فيها المياه العذبة، تطحن عليها الأرحاء، وهى كثيرة البساتين، ويجود فى أرضها الزعفران، وحواليها جبال كثيرة يسكنها من العرب قوم يُعرفون ببنى المغلس وبنى الكسلان، وحولهم قبائل من البربر كثيرة من هوارة ومرنيسة.

وفى الطريق إلى سبيبة مرصد يعرف بعين التينة وعين تعرف بعين أربان ماء يجرى من قنى للأول.

وبشرقى هذا العين جبل منيف محدد فيه شق وفى ذلك رجل مذبوح معروف هناك قبل فتوح إفريقية لا يحل منه قليل ولا كثير، ولا نال منه سبع ولا دابة، ويقال إنه من الحواريين، وقد تقدم ذكره.

ومن مدينة سبيبة إلى قرية الجهنيين، وهى قرية كبيرة آهلة كثيرة الفنادق والحوانيت ولها أشجار وفواكه، بينها وبين القيروان مرحلة، وعليها جبل يسمى مَمْطُور[2]. لأن معاوية بن حديج نزله فأصابه مطر فقال: جبلنا ممطور.

ومنها إلى منزل يقال له الهرى يجاوره مرصد، ومنه إلى كُدْيَةَ الشعير، إلى مدينة القيروان.

= خيرها قليل، وبينها وبين سطيف ستّ مراحل فى بادية يسكنها العرب، يُعْمَلُ بها بُسُط جليلة، محكمة النسج، يقيم البساط منها مُدَّة طويلة. معجم البلدان (تَبِسَّهْ) ١/ ٤٣ ومراصد الاطلاع ١/ ٢٥٢.

(١) انظر عنها: الروض المعطار ٣٠٤ والاستبصار ١٦١.

(٢) ممطور: جبلٌ على مرحلة من القيروان، نزله بعض الأمراء الداخلين لإفريقيا فأصابه المطر، فقال: إنَّ جبلنا هذا لممطور، فغلب عليه هذا الاسم. رحلة التجانى ٣٢ والروض المعطار ٥٤٧.

وقال محمد بن يوسف: من مدينة سبيبة إلى ساقية مَمَّس[١]، قرية عامرة آهلة بها مسجد وفندق، ثم قرية المشفق كبيرة آهلة بها ماجلان وبئر طيبة عمقها ثلاثون قامة، ثم قصر الخير، فيه شريب، ثم قصر الزرادية ويعرف بالخطارة عامر آهل، ثم مدينة القيروان.

* * *

الطريق من مدينة فاس إلى سِجِلْمَاسة

ومدينة فاس إلى مدينة صفروى مرحلة، وهى مدينة مسورة ذات أنهار وأشجار ومنها إلى الأصنام مرحلة، ومنها إلى موضع يقال له المزى مرحلة، وهو بلد مكلاتة. ومنها إلى تاسغمرت مرحلة، وهى قرية على نهر، ومنها إلى موضع يقال له أمغاك مرحلة كبيرة نحو ستين ميلا.

ومنها تدخل فى سِجِلْماسة بين أنهار وثمار، ثلاث مراحل إلى مدينة سيبة.

وطريق آخر من سجلماسة إلى مدينة فاس، ذكرها محمد بن يوسف: هى مدينة سجلماسه إلى موضع يقال له أرفود جبل موت لا عمارة حوله، فيه همة مرحلة.

ومنه إلى موضع يقال له الأحساء: رمل، يحفر فيه فينبعث الماء على ذراع ونحوه فى بلد زناتة مرحلة.

ومنه إلى حصن يرارة مرحلة، عامر آهل، به سوق وجامع، وله جدول ماء، وهو بلد يحسن فيه الغنم، ويقال إن أصول أغنامهم من قيس من أرض فارس، وصوفها من أجود الأصواف، ويعمل منه بسجلماسة ثياب يبلغ الثوب منها أزيد من عشرين مثقالا مرحلة.

ومنه إلى جبل درن المعروف بسنجنفوا، وقد ذكرناه فى عدة مواضع من هذا الكتاب، وهو كثير الصنوبر والأرز والبلوط مرحلة.

---

(١) انظر عن مَمَّس: تاريخ إفريقيا والمغرب ١٨ والبيان المُغْرِب ١/ ٣٢.

ومنه إلى مطماطة أمسكور[١]: بلد كبير على نهر ملوية وهو منه فى قبلية، وهو بلد كثير الزرع يسقى كله من نهر ملوية كثير البقر والغنم، وبها جامع وسوق مرحلة.

ومنه إلى موضع يقال له سوق لميس فيه سوق ومسجد، وحوليه مياه سائحة عامر آهلة كان لمدين بن موسى بن أبى العافية مرحلة.

ومنه إلى مغيلة أبى تجامان: قرار يقوم من القفرية له ربض كبير، وبنو تجامان على السُّنَّة والجماعة ساكنون فى ربوة تلاصق ربضهم مرحلة.

وتسير منها فى جبال شامخة إلى مغيلة، حصن كبير له جامع وسوق كثير الأنهار والثمار، معظم شجر التين ومنه يحمل زبيبا إلى فاس مرحلتان.

إلى لواتة مدين، وقصبة لواتة منيعة لا ترام على نهر سبوا مرحلة، إلى فاس.

* * *

ذكر مدينة سجلماسة[٢]

مدينة سجلماسة بنيت سنة أربعين ومائة، وبعمارتها خلت مدينة ترغة وبينهما يومان وبعمارتها خلت زيز أيضا.

ومدينة سجلماسة مدينة سهلية أرضها سبخة، حولها أرباض كثيرة وفيها دور رفيعة ومبان سرية ولها بساتين كثيرة، وسورها أسفله مبنى بالحجارة وأعلاه بالطوب، بناه اليسع أبو منصور بن أبى القاسم من ماله لم يشركه فى الإنفاق عليه أحد، أنفق فيه ألف مُدْيٍ طعام. وله اثنا عشر بابا، ثمانية منها حديد، وكان بناء

(١) الروض المعطار ٥٤٣ والاستبصار ١٩٣.

(٢) سِجْلِمَاسة: اقليمٌ يستمدُّ اسمه من المدينة الرئيسية فيه ويمتد على طول وادزيز ابتداء من الختك من المضيق القريب من مدينة غارسلوان نزولاً نحو الجنوب على مسافة ١٢٠ ميلاً حتى تخوم صحراء ليبيا، وتسكنه قبائل بربرية مختلفة إمَّا زنانية أو صنهاجية أو هوارية، وكان فى القديم خاضعًا لسلطان عاهل مستقل، لكنه خضع بعد ذلك ليوسف ملك لَمْتُونة، ثم انتقل للموحِّدين. انظر: وصف إفريقيا ٢/١٢١ وتاريخ المغرب وحضارته ٣٥٨ـ٣٦٣ والبلدان لليعقوبى ٣٥٩.

اليسع له سنة تسع وتسعون ومائة وارتحل إليها سنة مائتين وقسمها على القبائل على ما هى عليه اليوم.

وهم يلتزمون النقاب، فإذا حصر أحدهم عن وجهه لم يميزه أحد من أهله.

وهىَ على نهرين، عنصرهما من موقع يقال له أجلف، تمده عيون كثيرة، فإذا قرب من سجلماسة تشعب نهرين يسلك شرقيها وغربيها.

وجامعها متقن البناء، بناه اليسع فأجاده، وحماماتها رديئة البناء غير محكمة العمل.

وماؤها زُعَاقٌ[1]، وكذلك جميع ما ينبط من الماء بسجلماسة، وشرب زروعهم من النهر فى حياض كحياض البساتين، وهى كثيرة النخيل والأعمال، وجميع الفواكه وزبيب عنبها المعرش لا تناله الشمس لا يذيب إلا فى الظل ويعرفونه بالظلى، وما أصابته الشمس منه ذيب فى الشمس.

ومدينة سجلماسة فى أول الصحراء لا يعرف فى غربيها ولا فى قبليها عمران، وليس بسلجماسة ذباب، ولا يتجذم من أهلها أحد، وإذا دخلها مجذم توقفت عنه علِّته.

وأهل سجلماسة يسمنون الكلاب ويأكلونها[2] كما يصنع أهل مدينة قفصة وقسطيلية ويأكون الزرع إذا أخرج شطأه وهو عندهم مستطرف.

والمخدرون عندهم الكنافون، والبناؤون عندهم يهود لا يتجاوزهم هذه الصناعة.

ومن مدينة سجلماسة تدخل إلى بلاد السودان إلى غانة، وبينها وبين مدينة غانة مسيرة شهرين فى صحراء غير عامرة إلا بقوم ظاعنين لا يطمأن بهم منزل، وهو مشرفة من صنهاجة، ليس لهم مدينة يأوون إليها إلا وادى درعة، وبين سجلماسة ووادى درعة مسيرة خمسة أيام.

---

(١) الزُّعَاق من الماء: المُرُّ الغليظ لا يُطَاقُ شُرْبُه، ومن الطعام: الكثير الملح. المعجم الوسيط (زعق) ١/٣٩٥.

(٢) الروض المعطار ٣٠٦.

وملك بنو مدرار سجلماسة مائة سنة وستين سنة، وكان فيها أبو القاسم سمجو بن واسول المكناسى أبو اليسع المذكور، وجد مدرار لقى بإفريقية عكرمة مولى ابن عباس وسمع منه، وكان صاحب ماشية وكان كثيرا ما ينتجع موضع سجلماسة فاجتمع إليه قوم من الصفرية فلما بلغوا أربعين رجلا قدموا على أنفسهم عيسى بن يزيد الأسود[١] وولُّوه أمرهم، فشرعوا فى بنيان سجلماسة، وذلك سنة أربع ومائة.

وذكر آخرون أن مدرارا كان حدادا من ربضية الأندلس، فخرج عند وقعة الربض فنزل منزلا بقرب سجلماسة، وموضع سجلماسة إذ ذاك براح يجتمع فيه البربر وقتا ما من السنة يتسوقون لقرب.

وكان مدرار يحضر سوقهم بما يعده من آلات الحديد، ثم ابتنى بها خيمة وسكنها وسكن البربر حوله، فكان ذلك أصل عمارتها، ثم تمدنت.

والأول أصح فى عمارتها، وأما مدرار فلا شك فيه أنه كان حدادا لأن ولده القائمون بأمر سجلماسة قد هجوا بذلك.

فأول من وليها عيسى بن يزيد[٢]، ثم أنكر أصحابه الصُّفْرِيَّة[٣] عليه أشياء فقال أبو الخطاب يوما لأصحابه فى مجلس عيسى: السودان كلهم سراق حتى هذا، وأشار إلى عيسى[٤].

---

(١) يقول د/ حسين مؤنس فى تاريخ المغرب وحضارته ٣٥٨ «وقد رأينا فيما ذكرنا من تاريخ الدولة الصفرية المدرارية فى سِجلْماسة، أنَّ تلك الجماعة كان يترأسها أول الأمر رجلٌ أسود يُسَمَّى عَيسى بن يزيد الأسود، ويقالُ إنَّ أهل الأندلس اجتمعت عليه واختارته إمامًا، والغالبُ أنَّ الجماعة الصفرية التى استقرت هناك وجدت المكان مسكونًا بجماعات من السود هم الذين أيَّدوا إمامة هذا الرَّجُل».

(٢) تاريخ إفريقيا والمغرب ٣٥٨.

(٣) الصُّفْرِيَّةُ: نسبة إلى زياد بن محمد الأصفر، وهم فرقةٌ من الخوارج أكثر تسامحًا واعتدالاً مع المخالفين لمذهبهم، فهم لا يرون إباحة دماء المسلمين، ولا يَرَوْن جوازَ سَبْى النساء والذريّة، بل لا يرون قتال أحدٍ سوى جيش السلطان.

(٤) هو عيسى بن يزيدٌ المكناسىّ: مؤسس الدولة المدرارية فى سجلماسة راجع: فى التاريخ العباسى والفاطمى ٢٢٨.

فأخذوه وشدوه وثاقا إلى شجرة فى رأس جبل وتركوه كذلك حتى قتله البعوض، فسمى ذلك الجبل جبل عيسى إلى اليوم، ووليهم خمسة عشر عاما.

ثم ولوا أبا القاسم سمجو[١] بن مزلان بن نزول المكناسى، فلم يزل واليا عليهم إلى أن مات فجأة فى آخر سجدة من صلاة العشاء سنة ثمان وستين فكانت ولايته ثلاث عشرة سنة.

ووليها ابنه أبو الوزير إلياس بن أبى القاسم إلى أن قام عليه أخوه أبو المنتصر اليسع فخلعه سنة أربع وسبعين ومائة.

فولى أبو المنتصر، وكان جبارا عنيدا فظا غليظا، فظفر بمن عانده من البربر وذللهم وأخذ خمس معادن درعة وأظهر الصفرية، وبنى سور سجلماسة على ما تقدم، وتوفى سنة ثمان ومائتين.

وولى ابنه مدرار المنتصر بن اليسع - ومدرار لقب - فلم يزل واليا إلى أن اختلف الأمر بين ولديه ميمون المعروف بابن أروى بنت عبد الرحمن بن رستم وابنه ميمون المعروف بابن ثقية.

فتنازعا الأمر بينهما وتقاتلا ثلاثة أعوام، ومال مدرار مع ابنه ميمون ابن الرستمية فأخرج ميمون بن ثقية من سجلماسة.

وولى ابن الرستمية وخلع أباه، ثم قام عليه أهل سجلماسة فخلعوه وأرادوا تقديم ميمون بن ثقية.

فأبى أن يتآمر على أبيه فأعادوا أباه مدرارا، ثم أنس أهل سجلماسة أنه استدعى ابنه ابن الرستمية فيمن أطاعه من درعه ليوليه، فحاصروا مدرارا وخلعوه وقدموا ابنه ابن ثقية وهو المعروف بالأمير، فلم يزل عليهم واليا إلى أن مات سنة ثلاث وستين ومائتين، وفى إمرته مات مدرارا أبوه مخلوعا.

ووليها محمد بن ميمون إلى أن توفى فى صف سنة سبعين، ثم وليها اليسع بن المنتصر بن أبى القاسم إلى أن فر عنها لما تغلب عليها أبو عبد الله الشيعى فى ذى

---

(١) من تلاميذ عكرمة مولى عبد الله بن عباس، تولىّ الإمامة سنة ١٥٥هـ بعد إزاحة عيسى بن يزيد. تاريخ إفريقيا والمغرب ٣٥٩.

الحجة، وذلك سنة سبع وتسعين ومائتين.

وولى عليها الشيعى إبراهيم بن غالب المزاتى، فقتله أهل سجلماسة ومن كان معه من رجال الشيعى بعد خمسين يوما.

ووليها واسول وهو الفتح بن الأمير ميمون، وذلك فى ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وتوفى فى رجب سنة ثلاثمائة، فوليها أخوه أحمد إلى أن حاصره فيها مصالة بن حبوس افتتحها عنوة فقتله، وذلك فى المحرم سنة تسع وثلاثمائة.

وولى مصالة أمرها المعتز بن محمد بن سارو بن مدرار إلى أن توفى سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، ووليها بعده ابنه محمد بن المعتز إلى أن توفى سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة.

ووليها ابنه أبو المنتصر سمجو بن محمد وهو ابن ثلاث عشر سنة، تدير أمره جدته فمكث شهرين، وقام عليه ابن عمه محمد بن الفتح ابن الأمير فحاربه وتغلب عليه وأخرجه وتملك سجلماسة.

وكان محمد بن الفتح سنيا على مذهب المالكية يحسن السيرة ويظهر العدل، إلا أنه تسمى بأمير المؤمنين سنة اثنتين وأربعين وتلقب بالشاكر لله. وضربت بذلك الدراهم والدنانير فمكث إلى أن قربت منه عساكر أبى تميم معد مع قائده جوهر الكاتب، فخرج عن سجلماسة بأهله وماله وولده وخاصته وصار بتاسجدالت: حصن منيع على اثنى عشر ميلا من سجلماسة.

ودخل جوهر سجلماسة وملكها، ذلك سنة سبع وأربعين وثلاثمائة، وخرج محمد من الحصن فى نفر يسير من أصحابه إلى سجلماسة ليعرف الأخبار مستترا، فعرفه قوم من مطغرة فى بعض الطرق فأخذوه فأتوا به إلى جوهر فى رجب من ذلك العام.

ويزرع بأرض سجلماسة عاما ويحصد من تلك الزريعة ثلاثة أعوام[1] لأنه بلد مفرط الحر شديد القيظ، فإذا يبس زرعهم تناثر عند الحصاد، وأرضهم متشققة فيرتفع ما تناثر منه فى تلك الشقوق، فإذا كان فى العام الثانى حرث بلا بذر وكذلك فى الثالث.

(١) الروض المعطار ٣٠٦-٣٠٧.

وقمحهم رقيق صينى، يسع المد منه مُدَّ النبى ﷺ خمسة وسبعين ألف حبة، ومديهم اثنا عشر قنقلاً، والقنقل ثمانى زلافات، والزلافة ثمانية أمداد بمد النبى ﷺ.

ومن الغرائب عندهم أن الذهب جزاف عدد بلا وزن، والكراث يتبايعونه وزنا لا عددًا(١).

ومن سجلماسة إلى مدينة القيروان ست وأربعون مرحلة، وقال محمد بن يوسف ثلاث وخمسون مرحلة.

فمن سجلماسة إلى قرار الأمير لبنى مدرار، إلى حصن ابن مدرار، إلى جبل اكسرايغ، إلى مدينة أمسكور لمطماطة وهم على مدرارة لصاحب سجلماسة، وقد تقدم ذكرها، وبينها وبين سجلماسة خمس مراحل، ومنها إلى مدينة جراوة ست مراحل فى عامر وغامر، منها موضع يعرف بالصدور منه تخرج للطريق إلى مدينة مليلة، وهو موضع معروف قريب من العمارة على ماء طيب، ثم من جراوة إلى القيروان كما تقدم.

فأما الطريق من سجلماسة إلى مدينة مليلة فمن سجلماسة إلى الصدور كما ذكرنا، ثم إلى أجرسيف: قرية عامرة على نهر ملوية.

إلى جراوة موضع كثير ما ينزله البربر بالأخصاص، ويروى فيه حدثان وأن بنى أمية سيعمرونه، إلى قلوع جارة وهى مدينة عامرة فى الجبل على ماء ملح وقد تقدم ذكرها، إلى مدينة مليلة.

فذلك خمس عشر مرحلة، وقد تقدم ذكر مليلة.

* * *

(١) انظر عن الرخاء فى سِجِلْماسة ما قاله الدكتور حسين مؤنس فى تاريخ المغرب وحضارته ٣٦٠.

الطريق من سجلماسة إلى مدينة أغمات

من سجلماسة إلى تيحمامين يومان، وفى تيحمامين معدن النحاس، ومن تيحمامين إلى وادى درعة يومان، وعلى وادى درعة شجر كثير وثمار عظيمة وهناك شجر التاكوت يشبه شجر الطرفاء، وبهذا التاكوت تدبغ الجلود الغدامسية.

وعلى وادى درعة سوق فى كل يوم من أيام الجمعة فى مواضع مختلفة منه معلومة، وربما كان عليه فى اليوم الواحد سوقان، وذلك لبعد مسافته وكثرة الناس عليه، وطول عمارته المتصلة سبعة أيام.

ومن وادى درعة إلى موضع يقال له أدامست، ومنه إلى ورزازات[١] يومان، وهو بلد هسكورة، وتمشى فى بلد هسكورة أربعة أيام إلى منازل قبيل يقال له هزرجة، وهناك جبل يقال له جبل هزرجة، فيه أجناس من الياقوت المتناهى فى الجودة وحسن اللون يتكون على حجارة الجبل إلا أنه خشن ضريس كالسفن، لا يأخذه العمل ولا ينفعل للسنادج، وهو كثير موجود ثمة، ومن هناك مسافة يوم إلى أغمات.

* * *

ذكر مدينة أغمات[٢]

وهى مدينتان سهليتان إحداهما تسمى أغمات إيلان والأخرى أغمات وريكة وبها مسكن رئيسهم وبها ينزل التجار والغرباء، وأغمات إيلان لا يسكنها غريب، وبينهما ثمانية أميال.

---

(١) ورزازات: بالمغرب، قريب من وادى درعة، وهو بلد هسكورة. الروض المعطار ٦٠٩.

(٢) أغمات: ناحية من بلاد البربر من أرض المغرب قرب مراكش، وهى مدينتان متقابلتان، كثيرة الخير، ومن وسائها إلى جهة البحر المحيط السُّوس الأقصى بأربع مراحل، ومن سِجِلْماسة ثمان مراحل فى بحر المغرب، وهى بلد أجمع لأصناف الفواكه. مراصد الاطلاع ١/ ٩٨ ومعجم البلدان (أغمات) ١/ ١٨١ والروض المعطار ٤٦-٤٧.

ولها نهر لطيف جريته من القبلة إلى الجوف ماؤه زعاق يقال له تاقيروت.

وحولها بساتين ونخل كثير، وهو بلد واسع يسكنه قبائل معمورة فى قصور وديار وأشجار، وهو راخى الأسعار كثير الخير يحمل إليه من مدينة نفيث تفاح جميل يباع منه وفربفل بنصف درهم، إلا أنه وخم الهواء، ألوان سكانه مصفرة، كثير العقارب القتالة التى لا يداوى سليمها.

وبها أسواق جامعة، فسوق أغمات وريكة يقوم الأحد بضروب السلع وأصناف المتاجر، يذبح فيها أكثر من مائة ثور وألف شاة وينفذ جميع ذلك فى ذلك اليوم(١).

وكانت إمرة أهل أغمات دولا بينهم، يتولى الرجل منهم سنة ثم يديلونه بآخر منهم عن تراض واتفاق، كذلك ذكر محمد بن يوسف القيروانى.

وساحل أغمات رباط قوز على البحر المحيط، وفيه تنزل السفن من جميع البلاد ولا يخرج منه السفن صادرة إلا فى زمان الأمطار وتكدر الهواء واغبرار الجو، فحين إذن تصدق لهم الرياح البرية، فإن تمادى ذلك لهم سلموا، وإن أصحى الجو وصفا الهواء هبت لهم الرياح البحرية من الغرب فيهيج عليهم البحر ويقذفهم فى البرارى، فقلما يسلمون.

* * *

الطريق من مدينة أغمات وريكة إلى رباط قوز

من وريكة إلى نفيس خمسة وثلاثون ميلا، ومن نفيس إلى شفشاون ثلاثون ميلا، ومنها إلى مرامر ثلاثون ميلا، ومنها إلى رباط قوز خمسة وعِشرون ميلا، فذلك مائة وعشرون ميلا.

* * *

---

(١) انظر: الروض المعطار ٤٦-٤٧.

الطريق من مدينة أغمات إلى مدينة فاس

من أغمات إلى موضع يعرف بأبواب عبد الخالق بن سى، وهى أحقاف رمل: مرحلة.

ومنها إلى فحص أفيح فسيح يعرف بفحص نزار، ونزار بالبربرية: الغربال شبه به لأنه مدور، وهو موضع مجوف: مرحلة.

ومنه إلى وادى وانسيفن واد كبير، انبعاثه من موضع يقال له حدود بين بلد زواغة ومدغرة، ويقع فى البحر المحيط، ويعبر على الزقاق المنفوخة مرحلة.

ومنه إلى فحص يمللوا مديد واسع مرحلة، ومنه إلى موضع يعرف ببنى وارث، وهو كثير شجر الغربيون، وهى شجرة صغيرة شوكاء لها عساليج تسيل منها لبن مسهل: مرحلة.

ومنه إلى بلد زواغة[1] مرحلة، ومنها إلى بلد حصن داى، وهو فى وسط غيضة كبيرة من أجناس الشجر، ولهم سوق حافلة يجتمع فيها رفاق فاس والبصرة وسجلماسة بضروب الأمتعة والمتاجر مرحلة.

ومنه إلى وادى درثة نهر كبير يقع فى نهر وانسيفن المذكور مرحلة، ومنه إلى مغيلة[2]، وكان مقدمهم موسى بن جليد، وكان شديد الأيد يمسك بذنب الفرس والجواد ويهزه فارسه فلا يكون له حراك، مرحلة.

ومنه إلى موضع يعرف بأوزقور كان يسكنه قوم يعرفون ببنى موسى، منه ربضية الأندلس، فاستفسدوا إلى من جاورهم وأساءوا عشرتهم، فحاربوهم فغلب الأندلسيون وقتل منهم كثير، وافترق باقيهم ببلاد أغمات، وبقى منهم بأوزقور نفر يسير بالأمان، فهم بها إلى اليوم، مرحلة.

ومنها إلى سوق فنكور، سوق عامرة حافلة يعمل بها برانس سود، حصينة لا ينفذها الماء: مرحلة، ومنها إلى ولهاصة مرحلة، إلى كزناية مرحلة، إلى مدينة

(١) زواغة: من بلاد إفريقيا، سُمِّيت بزواغة: قبيلة من البربر. الروض المعطار ٢٩٥.

(٢) انظر: الروض المعطار ٤٧٠.

ورزيغة[١] وهى آهلة كثيرة المياه والثمار والخير، يباع فيها ألف حبة اجاص بربع درهم، قتل ميسور الفتى أهلها وسبى نساءها بعد زواله عن مدينة فاس سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.

ومن ورزيغة إلى مدينة أغيفى، ومعنى أغيفى حجارة يابسة لأنها مبنية بالحجر بغير طين، وهى اليوم خالية وكان القوم الذين بنوها وسكنوها قوما من ربضية الأندلس أيضا فأجلاهم عنها البربر إلى وليلى، فهم بها بقية مسيرة مرحلة.

فمنها إلى ماسيتة، بلد كبير، ويحسن فيه القطن ويجود، وبه سوق لطيفة ومنها إلى فاس مرحلة، فذلك ثمانى عشرة مرحلة.

* * *

الطريق من مدينة درعة إلى سجلماسة

مدينة درعة[٢] يقال لها تيومتين، وهى قاعدة درعة، وقد تقدم ذكر وادى درعة وأن منبعثه من جبل درن.

وهذه المدينة آهلة عامرة بها جامع وأسواق جامعة ومتاجر رابحة وهى فى شرف من الأرض، والنهر منها بقبليتها وجريته من الشرق إلى الغرب ويهبط لها من ربوة حمراء.

وكان صاحبها على بن أحمد بن إدريس بن يحيى بن إدريس، فمن مدينة تيومتين إلى تامجاثت مرحلة، وهو موضع ينبت شجرا يسمونه تامجاثت وهو شجر يعظم ورقه هدب كورق الطرفاء، ومنه آنية سجلماسة، ودرعة وما والاهما.

ومن هناك إلى أمان تيسن مرحلة، وتفسيره الماء والملح.

ومنه إلى تنودادن مرحلة، وتفسيره بئر الأيائل، وهناك معدن نحاس. ومنه إلى

(١) ورزيغة: مدينة بين فاس وأغمات، كثيرة المياه والثمار، وهى آهلةٌ كثيرة الخيرات، تباع فيها ألف حبّة إجّاص بربع درهم، قتل مَيْسُور الفتى أهلها وسبى نساءها بعد زواته عن مدينة فاس سنة أربع وعشرين وثلاثمائة. مراصد الاطلاع ٦٠٨.

(٢) راجع فيها: الروض المعطار ١٣٥.

أجروا مرحلة، وهذا كله بلد سرطة قبيل من صنهاجة، ومن هناك إلى تونين أن وجليد تفسيره آبار الأمير، مرحلة.

ومنه إلى أمان يسيدان، تفسيره ماء النعام، ومنه إلى أجران ووشان: أى فدان الذئب، إلى أمرغاد: مرحلة، وأمرغاد آخر بساتين سجلماسة، ومنها إلى سِجلماسة ستة أميال.

* * *

الطريق من مدينة تامدلت إلى مدينة أودغست [١]

من تامدلت إلى بئر الجمالين مرحلة، وهذه البئر عمقها أربع قامات من أنباط عبد الرحمن بن حبيب[٢].

ومنها إلى شعب ضيق لا تسير فيه الإبل إلا متتابعة مرحلة، ثم تسير فى جبل يسمى أزور ثلاثة أيام، محجر تجفى فيه الإبل بنبت أم غيلان، ومن خرج فيه عن الطريق أصاب زبر حديد مثقبة لا تذيبه النار.

وهذا الجبل كثير الثعابين، طوله مسيرة عشرة أيام من أول طريق سجلماسة إلى جانب البحر المحيط.

ويقال إن جبل أزور متصل بجبل نفوسة من جبال أطرابلس، وأحسبه جبل درن المذكور قبل هذا الذى ينبعث من تحته وادى درعة، فتسير فى هذا الجبل ثلاثة أيام إلى ماء يسمى تندفس آبار يحتفرها المسافرون فلا تلبث أن تنهار وتندفن.

(١) انظر: تاريخ المغرب وحضارته ٣٦٠.

(٢) هو عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى: أميرٌ من الشجعان الدهاة، كان مع أبيه بإفريقيا. وقتل أبوه سنة ١٢٢هـ فسار إلى الأندلس وحاول اقتحامها، فلم يفلح، فعاد إلى تونس، فأقام إلى سنة ١٢٦هـ، فبايعه أهلها، فسار بهم إلى القيروان، فملكها، وغزا تلمسان وصقلية وسردانية، فغنم غنائم عظيمة، ودوّخ المغرب ولم ينهزم له عسكر قط. قتله أخواه: إلياس وعبد الوارث غيلة فى قصره بالقيروان سنة ١٣٧هـ، وكانت إمارته استقلالاً عشر سنين وسبعة أشهر. الأعلام ٣/٣٠٣ والبيان المغرب ١/٦٧ والكامل ٥/١٤٨ والحلة السيراء ٥١الاستقصا ١/٥٢.

ثم تسير منه ثلاثة أيام إلى بئر كبيرة يقال لها وين هيلون، ثم تمشى ثلاثة أيام فى أرض سواء صحراء ربما وجد فيها الماء على صفاء تحت الرمل من بقية الأمطار، إلى ماء نزر يقال له تازقى، وتفسيره البيت.

ثم تسير منه إلى بئر أنبطها عبد الرحمن بن حبيب واحتفرها فى حجر أدعج صلب طولها أربع قامات مرحلة.

ثم تسير منها إلى بئر يقال لها ويطونان، وهى كبيرة لا تنزف، ماؤها زعاق يسهل شاربيه من الناس والأنعام، وهى من عمل عبد الرحمن بن حبيب أيضا طولها ثلاث قامات، ثلاث مراحل.

ثم تمشى منه فى أربع مراحل إلى موضع يقال له أوكازنت: أرض زرقاء ينبط أهل الرفاق فيها الماء على ذراعين وثلاث.

ثم تمشى فى مجابه جبال رمل معترضة لا ماء فيها، وهو أصعب موضع بطريق أودغست، أربعة أيام إلى موضع يقال له وانزمين آبار قريبة الرثاء فيها العذب والشريب وعليه جبل طويل صعب كثير الوحوش.

وبهذا الماء يجتمع جميع طرق بلاد السودان، وهو موضع مخوف تغير فيه لمطة وجزولة على الرفاق ويتخذونه مرصدا لهم، لعلمهم بإفضاء الطرق إليه وحاجة الناس إلى الماء فيه.

ثم تمشى منه فى بلد واران خمسة أيام مجابة فى كثبان رمل إلى بئر عظيمة فى حد بنى وارث: قبيل من صنهاجة، على تلك البئر شجر يقال له السقنى، وهو شجر الأهليلج إلا أنه لا يثمر.

ثم تسير منه يومين إلى ماء يقال له أغرف آبار ملحة تردها أذوات لصنهاجة فتصلح عليه وتصح به، وكل ماء ملح فموافق للإبل.

ثم تسير منه ثلاثة أيام إلى موضع يقال له أقرتندى، تفسيره: مجتمع الماء. فيه أصناف كثيرة من الشجر وفيه الحناء والحبق.

ثم تسير منه يوما فى جبل يقال له أزجونان يقطع فيه السودان، ثم تمشى يوما فى رمال شجرة إلى ماء يقال له بئر واران ماؤها زعاق.

ثم تمشى فى أرض لصنهاجة كثيرة الماء من الآبار ثلاثة أيام

ثم تسير منه إلى شرف عال مشرف على أودغست فيه طير كثير يشبه الحمام واليمام إلا أنه أصغر رؤوسا وأغلظ مناقر، وفيه أشجار الصمغ الذى يجلب إلى الأندلس يصمغ بها الديباج، مرحلة إلى أودغست.

* * *

ذكر مدينة أودَغشت [1]

وهى مدينة كبيرة آهلة رملية يطل عليها جبل كبير موات لا ينبت شيئا، بها جامع ومساجد كثيرة آهلة فى جميعها المعلمون للقرآن، وحولها بساتين النخل، ويزرعون فيها القمح بالقوس ويسقى بالدلاء يأكله ملوكهم وأهل اليسار منهم، وسائر أهلها يأكلون الذرة، والمقاثى تجود عندهم.

وبها شجيرات تين يسيرة ودوال يسيرة أيضا، وبها جنان حناء لها غلة كبيرة، وبها آبار عذبة والغنم والبقر أكثر شىء عندهم، يشترى بالمثقال الواحد عشرة أكبش وأكثر.

وعسلها أيضا كثير، يأتيها من بلاد السودان، وهم أرباب نعم جزيلة وأموال جليلة، وسوقها عامرة الدهر كله لا يسمع الرجل فيها كلام جليسه لكثرة جمعه وضوضاء أهله، وتبابعهم بالتبر، وليس عندهم فضة.

وبها مبان حسنة ومنازل رفيعة، وهو بلد وبىء، ألوان أهله مصفرة وأمراضهم الحميات، والطحال لا يكاد يخلو من إحدى العلتين أحد منهم.

وتجلب إليها القمح والثمر والزبيب من بلاد الإسلام على بعد، وسعر القمح عندهم فى أكثر الأوقات القنطار بستة مثاقيل وكذلك الثمر والزبيب، وسكانها أهل إفريقية وبرقجانة ونفوسة ولواتة وزناتة ونفزاوة، هؤلاء أكثرهم وبها نبذ من سائر الأمصار.

(١) انظر فيها: مراصد الاطلاع ١/ ١٣٠ ومعجم البلدان (أودغشت) ١/ ٢٢١.

وبها سودانيات طباخات محسنات، تباع الواحدة بمائة مثقال وأكثر، تُحسن عمل الأطعمة الطيبة من الجوزينقات والقطائف وأصناف الحلوات وغير ذلك.

وبها جوار حسان الوجوه بيض الألوان منثينات القدود، لا تنكسر لهن نهود، لطاف الخصور، ضخام الأرداف، واسعات الأكتاف، ضيقات الفروج، المستمتع بإحداهن كأنه يتمتع ببكر أبدا.

قال محمد بن يوسف: أخبرنى أبو بكر أحمد بن خلوف الفاسى شيخ من أهل الحج والخير قال: أخبرنى أبو رستم النفوسى وكان من تجار أودغست أنه رأى منهن امرأة راقدة على جنبها، وكذلك يفعلن فى أكثر حالهن إشفاقا من الجلوس على أردافهن، ورأى ولدها طفلا يلاعبها ويدخل من تحت خصرها وينفذ من الجهة الأخرى من غير أن تتجافى له شيئا لعظم رِدفها ولطف خصرها.

والحيوان الذى يعمل منه الدرق حوالى أودغست كثير جدا، ويتجهز إلى أودغست بالنحاس المصنوع وبثياب مصبغة بالحمرة والزرقة مجنة، ويجلب منها العنبر المخلوق الجيد لقرب البحر المحيط منهم.

والذهب الإبريز الخالص خيوطا مفتولة، وذهب أودغست أجود ذهب الأرض وأصحه.

وكان صاحب أودغست فى عشر الخمسين وثلاث مائة تين يروتان بن ويسنوا ابن ترار: رجل من صنهاجة، وكان قد دان له أزيد من عشرين ملكا من ملوك السودان كلهم يؤدون إليه الجزية، وكان عمله مسيرة شهرين فمن مثلها فى عمارة يعتد فى مائة ألف نجيب، واستمده معر بن ملك ماسين على ملك أوغام فأمده بخمسين ألف نجيب، فدخلت بلاد أوغام وعساكره غافلة، فغنمت البلد وأحرقته.

فلما نظر أوغام إلى ما حلَّ ببلده، هان عليه الموت فرمى بدرقته وثنى رجله عن دابته وجلس عليها، فقتلته أصحاب تين يروتان.

فلما عاينت نساء أوغام إليه قتيلا تردَّين فى الآبار، وقتلن أنفسهن بضروب القتل أسفا عليه، وأنَفَةً من أن يملكهن البيضان.

* * *

الطريق من أودغشت إلى سجلماسة

فأما الطريق من أودغشت إلى سجلماسة، فمن أودغشت إلى تامدلت[1] على ما ذكرناه أيضًا، وذلك أربعون مرحلة.

ومن تامدلت إلى سجلماسة على ما ذكرناه قبل هذا ـ إحدى عشرة مرحلة فذلك إحدى وخمسون مرحلة. وبين أودغشت ومدينة القيروان مائة مرحلة وعشر مراحل.

* الطريق من مدينة أغمات إلى السُّوس على ما ذكره مؤمن بن يُومر الهوارى من أغمات وريكة إلى مدينة نفيس، وهى تعرف ببلد النفيس، كثير الأنهار والثمار، ليس فى ذلك القطر موضع أطيب منه ولا أجمل منظرا، وهى قديمة أوَّلية، غزاها عقبة بن نافع ـ صاحب رسول الله ـ ﷺ، وحاصر بها الروم والنصارى ونصارى البربر، وكانوا قد اجتمعوا بها لحصانتها وسعتها، فلزمهم حتى افتتحها وبنى بها مسجدا هو باق إلى اليوم.

وأصابوا فيها غنائم كثيرة، وذلك سنة اثنتين وستين.

وهى اليوم عامرة، بها جامع وحمام وأسواق جامعة، بينها وبين البحر مسيرة يوم، يسكنها قبائل من البربر، أكثرهم مصمودة.

وكان صاحبهم حمزة بن جعفر الذى نُسب إليه السوق من بنى عبيد الله بن إدريس بن إدريس، مرحلة.

ومن مدينة تفيس إلى مدينة أنيفن مرحلة، وهى مدينة فى بطحاء كثيرة المياه والفواكه.

ومنها إلى مدينة تامرورت مرحلة، وهى مدينة لطيفة طيبة.

ومنها ترقى فى جبل درن، وهو جبل معترض فى الصحراء، معمور بقبائل

---

(١) تَامَدَلْت: بلدٌ من بلاد المغرب مشرقى لمطة. مراصد الاطلاع ١/ ٢٥٠ والبلدان (تامدلت) ١/ ٤٢٦.

صنهاجة وغيرها، وهو الجبل الذى يقال إنه مُتصل إلى المقطم بمصر.

ومن هذا الجبل ينزل إلى بلاد السوس.

وذكر محمد بن يوسف فى كتابه: أن تامرورت هو أول صعود هذا الجبل ويقال إنه أكبر جبال الدنيا، وهو يتصل بجبل أوراس، وبجبل نفوسة المجاور لأطرابلس.

وفى الحديث: «أن فى المغرب جبلاً يقال له درن، يُزَفُّ يوم القيامة بأهله إلى النار كما تُزَفُّ العروس إلى بعلها»(١).

قال: وتمشى فى الجبل إلى موضع يقال له الملاحة، وفى أعلى الجبل نهر عظيم كبير، والجبل كثير الأشجار والشعراء والثمار.

ومن الجبل إلى موضع يعرف بأسطوانات أبى علىّ فى الجبل أيضا.

وعن يمين هذا الموضع على مسيرة يوم الموضع المعروف بتازرارت، وفيه معدن الفضة، قديم غزير المادة.

ومن أسطوانات أبى على إلى قبيل من البربر، يعرفون ببنى ماغوس ولهم سوق عامرة.

وعن يمين بنى ماغوس قبيل يقال لهم بنو لماس.

وهم كلهم روافض، ويعرفون بالبجليين، نزل بين ظهرانيهم رجل يجلى من أهل نفطة قسطيلية، قبل دخول أبى عبيد الله الشيعى إفريقية، يقال له: محمد بن ورسند، ودعاهم إلى سب الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وأحل لهم المحرمات، وزعم أن الربا بيع من البيوع، وزادهم فى الآذان بعد «أشهد أن محمدا رسول الله»، «أشهد أن محمدا خير البشر»، ثم بعد: «حى على الفلاح»، «حى على خير العمل» آل محمد خير البرية».

وهم على مذهبه إلى اليوم، وأن الإمامة فى ولد الحسن لا فى ولد الحسين وكان صاحبهم إدريس بن القاسم بن محمد بن جعفر بن عبد الله بن إدريس بن إدريس».

(١) حديث منكر، لا أصل له.

فإن صح الحديث الذى ذكرنا، فإن المراد به هؤلاء. والله أعلم.

ويلى بنى لماس قبيل من البربر فى جبل وعر، مجوس، يعبدون كبشا، لا يدخل أحد منهم السوق إلا مستترا.

ومن بنى ماغوس إلى إيجلى[١]: قاعدة بلاد السُّوس[٢] ومدينته مرحلة، وهى مدينة على نهر كبير كثير الثمر وقصب السكر، ومنها يحمل السكر إلى جميع بلاد المغرب.

وعلى هذا الوادى أسواق كثيرة إلى البحر المحيط. ويقال: إن الذى جلب الساقية إلى مدينة السوس عبد الرحمن بن مروان، أخو محمد الجعدى. وإنه هو الذى عمر وادى السوس، إلى وادى ماسّت[٣]، مسيرة يومين عليه قرى كثيرة، وهو ينصب فى البحر المحيط.

وماسّت: التى أضيف إليها الوادى رباط مقصود عندهم، له موسم عظيم ومجمع جليل، وهو مأوى للصالحين.

ومن وادى السوس إلى مدينة نول ثلاث مراحل فى عمارة جزولة ولمطة.

ومدينة نُول[٤] آخر مدن الإسلام، وهى فى أول الصحراء، ونهرها يصب فى البحر المحيط.

* * *

---

(١) إيجلى: هو قاعدة بلاد السُّوس الأقصى، وهى مدينة كبيرة قديمة فى سهل من الأرض على نهر كبير، وهى كثيرة البساتين والتمر وجميع الفواكه وقصب السكر بها كثير، افتتحها عقُبة بن نافع عند دخوله بلاد المغرب وأخرج منها سَبْيًا لم يُرَ مثله حُسْنًا. الروض المعطار ٧١ ومراصد الاطلاع ١/ ١٣٦.

(٢) السُّوس: بلد بالمغرب، كان الروم يسمُّونه قمُّونيه، وقيل كورة مدينتها طنجة، وبالمغرب موضع يُسَمَّى السُّوس الأقصى: كورة مدينتها طَرْقَلة بينها وبين السُّوس الأدنى مسيرة شهرين. مراصد الاطلاع ٢/ ٧٧٥.

(٣) الروض المعطار ٥٢٢.

(٤) انظر فيها: الروض المعطار ٥٨٤.

ذكر مدينة نول

ومن مدينة نول إلى مدينة درعة: ثلاثة مراحل، ومدينة إيجلى: مدينة كبيرة سهلية، بغربيها نهر كبير جار من القبلة إلى الجوف، عليه بساتين كثيرة متصلة ولم يتخذوا قط عليه رحى، فإذا سئلوا عن المانع لهم من ذلك، قالوا: كيف يسخر هذا الماء العذب فى إدارة الأرحاء.

وهى كثيرة الفواكه والخير، وربما بيع حمل التمر بها بدون كراء الدابة من البستان إلى السوق.

وقصب السكر أكثر شىء، بها يحمل الرجل بربع درهم منه ما يؤذيه ثقلاً، ويعمل بها السكر كثيرًا. وقنطار سكرها يبتاع بمثقالين وأقل.

ويعمل بها النحاس المسبوك، يتجهَّز به إلى بلاد الشرك، وبها مسجد جامع وأسواق وفنادق. والذى افتتحها عقبة بن نافع، وأخرج منها سبيًا لم ير مثله حسنًا وتمامًا، وكانت تباع الجارية الواحدة منهن بألف دينار وأكثر.

ودخلها عبد الرحمن بن حبيب بعد ذلك، وبها معسكره إلى اليوم.

وبالسوس زيت الهرجان[١] وشجره يشبه شجر الكمثرى إلا أنه لا يفوت اليد وأغصانه ثابتة فى أصله لا ساق له، وهى شوكاء وثمرها يشبه الإجاص، فيجمع ويترك حتى يذبل، ثم يوضع على النار فى مقلى فخار فيستخرج دهنه، وطعمه يشبه طعم القمح المقلو، وهو جيد محمود الغذاء يسخن الكلى ويدر البول.

وبالسوس عسل يفوق عسل الأمصار، يلقى النبيذيون على الكيل الواحد منه خمسة عشر كيلاً عن ماء فحينئذ يأتى شرابًا، وإن كان أقل من ذلك بقى حلوًا ولا ينحل إلا فى الماء الشديد الحرارة، ولونه لون الرماد.

وتبايع أهل سوقه بالحلى المكسورة أنقار الفضة، والدرهم المسكوك عندهم قليل، ومثاقيلهم تُعرف بالقزديرية لأن رجلا تولى سكَّهم يُعرف بأبى الحسن

---

(١) فى الروض المعطار «البرجان».

القزديرى، وبالسوس تُوفى عبد الله بن إدريس وبها قبره.

وبقبلى إيجلى وعلى ست مراحل منها مدينة تامدلت، أسسها عبد الله بن إدريس بن إدريس، وهى سهلية عليها سور طوب وحجر، وبها حمامات وسوق عامرة ولها أربعة أبواب، وهى على نهر عُنصره من جبل على عشرة أميال منها، وما بينهما بساتين، وعلى هذا النهر أرحاء كثيرة وأرضها أكرم أرض وأكثرها ريعا تُعطى للحبة مائة، وبها معدن فضة غزير كثير المادة.

وبشرقى تامدلت مدينة درعة، بينهما مسيرة ستة أيام، وتسير من تامدلت إلى وادى درعة ثلاث مراحل.

ومنها إلى أجرواست مراحل كلها على مياه، ومنها إلى مرغاد مرحلة، ومنها إلى سجلماسة ستة أميال.

وأهل السوس وأغمات أكثر الناس تكسبا وأطلبهم لرزق ما يكلفون نساءهم وصبيانهم التحرف والتكسب، وبأرض أغمات والسوس شجر الهلجان لا يكون إلا هناك، يستخرج من حبه زيت طيِّب كثير النفع، وذلك أنهم يجنون ثمره فتعلفه الماشية، ثم يعمدون إلى عجنه فيطحن ويطبخ ويستخرج منه دهنه فيكادون يستغنون به عن جميع الزيوت لكثرته عندهم.

* * *

الطريق من وادى درعة[1] فى الصحراء إلى بلاد السودان

من وادى درعة خمس مراحل إلى وادى تارجا، وهو أول الصحراء، ثم تمشى فى الصحراء فتجد الماء على اليومين والثلاثة حتى تصل إلى رأس المجابة إلى البئر المسماة تزامت بئر معينة غير عذبة وهى إلى الملوحة أقرب قد أنبطت فى حجر صلد من عمل الأول، ويزعم قوم أن بنى أمية صنعتها.

وفى الشرق منها بئر تسمى بئر الجمالين، وعلى مقربة منها أيضا بئر تسمى تاللى

(١) دَرْعة: مدينة صغيرة بجنوبىّ المغرب، بينها وبين سجلماسة أربعة فراسخ. مراصد الاطلاع ٢/٢٥٣.

كلها غير عذبة، وبين هذه الآبار الثلاث وبلاد الإسلام مسيرة أربعة أيام.

ومنها إلى جبل يسمى بالبربرية أدراران وزال، وتفسيره جبل الحديد مثل ذلك، وفى هذا الجبل مَجابة ماؤها على ثمانية أيام، وهى المجابة الكبرى، وذلك الماء فى بنى ينتسر من صنهاجة، ومن بنى ينتسر إلى قرية تسمى مدوكن لصنهاجة يعرفون ببنى لمتونة ظواعن رحّالة فى الصحراء، مراحلهم فيه مسيرة شهرين فى شهرين ما بين بلاد السودان وبلاد الإسلام ويصيغون فى موضع يسمى أمطلوس وآخر يسمى تاليوين، وهم إلى بلاد السودان أقرب.

وبينهم وبين بلاد السودان نحو عشر مراحل، وليس يعرفون حرثا ولا يزرعون زرعا ولا يعرفون خبزا، وإنما أموالهم الأنعام وعيشُهم من اللحم واللبن، وينفد عمر أحدهم ولا رأى خبزا ولا أكله إلا أن يمر بهم التجار فى بلاد الإسلام أو بلاد السودان فيطعمونهم الخبز ويتحفونهم بالدقيق، وهم على السنة مجاهدون للسودان.

وكان رئيسهم محمد المعروف بتارشنى من أهل الفضل والخير والدين والحج والجهاد وهلك بموضع يقال له قنغارة ـ وقيل كنكارة ـ من بلاد السودان، وهم قبيل من السودان بغربى مدينة بنكلابين، وهى مدينة يسكنها جماعة من المسلمين يعرفون ببنى وارث من صنهاجة.

وخلف بنى لمتونة قبيلة من صنهاجة تسمى بنى جدالة وهم يجاورون البحر، وليس بينهم وبينه أحد.

وهذه القبائل هى التى قامت بعد الأربعين وأربعمائة بدعوة الحق وردِّ المظالم وقطع جميع المغارم، وهم على السنة ومتمكسون بمذهب مالك بن أنس رضى الله عنه وكان الذى نهج ذلك فيهم ودعا الناس إلى الرباط ودعوة الحق عبد الله بن ياسين[1].

---

(١) عبد الله بن ياسين بن مكو الجزولى المصمودى: الزعيم الأول للمرابطين وجامعِ شملهم وصاحب الدعوة الإصلاحية فيهم، كان من طلبة العلم فى دار أنشئت بالسُّوس وسُمِّيت دار المرابطين، أرسل إلى صَنهاجة مع يحيى بن إبراهيم الكدالى الصنهاجى لتفقيهها وتعليمها أمور دينها، ورأى البدع فاشية فيهم، فاشتد فى وعظها وإقامة حدود الشرع فيها، فأعرضت عنه، =

وذلك أن رئيسهم كان يحيى بن إبراهيم من بنى جدالة وحج فى بعض السنين ولقى فى صدره عند حجه الفقيه أبا عمران الفاسى، فسأله أبو عمران عن بلده وسيرته وما ينتحلونه من المذاهب، فلم يجد عنده علمًا بشئ إلا أنه رآه حريصًا على التعلم صحيح النية واليقين، فقال له: ما يمنعكم من تعلم الشرع على وجهه والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؟ قال له: لا يصل إلينا إلا معلمون لا ورع لهم ولا علم بالسنة عندهم.

ورغب إلى أبى عمران أن يرسل معه من تلاميذه من يثق بعلمه ودينه ليعلمهم ويقيم أحكام الشريعة عندهم، فلم يجد أبو عمران فيمن رضيه من يجيبه إلى السير معه.

فقال له أبو عمران: إنى قد عدمت بالقيروان بغيتكم وإن بملكوس فقيهًا حاذقًا ورعًا قد لقينى وعرفت ذلك منه يقال له وجاج بن زلوى، فَمُرْ به فربما ظفرت عنده ببغيتك.

فجعل ذلك يحيى بن إبراهيم أوكد همه، فنزل به وعلمه ما جرى له مع أبى عمران، فاختار له وجاج من أصحابه رجلاً يقال له عبد الله بن ياسين واسم أمه تينى يزمارن من أهل جزولة من قرية تسمى تماماناوت فى طرف صحراء مدينة غانة، فوصل به إلى موضعه واجتمعوا للتعلم منه والانقياد له فى سبعين رجلاً.

فغزو بنى لمتونة وحاصروهم فى جبل لهم فهزموهم وجعلوا ما اتخذوا من أموالهم مغنما، فلم يزل أمرهم يقوى واستعملوا على أنفسهم يحيى بن عمر بن تلاجاجين وعبد الله بن ياسين مقيم فيهم متورعا عن أكل لحمانهم وشرب ألبانهم لما كانت أموالهم غير طيبة، إنما كان عيشه من صيد البرية.

ثم أمر ببناء مدينة سموها أرتننى وأمرهم ألا يشف بناء بعضهم على بناء بعض، فامتثلوا ذلك وهم يسمعون له ويطيعون إلى أن نقموا عليه أشياء يطول ذكرها،

= فاعتزلها مع بضعة أشخاص فى جزيرة قريبة منها فى النيجر، ولحق به جماعة، ثم آخرون، حتى بلغ من عنده زهاء الآلف فسمَّاهم المرابطون» وأخضع بهم قبائل صنهاجة كلها، وافتتح درعه وسِجلماسة واستولى على تاوردانت قاعدة السُّوس وفتح بلاد المصامدة حربًا وامتد سلطانه من نواحى السنغال إلى سِجلماسة ومن درعه إلى إغمات إلى حاحة والشياظمة وتقدم إلى برغواطة، وقتل سنه ٤٥١هـ. الأعلام ٤/ ١٤٤. وانظر: نزهة الأنظار ١/ ٤٣١-٤٣٢.

وكأنهم وجدوا فى أحكامه بعض التناقض.

فقام عليه فقيه منهم كان اسمه الجوهر بن سكّم مع رجلين من كبرائهم يقال لأحدهما أيار وللآخر ايتتكوا، فعزلوه عن الرأى والمشورة وقبضوا منه بيت مالهم وطردوه وهدموا داره وانتهبوا ما كان فيها من أثاث وفرش.

فخرج مستخفيا من قبائل صنهاجة إلى أن أتى وجاج بن زلوى فقيه ملكوس، فعاتبهم وجاج على ما كان منهم إلى عبد الله فأعلمهم أن من خالف أمر عبد الله فقد فارق الجماعة وأن دمه هدر فأمر عبد الله بالرجوع إليهم فرجع وقتل الذين قاموا عليه وقتل خلقا كثيرا ممن استوجب القتل عنده بجراية أو فسق، واستولى على الصحراء كلها وأجابه جميع تلك القبائل ودخلوا فى دعوته والتزموا السنة بها. ثم نهضوا إلى لمطة وسألوهم ثلث أموالهم ليطيب لهم بذلك الثلثان، وهكذا سن لهم عبد الله فى الأموال المختلطة، فأجابوهم إلى ذلك ودخلوا معهم فى دعوتهم.

وأول ما أخذوا فى البلاد المخالفة لهم درعة، ولهم فى قتالهم شدة وجلد ليس لغيرهم، وهم يختارون الموت على الانهزام ولا يحفظ لهم فرار من زحف، وهم يقاتلون على الخيل والنجب وأكثر قتالهم رجالا صفوفا بأيدى الصف الأول القنى الطوال للمداعسة والطعان، وما يليه من الصفوف بأيديهم المزاريق يحمل الرجل الواحد منها عدة يزرقها فلا يكاد يخطئ ولا يشوى.

ولهم رجل قد قدموه أمام الصف بيده الراية، فهم يقفون ما وقفت منتصبة، وإن أمالها إلى الأرض جلسوا جميعا، فكانوا أثبت فى الهضاب، ومن فر أمامهم لم يتبعوه.

وهم يقتلون الكلاب لا يستصحبون منها شيئا.

وكان يحيى بن عمر[1] أشد الناس انقيادا لعبد الله بن ياسين وامتثالاً لما يأمره

(١) يحيى بن عمر بن تكلاكين اللمتونى، أبو زكريا، مؤسس دولة المرابطين فى المغرب الأقصى، كان من رؤساء لمتونة فى الصحراء، اعتزل مع عبد الله بن ياسين، وجعله عبد الله بن ياسين أميرًا لهم فى الحرب، ودخل بلاد درعة وكانت بين جيشه وجيش جدالة وقائع قتل فيها، وقُتل معه بشر كثير. الأعلام ٨/ ١٦٠ـ١٦١ وانظر: نزهة الأنظار ١/ ٤٣٢.

به، ولقد حدث جماعة أن عبد الله قال له فى بعض تلك الحروب: أيها الأمير إن عليك حقا أدبا.

فقال له يحيى: فما الذى أوجبه على؟ قال له عبد الله: إنى لا أخبرك به حتى أؤدبك وآخذ حق الله منك.

فطاع له الأمير بذلك وحكمه فى بشرته فضربه الفقيه ضربات بالسوط، ثم قال له: الأمير لا يدخل القتال بنفسه لأن حياته حياة عسكره وهلاكه هلاكهم.

وغزا المرابطون مدينة سجلماسة بعد أن خاطبوا أهلها ورئيسهم مسعود بن وانودين المغزاوى، فلم يجيبوهم إلى ما أرادوا، فغزوهم فى جيش عدته ثلاثون ألف جمل سرج، فقتلوا مسعودا واستولوا على مدينة سجلماسة وتخلفوا فيها جماعة منهم، ثم عادوا إلى بلادهم.

فغدر أهل سجلماسة بالمرابطين بالمسجد فقتلوا منهم عددا كثيرا، وذلك سنة ست وأربعين وأربعمائة.

وندم أهل سجلماسة على ما فعلوا وتواترت رسلهم على عبد الله بن ياسين أن يرجع إليهم العساكر ويذكرون أن زناتة زحفت إليهم، فندب عبد الله المرابطين إلى غزو زناتة ثانية، فأبوا عليه وخالف عليه بنو جدالة وذهبوا إلى ساحل البحر.

فأمر عبد الله الأمير يحيى أن يتحصن بجبل لمتونة، وهو جبل منيع كثير الماء والكلأ فى طوله مسافة ست أيام وفى عرضه مسافة يوم، وهناك حصن يسمى أركى حوله نحو عشرين ألف نخلة كان بناه يانو بن عمر الحاج أخو يحيى بن عمر.

فصار يحيى فى جبل لمتونة، وذهب عبد الله بن ياسين إلى مدينة سجلماسة فى مائتى رجل فى قبائل صنهاجة ونزل موضعا يقال له تامدولت، حصن فيه مياه ونخل كثير، ويشرف عليه جبل فيه معدن فضة معلوم هناك.

فاجتمع لعبد الله جيش كثيف من سرطة وترجة ولهم هناك حصون، وكان أبو بكر بن عمر بدرعة مع أحمد بن أمدجنو، فأمره عبد الله مكان أخيه يحيى المتخلف بجبل لمتونة.

ثم رجعت جيوش بنى جدالة إلى يحيى بن عمر فحاصروه فى الجبل، وذلك سنة ثمان وأربعين، وهم فى نحو ثلاثين ألفا. وكان مع يحيى أيضا عدد كثير وكان معه لبى بن وارجاى: رئيس نكرور، وكان التقاؤهم هناك بموضع يسمى تيفريلى بين تاليونى وجبل لمتونة.

فقتل يحيى بن عمر رحمه الله وقتل معه بشر كثير، وهم يذكرون أنهم يسمعون فى هذا الموضع أصوات المؤذنين عند أوقات الصلوات، وهم يتحامونه ولا يدخله أحد ولا أخذ منهم سيف ولا درقة ولا شىء من أسلحتهم ولا ثيابهم، ولم يكن للمرابطين بعد كرة إلى بنى جدالة.

وفى سنة ست وأربعين غزا عبد الله بن ياسين أودغشت، وهو بلد قائم العمارة مدينة كبيرة فيها أسواق ونخل كثير وأشجار الحناء وهى فى العظم كشجر الزيتون، وهى كانت منزل ملك السودان المسمى بغانة قبل أن يدخل العرب غانة، وهى متقنة المبانى حسنة المنازل، ومسافة ما بينها وبين سجلماسة مسيرة شهرين وبينها وبين مدينة غانة خمسة عشر يوما.

وكان يسكن هذه المدينة زناتة مع العرب وكانوا متباغضين متدابرين، وكانت لهم أموال عظيمة ورقيق كثير كان للرجل منهم ألف خادم وأكثر.

فاستباح المرابطون حريمها وجعلوا جميع ما أصابوا فيها فيئا، وقتل فيها عبد الله ابن ياسين رجلا فى العرب المولّدين من أهل القيروان معلوم بالورع والصلاح وتلاوة القرآن وحج البيت يسمى زباقرة، وإنما نقموا عليه أنهم كانوا تحت طاعة صاحب غانة وحكمه.

وغزا عبد الله بن ياسين أغمات[1] سنة تسع وأربعين، واستولى على بلاد المصامدة سنة خمسين، وقتل ببرغواطة سنة إحدى وخمسين بموضع يسمى

(١) أغْمات: ناحية فى بلاد البربر من أرض المغرب، قريبة من مراكش وهى مدينتان متقابلتان، كثيرة الخير، ومن ورائها إلى جهة البحر المحيط السوس الأقصى بأربع مراحل، وأهلها فرقتان: يقال لأحدهما الموسوية من أصحاب ابن ورسنْد، والغالب عليهم جفاء الطبع وعدم الرقة. والفرقة الأخرى مالكية، وبينهما قتال دائم، وكل فرقة تصلى فى الجامع منفردة بعد صلاة الأخرى، وبينها وبين مراكش ثلاثة فراسخ، وهى فى سفح جبل هناك. مراصد الاطلاع ١/ ٩٨.

كريفلد، وعلى قبره اليوم مشهد مقصود ورابطة معمورة.

ولم يقتل عبد الله بن ياسين حتى استولى على سجلماسة وأعمالها والسوس كله وأغمات ونول والصحراء.

وما يذكرونه ولا يشكون فيه، فى براهين صلاح عبد الله أنه ذهب فى بعض أسفاره فعطشوا، فشكوا ذلك إليه.

فقال: عسى الله أن يجعل من أمرنا فرجا.

ثم سار بهم ساعة وقال لهم: احفروا بين يدى، فحفروا فوجدوا الماء بأدنى حفر، فشربوا وسقوا واستقوا أعذب ماء وأطيبه.

ويذكرون أنه نزل منزلا تقرب منه بركة ماء، وكانت كثيرة الضفادع لا يسكت نقيقها، فإذا وقف عبد الله على البركة، لا يسمع لها ركز، وهم الآن لا تقدم طائفة منهم أحد للصلاة إلا من صلى وراء عبد الله وإن كان فى تلك الطائفة أقرأ منه وأروع ممن لم يصل وراءه.

وكان عبد الله نكاحا للنساء، يتزوج فى الشهر عددا منهن ويطلقهن لا يسمع بامرأة حسناء إلا خطبها، ولا يتجاوز بصدقاتهن أربعة مثاقيل.

* * *

ذكر ما شذ فيه عبد الله بن ياسين من الأحكام

من ذلك أخذه الثلث من الأموال المختلطة، وزعم أن ذلك يطيب باقيها ويحله، وقد تقدم ذكرها.

هذا وأن الرجل إذا دخل فى دعوتهم وتاب عن سالف ذنوبه قالوا له: «قد أذنبت ذنوبا كثيرة فى شبابك، فيجب أن تقام عليك حدودها وتطهر من إثمها»؛ فيضرب حد الزانى مائة سوط وحد المفترى ثمانين سوط وحد الشارب مثلها، وربما زيد على ذلك.

وهكذا يفعلون بمن تغلبوا عليه وأدخلوه فى رباطهم، وإن علموا أنه قتل، قتلوه سواء أتاهم تائبًا طائعًا أو غلبوا عليه مجاهرًا عاصيًا لا تنفعه توبته ولا تغنى

عنه رجعته.

ومن تخلف عن مشاهدة الصلاة مع الجماعة ضرب عشرين سوطا، ومن فاتته ركعة ضرب خمسة أسواط.

ويأخذون الناس بصلاة الظهر أربعا قبل صلاة الظهر فى الجماعة، وكذلك فى سائر الصلوات، ويقولون: «إنك لابد قد فرطت فى سالف عمرك فاقض ذلك».

وأكثر عوامهم يصلون بغير وضوء إذا أعجلهم الأمر جزعا من الضرب، ومن رفع صوته فى المسجد ضرب على قدر ما يراه الضارب ـ له صلاح ـ.

وزكاة الفطر يأخذونها وينفقونها على أنفسهم.

ومما يحفظ من جهل عبد الله بن ياسين أن رجلاً اختصم إليه مع تاجر غريب عنده، فقال التاجر فى بعض مراجعته لخصمه: «حاشا لله أن يكون ذلك» فأمر عبد الله بضربه وقال: «لقد قال كلامًا فظيعًا وقولاً شنيعًا يوجب عليه أشد الأدب»، وكان بالحضرة رجل قيروانى فقال لعبد الله: «وما تنكر من مقالته والله عز وجل قد ذكر ذلك فى كتابه فقال حكاية عن النسوة اللائى قطعن أيديهن فى قصة يوسف: ﴿**حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيم**﴾[1].

فرفع الضرب عن ذلك الرجل.

وأمير المرابطين إلى اليوم وذلك سنة ستين وأربعمائة[2] ـ أبو بكر بن عمر، وأمرهم منتشر غير ملتئم ومقامهم بالصحراء، وجميع قبائل الصحراء يلتزمون النقاب وهو فوق اللثام؛ حتى لا يبدو منه إلا محاجر عينيه، ولا يفارقوا ذلك فى حال من الأحوال، ولا يميز رجل منهم وليه ولاحميمه إلا إذا تنقب، وكذلك فى المعارك إذا قتل منهم القتيل وزال قناعه لم يعلم من هو حتى يعاد عليه القناع، وسار ذلك لهم ألزم من جلودهم وهم يسمون من خالف زيهم هذا من جميع الناس ـ أفواه الذبان ـ بلغتهم.

وطعامهم صفيف اللحم الجاف مطحونا يصب عليه الشحم المذاب أو السمن،

---

(١) سورة يوسف، آية ٣١.

(٢) عاين ذلك البكرى، حيث كانت وفاته ٤٨٧هـ.

وشرابهم اللبن قد غنوا به عن الماء، يبقى الرجل منهم لا يشرب الماء، وقوتهم مع ذلك مكينة وأبدانهم صحيحة،

ومن سير أهل الصحراء فى المتهم بالسرقة أن يعمدوا إلى عود فيشق باثنين ويشد على صدغيه فى مقدم رأسه ومؤخره فلا يتمالك أن يقر ولا يصبر على ذلك الضغط لحظة لشدته.

ومما فى هذه الصحراء من الحيوان اللمط، وهو دابة دون البقر لها قرون دقاق حادة لذكرانها وإناثها، وكلما كبر منها الواحد طال قرناه حتى يكون أكبر من أربعة أشجار.

وأجود الدرق وأغلاها ثمنا ما صنع من جلود العواتق منها، وهى التى طال قرناها لكبر سنها فمنع الفحل علوها.

دواب الفنك أكثر شىء فى هذه الصحراء، ومنها يحمل إلى جميع البلاد. وعندهم الكباش الدمانية خلقها خلق الضأن إلا أنها أجمل، وشعرها شعر الماعز لا أصواف لها، وهى أحسن الغنم خلقا وألوانا.

ولا تنبت هذه الصحراء ولا بلاد أغمات ولا السوس شجر المرسين، وهو شجر الآس وهو عندهم عزيز يجلب إليهم من سائر البلاد.

ومن غرائب تلك الصحراء معدن ملح على يومين من المجابة الكبرى وبينه وبين سجلماسة مسيرة عشرين يوما، تحفر عنه الأرض كما تحفر عن سائر المعادن والجواهر، ويوجد تحت قامتين أو دونهما من وجه الأرض وتقطع كما تقطع الحجارة، ويسمى هذا المعدن تانتال وعليه حصن مبنى بحجارة الملح، وكذلك بيوته ومشارفه وغرفه كل ذلك ملح.

ومن هذا المعدن يتجهز بالملح إلى سجلماسة وغانة وسائر السودان، والعمل فيه متصل والتجار إليه متسايرون وله غلة عظيمة.

ومعدن للملح آخر عند بنى جدالة بموضع يسمى أوليل على شاطىء البحر، ومن هناك تتحمله الرفاق إلى ما جاوره.

وبقرب أوليل فى البحرجزيرة تسمى أيونن، وهى عند المدّ جزيرة لا يوصل إليها

من البر وعند الجزر يوصل إليها على القدم، ويوجد فيها العنبر، وأكثر معاش أهلها من لحوم السلاحف وهى أكثر شىء عندهم فى ذلك البحر وهى مفرطة العظم، وربما دخل الرجل منهم فى محار ظهورها فيتصيد فيها كالقارب وسنذكر من كبر السلاحف بطريق تيرقى ما هو أشنع من هذا، ولهم أغنام ومواشى، وهذه الجزيرة مرسى من المراسى، والطريق منها إلى نول على ساحل البحرلا يفارقه مسيرة شهرين مشى العير فى أرض أكثرها صفى ينبو عنه الحديد وتكل فيه المعاول.

وإنما يشربون فى طريقهم من قلات يحتفرونها عند جزر البحر فتبض ماء عذبا.

وإذا مات لهم ميت فى طريقهم هذا لم يمكنهم مواراته لصلابة الأرض وامتناعها على الحفر فيسترونه بالحطام والحشيش أو يقذفونه بالبحر.

* * *

ذكر بلاد السودان ومدنها المشهورة واتصال بعضها ببعض والمسافات بينها وما فيها من الغرائب وسير أهلها

المصاقبون لبلاد السودان بنو جدالة، هم آخر الإسلام خطة، وأقرب بلاد السودان منهم صَنْغَانة[1]، بين آخر بلادهم وبينها مسيرة ستة أيام، ومدينة صنغانة مدينتان على ضفتى النيل وعمارتها متصلة إلى البحر المحيط.

ويلى مدينة صنغانة ما بين الغرب والقبلة على النيل مدينة تكْرور[2] أهلها

---

(١) صَنْغَانة: فى بلاد السودان، وهى مدينتان على ضفتى النيل متَّصلة إلى البحر المحيط. الروض المعطار ٣٦٠.

(٢) تكْرور: مدينة فى بلاد السودان عظيمة مشهورة، أهلها أشبه الناس بالزنوج. قال الفقيه على الجنحانى المغربى: شاهدتها وهى مدينة عظيمة لا سورلها وأهلها مسلمون وكفار، والملك فيها للمسلمين، وأهلها عراة، رجالهم ونساؤهم إلاَّ أشراف المسلمين، فإنهم يلبسون قميصًا طولها عشرون ذراعًا، ويحمل ذيلهم معهم خدمهم للحشمة. ونساء الكفار يسترن قُبلهن بخرزات العقيق ينظمنها فى الخيوط ويعلقنها عليهن، ومن كانت نازلة الحال فخرزات من العظم. انظر: آثار البلاد ٢٦ ومراصد الاطلاع ١/ ٢٦٨ ونزهة المشتاق ١/ ١٧ـ١٨.

سودان، وكانوا على ما كان سائر السودان عليه من المجوسية وعبادة الدكاكير، والدكور عندهم: الصنم حتى وليهم وارجابى بن رابيس فأسلم وأقام عندهم شرائع الإسلام وحملهم عليها وحقق بصائرهم فيها.

وتوفى وارجابى سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، فأهل تكرور اليوم مسلمون.

وتسير من مدينة تكرور إلى مدينة سَلَى[1]؛ وهى مدينتان على شاطئ النيل أيضا وأهلها مسلمون؛ أسلموا على يدى وارجابى - رحمه الله - وبين سلى ومدينة غانة مسيرة عشرين يوما فى عمارة السودان القبيلة.

وملك سلى يحارب كفارهم وليس بينه وبين أولهم مسيرة يوم واحد، وهم أهل مدينة قلنبو[2]، وهو واسع المملكة كثير العدد يكاد يقاوم ملك غانة.

وتبايع أهل سلى بالذرة والملح وحلق النحاس وأزر لطاف من قطن يسمونها الشكايات.

والبقر عندهم كثير وليس عندهم ضأن ولا ماعز، وأكثر نبات أرضهم الأبنوس ومنه يحتطبون.

وفيما يتصل ببلادهم من النيل فى موضع يقال له صحابى حيوان فى الماء يشبه الفيل فى عظم خلقته وفنطيسته وأنيابه يسمونه قفوا، وهو يرعى فى البرارى ويأوى إلى النيل، ويميزون موضعه من النيل بتحرك الماء على ظهره فيقصدونه بمزاريق حديد، فصار فى أسافلها حلق قد شدت فيها الحبال المديدة فيرمونه بالعدد الكثير منها فيغوص ويضطرب فى أسفل النيل، فإذا مات طفا على الماء، فجذبوه

---

(١) سَلا: على ضفة النيل وشماله ببلاد السودان، مدينة حاضرة بها مجتمع السودان، ومتاجرها صالحة، وأهلها أهل بأس وعدة، وهى من عمالة التكرورى، وهو سلطان له عبيد وأجناد، وله حزم وجلادة وعدل مشهور، وبلاد آمنة. وموضع مستقرّه مدينة تكرور، وهى جنوبى النيل، وبينها وبين سلا مقدار يومين فى البحر وفى البر. الروض المعطار ٣١٩ ونزهة المشتاق ١٨-١٧/١.

(٢) قلنبوا: فى بلاد السودان، وهم على النيل، وأهلها مشركون، وهى مدينة كبيرة، والنيل يشق جميع تلك البلاد، ويسقى أكثرها، وفى تلك البلاد حيوان يشبه الفيل فى عظم خلقته وخرطومه وأنيابه يرعى فى البر ويأوى إلى النيل، ويصطادونه فيأكلون لحمه، ويصنعون من جلده الأسواط التى يسمونها السرياقات. الروض المعطار ٤٦٩ والاستبصار ٢١٧-٢١٨.

وأكلوا لحمه وصنعوا من جلده هذه الأسواط التى تسمى السرياقات، ومن هناك تحمل إلى الآفاق.

ويلى هذا البلد مدينة قلنبو بينهما مسيرة يوم على ما تقدم، وهى على النيل وأهلها مشركون.

وتتصل بمدينة قلنبو مدينة ترنقة[1]، وهو بلد عريض، وعندهم تصنع الأزر المسماة بالشكايات التى تقدم ذكرها، وهى أربعة أشبار فى مثلها.

وليس فى بلدهم كثير قطن غير أنهم لا تكاد تخلو دار أحدهم من شجرة قطن.

وحكم أهل هذه البلاد والمذكور قبلها من بلاد السودان أن يخير صاحب السرقة فى بيع السارق أو قتله، وحكمهم فى الزانى أن يسلخ من جلده.

ومن ترنقة تصل العمارة بالسودان إلى بلد زافقو[2]، وهم صنف من السودان يعبدون حية كالثعبان العظيم ذا عرف وذنب، رأسه كرأس البختى، وهو فى مغارة بالمفازة وعلى فم المغارة عريش وأحجار ومسكن قوم منهم متعبدين معظمين لتلك الحية، ويعلقون نفيس الثياب وجر المتاع على ذلك العريش ويضعون له جفان الطعام وعساس اللبن والشراب.

وهم إذا أرادوا إخراجه إلى العريش تكلموا كلاما وصفروا صفيرا معلوما فيبرز إليهم.

وإذا هلك وال من ولاتهم جمعوا كل من يصلح للمملكة وقربوهم إليها وتكلموا بكلام يعلمونه، فتدنو الحية منهم فلا تزال تشمهم رجلا رجلا حتى تنكز أحدهم بأنفها، فإذا نكزته ولت إلى المغارة فيتبعها ذلك المنكوز بأجد ما يقدر عليه السير، فيجذب من ذنبها أو من عرفها بأشد ما يقدر عليه من شعرات، فتكون مدة ملكه لهم بعدد تلك الشعرات لكل شعرة سنة، لا يخطئهم ذلك بزعمهم[3].

وتليهم بلاد الفرويين، وهى مملكة الفرويين على حدتها، ومن غريب ما فيها بركة يجتمع فيها الماء ينبت فيها نبات أصوله أبلغ شيء فى تقوية الباءة والعون

---

(١) انظر فى ترنكة: الاستبصار ٢١٨ والروض المعطار ١٣٢-١٣٣.

(٢) فى الروض المعطار ١٢٢ (راكنو) وزافو فى الاستبصار.

(٣) إلى هنا ينقل صاحب الروض المعطار عن البكرى ١٣٣.

عليها، والملك يمنع منها ولا يصل منها شىء إلى غيرهم، وله من النساء عدد عظيم، فإذا أراد أن يطوف عليهن أنذرهن قبل ذلك بيوم، ثم استعمل ذلك الدواء فيطوف عليهن كلهن ولا يكاد ينكسر.

قد أهدى إليه بعض ملوك المسلمين المجاورين له هدايا نفيسة واستهداه شيئا من هذا النبات، فعارضه على هديته وكتب إليه يقول: «إن المسلمين لا يحل لهم من النساء إلا قليل، وقد خفت عليك إن بعثت إليك الدواء ألا تقدر على إمساك نفسك فتأتى بما لا يحل لك فى دينك، ولكنى قد بعثت إليك نباتا يأكله الرجل العقيم فيولد له».

وبلاد الفرويين يبدل الملح فيها بالذهب.

* * *

ذكر غانة[1] وسير أهلها

وغانة سمة لملوكهم[2]، واسم البلد أوكار واسم ملكهم اليوم ـ وهى سنة ستين وأربعمائة ـ تنكامنين، وولى سنة خمس وخمسين.

وكان اسم ملكهم قبله بسى، ووليهم وهو ابن خمس وثمانين سنة، وكان محمود السيرة محبا للعدل مؤثرا للمسلمين، وعمى فى آخر عمره، وكان يكتم ذلك عن أهل مملكته ويريهم أنه يبصر وتوضع بين يده أشياء فيقول: «هذا حسن وهذا قبيح».

وكان وزراؤه يلبسون ذلك على الناس ويلغزون للملك بما يقول، فلا تفهمه العامة.

وبسى هذا خال تنكامنين، وتلك سيرتهم ومذهبهم أن الملك لا يكون إلا فى ابن أخت الملك لأنه لا يشك فيه أنه ابن أخته وهو يشك فى ابنه ولا يقطع على صحة اتصاله به.

(١) انظر فى غانة: الروض المعطار ٤٢٥ـ٤٢٦ والاستبصار ٢١٩.

(٢) نزهة المشتاق ١/ ١٨٥.

وتنكامنين هذا شديد الشوكة عظيم المملكة مهيب السلطان.

ومدينة غانة مدينتان سهليتان إحداهما المدينة التى يسكنها المسلمون، وهى مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجدا أحدها يجمعون فيه، ولها الأئمة والمؤذنون والراتبون، وفيها فقهاء وحملة علم.

وحواليها آبار عذبة منها يشربون وعليها يعتملون الخضراوات.

ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمى بالغابة والمساكن بينهما متصلة، ومبانيهم بالحجارة وخشب السنط.

وللملك قصر وقباب، وقد أحاط بذلك كله حائط كالسور، وفى مدينة الملك مسجد يُصلى فيه من يفد عليه من المسلمين على مقربة من مجلس حكم الملك.

وحول مدينة الملك قباب وغابات وشعراء يسكن فيها سحرتهم، وهم الذين يقيمون دينهم.

وفيها دكاكيرهم وقبور ملوكهم، ولتلك الغابات حرس ولا يمكن أحد دخولها ولا معرفة ما فيها، وهناك سجون الملك، فإذا سجن أحد فيها انقطع عن الناس خبره.

وتراجمة الملك من المسلمين، وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه، ولا يلبس المخيط من أهل دين الملك غيره وغير ولى عهده، وهو ابن أخته، ويلبس سائر الناس ملاحف القطن والحرير والديباج على قدر أحوالهم.

وهم أجمع يحلقون لحاهم ونساؤهم يحلقن رءوسهن، وملكهم يتحلى بحلى النساء فى العنق والذراعين ويجعل على رأسه الطراطير[1] المذهبة عليها عمائم القطن الرفيعة.

وهو يجلس للناس والمظالم فى قبة ويكون حوالى القبة عشرة أفراس بثياب مذهبة ووراء الملك عشرة من الغلمان يحملون الحجف والسيوف المحلاة بالذهب، وعن يمينه أولاد ملوك بلده قد ضفَّروا رءوسهم بأنواع الذهب وعليهم الثياب الرفيعة، ووالى المدينة بين يدى الملك جالس فى الأرض وحواليه الوزراء جلوسا

(١) الروض المعطار ٤٢٦.

على الأرض.

وعلى باب القبة كلاب منسوبة لا تكاد تفارق موضع الملك تحرسه، فى أعناقها سواجير الذهب والفضة يكون فى الساجور عدد رمانات ذهب وفضة.

وهم ينذرون بجلوسه بطبل يسمونه دبا، وهو خشبة طويلة منقورة فيجتمع الناس، فإذا دنا أهل دينه منه جثوا على ركبهم ونثروا التراب على رءوسهم فتلك تحيتهم له.

وأما المسلمون فإنما سلامهم عليه تصفيقًا باليدين.

وديانتهم المجوسية وعبادة الدَّكاكير[1]، وإذا مات ملكهم عقدوا له قبة عظيمة من خشب الساج ووضعوها فى موضع قبره، ثم أتوا به على سرير قليل الفرش والوطاء فأدخلوه فى تلك القبة، ووضعوا معه حليته وسلاحه وآنيته التى كان يأكل فيها ويشرب، وأدخلوا فيها الأطعمة والأشربة وأدخلوا معه رجالا ممن كان يخدم طعامه وشرابه وأغلقوا عليهم باب القبة وجعلوا فوق القبة الحصر والأمتعة، ثم اجتمع الناس فردموا فوقها بالتراب حتى تأتى كالجبل الضخم، ثم يخندقون حولها حتى لا يوصل إلى ذلك الكوم إلا من موضع واحد.

وهم يذبحون لموتاهم الذبائح ويقربون لهم الخمور.

وللكهم على حمار الملح دينار ذهب فى إدخاله البلد، وديناران[2] فى إخراجه، وله على حمل النحاس خمسة مثاقيل، وعلى حمل المتاع عشرة مثاقيل.

وأفضل الذهب فى بلاده ما كان بمدينة غياروا، وبينها وبين مدينة الملك مسيرة ثمانية عشر يوما فى بلاد معمورة بقبائل السودان مساكن متصلة.

وإذا وجد فى جميع معادن بلاده الندرة من الذهب استصفاها الملك، وإنما يترك منها للناس هذا التبر الرقيق، ولولا ذلك لكثر الذهب فى أيدى الناس حتى يهون.

والندرة تكون من أوقية إلى رطل، ويذكر أن عنده منه ندرة كالحجر الضخم.

وبين مدينة غياروا والنيل اثنا عشر ميلا وفيها من المسلمين كثير، وغَانَةُ بلدة

---

(١) الدكاكير: الأصنام.

(٢) صورة الأرض ٩٨.

مستوية غير آهلة لا يكاد يسلم الداخل فيها من المرض عند امتلاء زرعهم، ويقع الموتان فى غربانها عند استحصاد الزرع.

* * *

الطريق من غانة إلى غيارو[١]

فأما الطريق من غانة إلى غياروا فإلى مدينة سامقندى أربعة أيام، وأهل سامقندى أرمى السودان بالنّشاب.

ومنها إلى بلد يسمى طاقة[٢] يومان، وأكثر شجر طاقة شجر يسمى تادموت، وهو شجر الأراك إلا أن له ثمرا كالبطيخ داخله شىء يشبه القند تشوب حلاوته بحموضة نافعة للمحمومين.

ومن هناك إلى الخليج من النيل يقال له زوغو مسيرة يوم تخوضه الجمال، ولا يعبره الناس إلا فى القوارب.

ومنه إلى بلد يقال له غرنتل، وهو بلد كبير ومملكة جليلة لا يسكنه مسلمون ولكنهم يكرمونهم ويخرجون لهم عن الطريق إذا دخلوا بلادهم، وتلد عندهم الفيلة والزرافات.

ومن غرنتل[٣] إلى غيارو.

---

(١) انظر فى غيارو: الروض المعطار ٤٢٦.

(٢) الطاقة: إحدى بلاد السودان، أكثر شجرها يسمونه تادموت وهو شجر الأراك، إلاّ أنّ ثمره كالبطيخ داخله شىء يشبه القند، تشوب حلاوته حموضة، نافع للمحمومين، ومن هناك إلى خليج من النيل يقال له زوغوا مسيرة يوم، لا يعبره الناس إلاّ فى القوارب. الروض المعطار ٣٨٠.

(٣) غرنتل: فى بلاد السودان، بلد كبير ومملكة جليلة، لا يسكنها مسلمون، ولكنهم يكرمونهم ويخرجون لهم عن الطريق إذا دخلوا بلادهم وعندهم الفيلة والزرافات، ومن غرنتل إلى غيارو وهى على ضفة النيل وهى مدينة لطيفة القدر فى سفح جبل، وشرب أهلها من النيل، وأكلهم الذرة ولباسهم الصوف، وعندهم الحوت والألبان، وهم يضربون فى تلك البلاد بضروب التجارات التى تدور بين أيديهم. الروض المعطار ٤٢٧.

وملك غانة إذا احتفل ينتهى جيشه مائتى ألف، منهم رماة أزيد من أربعين ألف، وخيل غانة قصار جدا، وعندهم الأبنوس الجيد المجزع.

وهم يزدرعون مرتين فى العام مرة على ثرى النيل إذا خرج عندهم وأخرى على ثرى أيضا.

وبغربى غيارو على النيل مدينة يرسنى يسكنها المسلمون وما حولها مشركون.

وفى يرسنى معز قصار، فإذا وضعت الماعزة ذبحوا الذكور وأبقوا الإناث، وعندهم شجر تحتك بها هذه المعزة فتحمل من ذلك العود تلد من غير ذكر، وهذا معلوم عندهم غير منكر، وحدث به جماعة من المسلمين الثقات.

ومن يرسنى يجلب السودان العجم المعروفون ببنى نغمرانة وهم تجار التبر إلى البلاد.

وما وازاها من ضفة النيل الثانية مملكة كبيرة أزيد من مسيرة ثمانية أيام سمة ملكهم دو، وهم يقاتلون بالنشاب.

ووراءه بلد اسمه ملل وملكهم يعرف بالمسلمانى، وإنما سمى بذلك لأن بلاده أجدبت عاما بعد عام، فاستسقوا بقرابينهم من البقر حتى كادوا يفنونها ولا يزدادون إلا قحطا وشقاء.

وكان عنده ضيف من المسلمين يقرأ القرآن ويعلم السنة، فشكا إليه الملك وما دهمهم من ذلك فقال له: «أيها الملك لو آمنت بالله تعالى وأقررت بوحدانيته وبمحمد عليه الصلاة والسلام وأقررت برسالته واعتقدت شرائع الإسلام كلها لرجوت لك الفرج مما أنت فيه وحل بك، وأن تعم الرحمة أهل بلدك، وأن يحسدك على ذلك من عاداك وناوأك»

فلم يزل به حتى أسلم وأخلص نيته وأقرأه من كتاب الله ما تيسر عليه وعلمه من الفرائض والسنن ما لا يسع جهله.

ثم استأتى به إلى ليلة جمعة فأمره فتطهر فيها به طهرا سابغا وألبسه المسلم ثوب قطن كان عنده وبرزوا إلى ربوة من الأرض فقام المسلم يصلى والملك عن يمينه يأتم به، فصليا من الليل ما شاء الله والمسلم يدعو والملك يُؤَمِّن، فما انفجر الصباح إلا والله قد عمهم بالسقى.

فأمر الملك بكسر الدكاكير وإخراج السحرة من بلاده، وصح إسلامه وإسلام عقبه وخاصته، وأهل مملكته مشركون، فوسموا ملوكهم مذ ذاك بالمسلمانى.

ومن أعمال غانة المنضافة إليها بلد يسمى سامة[1] ويعرف أهله بالبكم، وبينه وبين غانة مسيرة أربعة أيام، وهم يمشون عراة إلا أن المرأة تستر فرجها بسيور تضفرها، وهن يوفرن شعر العانة ويحلقن شعر الرأس.

وحدث أبو عبد الله المكّى أنه رأى منهن امرأة وقفت على رجل من العرب طويل اللحية، فتكلمت بكلام لم يفهمه، فسأل الترجمان عن مقالتها فذكر أنها تمنت أن يكون شعر لحيته فى عانتها، فامتلأ العربى غضبا وأوسعها سبا.

والبكم لهم حذق بالرماية وهم يرمون بالسهام المسمومة، ويورثون الابن الأكبر مال الأب كله.

وبغربى مدينة غانة مدينة أنبارة[2]، وملكها اسمه تارم وهو معاند لملك غانة.

وعلى تسع مراحل من مدينة أنبارة مدينة كوغة وبينها وبين غانة مسيرة خمس عشرة مرحلة، وأهلها مسلمون وحواليها المشركون.

وأكثر ما يتجهز إليها بالملح والودع والنحاس والغربيون، والودع والغربيون أنفق شىء عندهم، وحواليها من معادن التبر كثير، وهى أكبر بلاد السودان ذهبا.

وهناك مدينة ألكن وملكها يسمى قنمر بن بسى ويقال إنه مسلم يخفى إسلامه.

وببلاد غانة قوم يسمون بالهنيهين من ذرية الجيش الذى كان بنو أمية أنفذوه إلى غانة فى صدر الإسلام، وهم على دين أهل غانة إلا أنهم لا ينكحون فى السودان ولا ينكحونهم، فهم بيض الألوان حسان الوجه.

وبسلى أيضا قوم منهم يعرفون بالفامان.

وببلاد غانة حكم الماء، وذلك أنه من ادعى عليه بمال أو دم أو غير ذلك عمد أمينهم إلى عود فيه حرافة ومرارة ورقة، وصب عليه من الماء قدرًا معلومًا وسقاه

(١) انظر فى سامة: الروض المعطار ٢٩٩.

(٢) أنبارة: بلد بقرب غانة من بلاد السودان، ملكها معاند لأهل غانة، وهى مدينة كبيرة، ولأهلها بأسٌ شديدٌ فى الحروب وبينها وبين مدينة كوغة تسعة أيام. الروض المعطار ٣٧.

المدعى عليه، فإن رماه من جوفه علم أنه برىء وهنئ بذلك، وإن لم يرمه وبقى فى جوفه صحت الدعوى عليه.

ومن الغرائب ببلاد السودان شجرة طويلة الساق دقيقة تسمى تورزى تنبت فى الرمال ولها ثمر كبير منتفخ داخله صوف أبيض تصنع منه الثياب والأكسية ولا تؤثر النار فيما صنع من ذلك الصوف من الثياب لو أوقدت عليه الدهر كله لم يحترق.

وأخبر الفقيه عبد الملك أن أهل اللامس بلدة هناك ليس لهم لبس إلا من هذا الثمر.

ومن هذا الجنس حجارة بوادى درعة تسمى بالبربرية تامطغست تحك باليد فتلين إلى أن تأتى فى قوام الكتان فتصنع منها الأمرة والقيود للدواب، فلا تؤثر النار فى شىء من ذلك.

وقد صنع منها كساء لبعض ملوك زناتة بسجلماسة، وأخبرنى الثقة أنه شاهد تاجرا قد جلب منه منديلا إلى فردلند صاحب الجلالقة وذكر أنه منديل لبعض الحواريين وأن النار لا تؤثر فيه، وأراه ذلك عيانا فعظم موقعه من فردلند وبذل له فيه غناه، وبعث به فردلند إلى صاحب قسطنطينية ليوضع فى كنيستهم العظمى، فعند ذلك بعث إليه صاحب قسطنطينية التاج وأمره بالتتويج.

وقد حدث جماعة أنهم رأوا منه هداب منديل عند أبى فضل البغدادى تحمى عليه النار فيزداد بياضا ويكون له النار غسلا، وهو كثوب الكتان.

وإذا سرت من غانة تريد مطلع الشمس فإنك تسير فى طريق معمورة بالسودان إلى موضع يقال له أوغام يحرثون الذرة وهو عيشهم، ثم تسير من هناك أربعة أيام إلى موضع يقال له رأس الماء، وهناك تلقى النيل خارجا من بلاد السودان، وعليه قبائل من البربر مسلمين يسمون مداسة، وبإزائهم من الشط الثانى مشركو السودان.

ثم تسير من هناك ست مراحل على النيل إلى مدينة تيرقى، ويجتمع فى سوق هذه المدينة أهل غانة وأهل تاد مكة.

وتعظم السلاحف بتيرقى[1] وتتخذ فى الأرض أسرابا يمشى فيها الإنسان ولا يطيقون استخراج واحدة منها إلا بعد شد الحبال فيها واجتماع العدد الكثير عليها.

وأخبرنى الفقيه أبو محمد عبد الملك بن نخاس الغرفة أن قومًا عرسوا فى طريق تيرقى، والأرضة هناك تأتى على ما تجده وتفسد ما وصلت إليه وتخرج من التراب أكواما كالروابى، ومن الغرائب أن ذلك التراب ثرند، والماء هناك غير موجود على أبعد حفر.

فلا توضع الأمتعة إلا على الحجارة المجموعة أو الخشب الموضوعة.

فارتاد كل واحد من القوم لمتاعه حرزا من الأرضة، وبدر أحدهم فيما ظن إلى صخرة كبيرة فأنزل عليها وقر بعيرين كانا معه، فلما هب من نومه سحرا لم يجد الصخرة ولا ما كان عليها، فارتاع ونادى بالويل والحرب.

فاجتمعوا إليه يسألونه عن خطبه فأخبرهم فقالوا: «لو طرقك لصوص لأخذوا المتاع وبقيت الصخرة».

فنظروا فإذا أثر سلحفاة ذاهبة من الموضع، فاقتفوه أميالا حتى أدركوها وحمل المتاع على ظهرها، وهى التى حسبها صخرة.

ومن تيرقى[2] يرجع النيل نحو الجنوب فى بلاد السودان، فتسير على نحو ثلاث مراحل فتدخل بلاد سغمارة، وهم قبيل من البربر فى عمل تادمكة، ويحازيهم من الشطة الثانى مدينة كوكو للسودان ـ وسيأتى ذكرها وما والاها إن شاء الله ـ.

* * *

(١) انظر: نزهة المشتاق ١/ ٢٥ـ٢٦.

(٢) تيركى: من عمل غانة فى بلاد السودان، وهى مدينة عظيمة، لها أسواق حافلة يجتمع فيها أمم كثيرة من بلاد متفرّقة من بلد غانة ومن تادمكه. الاستبصار ١٢٢ والروض المعطار ١٤٥.

الطريق من غانة إلى تاد مكة[1]

فأما الجادة من غانة إلى تاد مكة وبينهما مسيرة خمسين يوما، فمن غانة إلى سفنقو ثلاث مراحل، وهى على النيل وهى آخر عمل غانة إلى تاد مكة، وبينهما مسيرة عشرين يوما.

ثم تصحب النيل إلى بوغرات فيه قبيل من صنهاجة يعرفون بمداسة.

وأخبر الفقيه أبو محمد عبد الملك أنه رأى فى بوغرات طائرا يشبه الخطاف يفهم من صوته كل سامع إفهاما لا يشوبه لبس: «قتل الحسين قتل الحسين» يكرر مرارا، ثم يقول «بكربلا» مرة واحدة.

قال عبد الملك: «سمعته أنا ومن حضر من المسلمين معى».

ومن بوغرات إلى تيرقى، ثم تسير منها فى الصحراء إلى تاد مكة، وتاد مكة أشبه بلاد الدنيا بمكة ـ شرفها الله وزادها تشريفا وتعظيما ـ .

ومعنى تاد: عندهم هيئة إذ أنها على هيئة مكة، وهى مدينة كبيرة بين جبال وشعاب، وهى أحسن بناء من مدينة غانة ومدينة كوكو.

وأهل تاد مكة بربر مسلمون وهم يتنقبون كما يتنقب بربر الصحراء، وعيشهم من اللحم واللبن ومن حب تنبته الأرض من غير اعتمال، ويجلب إليهم الذرة وسائر الحبوب من بلاد السودان، ويلبسون الثياب المصبغة بالحمرة من القطن والنولى وغير ذلك، وملكهم يلبس عمامة حمراء وقميصا أصفر وسراويل زرقاء.

ودنانيرهم تسمى الصلع لأنها ذهب محض غير مختومة[2].

ونساؤهم فائقات الجمال لا تعدل بهن أهل بلد حسنا، والزنا عندهم مباح، وهن يبادرن التجار أيهن تحمله إلى منزلها.

* * *

(١) انظر فى تادمكه: الاستبصار ١٨٦ والروض المعطار ١٨٦.

(٢) الروض المعطار ١٢٨.

الطريق من تادمكة إلى القيروان

فإن أردت من تادمكة إلى القيروان فإنك تسير فى الصحراء خمسين يومًا إلى وارجلان، وهى سبعة حصون للبربر أكبرها يسمى أغرم أن يكامن، أى: حصن العهود.

ومنها إلى مدينة قسطيلية أربعة عشر يوما، ومن قسطيلية إلى القيروان سبعة أيام على ما تقدم، وبين وارجلان وقلعة أبى طويل مسيرة ثلاثة عشر يوما.

* * *

الطريق من تاد مكة إلى غدامس

ومن تادمكة إلى غدامس أربعون مرحلة فى الصحراء، والماء فيها على مسيرة اليومين والثلاثة أحساء.

وغدامس مدينة لطيفة كثيرة النخل والمياه وأهلها بربر مسلمون[1]، وبِغُدَامس دواميس كانت سجنا للكاهنة التى كانت بإفريقية.

وأكثر طعام أهل غدامس التمر، والكمأة تعظم عندهم حتى تتخذ فيها الأرانب جحره.

وبين غدامس وجبل نفوسة سبعة أيام فى الصحراء، وبين نفوسة ومدينة أطرابلس ثلاثة أيام ـ على ما تقدم ـ .

وطريق آخر من تاد مكة إلى غدامس؛ تسير من تاد مكة ستة أيام فى عمارة سغمارة، ثم فى مجابة أربعة أيام إلى الماء، ثم فى مجابة ثانية أربعة أيام، وفى هذه المجابة الثانية معدن بحجارة تسمى تاسى النسمت، وهى حجارة تشبه العقيق وربما كان فى الحجر الواحد ألوان من الحمرة والصفرة والبياض وربما وجد فيها فى النادر الحجر الجليل الكبير، فإذا وصل به إلى أهل غانة غالوا فيه وبذلوا فيه

(١) انظر من غُدَامس: آثار البلاد ٥٧.

الرقائق، وهو أجل عندهم من كل علق يقتنى، وهو يجلى ويثقب بحجر آخر يسمى تنتواس، كما يجلى الياقوت ويثقب بالسنباذج، لا يعمل فيه الحديد شيئا إلا بالتنتواس ولا يوصل إليه، ولا يعلم موضعه حتى ينحر الإبل على معدنه وينضج دمه، فحينئذٍ يظهر ويلقط.

وفى بونو معدن للتاسى أنسنت أيضا، ومعدن هذه المجابة أفضل.

وتسير من هذه المجابة الثانية إلى مجابة ثالثة وفى هذه المجابة معدن الشب ومنه يحمل إلى البلاد.

وتسير من هذه المجابة إلى مجابة رابعة أحد عشر يومًا فى رمال جدد لا ماء فيها ولا نبت، يتزود الرفاق الماء والحطب فيها كما يتزود الطعام والعلف، وعلى يسار السائر فى هذه المجابة جبلِ الرمل الأحمر الذى يتصل بسجلماسة، وهو الذى يكون فيه الفنك والثعلب الدَّهِى، وهو آخر حد إفريقية.

وإذا صار السائر من بلاد كوكو على شاطئ البحر غربا انتهى إلى مملكة يقال لها الدمدم يأكلون من وقع إليهم، ولهم ملك كبير وملوك تحت يده، وفى بلدهم قلعة عظيمة عليها صنم فى صورة امرأة يتألهون له ويحجونه.

وبين تاد مكة ومدينة كَوْكَو[1] تسع مراحل، والعرب تسمى أهلها البزركانيين. وهى مدينتان مدينة للملك ومدينة للمسلمين، وملكهم يسمى قندا.

وزيهم كزى السودان من الملاحف وثياب الجلود وغير ذلك بقدر جدة الإنسان منهم، وهم يعبدون الدكاكير كما يفعل السودان.

ويضرب بجلوس الملك الطبل وترقص النساء السودانيات بالشعور الجثلة المسترسلة، ولا يتصرف أحد منهم فى مدينته حتى يفرغ من طعامه ويقذف باقيه فى النيل، فيجلبون عند ذلك ويصيحون فيعلم الناس أنه قد فرغ من طعامه.

وإذا ولى منهم ملك دفع إليه خاتم وسيف ومصحف يزعمون أن أمير المؤمنين بعث بذلك إليهم.

---

(١) كَوْكَو: مدينة كبيرة على النيل، من أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصبها، فيها الأرز الكثير واللبن والدجاج والسمك وتعامل أهلها فى البيع والشراء بالورع. رحلة ابن بطوطة ٧٠٢ ونزهة المشتاق ١/٢٨.

وملكهم مسلم لا يملكون غير المسلمين، ويزعمون أنهم إنما سموا كوكو لأن الذى يفهم من نغمة طبلهم ذاك، وكذلك أزور وهيرزويلة يفهم من نغمة طبلهم زويلة زويلة.

وتجارة أهل بلد كوكو بالملح وهو نقدهم، والملح يحمل من بلاد البربر يقال لها توتك من معادن تحت الأرض إلى تاد مكة، ومن تادمكة إلى كوكو، وبين توتك وتادمكة ست مراحل.

* * *

ذكر نبذ من سير البربر وسياساتهم سوى ما وقع منها مفترقًا فى موضعه من هذا الكتاب

ذكروا أن رجلاً شيخًا خرج مع امرأته وكانت شابة يريد قلعة حماد فصحبه فى بعض الطريق فتى شاب كلف بتلك المرأة وكلفت به، فتواطيا على أن يدعى كل واحد منهما زوجية الآخر ويسقطا الشيخ.

فلما وصلا إلى القلعة شكا ذلك الشيخ إلى حماد ما دهمه من أمرهما ووصف له حاله معهما، فوقف حماد الشاب والمرأة فتقارا على نكاحهما وأنكرا ما يدّعيه الشيخ.

فجعل حماد يباحث الشيخ: هل صحبهم فى طريقهم أحد، وهل له شبهة؟ فقال: «ما صحبنا فى طرقنا أحد غير هذا الكلب»، فاندلى لكلب كان معه.

فأمر الشيخ بربط الكلب إلى شجرة أو وتد كان هناك، ثم أمر المرأة بحله، فذهبت إليه فأرسلته، ثم أمرها بربطه، والكلب لا ينكر شيئًا من ذلك، ثم قال للشاب: «قم فأرسل الكلب، ثم اربطه»، فلما هم بذلك نبحه الكلب وأنكره، فقال للمرأة: «هذا زوجك الشيخ، وهذا الفاسق يخلفك عليه» وأمر بضرب عنقه.

وذكر أن رجلاً كان له امرأتان وكان كلفًا بآخرتهما نكاحًا. فقالت له الأولى: «إن هذه التى تكلف بها تخونك وإنها تفجر مع غلام لها» فاستعمل الركوب

والسقوط عن الدابة وسيق إلى منزل امرأته الأخيرة محمولاً لا يقلب عضوًا بزعمه، فاجتمع أهله ونساؤه إليه يمرضونه ويلطفونه إلى أن مضى هزيع من الليل، فعزم عليهم وصرفهم إلى منازلهم، وبقى مع امرأته واستعمل النوم والتثاقل حتى كأنه مغمًى عليه.

فرأى امرأته قد خرجت عنه إلى البيت الذى كان فيه المتهم بها، فجمع حسه وسار عند باب البيت يستمع، فسمعه يقول لها «أبطأت على وتركتنى بلا عشاء» فقالت: «حبسنى عنك شغلى بهذا الرجل، فلا تلومنى فأنت للنفس وهو للولد»، فصمت على ما سمع وتغافل عنه ورجع إلى مضجعه، فما كان إلا ضحى الغد حتى تنادى حى ذلك الموضع: وَا صُبْحَاهُ، فثاروا إلى العدو، ورأى هذا الساقط التحامل على نفسه والأنفة من تخلفه، فلبس سلاحه وركب فرسه وحمل ذلك المتهم فيمن حمل من أتباعه معه السلاح، فلما برزوا إلى عدوهم أمر ذلك المتهم بالتقدم بين يديه، فلم يجد إلى الحيدة سبيلاً.

فلما خالط به العدو وكلل عنه مبدرا، فكان أول صريع، ولم يعلم أحد شيئا من أمرهما، ثم انصرف إلى منزله فحمدت امرأته الله على سلامته، فقال لها «لكن الذى للنفس لم يسلم، فإنى إنما للولد»، فعلمت أنه قد سمع مقالتها فقالت: «أرسلنى إلى أهلى» فقال: «اذهبى»، فلما أبطأت عليه أتى أهلها فقال: «ما بال امرأتى لا تعود إلى منزلها؟»، فقالوا له: «إنا لا نقدر على صرفها» فقال: «وأنا لا أقدر على فراقها»، فلج بهم الأمر حتى افتدت منه بجميع ما حمل إليها فى صداقها وما تكلف لها عند إملاكها، فلما قبض ذلك ووصل إليه قال لهم: «أما إذا وصلت إلى حقى فإنى الشأن كيت وكيت»، وأخبرهم بالقصة، فكرروها أهلها واستبانوا الريبة فيها، فقتلوها، فبلغ بسياسته إلى التشفى منها بغير يده وتخلص من عشيرته وعشيرة امرأته واسترجع جميع حقه.

وشبيه بهذا عن بعض كبرائهم أيضا أنه اتهم امرأته وأخبر أنه إذا غاب خالفه رجل من أهل ناحيتهم إلى امرأته، فاستعمل سفرا بعيدا وذكر ذلك لقبيله، فتجهز نفر معه لذلك، فلما ساروا وانتهوا إلى أدنى مرحلة اعتذر لهم بعذر يضطره إلى الانصراف، وعزم عليهم فى النفوذ لطيتهم، فكر راجعا حتى أتى بعض الشعاب

مساءًا، فأخفى فيه فرسه وسلاحه وأتى أهله مستترا متجسسا، فتسلق جدارا أو مكانا يطلع منه على منزله آمنا أن يعلم به منه، فرأى امرأته على ما يكره مع ذلك الرجل المتهم، فولى راجعا إلى الشعب ولبس سلاحه وركب فرسه وأتى المنزل، فلما علم به أهله ارتاعوا وأخفوا ذلك الفاجر فى بيت من الدار، ودخل رب المنزل غير مكترث، واعتذر فى رجوعه بعذر قبلته امرأته وجعلت تحاول له طعاما، فلما كمل قربته إليه، فقال: «أحضرى ضيفك»، قالت: «وهل لى من ضيف؟» قال: «نعم هو ذاك فى الكذا»، فناكرته فقام إليه واستخرجه وقال: «هلم إلى طعامنا» فقال له: «مالى إلى الأكل من حاجة وإنى إلى الموت أحوج لما نالنى من هذه الفضيحة» قال: «لا بأس عليك فقد افتتن من هو خير منك» ولم يزل به حتى طعم. ثم أرسله عن منزله مستترا مسلما لم ير به ريب، ثم أقبل على امرأته فقال: «لا تعيى مما جرى لك فإن النساء قد يذللن ويملن بهواهن، والمعصوم من الناس قليل وعندى من الستر لأمرك والطى لخبرك ما يسرك، وقد علمت أنه لم يحملك على ما صنعتِ إلا هوى غلب عليك غيه، وأنا تارك بينك وبين هذا الذى أحببته تنكحينه وتتشفين منه جهارا من غير ريبة، على أن تشترطى لى شرطا وتعقدى على نفسك عقدا تلتزمينه»، فأجابته إلى ذلك، وقالت: «ما شرطك»؟، قال: «إنك إذا أكملت عنده عاما أن ترسلى إلى فأمر بك وهو حاضر، فتخرجين إلى متزينة فى ثياب تشف وتتكلمين معى فى أمره وتتشكين سوء عشرته، فتستعمله الغيرة على طلاقك، فأعود إلى حالى معك بعد أن تقضى حاجة نفسك وترتفع عنى الريب فى أمرك باختيارك لى على هذا الذى قد مال بك»، وقد علم سوء خلق صاحبه وتهافته إلى الشر وقلة ملكه لنفسه، فعاقدته على ذلك.

ثم أرسل لأبيها وأهل بيتها فصنع لهم طعاما فأطعمهم، ثم قال: «سلوا وليتكم كيف كانت صحبتى لها ومعاشرتى إياها» فسألوها فأثنت خيرًا ووصفت مجاملة وبرًا، فقال: «اسألوها ما بالها أتريد المقام عندى» فسألوها فقالت: «إنى أكرهه وأبغض قربه وأحب بعده ولا أجد من نفسى معينا على غير ذلك، وقد جاهدتها على الاستمرار فى صحبته، فعزفت بى عن ذلك عزوفا لا رجعة معه، فلا تتركونى معه فإن ذلك يقتادنى إلى الحِمَام، ويفضى بى إلى أنواع السقام، وقد

تبرأت إليه من جميع حقه» والزوج فى ذلك كله يظهر الرغبة فيها والإشفاق من مفارقتها، فما انفض جمعهم حتى ملكت أمرها ورجَّعوا على زوجها ما صيَّر إليها من حقها وشكروه على بره بها وولَّوها الملامة فى جميع أمرها، فلما حلت للأزواج كان الغادر بها أول خاطب لها، فتزوجته ومكثت معه حولا وهى تستبطئ مرور الحول لما خبرته من فضل الأول على هذا، فلما انقضى بعثت إلى الأول على ما عاقدته معه، فخرج مارا على منزلها فتلقته فى قميص يصفها وينم بجسمها، تشكو زوجها وهو قاعد مع جماعتها، فلما رأى ذلك لم يتمالك غيرة أن قام إليها وطعنها طعنة كانت فيها نفسها، فعمد إليه أهلها وإخوتها فقتلوه واختلف الفريقان وزحف بعضهم إلى بعض، فكادت الحرب تفنيهم، وتم للزوج الأول المراد فيهما ولم يرزأ فى نفسه ولا فى ماله بمقدار قلامة.

وحدثوا أن حمادا قال: «ما تداهى أحد قط على ولا خدعنى إلا امرأة وكْعاء من البربر»، قيل له: «كيف كان ذلك؟»، قال: «نعم إن صاحبا كان لى بالقيروان نشأ معى نشأة واحدة لم يفرق بيننا مكتب ولا مشهد، وكنت قد خلطته بنفسى وجعلته محل أنسى، فلم يزل على ذلك حتى صرت إلى ما أنا فيه ففقدته، فجعلت أفتقده فلا أقدر عليه ولا أجد سببا للوصول إليه، فلما أن عتبت على أهل باغاية وشننت عليها الغارات لم أنشب صبيحة ذلك اليوم أن سمعت مناديا ينادى: يالله يا للأمير»، فقلت: «ما بالك ومن أنت؟» فقال: «أنا فلان بن فلان»، فإذا به صاحبى المطلوب قد حبسه عنى نسكنه وغلب علىَّ هواه ورع لملكه، فأظهرت البشر بمكانه والجذل بشأنه، ولو شفع فى جميع باغاية لشفعته، فجعلت ألطفه وأؤنسه وهو كالولهان، فسألته عن أمره فقال: «إنه فقد بنته فيمن فقد من النساء» فقلت له: «والله لو خرجت إلىَّ بالأمس لحقنت دماء أهل بلدك لحُرمتك عندى»، فقال: «القدر غالب والمحروم خائب».

قال حماد: «ثم أمرت القواد فأحضروا جميع ما كان فى جيوشهم من النساء، فعرف فيهن بنته، فقال: «فأمرت بسيرها وحملها مع أبيها»، فرفعت صوتها قائلة: «لا والله يا حماد، لا رجعت مع أبى ولا رجعت مع الذى غصبنى»، قلت: «وما تريدين ويلك؟» قالت: «إنى لا أصلح إلا للملوك فلا حاجة لى فى السوقة»،

فلما سمع ذلك أبوها سكن ما كان فى نفسه وظن أنها قد فشت وفسدت عليه، قال حماد: «قلت لها: ومن أين لا تصلح إلا للملوك؟» قالت: «لأن عندى علمًا لا أشارك فيه ولا يدعيه غيرى» قلت: «ألا أريتنا شيئًا من ذلك»، فقالت: «نعم، تأمر بقتل إنسان، تحضر أمضى سيف أتكلم عليه بكلمات تمنع من تأثيره ويعود بيد حامله أكل من قائمه» قال حماد: «فقلت: الذى يجرب هذه فيه لمغرور»، قالت: «أويتهم أحد أن يريد قتل نفسه»، قلت: «لا»، قالت: «فإنى أريد أن يجرب ذلك فى»، فتكلمت على سيف اختاره، ومدت عنقها، فضربها السياف ضربة أبان رأسها.

فاستيقظت من غفلتى وعلمت أنها تداهت علىَّ وكرهت العيش بعد الذى جرى لها وعليها، واستبان لأبيها من ذلك مثل الذى بان لى، فجعل يلقى بنفسه عليها ويتمرغ فى دمها أسفا لما حل به فيها، واغتباطا بها لما رأى من عظم أنفتها واختيارها الموت على ما نزل بها.

وبنو وارسفيان قبيل من البربر إذا أرادوا مباشرة الحرب تقربوا بذبح بقرة سوداء للشماريخ ـ وهم عندهم الشياطين ـ ويقولون: «هذا ذبح للشماريخ»، ويفتحون أوعيتهم فى تلك الليلة من الطعام والعلف فلا يكون له وكاء ولا سداد، ويقولون: «هذا طعام أو علف للشماريخ».

فإذا غدوا للقتال توقفوا حتى يروا زوابع الريح فيقولون: «قد جاءت الشماريخ أولياؤكم لتقيكم»، فيحملون عند ذلك فينتصرون بزعمهم، ويقولون: «إن ذلك لا يخطئهم وجماعتهم يعتقد ذلك غير مستترين به».

وهم إذا أضافوا الضيف جعلوا من طعامه للشماريخ ويزعمون أنه يأكلونه الذى يوضع لهم، وينهون عن ذكر اسم الله عند شىء من ذلك[1].

* * *

---

(١) إلى هنا تنتهى نسخة كتاب المغرب فى ذكر إفريقيا والمغرب.

ذكر بلاد الأندلس[١] وخواصها والمشهور من مدنها

ذكر أن اسمها فى القديم إبارية من وادى أبرة، ثم سميت بعد ذلك باطقة من وادى بيطى، وهو نهر قرطبة، ثم سميت إشباينة من أجل رجل ملكها فى القديم كان اسمه إشبان.

وقيل إنما سميت بالإشبان لأن الأشبان سكنوها فى أول الزمان على جرية النهر وما والاه، وقال قوم إن اسمها على الحقيقة إشبارية مسماة من بشيرى، وهو الكوكب المعروف بالأحمر. وسميت بعد ذلك بالأندلس من أسماء الأندليش[٢] الذين سكنوها على ما يأتى ذكره.

وحدَّث الأوائل عن الأندلس بعبارات مختلفة، وحدَّها قسطنطين حدودا ستة جعل الجزء الأول من حدودها من مدينة نربونة[٣]، وهو حد ما بين غاليش[٤] وبين الأندلس وأضاف إليها سبع مدن بما حواليها وهى بطرش[٥] وطليوشة ومقلونة ونومشو وقرقشونة.

وفى قرقشونة هذه الكنيسة العظمى عندهم تسمى شنت مرية غراثية فيها سبع سوار من فضة، ولها يوم عيد يرده العجم من الآفاق، وبينها وبين برشلونة مسيرة خمسة وعشرين يومًا.

وجعل الجزء الثانى من مدينة براقرة وهو حوز جليقة وشلطيانة وهو بلد ابن غومس، فجعل لها اثنتى عشرة مدينة بما حواليها، منها مدينة برطقال ومدينة توذى ومدينة أَوْرَبَة[٦] ومدينة لكه ومدينة برطانية ومدينة أشتيرقية ومدينة شنتاياقو، وفيها

---

(١) انظر فيها: صورة الأرض ١٠٤ـ١١٢ والروض المعطار ٣٢ـ٣٥.

(٢) الروض المعطار ٣٢.

(٣) انظر: الروض المعطار ٣٣و١٢٤.

(٤) انظر: الروض المعطار ٩٠.

(٥) انظر: الروض المعطار ١٦٩.

(٦) أَوْرَبَة: مدينة بالأندلس، وهى قصبة كورة جيَّان، وقيل من قرى دانية بالأندلس. مراصد الاطلاع ١/ ١٣٠.

كنيسة الذهب ولها يوم يرد فيه من إفرنجة ومن رومة ومن جميع نواحيهم كلها، ومدينة إبرية ومدينة بطقة ومدينة شارة.

وجعل الجزء الثالث من مدينة طركونة[١] وأضاف إليها مدينة سرقسطة[٢] وأشقة[٣] ولاردة[٤] وطرطوشة[٥] وتطيلة[٦] وأعمال بلد شانجو كلها وبلد بلياسن وبرشلونة[٧] وجرندة.

ومدينة أنبوريش، ومدينة بنبلونة[٨]، ومدينة أوقة[٩] ومدينة قلهرة ومدينة طرسونة[١٠]، ومدينة أماية.

وجعل الجزء الرابع: عشرين مدينة، قاعدتها مدينة طُلَيْطُلة[١١] وأضاف إليها

(١) طركونة: بالأندلس، مدينة أزلية، قاعدة من قواعد العمالقة، وجعلها قسطنين فى القسم الثالث من الأندلس، وأضاف إليها مدن ذلك القسم. الروض المعطار ٣٩٢.
(٢) انظر: الروض المعطار ٣١٧.
(٣) الروض المعطار ٣١٧.
(٤) الروض المعطار ٥١٨.
(٥) الروض المعطار ٣٩١.
(٦) الروض المعطار ٣١٣.
(٧) الروض المعطار ٨٦.
(٨) بنبلونة: مدينة بالأندلس، بينها وبين سَرَقُسْطة مائة وخمسة وعشرون ميلاً، بها كانت مملكة غرسية بن شانجة سنة ثلاثين وثلاثمائة، وهى بين جبال شامخة وشعاب غامضة قليلة الخيرات، أهلها فقراء جاعة لصوص وأكثرهم متكلمون بالبشقية (لغة الباسك) لا يفهمون، وخيلهم أصلب الدواب حافرًا لخشونة بلادهم ويسكنون على البحر المحيط فى الجوف. الروض المعطار ١٠٤.
(٩) انظر: الروض المعطار ٤٩٣.
(١٠) طَرَسُونة: بالأندلس كانت مستقر العمَّال والقُوَّاد بالثغر، وكان أبو عثمان عُبَيد الله بن عثمان [وال أموى أيام عبد الرحمن الداخل] المعروف بصاحب الأرض اختارها محلاً وآثرها منزلاً، وكانت ترد عليه عشور مدينة أربونة وبرشلونة. ثم عادت طرسونة من بنات تطيلة عند تكاثر الناس بتطيلة وإيثارهم لها، لفضل بقعتها واتساع خطتها، وبينهما اثنا عشر ميلاً. الروض المعطار ٣٨٩ ومعجم البلدان (طرسونة) ٣/ ٢٥٧.
(١١) طُلَيْطلة: بالأندلس، بينها وبين البرج المعروف بوادى الحجارة خمسة وستون ميلاً، وهى مركز لجميع بلاد الأندلس؛ لأن منها إلى قرطبة تسع مراحل، ومنها إلى بلنسبه تسع مراحل أيضًا، ومنها إلى المرية فى البحر الشامى تسع مراحل أيضًا.
للمزيد راجع: الروض المعطار ٢٩٣-٢٩٤ ومعجم البلدان (طُلَيْطُلة) ٣/ ٢٦٥.

مدينة أوريكا[١] ومدينة شقوبية[٢] ومدينة أركبيقة ومدينة وادى الحجارة ومدينة شقونة ومدينة أكشومة[٣] ومدينة بلنسية[٤] ومدينة بلازية ومدينة أوْرِيُولة[٥]، ومدينة آلش[٦] ومدينة شاطبة[٧] ومدينة دانية[٨] ومدينة بياسة ومدينة قسطلونة ومدينة منتشية ومدينة وادى آشى[٩] ومدينة بسطة[١٠]، ومدينة أرس، وهى بجانة.

وجعل الجزء الخامس قاعدته مدينة ماردة[١١]، وأضاف إليها اثنتى عشرة مدينة، وهى: باجة، ومدينة أكشونية[١٢] ومدينة صيوتلة[١٣]، ومدينة يابرة، وشِنْتَرَة[١٤]،

---

(١) راجع: الروض المعطار ٦٦ ومراصد الاطلاع ١/ ١٣١.

(٢) انظر: الروض المعطار ٣٠٠.

(٣) انظر: الروض المعطار ٩٧.

(٤) بَلَنْسية: كورة ومدينة مشهورة بالأندلس، مُتَّصِلة بِحَوْزَة: كورة تُدْمير، وهى شرقى قرطبة، بَرِّية بحرية، وتعرف بمدينة التراب مراصد الاطلاع ١/ ٢٢٠ والروض المعطار ٩٧.

(٥) أوْرِيُوله: مدينة قديمة بالأندلس، بساتينها مُتَّصِلَة ببساتين مُرْسية. مراصد الاطلاع ١/ ١٣١ والروض المعطار ١٧.

(٦) انظر: الروض المعطار ٢٨٣.

(٧) شاطبة: بالأندلس، مدينة جليلة متقنة البناء، حصينة كلها قصبتان ممتنعتان، وهى قريبة من جزيرة شُقْر، ويُعمل بها كاغد لا نظير له بمعمورة الأرض، يعمّ المشرق والمغرب. آثار البلاد ٥٣٩ والروض المعطار ٣٣٧.

(٨) راجع: الروض المعطار ٣٣١.

(٩) راجع: الروض المعطار ٦٠٤.

(١٠) بسطة: مدينة بالأندلس، من أعمال جيَّان مراصد الاطلاع ١/ ١٩٧.

(١١) ماردة: مدينة بجوفى قرطبة منحرفة إلى المغرب قليلاً، وكانت مدينة ينزلها الملوك الأوائل، فكثرت بها آثارهم، والمياه المستجلبة إليها الروض المعطار ٥١٨-٥١٩.

(١٢) أكْشُونية: مدينة بالأندلس يتَّصل عملها بعمل أشْبُونة، غربىّ قرطبة، وهى كثيرة الخيرات، بَرِّية بحريّة، قد يُلْقى بحرها على ساحلها العنبر الفائق الذى لا يقصر عن الهندى. مراصد الاطلاع ١/ ١٠٨ والروض المعطار ٣٤٧.

(١٣) انظر: الروض المعطار ٣٧٣.

(١٤) شِنْتَرة: من مدائن الأشبونة بالأندلس، على مقربة من البحر، ويغشاها ضباب دائم لا ينقطع، وهى صحيحة الهواء، تطول أعمار أهلها، ولها حصنان فى غاية المنعة، وبينها وبين البحر قدر ميل، وهى أكثر البلاد تفاحًا، وكذلك الكمثرى، وبجبل شِنْتَرة ينبت البنفسج بطبعه، ويخرج من شِنْترة عنبر جيِّد. آثار البلاد ٥٤٢ والروض المعطار ٣٤٧.

وشَنْتَرين[١] والأُشْبُونَة[٢]، وقلنيرية[٣]، وقورية[٤]، وشلمنقة، وصمورة، وهى محدثة برا إلى شنت ياقوب[٥].

وجعل الجزء السادس قاعدته مدينة إشبيلية[٦]، وأضاف إليها لَبْلَة[٧]، وقرطبة[٨] وقرمونة[٩] وموردن ومدينة مَرْشانة[١٠] والجزيرة وتاكرنا[١١]، ورية، وأشبونة[١٢]،

---

(١) شَنْتَرين: بالأندلس مدينة معدودة فى كورباجة، وهى مدينة على جبل عال كثير العلو جدًا، ولها من جهة القبلة حافّة عظيمة، ولا سور لها وبأسفلها رَبَضٌ على طول النهر. وشرب أهلها من العيون ومن ماء النهر ولها بساتين كثيرة وفواكه ومباقل، وبينها وبين بطليوس أربع مراحل. آثار البلاد ٥٤٢ والروض المعطار ٣٤٦.

(٢) أُشْبُونَة: مدينة بالأندلس، تتَّصل بِشَنْتَرين، قريبة من البحر المحيط قيل على مصبت نهر شَنْترين إلى البحر. مراصد الاطلاع ١/ ٨٠.

(٣) انظر: الروض المعطار ٤٧١.

(٤) قورية: بالأندلس. قريبة من ماردة، بينها وبين قنطرة السيف مرحلتان.
ولها سورٌ منيع، وهى أوَّلية البناء واسعة الفِناء، من أحصن المعاقل وأحسن الفواكه، ولها بوادٍ شريفة خصيبة، وضياع طَيِّبة وأصناف من الفواكه كثيرة، وأكثرها العنب والتين. الروض المعطار ٤٨٥.

(٥) الروض المعطار ٣٤٨.

(٦) إشْبيلية: مدينة كبيرة عظيمة، ليس بالأندلس أعظم منها، دار الملك بالأندلس، غربى قرطبة، وبينهما ثلاثون فرسخًا، وهى قريبة من البحر، يُطِلُّ عليها جبل الشرف، وهو جبل كثير الشجر. مراصد الاطلاع ١/ ٨٠ والروض المعطار ٥٨-٥٩.

(٧) لَبْلَة: فى غرب الأندلس، مدينة قديمة بها ثلاث عيون إحداها عين تهشر وهى أغزرها، والثانية عين تنبعث بالشبّ، والثالثة عين تنبعث بالزاج وتعرف لَبْلَة بالحمراء، وفيها آثار للأوَّل كثيرة. الروض المعطار ٥٠٧.

(٨) الروض المعطار ٤٥٦ ويأتى الحديث عنها لاحقًا.

(٩) قرمُونة: مدينة بالأندلس فى الشرق من إشبيلية، وبينها وبين استجة خمسة وأربعون ميلاً، وهى مدينة كبيرة قديمة، وهى باللسان اللطيتى: كار مويه معناه «صديقى». الروض المعطار ٤٦١.

(١٠) مَرْشانَة: مدينة بكورة إشبيلية، ومرشانة أيضًا من حصون المرية. الروض المعطار ٥٤٢.

(١١) تاكَرُنَى: كورة كبيرة بالأندلس، ذات جبال حصينة، يخرج منها عدة أنهار. مراصد الاطلاع ١/ ٢٤٩ وانظر: الروض المعطار ١٢٩.

(١٢) سبق التعريف بها وانظر: مراصد الاطلاع ١/ ٨٠.

وإِسْتِجَة[١]، وقَبْرة[٢] وأعمالها إلى بجانة، وإلبيرة[٣]، وجيّان[٤]، ومنتيشة وبيرة[٥] وأرجونة[٦]، وملكونة، وأبدة[٧]، وبياسة.

وبلد الأندلس مثلث الشكل، فالركن الواحد منها الموضع الذى فيه صنم قادس بين المغرب والقبلة بإزاء جبل إفريقية المسمى أولانية، ومنه يخرج إلى البحر المتوسط الخارج إلى الشام الآخذ بقبلى الأندلس.

والركن الثانى هو بشرقى الأندلس بين مدينة نربونة[٨] ومدينة بُرْذِيل[٩] بإزاء جزيرتى ميورقة[١٠] ومنورقة بمجاورة البحرين البحر المحيط والبحر الشامى

---

(١) إِسْتِجة: ـ كورة بالأندلس، تتّصل بأعمال ريَّة، بين القبلة والمغرب من قرطبة على نهر غرناطة. مراصد الاطلاع ١/ ٧٠.

(٢) قَبْرَة: مدينة بالأندلس، بينها وبين قرطبة ثلاثون ميلاً، ذات مياه سائحة من عيون شتى. الروض المعطار ٤٥٣.

(٣) إلبيرة: كورة كبيرة من كور الأندلس، ومدينة مُتَّصِلة، بأراضى كورة قَبْرَة. فى أرضها معادن فضّة وذهب وحديد ونحاس وحجر التوتيا وفيها عدة مدن، منها: قسطيلية وغرناطة، وغيرهما. مراصد الاطلاع ١/ ١١١ والروض المعطار ٢٨.

(٤) انظر الروض المعطار ١٨٧.

(٥) بيرة: بلد بالأندلس قريبة من البحر. مراصد الاطلاع ١/ ٢٤١.

(٦) انظر: مراصد الاطلاع ١/ ٥٢ والروض المعطار ٢٦.

(٧) الروض المعطار ٦.

(٨) الروض المعطار ٣٣ و ١٢٤.

(٩) بُرْذيل: فى بلاد جليقية، وإقليم بُرْذِيل من أشرف أقاليم تلك الناحية، وهو كثير الكروم والفاكهة والحبوب، وهو مدينة كبيرة مبنية بالكلس والرمل، وهو على نهر عجاج يُسَمَّى جرونة، وربما عطبت مراكب المجوس فيه عند الأهوال لاتساعه وانحراقه. الروض المعطار ٩٠.

(١٠) ميورقة: جزيرة فى البحر الزقاقى، تسامتها من القبلة بجاية من بر العدوة، بينهما ثلاثة مجارٍ، ومن الجوف برشونة من بلاد أرغون، وبينهما مجرى واحد، ومن الشرق إحدى جزيرتيها مزقة، وبينهما مجرى فى البحر طوله أربعون ميلاً، وشرقى ميورقة هذه جزيرة سردانية بينهما فى البحر مجريان، وغربيها جزيرة يابسة، بينهما مجرى فى البحر طوله سبعون ميلاً. وميورقة أمّ هاتين الجزيرتين وهما بنتاها وإليها مع الأيام خراجها، وطول ميورقة من الغرب إلى الشرق سبعون ميلاً، وعرضها من القبلة إلى الجوف خمسون ميلاً.

فتحها المسلمون سنة تسعين ومائتين، إلى أن تغلَّب عليها العدو البرشلونى وخرّبها سنة ثمان وخمسمائة. الروض المعطار ٥٦٧.

المتوسط، وبينهما المدخل الذى يعرف بالأبواب، وهو المدخل إلى الأندلس من الأرض الكبيرة على بلد إفرنجة، وسافهنت بين البحرين مسيرة يومين، ويقابل مدينة بؤذبل مدينة مذبونة على البحر المحيط.

والركن الثالث حيث ينعطف البحر من الجوف إلى الغرب حيث المنارة فى الجبل المومتى على البحر، فيه الصنم العالى المشبه بصنم قادس، وهو البلد الطالع على بلد برطانية.

وقال أوروشيوش: «يسمى البلد الذى فيه الصنم برغشية، وحيث هذا الصنم ينقطع موز جليقية».

فى جوفى الأندلس وغربيه البحر المحيط، وفى قبليه البحر الشامى وهو البحر المعروف ببحر تيران، ومعناه الذى يشق دائرة الأرض.

وفى شرقيه منحرفا إلى الجوف يسيرًا بلد البشكنش آخذا مع نهر أبره إلى بلد شنت مرية.

وذكر بطليموس أن قلوباطرة فتحت فى الجبل الحاجز بين الأندلس وإفرنجة طريقا بالحديد والنار والخل، وكان فعلها ذلك من العجائب.

* * *

ذكر فضل الأندلس وغريب أخبارها

والأندلس شامية فى طيبها وهوائها، يمانية فى اعتدالها واستوائها، هندية فى عطرها وذكائها، أهوازية فى عظم جباياتها، صينية فى جواهر معادنها، عدنية فى منافع سواحلها، فيها آثار عظيمة للأول من اليونانيين أهل الحكمة وحاملى الفلسفة[1].

وكان ملوكهم الذين أثروا الآثار بالأندلس هرقلش، وله الأثر فى الصنم بجزيرة قادس وصنم جليقية والآخر فى مدينة طركونة الذى لا نظير له.

(١) الروض المعطار ٣٣.

ومن الجبال المشهورة بالعظم فى بلد الأندلس، منها جبل إلبيرة[١] وهو جبل الثلج، وهو متصل بالبحر المتوسط منتظم بجبل ريه ولاصق بالجزيرة مع البحر.

ويذكر ساكنوه أنهم لا يزالون يرون الثلج نازلا فيه شتاء وصيفا، وهذا الجبل يرى من أكثر بلاد الأندلس ويرى من عدوة البحر ببلاد البربر.

وفى هذا الجبل أصناف الفواكه العجيبة، وفى قراه المتصلة به يكون أفضل الحرير والكتان الذى يفضل على كتان الفيوم.

ومنها جبل ألبرت، وهو الحاج بين بلاد الإسلام وبلد غاليش ومبتدؤه من البحر القبلى ـ المتوسط المجاور ـ طرطوشة ومنتهاه إلى البحر الغربى بين الأشبونة وجليقية، ومنها الجبل الحاجز بين بلاد إفرنجة وبلاد الصقالبة.

* * *

ذكر ما خصت به الأندلس من الأشجار والمعادن والأحجار[٢]

يوجد فى ناحية ولاية من إقليم البشرة عود النضوح لا يقارنه العود الهندى ذكاء وعطرا، وقد سيق منه إلى خيران الصقلبى صاحب ألمرية أصل كان منبته بين أحجار هناك.

وبأكشنبة جبل يعرف بجبل الجنة كثيرا ما يتصوع منه ريح العود الذكى إذا أرسلت فيه النار، وببسم شحذونة يوجد أطيب العنبر الغربى الوردى، وفى جبل المنتلون المحلب الذى لا يعدل به.

قال أحمد بن محمد بن موسى الرازى: وهو المقدم فى الأفاوة المفضل فى أنواع الأشنان لا ينبت بشىء من الأرض إلا بالهند وبالأندلس.

وفى جبل بإلبيرة السنبل الفائق الطيب، وبنواحى المنتلون يكون البرباريس العجيب.

---

(١) إلبيرة: كورة كبيرة من كور الأندلس، ومدينة متصلة بأراضى كوة قَبْرَة، فى أرضها معادن فضة وحديد ونحاس وحجر التوتيا، وفيه عدة مدن، منها قسطيلية وغرناطة وغيرهما. مراصد الاطلاع ١/ ١١١.

(٢) انظر فى ذلك: صورة الأرض ١٠٩.

وبجبل أندة يوجد القسط الطيب المر المذاق، ويوجد أيضا بالجبل المنسوب إليه جبل القسط، وهو بين حصن قاشتروا ومارتش.

والجنطيانا يجلب من الأندلس إلى جميع الآفاق وهو عفير رفيع يوجد بلبلة.

وبجزيرة سطين الزبد النفيس المصمغ الطرفين، ويوجد بجبال قلعة أيوب المر الطيب، وأطيب كهرباء الأرض بشذونة درهم منها يعدل دراهم من المجلوبة.

وأطيب القرمز قرمز الأندلس وأكثر ما يكون بنواحى إشبيلية ولَبْلَة وشذونة وبلنسية، ومن الأندلس يحمل إلى الآفاق، وبناحية لورقة من ناحية تدمير يكون حجر الأزدرد الجيد، وقد يوجد فى غيرها.

وعلى مقربة من حصن منتون من عمل قرطبة معدن البلور بجبل شجيران، وهو بشرقى قبرة.

وحجر البجادى موجود بناحية مدينة الأشبونة، فى جبل هناك يتلألأ فيه ليلا كالسرج، والياقوت الأحمر يوجد فى ناحية حصن منت ميور من عمالة مالقة، إلا أنه دقيق جدا لا يصلح للاستعمال لصغره.

وحجر يشبه الياقوت الأحمر فى ناحية مدينة بجانة فى خندق بقرب ناشر يوجد أشكالا مختلفة كأنه مصنوع حسن اللون صبورا على النار.

وحجر المغنطيس الجاذب للحديد يوجد بموضع يعرف بالصنهاجين من كورة تدمير، وحجر الشادنة بجبل قرطبة كثير، وهو يرقى الدم ويستعمل فى ذلك التذاهيب، والحجر اليهودى فى ناحية حصن البونت، وهو أنفع شىء للحصى.

وحجر المرقشيتا الذهبية فى جبال أنطاندة التى لا نظير لها فى الدنيا ومن الأندلس يحمل إلى جميع الآفاق لفضلها.

والمغنيسيا بالأندلس كثير، وكذلك حجر الطلق، ويوجد اللؤلؤ بناحية مدينة برشلونة، إلا أنه جامد اللون.

والمرجان يخرج من بحر الأندلس، وقد خرج منه فى ساحل بحر إلبيرة من عمل المرية ما لقط منه فى أقل من شهر نحو ثمانين قنطارا.

ومعدن الذهب بنهر لاردة يجمع بها منه كثير ويجمع أيضًا فى ساحل الأشبونة.

ومعادن الفضة بالأندلس كثيرة فى كورة تدمير وجبال حمة بجانة، وبإقليم كرتش من عمل قرطبة معدن فضة جليل، وبأكشونبة معدن القصدير لا نظير له يشبه الفضة، وله معادن بناحية إفرنجة وليون، ومعدن الزئبق فى جبل البرانش ومن هناك يتجهز به إلى الآفاق، ومعدن الكبريت الأحمر بالأندلس ومعادن الأصفر كثيرة.

ومعادن التوتيسا الطيبة بساحل إلبيرة بقرية تسمى بطرنة، وهى أزكى توتيسا وأقوى فى صنع النحاس، وبجبال قرطبة توتيسا وليست كالبطرنية.

ومعدن الكحل المشبه بالأصبهانى بناحية مدينة طرطوشة يحمل منها إلى جميع البلاد، ومعادن الشبوب والحديد والنحاس والرصاص بالأندلس أكثر من أن تحصى.

[1] [والأندلس دار جهاد وموطن رباط قد أحاط بشرقها وشمالها وبعض غربها أصناف أهل الكفر.

وروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه كتب إلى من انتدب إلى غزو الأندلس: أما بعد، فإن القسطنطينية إنما تفتح من قبل الأندلس وإنكم إن استفتحتموها كنتم شركاء من يفتحها فى الأجر والسلام.

وروى عن كعب الأحبار أنه قال: «يعبر البحر إلى الأندلس أقوام يفتحونها يعرفون بنورهم يوم القيامة»[2].

ودخل الأندلس رجل واحد من أصحاب النبى ﷺ، وقال عبد الملك بن حبيب: «اسمه المنيذر الإفريقى»، ويروى عن النبى ﷺ أنه قال: «من قال رضيت بالله ربا إلى آخرها فأنا الزعيم له لآخذن بيده فأدخله الجنة».

ودخلها من التابعين حنش بن عبد الله بن عمرو بن حنظلة بن نهر بن قنان بن ثعلبة بن ثامى النسائى يكنى أبا راشد، وهو صنعانى من صنعاء الشام ويعد فى المقربين، ويقال حنش بن على، والصواب ابن عبد الله، وهو الذى أسس المسجد الجامع بسرقسطة، وكان مع على بالرقَّة.

---

(١) من هنا يبدأ النقل عن البكرى فى الروض المعطار ٣٣.

(٢) الروض المعطار ٣٣.

فلما قتل انتقل إلى مصر وموضع محرابه وقبره بسرقسطة معلوم.

ومنهم على بن رباح اللخمى البصرى ويكنى أبا موسى، لقى أبا هريرة وعمرو ابن العاص وعلقمة بن عاد وروى منهم، وقبره أيضا بمدينة سرقسطة معلوم.

ومنهم حيوة بن رجاء التميمى وأبو عبد الرحمن بن عبد الله بن يزيد الجبلى الأنصارى وعياض بن عقبة الفهرى وموسى بن نصير بن عبد الرحمن بن يزيد يقال بكرى ويقال لخمى، ويقال إن نصيرا وحمدان مولى عثمان من سبى عين التمر وإن نصيرا أعتقه صبيح مولى أبى العاص بن أمية.

ومن كتب الخزانة غير المترجم أن نصيرا أصابه خالد بن الوليد فى علوج عين التمر وادعوا أنهم رهن وأنهم من بكر بن وائل نصار وصيفا لعبد العزيز بن مروان فأعتقه فمن أجل هذا يختلف فيه.

وعقد الوليد لموسى على إفريقية سنة ثلاث وثمانين، وكان مولد موسى سنة تسع عشرة فى خلافة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وكان معاوية قد جعل نصيرا أبا موسى على حرسه فلم يقاتل معه عليا - رضى الله عنه - فقال له معاوية: «من منعك فى الخروج معى على علىّ ولم تكاف يدًا لى عليك؟»، فقال له: «لم يمكنى أن أشكرك بكفر من هو أولى بشكرى منك»، قال: «ومن هو؟» قال: «الله تعالى»][1].

ومسافة ما يملك المسلمون من الأندلس - وذلك من مدينة أكشوبنة إلى مدينة أشقة - فذلك ثلاثمائة فرسخ طولا، ومن قرطاجنة الخلفاء إلى الفهمين ثلاثون فرسخا عرضا.

* * *

(١) إلى هنا يقف النقل فى الروض المعطار عن البكرى ٣٣.

ذكر مدينة قرطبة[1]

ذكر أن تفسير قرطبة بلسان القوط قرطبة بالظاء المعجمة، ومعناه بلسانهم القلوب المختلفة، وقيل: «معنى قرطبة آخر فاسكنها».

ودور مدينة قرطبة فى كمالها ثلاثون ألف ذراع، ولها من الأبواب باب القنطرة وهو بقبليها ومنه يعبر النهر على القنطرة، والباب الجديد وهو بشرقيها، وباب عامر وهو بين الغرب والجوف منها، وغيرها.

وقصر مدينة قرطبة بغربيها متصل بسورها القبلى والغربى، وجامعها بإزاء القصر من جهة الشرق، وقد وصل بينهما بساباط يسلك الناس تحته من المحجة العظمى التى بين الجامع والقصر إلى باب القنطرة.

وكان طول سقف البلاطات من المسجد الجامع وذلك من القبلة إلى الجوف قبل الزيادة مائتين وخمسًا وعشرين ذراعًا، والعرض من الشرق إلى الغرب قبل الزيادة مائة ذراع وثلاثين ذراعا، ثم زاد الحكم فى طوله فى القبلة مائة ذراع وخمس أذرع، فكمل الطول ثلاثمائة ذراع وثلاثين ذراعا.

وزاد محمد بن أبى عامر بأمر هشام بن الحكم فى عرضه من جهة الشرق ثمانين ذراعا، فتم العرض مائتين وثلاثين ذراعًا.

وكان عدد بلاطاته أحد عشر بلاطًا عرض أوسطها ست عشرة ذراعا وعرض كل واحد من اللذين يليانه شرقًا واللذين يليانه غربًا أربع عشرة ذراعا، وعرض كل واحد من الستة الباقية إحدى عشرة ذراعًا، وزود ابن أبى عامر فيه ثمانية بلاطات عرض كل واحدة عشر أذرع.

وطول الصحف من المشرق إلى المغرب مائة وثمان وعشرون ذراعا، وعرضه من القبة على الجوف مائة وخمس أذرع، وعرض السقائف المستديرة بصحنه عشرة أذرع فتكسيره ثلاثة وثلاثون ألف ذراع ومائة وخمسون ذراعًا.

---

(١) انظر فى ذلك، الروض المعطار ٤٥٦ـ٤٥٩ والبلدان لليعقوبى ٣٥٤ وصورة الأرض ١٠٧ ونزهة المشتاق ٢/ ٥٧٤ـ٥٨٢.

وعدد أبوابه تسعة منها ثلاثة فى صحنه غربا وشرقا وجوفا وأربعة فى بلاطه اثنان غربيان واثنان شرقيان، وفى مقاصير النساء من السقائف بابان. وجميع ما فيه من الأعمدة ألف عمود ومائتا عمود وثلاثة وتسعون عمود أساطين رخام كلها.

وقباب مقصورة الجامع مذهبة وكذلك جد المحراب وما يليه قد أجرى فيه الذهب على الفسيفساء، وثريات المقصورة فضة محصنة، وارتفاع الصومعة اليوم ـ وهى من بناء عبد الرحمن بن محمد ـ ثلاث وسبعون ذراعا إلى أعلى القبة المفتحة التى يستدير فيها المؤذنون.

وأرؤس هذه القبة تفاح ذهب وفضة وارتفاعها إلى مكان الأذان أربع وخمسون ذراعا، وطول كل حائط من حيطانها على الأرض ثمانى عشرة ذراعا.

وعدد المساجد بقرطبة على ما أحصى وضبط أربعمائة وواحد وتسعون مسجدا.

وبقرطبة أقاليم كثيرة وكور جليلة، وكانت جباية هذه الأقاليم فى أيام الحكم بن هشام من ناص الحسد وناص الظبل وناص البيزرة للعام مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار، ومن ضيقة القمح مديا أربعة آلاف مدى وستمائة وسبعة وأربعين مديا، ومن الشعير سبعة وأربعين ألف مدى.

قال المؤلف: «عقب الفتنة التى كانت على رأس أربعمائة من الهجرة واستمرت إلى وقتنا هذا. وهو سنة ستين وأربعمائة عفت آثار هذه القرى وغيرت رسوم ذلك العمران فصار أكثرها خلاء بندب ساكنه».

وكذلك حكم الله فى كل جديد أن يبليه وفى كل أهل أن يخليه حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

* * *

ذكر مدينة إشبيلية[1]

وهى قديمة أولية، زعم أهل العلم باللسان اللطنية أن أصل تسميتها إشبال معناه المدينة المنبسطة، ويقال إن الذى بناها يولش قيصر وأنه أول من تسمى قيصر وكان سبب بنائه إياها أنه لما دخل الأندلس ووصل إلى مكانها أعجب بكرم ساحته وطيب أرضه وجبله المعروف بجبل الشرف، فردم على النهر الأكبر مكانا وأقام فيه المدينة وأحدق عليها بأسوار من صخر صلب، وبنى فى وسط المدينة قصبتين عجيبتين تعرفان بالأخوين، وجعلها أم قواعد الأندلس واشتق لها اسما من اسمه ومن اسم رومية فسماها مدينة رومية يوليش، ولم تزل معظمة عند العجم من ذلك الوقت، وقد كان منها رجال ولوا قيادة العجم العظمى والمملكة بمدينة رومية.

وروى ابن وضاح أن المرأة التى قتلت يحيى بن زكريا عليه السلام من إشبيلية من قرية طالقة، وقد قيل إن رأس أشبيلية لقيصر أكتبيان ومدينة أشبيلية موفية على النهر وهى فى غربيها ويذكر فى بعض الأخبار أن إشبان بن طيطش من ذرية طوبيل بن يافث بن نوح ـ عليه السلام ـ كان أحد ملوك الإشبانين خص بملك أكثر الدنيا وأن بدء ظهوره كان من إشبيلية فغلظ أمره وبعد وصيته وتمكن فى كل ناحية سلطانه.

فلما ملك نواحى الأندلس وطاعت له أقاصى البلاد خرج فى السفن من إشبيلية إلى إيليا فغنمها وهدمها وقتل بها من اليهود مائة ألف وسبى مائة ألف وفرق فى البلاد مائة ألف، ونقل رخامها إلى إشبيلية ومارده رباجة، وأنه صاحب المائدة التى ألقيت بطليطلة وصاحب الحجر الذى وجد بمارده وصاحب قليلة الجوهر التى كانت بماردة أيضًا على حسب ما ذكر فى فتح الأندلس، وأنه حضر خراب المقدس الأول مع بخت نصر وحضر الخراب الذى كان مع قيصر بشبيشان

---

(١) انظر فى إشبيلية: البلدان لليعقوبى ٣٥٤ والروض المعطار ٥٨ـ٦٠ ونزهة المشتاق ٢/ ٥٤٠ـ٥٤١.

وأدريان، ويذكر أنه من طائفة إشبيلية.

وفى سنة عشرين من دولته أتقن بنيان إيلياء.

من مضى من ملوك الأعاجم يتداولون بمسكنهم أربعة من مدن الأندلس: إشبيلية وماردة وطليطلة وقرطبة، ويقسمون أزمانهم على الكينونة بها.

وكان سور إشبيلية من بناء الإمام عبد الرحمن بن الحكم بناه بعد غلبة المجوس عليها بالحجر أحكم بناء.

وكذلك جامعها اليوم من بنائه وهو من عجيب المبانى وجليلها، وصومعته بديعة الصنعة غريبة العمل أركانها الأربعة عمد فوق عمد إلى أعلاها، فى كل ركن ثلاثة أعمدة.

فلما مات عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجاج - وذلك فى محرم سنة إحدى وثلاثمائة - قدم أهلها أحمد بن مسلمة، وكان من أهل البأس والنجدة، فأظهر العناد وجاهر بالخلاف، فأخرج إليه عبد الرحمن بن محمد قائدا من قواده بعد قائد حتى افتتحها على يدى الحاجب يوم الاثنين لخمس خلون من جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثمائة، واستعمل عليها سعيد بن المنذر المعروف بابن السليم، فهدم سورها وألحق أعاليه بأسفله وبنى القصر القديم المعروف بدار الإمارة وحصنه بسور صخر رفيع وأبراج منيعة، وهو على ذلك إلى اليوم.

وبنى سور المدينة فى الفتنة بالتراب، وله من الأبواب باب أبى العاص غربى ومنه الخروج إلى الشرق، وباب حميدة غربى أيضا بإزاء المقبرة، وباب قرمونة شرقى.

ويطل على إشبيلية جبل الشرف، وهو شريف البقعة كريم التربة دائم الخضرة فراسخ فى فراسخ طولا وعرضا، لا تكاد تشمس منه بقعة لالتفاف زيتونه واشتباك غصونه.

ولها كور جليلة ومدن كثيرة وحصون شريفة.

وبإشبيلية آثار للأول كثيرة، وبها أساطين عظام تدل على هياكل كانت بها.

وإشبيلية من الكور المجندة نزلها جند حمص، ولواؤهم فى الميمنة بعد لواء جند دمشق.

ولإشبيلية من الأقاليم: إقليم المدينة، إقليم أليه، إقليم السهل، إقليم الشعراء، إقليم البصل، إقليم طالقة، إقليم الشرف، إقليم الوادى، إقليم طشانة، إقليم الفحص، إقليم قرطشانة، إقليم المنستير.

وانتهت جبايتها فى أيام الأمير الحكم بن هشام خمسة وثلاثين ألف دينار ومائة دينار.

وفى إقليم طالقة وجدت صورة جارية من مرمر معها صبى وكأن حية تريده، لم يسمع فى الأخبار ولا رئى فى الآثار صورة أبدع منها جعلت فى بعض الحمامات وتعشقها جماعة من العوام.

* * *

ذكر الجزيرة[1]

ومدينة الجزيرة على ربوة مشرفة على البحر ولها أقاليم.

وكانت جباية كورة الجزيرة ستمائة دينار وثمانية عشر دينارا.

قال محمد بن وضاح: حدثنا زهير بن عباد الكلاعى عن ابن عم وكيع بن الجراح الكوفى قال: لقيته بمصر ولقيته فى رحلتى الثانية بالشام وأخذت عنه علما كثيرا شيخ ثبت، قال: أهل الجزيرة من بلاد الأندلس هم الذين أبوا أن يضيفوا موسى والخضر عليهما السلام.

بها أقام الخضر الجدار وخرق السفينة وأسلم الجلندى، وكان يأخذ كل سفينة غصبا كما قال الله تعالى فى كتابه العزيز.

* * *

(١) انظر فى ذلك: البلدان لليعقوبى ٣٥٤.

ذكر ماردة وبَطَلْيَوْس

ماردة[1] بجوفي قرطبة منحرفة إلى الغرب قليلا، وكانت مدينة ينزلها الملوك الأوائل، فكثرت بها آثارهم والمياه المستجلبة إليها.

وكان قد أحدق بها سور عرضه اثنتا عشرة ذراعا وارتفاعه ثماني عشرة ذراعا، وعلى بابها كتابة ترجمتها: براءة لأهل إيليا من عمل في سورها خمس عشرة ذراعا.

ولماردة حصون وأقاليم، من ذلك مدلين وحصن مورش وحصن أم غزالة وحصن الأرش وحصن أم جعفر وحصن الجزيرة وحصن الجناح وحصن الصخرة المعروفة بصخرة أبي حسان وحصن لقرشان وحصن سنت أقروج في غاية الارتفاع لا يعلوه طائر البتة لا نسر ولا غيره، وغيرها من الحصون يكثر ذكرها.

وبطليوس[2] هي حديثة الاتخاذ، بناها عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقي بإذن الأمير محمد لما أخرجه من قلعة الحنش ولجأ إلى حصن مرنيط من حصون جليقية، انعقد سلمه على أن يستقر ببطليوس ويتخذها دارا، وهي إذ ذاك خالية، فبناها لنفسه ومن معه.

فلما توطد له الملك كتب إلى الأمير عبد الله ـ وقد تولى الأمر ـ أن يجدد له سجلا على بلده وعقدا على قومه المولدين، فأجابه إلى ذلك، ثم كتب إليه ألا مسجد جامع له يعلن فيه الدعاء للأمير ولا حمام يغتسل فيه، فهم على كثرتهم بادية وإن تحضروا، وسأله أن يرسل إليه فعلة يبنون له الجامع والحمام فيلحق البلد بالحواضر، فأجابه إلى ما أراد.

ولبطليوس أقاليم وحصون كثيرة.

* * *

(١) نزهة المشتاق ٢/ ٥٤٥ـ٥٤٦.

(٢) نزهة المشتاق ٢/ ٥٤٥.

ذكر مدينة طليطلة[(١)]

معنى طليطلة باللطينى تولاظو[(٢)]، معناه فرح ساكنها يريدون لحصانتها ومنعتها.

وفى كتب الحدثان كان يقال: طليطلة الأطلال، بنيت على الهرج والقتال، إذا وادعوا الشرك، لم يقم لهم سوقة ولا ملك، على يد أهلها يظهر الفساد، ويخرج الناس من تلك البلاد.

ومدينة طليطلة قاعدة القوط ودار مملكتهم، ومنها كانوا يغزون عدوهم وإليها كان يجتمع جنودهم، وهى إحدى القواعد الأربع المتقدم ذكرها وهى أقدمهن، ألفتها القياصرة مبنية، وهى أول الإقليم الخامس من السبعة الأقاليم التى هى ربع معمور الأرض، وإليها ينتهى حد الأندلس الأدنى ويبتدئ بعدها الذكر للأندلس الأقصى.

وأوفت على نهر تاجة وبها كانت القنطرة التى كان يعجز الواصفون عن وصفها، وكان خرابها فى أيام الإمام محمد.

ومن خواصها أن حنطتها لا تتغير ولا تسوس على مر السنين يتوارثها الخلف عن السلف، وزعفران طليطلة هو الذى يعم البلاد ويتجهز به إلى الآفاق، وكذلك الصمغ السماوى.

وأول من نزل بها من ملوك الأندلس لوبيان، وهو الذى بنى مدينة رقوبل وهى على مقربة من طليطلة، وسماها باسم ولده، ومنها ولّى الأساقفة على الكور وبها

---

(١) طُلَيْطِلة: إحدى المدن الأربع التى بُنيت فى مدة قيصر أكتبيان الذى يُؤرخ من مُدَّته مُدَّة الصُّفْر، وتأويل اسمها: أنت فارح وهى فى الإقليم الخامس مَوْسَطة، منها إلى الحاجز الذى هو درب الأندلس نحو نصف شهر، وكذلك إلى البحر المحيط بجهة شِلْبة ومنها إلى قرطبة وإلى غرناطة وإلى مُرَسِية، إلى بَلَنْسِية نحو سبعة أيام، ونهر تاجة قِبْلِيّها.

وهى مدينة منيعة جليلة، ليس فى الجزيرة مدينة أمنع منها، وأهلها يخالفون على بنى أمية، وهم أخلاط من العرب والبربر. ولهم نهر عظيم يقال له دُوير. انظر المغرب فى حلى المغرب ٨/٢ والبلدان ٣٥٥.

(٢) الروض المعطار ٣٩٤.

مجتمعهم للمشورة، وكان عددهم ثمانين أسقفا لثمانين مدينة من حوز الأندلس كجليقة وطركونة وقرطاجنة.

وكانت قبل ولايته فرقًا، فائتلف أمر الناس وانقطع الخلاف وأحبه الخاص والعام.

وهو الذى بنى الكنائس الجليلة والمعالم الرفيعة، وبنى الكنيسة المعروفة بالمردقة واسمه مزبور على بابها، وهى بين حاضرة إلبيرة ووادى آش.

ولها أقاليم وحصون.

* * *

ذكر طلبيرة[١]

ومدينة طلبيرة أقصى ثغور المسلمين وباب من الأبواب التى يدخل منها إلى أرض المشركين، وهى قديمة على نهر تاجة.

* * *

ذكر تطيلة[٢]

وكان بتطيلة بعد الأربعمائة من الهجرة أو على رأسها امرأة لها لحية كاملة سابغة كلحى الرجال، وكانت تتصرف فى الأسفار وسائر ما يتصرف فيه الناس حتى أمر قاضى الناحية نسوة من القوابل بالنظر إليها، فأحجمن عن ذلك لما عاينه من منظرها فأكرههن على ذلك فإذا بها امرأة، فأمر القاضى بحلق لحيتها وأن تتزيا بزى النساء ولا تسافر إلا مع محرم.

ولتطيلة مدن وبناءات، منها طرسونة وغيرها، وقلعة أيوب محدثة.

(١) نزهة المشتاق ٢/ ٥٥٠-٥٥١.

(٢) تُطيلة: باشتهارها فى الحرب وطيب الزرع يُضرب المثل فى الأندلس وهى مُحْدَثة، بنيت فى مُدَّة سلاطين لبنى مروان، كان فيها فى مدة بنى مروان بنو موسى، تغلَّبوا على الثغر، وكان لهم فى طلب الملك دوىّ، ولمَّا ثارت ملوك الطوائف صارت تابعة لَسَرَقُسْطة داخلة فى دولة بنى هود. المغرب فى حلى المغرب ٢/ ٩٤٩ وانظر البلدان ٣٥٥.

ذكر مدينة بربشتر

ومدينة بربشتر من بلاد بريطانية وبعضها فى ملك المسلمين وبعضها للعجم اليوم.

وحصن بربشتر على نهر تارة، وبربشتر من أمهات مدن الثغر الفائقة فى الحصانة البائنة فى الامتناع.

وقد غزاها على غرة وقلة عدد من أهلها وعدة أهل غاليش والروذمانون، وكان عليهم رئيس يسمى البيطين وكان فى عسكره نحو أربعين ألف فارس، فحاصرها أربعين يوما حتى افتتحها، وذلك سنة ست وخمسين وأربعمائة، فقتلوا عامة رجالها وسبوا فيها من ذرارى المسلمين ونسائهم ما لا يحصى كثرة.

ويذكر أنهم اختاروا من أبكار جوارى المسلمين وأهل الحسن منهن خمسة آلاف جارية وأهدوهن إلى صاحب القسطنطينية وأصابوا فيها من الأموال والأمتعة ما يعجز عن وصفه.

وفتحها بعد ذلك أحمد بن سليمان بن هود صاحب سرقسطة مع أهل الثغور واستنجد بحلفائه من رؤساء الأندلس، ونهد إليها فى جمع كثيف ذوى جد وحد، ففتحها الله عز وجل على يديه عنوة، فقتل المقاتلة وسبى النساء والذرية، وأدخل منها سرقسطة نحو خمسة آلاف سبية ونحو ألف فرس وألف درع وأموالاً كثيرة وثيابًا جليلة.

وكان افتتاحه لها لثمان خلون من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وأربعمائة، ومنذ ذلك تسمى أحمد بن سليمان المقتدر بالله.

ولبربشتر حصون. . .

* * *

ذكر مدينة برشلونة[١]

وأما مدينة برشلونة فهى من القسم الثالث من الأندلس مسوّرة على ساحل البحر، واليهود بها يعدلون النصارى كثرة ولها ربض خارج منها.

وصاحب برشلونة اليوم راى مند بن بلنقير بن برّيل، وكان خرج يريد بيت المقدس سنة ست وأربعين وأربعمائة فنزل مدينة نربونة على رجل من كبراء أهلها، فتعشق امرأته وتعشقته، ثم تمادى فى سفره حتى وصل بيت المقدس، ثم كر راجعا حتى أتى نربونة فنزل على ضيفه بها، وليس له هم إلا امرأته، فتحكم ذلك التعاشق بينهما واتفق معها على أن تعمل الحيلة فى الهروب إليه من بدلها فيزوجها من نفسه، فلما وصل إلى برشلونة أرسل إليها قوما من اليهود فى ذلك.

ودخل صاحب طرطوشة فى الأمر فأوصلهم فى الشوانى إلى نربونة، فلم تتوجه اليهود الحيلة فى أمرها وأحس زوجها ببعض شأنها وكان بها كلفا، فثقّفها فكان تثقيفه لها سببا لمعونة أهلها على مرادها.

فوصلت مع قوم منهم إلى برشلونة، فنزل راى مند عن امرأته وتزوج النربونية، فلبست الأولى المُسُوح وخرجت مع جماعة من أهل بيتها إلى رومة حتى أتت عظيمها وصاحب الدين بها، وهو الذى يسمونه البابه، فشكت إليه ما صنع زوجها وأنه تركها بغير سبب، وهو أمر لا يحل فى دينهم، وأنه لا يجوز لهم فعله، وإنما حمله على ذلك عشقه للنربونية.

وشهد لها شهود قبلهم، فحرم البابه على صاحب برشلونة دخول الكنائس وأمر ألا يدفن له ميت وأن يتبرأ منه جميع من يعتقد النصرانية، فلما علم ذلك علم أنه لا حيلة له معه ولا بقاء فى أفق يكون فيه لنصرانى حكم.

فبذل الأموال ودس مشاهير الأساقفة والقسيسين وأوطأهم على الشخوص إلى البابه وأن يشهدوا له بأنه تقصى عن نسب المرأة التى ترك فوجدها منه بقربى يحرمها عليه، وأن النربونية فرّت من زوجها لذلك لأنه كانت منه بنسب وكان

(١) انظر فيها: نزهة المشتاق ١/ ٢٣١ والروض المعطار ٨٦ـ٨٧.

يكرهها على المقام معه.

فنفذ القوم إلى البابه وشهدوا للقومس ما أوطأهم عليه، فقبلهم وأباح له دخول الكنائس ودفن من مات له وسائر ما حجر عليه.

* * *

ذكر بلد جليقية[1]

قسمه الأوائل على أربعة أقسام:

فالقسم الأول: هو الذى يلى الغرب وينحرف إلى الجوف، وساكنوه هم الجلالقة وموضعهم جليقية، وكانوا حوالى مدينة براقرة التى هى متوسطة الغرب.

ومدينة براقرة هى مدينة أولية من بنيان الروم، وقواعدهم وبعد مملكتهم شبيهة بمدينة ماردة فى إتقان بنائها وصنعة أسوارها، وهى اليوم مهدومة الأكثر خالية هدمها المسلمون وأجلوا أهلها.

القسم الثانى: هو المسمى بأشتورش وسمى بذلك بواد لهم يقال له اشترو منه شرب جميع بلادهم.

والقسم الثالث: ما كان من جليقية بين الغرب والقبلة ويسمى أهله البرتقالش.

والقسم الرابع: ما كان بين الشرق والقبلة ويسمى بقشتيلة، وقشتيلة القصوى وقشتيلة الأدنى، فالأدنى من حصونها غرنون والقصير وبرغش وأماية.

* * *

(١) انظر فيها: الروض المعطار ١٦٩ـ١٧٧ ونزهة المشتاق ٢/ ٧٢٥.

جملة القول فى بلاد الجليقين
وغيرهم من قبائل النصارى إلى بلد الصقالبة
على ما أورده إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلى الطرطوشى

قال إبراهيم: بلد الجليقين سهل جميعه والغالب على أرضه الرمل، وأكثر أقواتهم الدخن والذرة، ومعولهم فى الأشربة على شراب التفاح والبشكة، وهو شراب يتخذ من الدقيق.

وأهله أهل غدر ودناءة أخلاق لا يتنظفون[١] ولا يغتسلون فى العام إلا مرة أو مرتين بالماء البارد، ولا يغسلون ثيابهم منذ يلبسونها إلى أن تنقطع عليهم، ويزعمون أن الوسخ الذى يعلوها من عرقهم تنعم أجسامهم وتصح أبدانهم، وثيابهم أضيق الثياب وهى مفرّجة يبدو من تفاريجها أكثر أبدانهم.

ولهم بأس وشدة لا يرون الفرار عند اللقاء فى الحرب ويرون الموت دونه.

* * *

ذكر بلاد إفرنجة[٢]

فى وسط الإقليم الخامس، وهواؤها غليظ لشدة بردها ومصيفها معتدل، وهو بلد كثير الفاكهة غزير الأنهار المنبعثة من ذوب الثلج، ومدائنه متقنة الأسوار محكمة البناء.

وآخر حدودها بحر الشام وحد آخر البحر المحيط، البحر الشامى بقبليها، والبحر المحيط بجوفيها، وتتصل ببلاد رومة أيضًا من ناحية القبلة، وتتصل أيضًا من ناحية الجوف ببلاد الصقالبة بينهما شعراء ملتفّة مسيرة الأيام الكثيرة، وتتصل فى الشرق أيضا بالصقالبة، وتتصل فى الغرب بالبشكنس، وتتصل أيضا ببلاد

(١) الروض المعطار ١٦٩.

(٢) راجع فى ذلك: الروض المعطار ٥٠.

بيورة، وهم الذين يعرفون بالأمانيش ولهم كلام غير كلام الإفرنج.

وتتمادى أعمال إفرنجة فى الطول والعرض مسيرة شهرين فى شهرين مع غيرها من القبائل، ويحجز بين بلاد إفرنجة وبلاد الصقالبة فى الجوف والشرق الجبل المعترض بين البحرين.

فيتمادى بلد الإفرنج مع ساحل البحر القبلى الشامى حتى يلزق بجزيرة رومة وبلد لنقبردية.

ويتمادى مع الجبل المعترض فى الجوف إلى البحر المحيط، ويتصل بالصقالبة بلاد المجوس المعروفين بالأنقلش، وسيوف إفرنجة تفوق سيوف الهند.

* * *

ذكر البرتونين

لهم لغة تَمُجُّها الأسماع، ومناظر قبيحة، وأخلاق سيئة، وهم لصوص يقطعون على الإفرنج ويسترقونهم والإفرنج يصلبونهم إذا ظفروا منهم بأحد.

ومن البرتونيين والجلالقة والبشاكسة كان حشد طيطش إلى الشام حين خرج يريد بيت المقدس.

* * *

تم بحمد الله كتاب المسالك والممالك لأبى عبيد البكرى

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

* * *

• الفهارس العامة •



١ - فهرس الآيات القرآنية

سورة الأعراف (٧)

سورة الأنفال (٨)

سورة التوبة (٩)

سورة يونس (١٠)

سورة هود (١١)

***

٢ ـ فهرس الحديث والأثر

* * *

٣ ـ فهرس الأمثال والأقوال

* * *

٤ ـ فهرس الكتب الواردة فى الكتاب

* * *

٥ـ فهرس القوافى

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
		فصل التاء المكسورة			
ما أحْسَن	بتيهرتِ	السريع	بكر بن حماد	٢	٢/ ٢٤٨

قافية الجيم

فصل الجيم المكسورة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
مَنْ كَان	سَرْجِى	الكامل	أبو عبد الله الشيعى	٤	٢/ ٢٣٠

قافية الحاء

فصل الحاء المضمومة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
أَلَمْ تَدْرِ	رَائِحُ	الطويل	عَبِيد	٢	١/ ١١٤
لَسَلَّمَتْ	صَائِحُ	الطويل	تَوْبَة بن الحُمَيْر	١	١/ ١٠٣
تَغَيَّرتْ	قَبِيحُ	الوافر	ــــ	٦	١/ ٢٣

قافية الدال

فصل الدال المفتوحة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
إذَا	وأسودا	الطويل	إسحاق بن يزيد العدوى	٣	١/ ٢١٢
سَيُغْلَبُ	وأكيدا	الطويل	ــــ	٢	١/ ٩٤
ومأمورة	رُشْدًا	الطويل	أبو نواس	٢	١/ ١٨٥
اسْلَخْ	أَحَدا	البسيط	أحمد بن فتح التيهرتى	٢	٢/ ٣٠٧
فَزِعَتْ	مُؤَيَّدا	الكامل	ــــ	٢	١/ ٩٣
اخْتَرْتَ	أَرْمَدا	مشطور الرجز	ــــ	٤	١/ ٤٧ ـ ٤٨
وبعدها	أَفْسَدا	مشطور الرجز	ــــ	٤	٢/ ٢٣٦
يا سَيِّد	مُنْقادَهْ	المنسرح	ــــ	٢	٢/ ٢٠٠ـ٢٠١
		فصل الدال المكسورة			
ونَحْنُ	ومُلْحد	الطويل	عمرو بن الحارث	١	١/ ١٩٧
ألم يأتيكَ	العَبِيدَ	الوافر	ــــ	٤	١/ ٢١٦
أَبَا سَعْد	ثَمُودِ	الوافر	معاوية بن بكر	٦	١/ ٤٧
لو أَنَّ	هُودِ	مشطور الرجز	النبهان بن الخليل	٣	١/ ٤٤٨

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
قد قال	الهندِى	مشطور الرجز	ــــ	١٠	١/ ١٧٠ـ١٧١

قافية الراء

فصل الراء الساكنة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
شَكَوْنا	البَقَرْ	المتقارب	ــــ	٢	٢/ ٥

فصل الراء المفتوحة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
وَأَبْنَاءُ	السَّنَّورا	الطويل	جرير	٢	١/ ٢١٢
يا عُدْوَةَ	مَمْطُورا	البسيط	محمد بن إسحاق البجلى	٢	٢/ ٣٠٠
لا نَوْمَ	ولا قرارا	مشطور الرجز	ــــ	٢	٢/ ١٨٩

فصل الراء المضمومة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
كَأَن	سَامِرُ	الطويل	مضاض بن عمرو بن الحارث	٢	١/ ٢٩٨
وكُنَّا	ظَاهِرُ	الطويل	مضاض بن عمرو بن الحارث	١	١/ ٢٩٦
واصْبِرْ	القَدَرُ	البسيط	ــــ	٢	١/ ٢٨٥
مَنْ ذا	تَنصُرُهُ	مجزوء البسيط	ــــ	١	١/ ٢٣٧
أَلَمَّ	نَصِيرُ	الوافر	أحمد بن بلج السوسى	٦	٢/ ٢٠٨
نَقَضَ	تدورُ	الكامل	ــــ	٣	١/ ٢٣٩
وبَنُو	مَذْكُورُ	المتدارك	عَدِىّ بن زيد العبادى	١	١/ ٦١

فصل الراء المكسورة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
دَعَا	لِوَبَارِ	الطويل	رجل من وبار	١	١/ ١٠٣
وقالوا	باهِرِ	الطويل	عبد الله بن أحمد الطنجى	٦	٢/ ٢٨٣ـ٢٨٤
نَأَى	أَسْرِ	الطويل	سعيد بن واشكل التيهرتى	٦	٢/ ٢٤٤
مُلوكُ	والجَمْرِ	الطويل	المنتصر بن المنذر	٣	١/ ٦٦
ولَمَّا	الكراكرِ	الطويل	حسان بن ثابت	١	١/ ١٢٠
كانَتْ	جارِ	البسيط	حُبَاب بن عمرو	٢	١/ ٢٣٠
كما قال	لأَمْرِ	الوافر	ــــ	٢	٢/ ١٥
أَبَعْدَ	والسَّدِيرِ	الوافر	عبد المسيح بن بقيلة	٤	١/ ١٧٣
وقامَ	الكُفْرِ	السريع	ــــ	١	٢/ ٨٠
نَوَادِرُ	الجَمْرِ	السريع	ــــ	٢	١/ ١٨٤

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
يا أيُّها	أشيرِ	السريع	عبد الملك بن عيشون	٣	٢/ ٢٤١
يوم	الأخيارِ	الخفيف	ـــ	٦	١/ ٢٧١

قافية السين

فصل السين الساكنة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
لا أحَدَ	جديسْ	الرجز	عفيرة بنت مازن	٢	١/ ١٠١
أيُّها	والدَّنَسْ	الرمل	ـــ	٦	٢/ ٢٤٤

فصل السين المضمومة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
يَاسِرْتُ	أَخْرَسُ	السريع	ـــ	٢	٢/ ١٧٨

فصل السين المكسورة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
دَخَلْتُ	فاسِ	الرجز	إبراهيم بن محمد الأصيلى	٤	٢/ ٣٠١

قافية الشين

فصل الشين المضمومة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
وإذا	ووَحْشُهُ	مشطور الرجز	عمرو بن الحارث	٤	١/ ٢٩٧

قافية الضاد

فصل الضاد المكسورة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
قَبح	وبَياضِ	الرجز	ابن الخزاز	٥	٢/ ٢٩٣

قافية العين

فصل العين الساكنة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
إنْ أذُقْ	الشَّنَعْ	الرمل	سويد بن أبى كاهل اليشكرى	٢	١/ ٢٧٢

فصل العين المفتوحة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
أَلَمْ تَرَ	تَمزَّعَا	الطويل	عوف بن سعيد الجرهمى	٢	١/ ٧٠

فصل العين المضمومة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
ولو نَطَقَتْ	وتُبَّعُ	الطويل	رجل من بنى نعيف	١	١/ ٣٣٤
ومَنْ يَسْكُن	جَائِعُ	الطويل	ـــ	١	١/ ٢٨٥

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
أَبْنى	أَرْفَعُها	البسيط	قُصَىّ بن كلاب	٢	١/ ٣٠٠

قافية الفاء

فصل الفاء المضمومة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
فَبَيْنَا	نتنصَّفُ	الطويل	حرقة بنت النعمان	٢	١/ ٢٧٥

قافية القاف

فصل القاف المفتوحة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
يا رِجْلَ	نَهِيقا	مشطور الرجز	ـــ	٢	١/ ١٠٥

قافية الكاف

فصل الكاف الساكنة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
شَقٌّ	ولَكْ	مشطور الرجز	علقمة بن صفوان	٣	١/ ١٠٨
عَلْقَمُ	لَكْ	مشطور الرجز	شق الكاهن	٣	١/ ١٠٨
لاَهُمَّ	عبادُكْ	مشطور الرجز	عمرو بن الحارث	٣	١/ ٢٩٦

فصل الكاف المكسورة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
عَجبًا	شَرِيكِ	الخفيف	ـــ	٢	٢/ ٢٤٤

قافية اللام

فصل اللام المفتوحة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
كَذَبْتَ	الفَضْلاَ	الطويل	الأحمسى	٣	٢/ ٢٧٨
فَإِنْ تَسْتَقيموا	عَدْلاَ	الطويل	أبو عبد الله الشيعى	٢	٢/ ٢٧٨
لِيَطْلُب	أَحْوالاَ	البسيط	أبو زمعة	٣	١/ ٢٧١
عُبيد	فعَالا	الوافر	ـــ	٢	٢/ ١٧٨
لَمْ تَرَ	مُثْقَلَهْ	الرجز	ـــ	١	١/ ٢٤٥
مَضَى	السَّلْسَلَهْ	السريع	ـــ	١	٢/ ٤٠
وأدْهَمٌ	الخَيْعِلاَ	المتقارب	تأبّط شراً	٥	١/ ١٠٤ـ١٠٥

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
		فصل اللام المضمومة			
أَقْسَمْتُ	رَحِيلُ	الكامل	الرمق بن زيد بن امرئ القيس	٤	١/ ٣٢٦
		فصل اللام المجرورة			
كأنَّ	مُزَمَّلِ	الطويل	امرؤ القيس	١	١/ ٣١٤
أَيُصْلِحُ	النَّمْلِ	الطويل	هزيلة بنت مازن	٤	١/ ١٠١
إذا مات	رِغَالِ	الوافر	جرير	١	١/ ٢٦٦
هذا	مُمَثَّلَ	الكامل	على بن ظفر	٢	٢/ ٢٠٤
سَائِلْ	الْمُتَهَلِّلِ	الكامل	بكر بن حماد	٣	٢/ ٣٢٧
إِنْ كان	ظِلاَلَهْ	مشطور الرجز	امرأة من مأرب	٣	١/ ١١٧
لَمَّا طغى	الأَرْزَلِ	رجز	أحمد بن محمد المروزى	٢	٢/ ٢٧٩
ثم أتى	الجميلِ	السريع	أحمد بن محمد المروزى	١	٢/ ٢٣٠

قافية الميم

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
		فصل الميم الساكنة			
أَبْصَرْتُ	السَّقَمْ	الرجز	ـــــ	٦	١/ ١١٨
ففى ذلك	العَرِمْ	المتقارب	الأعشى	٥	١/ ١١٨
أقام	القُدُمْ	المتقارب	الأعشى	١	١/ ٢١٥
		فصل الميم المفتوحة			
أَتَيْنا	ظالمًا	الطويل	هزيلة بنت مازن	٣	١/ ١٠٠
لا خَيْرَ	محروما	البسيط	كشاجم	٣	١/ ١٨٥
إِنَّك	الخَنْدَمَهْ	مشطور الرجز	حماس بن قيس	٧	١/ ٣١٣
من سَبَإٍ	العَرِمَا	المنسرح	الأعشى	١	١/ ١١٦
		فصل الميم المضمومة			
كُنَّا إذا	واغْتَرَمُوا	البسيط	قيس بن الخطيم	٢	١/ ٣٢٥
إِنَّ الخوارِجَ	والإقدامُ	الكامل	سهل بن إبراهيم الوراق	٢	٢/ ٢٠٨
سُلِّط	هَامُ	الخفيف	ـــــ	١	١/ ١٠٣
أبا البخترىّ	شَتَّامُهَا	المتقارب	ـــــ	٤	١/ ١٠٩

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
فصل الميم المكسورة					
وَسُميتَ	للمحاجمِ	الطويل	—	١	٢/ ٣١١
زَمْزَمت	الأقدمِ	السريع	—	١	١/ ٢١٣
إنَّ	الإسلامِ	الخفيف	—	٢	٢/ ١٤ـ١٥

قافية النون

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
فصل النون الساكنة					
أصبحَ	الجَنَنْ	مشطور الرجز	رجل من حضرموت	٤	١/ ٢٦٨
لم ترَ	الاثنينْ	مشطور الرجز	أبو السنابل	٥	١/ ٤٤ ـ ٤٥
أصَمُّ	اليَمَنْ	الرجز	عبد المسيح بن بقيلة	٦	١/ ٢١٩
أزالَ	يَزَنْ	المتقارب	الأعشى	١	١/ ٧٥
فصل النون المفتوحة					
يا أيُّها	تَسيرُونَا	البسيط	عمرو بن مضاض الجرهمى	٦	١/ ٢٩٩
نُفُوا	قاهرينا	الوافر	أميَّة بن أبى الصَّلْت	٢	١/ ٢٦٧
وَهُمْ	الكاتبينا	الوافر	دعبل الخزاعى	٢	١/ ٢٠٤
قفى	مُبينَا	الوافر	سعيد بن هشام المصمودى	١٠	٢/ ٣٢٧
واقْتَنَينا	قاينا	مشطور الرجز	على بن الجهم	٤	١/ ٢١
عند	بالزيتونة	مشطور الرجز	—	٢	٢/ ٢٩١
سِرْنا	طُبْنَهْ	مشطور الرجز	أحمد بن محمد المروزى	٤	٢/ ٢٢٩
بنى	حَصينهْ	مشطور الرجز	أحمد بن محمد المروزى	٢	٢/ ٢٦٦
فصل النون المضمومة					
أمَّا سألتَ	غَسَّانُ	البسيط	—	١	١/ ١٢٠
ما نالَ	ولا قارونُ	الرجز	—	١	١/ ٢٨
فصل النون المكسورة					
ألَمْ ترَوْا	وبُنْيان	الطويل	أبو الطمحان القينى	١	١/ ١١٧
من كانَ	زَبَّانِ	البسيط	—	١	٢/ ١٤١
أيا أمَلِى	وَدِينى	الوافر	أيوب بن إبراهيم النكورى	٤	٢/ ٢٧٤
الويل	دهانى	مشطور الرجز	—	٨	١/ ١٠٦

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
وبَنَا سُمِّى	الفتيانِ	الخفيف	خطاب بن المعلى الفارسى	١	١/ ٢٠٧
نحن	السودانِ	الخفيف	ــــ	٣	١/ ٢٧٠
خَبِّرينى	بهَجينِ	الخفيف	جذيمة	٢	١/ ٢٧٣
أنتَ	للتَّزْيينِ	الخفيف	رقاش أخت جذيمة	٢	١/ ٢٧٤
وأرى	السَّاطرونِ	الخفيف	أبو دؤاد الإيادى	٢	١/ ٢١٤

قافية الهاء

فصل الهاء المفتوحة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
هَامِى	والمكروهَا	الكامل	أمية بن أبى الصَّلْت	١	١/ ١٠٣

قافية الياء

فصل الياء المفتوحة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
ثم أتَى	مَرْضِيَّهْ	الرجز	أحمد بن محمد المروزى	٨	٢/ ٢٤٠

قافية الألف المقصورة

مطلع البيت	القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	جزء/صفحة
لولا	الرَّدَى	السريع	ــــ	١	٢/ ١٩٠

* * *

٦ـ فهرس الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(م)

(ن)

(هـ)

* * *

٧ـ فهرس الأمم والقبائل والجماعات والفرق والطوائف ونحوها

***

٨ـ فهرس الأماكن والجبال والمياه والمراسى ونحوها

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(غ)

(ك)

(ل)

(ن)

٩ـ فهرس مصادر الدراسة والتحقيق

(أ)

* آثار البلاد وأخبار العباد، للقزوينى ـ دار صادر ـ بيروت ـ بلا تاريخ.
* أخبار الزمان ومن أباده الحَدَثان، لعلى بن الحسين المسعودى ـ تحقيق عبد العظيم الصاوى ـ بيروت ـ ١٩٧٨م.
* أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، لأبى الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقى.
* الاستبصار فى عجائب الأمصار، لمؤلف مجهول ـ تحقيق د/ سعد زغلول عبد الحميد ـ الإسكندرية ـ ١٩٥٨م.
* الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، لأحمد بن خالد السلاوى ـ القاهرة ـ ١٣١٢هـ.
* أسْد الغابة فى معرفة الصحابة، لعز الدين بن الأثير ـ تحقيق محمد إبراهيم البنا وآخرين ـ دار الشعب ـ ١٩٧٠م.
* الإصابة فى تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلانى ـ مطبعة السعادة ١٣٥٨هـ.
* الأصمعيات، اختيار عبد الملك بن قريب الأصمعى ـ تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ـ (ط) ٣ـ دار المعارف بمصر ـ بلا تاريخ.
* الأعلاق النفيسة، لأحمد بن عمر رسته ـ بيروت ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
* الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء والعرب والمستعربين والمستشرقين، لخير الدين الزركلى ـ دار العلم للملايين ـ بيروت (ط) ١٠ ـ ١٩٩٢م.
* الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ـ (ط) دار الثقافة ـ بيروت ـ (ط) (٦) ـ ١٩٨٣م ـ و(ط) دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٩٢م.
* الإكليل، للهمذانى ـ جـ (٨) تحقيق الأب أنستاس الكرملى ـ ١٩٣٦م.
* أنساب الأشراف، للبلاذرى ـ تحقيق د/ محمد حميد الله ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٥٩م.
* الأنوار فى محاسن الأشعار، لأبى الحسن على بن محمد الشمشاطى ـ تحقيق الدكتور السيد محمد يوسف ـ الكويت ـ ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

(ب)

* البَدْء والتاريخ، لمطهر بن طاهر المقدسى ـ تحقيق كلمان هوار ـ باريس ١٩١٩م.
* بدائع الزهور فى وقائع الدهور، لابن إياس الحنفى ـ دار الكوثر ـ دمشق بلا تاريخ.
* البداية والنهاية، لابن كثير ـ تحقيق محمد أبو ملحم وغيره ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط (٣) ـ ١٩٨٧م.
* البلدان، لأحمد بن أبى يعقوب بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبى ـ بيروت ـ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
* البلدان، لأبى عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمذانى، المعروف بابن الفقيه ـ تحقيق يوسف الهادى ـ عالم الكتب ـ ط (١) ـ ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.
* البيان المُغْرِب، لابن عذارى المراكشى ـ تحقيق كولان وليفى برفنسال ـ ليدن ـ ١٩٤٨م.
* البيان والتبيين، للجاحظ ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ مكتبة الخانجى ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.

(ت)

* تاج اللغة وصحاح العربية = الصحاح، للجوهرى ـ تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ط (٢) ـ ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.
* تاريخ بغداد، للخطيب البغدادى، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
* تاريخ ابن خلدون = كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ بلا تاريخ.
* تاريخ الخلفاء، للسيوطى، دار الفكر ـ بيروت ـ ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.
* تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس، للحسين بن محمد الدياربكرى ـ مصر ١٢٨٣هـ.
* تاريخ الطبرى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ ط (٤) ـ دار المعارف بمصر ـ بلا تاريخ. و(ط) دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط (٣) ـ ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.
* تاريخ المغرب وحضارته، للدكتور حسين مؤنس، دار الغرب الإسلامى ـ بيروت.
* تاريخ مكة، للأزرقى، (ط) دار مكتبة الباز ـ السعودية.
* تاريخ مكة، للفاكهى.

* تاريخ اليعقوبى، أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر المعروف باليعقوبى ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٠م.
* تحفة الناظرين، لعبد الله الشرقاوى ـ بهامش فتوح الشام ـ دار إحياء التراث العربى ـ بيروت ـ بلا تاريخ.
* تحفة النظار = رحلة ابن بطوطة.
* تذكرة الحفاظ، للذهبى ـ حيدر آباد الدكن بالهند ـ ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٦م.
* ترتيب المدارك وتقريب المسالك، للقاضى عياض ـ تحقيق د/ أحمد بكير محمود ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ بلا تاريخ.
* تفسير الثعلبى= عرائس المجالس، للثعلبى ـ القاهرة ـ ١٢٨٢هـ.
* تفسير الطبرى = جامع البيان عن تأويل القرآن، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط(١) ـ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.
* تفسير ابن عباس، بهامش الدر المنثور للسيوطى ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ بلا تاريخ.
* تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ـ بيروت ـ بلا تاريخ.
* تفسير القرطبى = الجامع لأحكام القرآن ـ مصر ـ ١٣٥٤ ـ ١٣٦٩هـ.
* تقريب التهذيب، لابن حجر العسقلانى، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط (٢) ـ ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.
* تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلانى، دار الكتاب الإسلامى ـ القاهرة ـ ط(١) ـ ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.
* تهذيب الكمال فى أسماء الرجال، للمزى ـ تحقيق بشار عواد معروف ـ ط(١) ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.
* التيجان فى ملوك حمير، لوهب بن منبّه ـ الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر ـ ١٩٩٦م.

(ج)

* جامع الأصول من أحاديث الرسول، لابن الأثير ـ تحقيق محمد كامل الفقى ـ دار إحياء التراث العربى ـ بيروت ـ ط(٢) ـ ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.
* جامع البيان عن تأويل القرآن، لأبى جعفر الطبرى ـ تحقيق محمود محمد شاكر ـ دار المعارف بمصر، و(ط) دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان.

* الجامع الصحيح = سنن الترمذى، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ـ دار الحديث ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.
* الجامع الصغير، للسيوطى ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ بلا تاريخ.
* الجامع الكبير، للطبرانى ـ دار الرشيد ـ العراق.
* الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبى ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
* جذوة الاقتباس فى تاريخ فاس، لابن القاضى ـ فاس ١٣٠٩هـ.
* جمهرة أنساب العرب، لابن حزم ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.
* جمهرة اللغة، لابن دريد ـ تحقيق رمزى منير البعلبكى ـ بيروت ـ لبنان ـ دار العلم للملايين ـ (ط) ١ـ ١٩٨٧م.

(ح)

* حسن المحاضرة، للسيوطى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ القاهرة ١٩٦٧م.
* الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، لآدم متز، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ـ القاهرة ـ ١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م.
* حضارة العرب، لغوستاف لوبون، نقله إلى العربية عادل زعيتر ـ القاهرة ٢٠٠٠م. ضمن سلسلة مكتبة الأسرة.
* الحلة السيراء، لابن الأبار، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ـ القاهرة ١٩٤٨م.
* الحلل السندسية فى الأخبار التونسية، لمحمد بن محمد الوزير ـ دار الغرب الإسلامى.
* حلية الأولياء، لأبى نعيم، مكتبة الخانجى بالقاهرة ١٣٥٨هـ.
* الحماسة البصرية، لعلى بن الحسن البصرى ـ تحقيق الدكتور عادل جميل سليمان ـ القاهرة ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.
* الحور العين، لنشوان بن سعيد الحميرى، تحقيق د/ كمال مصطفى ـ القاهرة ١٩٤٨م.

(خ)

* الخراج وصناعة الكتابة، لقدامة بن جعفر، شرح وتعليق الدكتور محمد حسين الزبيدى ـ دار الرشيد ـ العراق ١٩٨١م.
* الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، للدكتور محمد ضياء الريس ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ ط(٢) ـ ١٩٦١م.

* خزانة الأدب، للبغدادى ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ مكتبة الخانجى ـ القاهرة ١٩٧٩م ـ ١٩٨٣م.
* خلاصة تذهيب الكمال، للخزرجى ـ القاهرة ـ ١٣٢٢هـ.

(د)

* الدر المنثور فى التفسير بالمأثور، للسيوطى ـ دار الفكر ـ بيروت ـ بلا تاريخ.
* الديباج، لأبى عبيدة معمر بن المثنى ـ تحقيق الدكتور عبد الله بن سليمان الجربوع، والدكتور عبد الرحمن العثيمين ـ مكتبة الخانجى بالقاهرة ـ ط(١) ـ ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.
* ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى ـ تحقيق محمد عبده عزام ـ دار المعارف بمصر.
* ديوان الأعشى، نشرة د/ محمد كامل حسين ـ القاهرة.
* ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف بمصر ط(٥) ـ ١٩٩٠م.
* ديوان أمية بن أبى الصلت، جمعه بشير يموت، بيروت ـ ط (١) ـ ١٩٣٤م.
* ديوان جرير بن عطية، تحقيق الدكتور نعمان أمين طه ـ دار المعارف بمصر ـ ط(٣) ـ ١٩٨٦م.
* ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد ـ دار صادر بيروت ـ ط(٢) ـ ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.
* ديوان أبى نواس، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(ذ)

* الذريعة إلى تصانيف الشيعة، لآقابزرك الطهرانى ـ بيروت ـ ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

(ر)

* رحلة ابن بطوطة = تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، لابن بطوطة ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط(٢) ـ ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٨م.
* رحلة التجانى، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجانى ـ قدَّم لها حسن حسنى عبد الوهاب ـ الدار العربية للكتاب ـ ليبيا وتونس ـ ١٩٨١م.

* رحلة ابن جبير ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٤م.
* رسالة الغفران، لأبى العلاء المعرى ـ تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٧٥م.
* الروض الأنف، تفسير السيرة النبوية، للسهيلى ـ القاهرة ١٣٣٢هـ ١٩١٤م.
* الروض المعطار فى خبر الأقطار، لمحمد بن عبد المنعم الحميرى ـ تحقيق الدكتور إحسان عباس ـ مؤسسة ناصر للثقافة ـ ط(٢) ـ ١٩٨٠م.
* رياض النفوس، للمالكى ـ تحقيق الدكتور حسين مؤنس ـ القاهرة ١٩٥١م.

(س)

* سمط اللآلى، لأبى عبيد البكرى ـ تحقيق عبد العزيز الميمنى ـ لجنة التأليف والنشر ـ القاهرة ـ ١٣٥٤هـ ـ ١٩٣٦م.
* سنن أبى داود ـ دار الريان للتراث ـ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
* سنن ابن ماجه ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ـ دار الحديث ـ القاهرة ـ ١٩٩٤م.
* السيرة النبوية، لابن كثير ـ تحقيق مصطفى عبد الواحد ـ دار المعرفة ـ بيروت ١٩٧٩م.
* سيرة ابن هشام، تحقيق طه عبد الرءوف سعد ـ دار الجيل ـ بيروت ـ بلا تاريخ.

(ش)

* شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلى ـ المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٩٧٥م.
* شرح أبيات سيبويه، لابن النحاس ـ تحقيق الدكتور زهير غازى زاهد ـ دار النهضة العربية، وعالم الكتب ـ بيروت ـ ط(١) ـ ١٩٨٦ ـ ١٣٠٦هـ.
* شرح المعلقات السبع، للزوزنى ـ المكتبة التجارية الكبرى بمصر ـ ١٣٩٠هـ ١٩٧١م.
* شعراء النصرانية، للويس شيخو ـ دار المشرق ـ بيروت ـ ط(٣) ـ ١٩٦٧م.
* الشعر والشعراء، لابن قتيبة ـ تحقيق أحمد شاكر ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٦م.
* شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، للفاسى ـ مصر ١٩٥٦م.

(ص)

* صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ـ لأحمد بن على القلقشندى ـ المؤسسة المصرية العامة ـ بلا تاريخ.

* صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة بلا تاريخ.
* صفة جزيرة العرب، للهمدانى ـ تحقيق محمد بن عبد الله بن بليهد النجدى ـ القاهرة ـ ١٩٥٣م.
* صفة الصفوة، لابن الفرج الجوزى ـ حيدر آباد الدكن ـ ١٣٥٥هـ.
* صورة الأرض، لابن حوقل ـ دار الكتاب الإسلامى ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.

(ط)

* طبقات الحفاظ، للسيوطى ـ تحقيق على محمد عمر ـ القاهرة ـ ١٩٧٣م.
* طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحى ـ تحقيق.
* طبقات الفقهاء، لأبى إسحاق الشيرازى ـ تحقيق الدكتور إحسان عباس ـ بيروت ١٩٧٠م.
* طبقات القراء، للذهبى = غاية النهاية فى طبقات القراء ـ نشر برجشتراسر القاهرة ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م.
* الطبقات الكبرى، لابن سعد ـ بيروت ـ ١٩٦٠م.
* طبقات المفسرين، للداودى ـ تحقيق على محمد عمر ـ القاهرة ١٩٧٢م.

(ع)

* العِبَر فى خبر من غبر، للذهبى ـ تحقيق صلاح الدين المنجد ـ الكويت ـ ١٩٦٠م.
* عرائس المجالس، للثعلبى ـ القاهرة ـ ١٢٨٢هـ.

(غ)

* غاية النهاية فى طبقات القراء، لابن الجزرى ـ تحقيق برجشتراسر ـ القاهرة ١٩٣٢م.

(ف)

* فتح البارى، لابن حجر العسقلانى ـ (ط) دار الكتب العلمية ـ بيروت.
* فتح القدير الجامع بين فَنَّى الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن على الشوكانى ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ بلا تاريخ.

* الفتح الكبير فى ضَمِّ الزيادة إلى الجامع الصغير، للسيوطى ـ دار الكتاب العربى بيروت ـ بلا تاريخ.
* فتوح البلدان، للبلاذرى ـ تحقيق عبد الله أنيس الطبَّاع وعمر أنيس الطباع ـ مؤسسة المعارف ـ بيروت ـ ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
* فتوح الشام، للواقدى ـ دار إحياء التراث العربى ـ بيروت ـ بلا تاريخ.
* فتوح مصر والمغرب، لابن عبد الحكم، حققه وقدَّم له الدكتور على محمد عمر ـ مكتبة الثقافة الدينية ـ القاهرة ـ ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.
* فضائل مصر، للكندى ـ تحقيق الدكتور على محمد عمر ـ القاهرة ـ ١٩٧١م.
* الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة، للشوكانى ـ تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمى اليمانى ـ مطبعة السنة المحمدية ـ القاهرة ـ ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.
* فوات الوفيات، لابن شاكر الكتبى ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ القاهرة ـ ١٩٥١م.

(ق)

* القاموس المحيط، للفيروزآبادى ـ القاهرة ـ ١٩٣٠م.
* قصص الأنبياء، لابن كثير ـ نشر مكتبة الباز ـ السعوية.

(ك)

* الكامل فى التاريخ، لابن الأثير ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٩٥م.
* الكامل، للمبرد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ القاهرة ١٩٥٦م.
* كتاب الاختيارين، للأخفش، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة ـ مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٤م.
* كشف الخفاء ومزيل الإلباس عمَّا اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، للعجلونى ـ دار إحياء التراث العربى ـ بيروت ـ بلا تاريخ.
* كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال، للمتقى الهندى ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٩٨٩م.

(ل)

* اللآلئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة، للسيوطى ـ بيروت ـ ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

* لسان العرب، لابن منظور، نشر مكتبة دار إحياء التراث ـ لبنان ـ بلا تاريخ.

(م)

* مجمع الأمثال، للميدانى ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ القاهرة ـ ١٩٧٩م.
* مجمع الزوائد، للهيثمى ـ دار الكتاب العربى ـ بيروت ـ بلا تاريخ.
* محاسن أصفهان، للمفضل بن سعد بن الحسين المافروضى ـ تحقيق السيد جلال الدين الحسينى الطهرانى ـ طهران ـ بلا تاريخ.
* محاضرات الأدباء، للراغب الأصفهانى ـ مصر ـ ١٣٢٦هـ.
* مختار الأغانى، لابن منظور ـ تحقيق عبد الستار أحمد فراج ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ـ القاهرة ١٩٦٥م.
* مختصر كتاب البلدان، لأحمد بن محمد بن إسحاق بن الفقيه الهمذانى ـ تحقيق دى غويه ليدن ١٣٠٢ ـ ١٨٨٥م ـ و(ط) دار إحياء التراث العربى ـ بيروت ـ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
* مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، لسبط ابن الجوزى ـ حيدر آباد الدكن بالهند ـ ١٩٥١م ـ ١٩٥٢م.
* مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، لصفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادى ـ تحقيق على محمد البجاوى ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ط(١) ـ ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢م.
* مروج الذهب، للمسعودى ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
* المسالك والممالك، للأصطخرى ـ تحقيق الدكتور محمد جابر الحينى ـ القاهرة ١٣٨١ ـ ١٩٦١م.
* المسالك والممالك، لابن خرداذبة، تحقيق دخويه ـ ليد ١٨٨٥ و(ط) دار إحياء التراث العربى ـ تحقيق الدكتور محمد مخزوم ـ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
* المستدرك للحاكم.
* المسند، للإمام أحمد بن حنبل، شرحه وصنع فهارسه أحمد محمد شاكر ـ دار المعارف بمصر ـ بلا تاريخ.
* المصنف، لابن أبى شيبة ـ دار الفكر ـ بيروت ـ بلا تاريخ.

* المعارف، لابن قتيبة ـ تحقيق الدكتور ثروت عكاشة ـ دار المعارف بمصر ـ ط(٣).
* معجم بلدان فلسطين، لمحمد محمد شراب ـ دار الجيل ـ بلا تاريخ.
* معجم البلدان، لياقوت الحموى ـ (ط) ـ دار صادر ـ بلا تاريخ.
* معجم الشعراء، لعفيف دمشقية ـ بيروت.
* المعجم الكبير، مجمع اللغة العربية ـ القاهرة.
* معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، للبكرى ـ تحقيق الدكتور جمال طلبة ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤١٨ ـ ١٩٩٨م.
* معجم النساء الشاعرات.
* المعجم الوسيط ـ نشر مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
* المعرب، للجواليقى، تحقيق أحمد محمد شاكر ـ القاهرة ـ ١٣٦١هـ.
* المغرب فى حلى المغرب، لعلى بن موسى بن سعيد، القاهرة ـ ١٩٥٣م.
* المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، لأبى عبيد البكرى ـ نشر أرسلان دار الكتاب الإسلامى ـ بلا تاريخ.
* المفضليات، للمفضل الضبى ـ تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون القاهرة ـ ١٣٦١هـ.
* مقاتل الطالبيين، لأبى الفرج الأصفهانى، شرح وتعليق السيد أحمد صقر ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.
* المقدمة لابن خلدون = كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، فى أيام العرب والعجم والبربر، دار الكتب العلمية ١٩٧٩م.
* الملل والنحل، للشهرستانى ـ تحقيق محمد سعيد كيلانى ـ دار المعرفة ـ بيروت ط(٢) ـ ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.
* المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك، لابن الجوزى ـ تعليق عبد الله القاضى ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٩٢م.
* منتهى الطلب من أشعار العرب، لمبارك بن ميمون ـ مخطوط مكتبة لاله لى بتركيا ـ وعنه مصورة بمعهد المخطوطات العربية ـ القاهرة.
* المؤتلف والمختلف فى أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم، للآمدى مكتبة القدسى ـ القاهرة ـ ط(٢) ـ ١٩٨٢م.
* الموسوعة العربية الميسرة، بإشراف محمد شفيق غربال ـ دار نهضة لبنان ـ ١٩٨٠م.

* الموطأ، للإمام مالك بن أنس ـ تعليق محمد فؤاد عبد الباقى ـ القاهرة ـ دار الحديث ١٩٦٣م.
* ميزان الاعتدال فى نقد الرجال، للذهبى ـ تحقيق على محمد البجاوى ـ القاهرة بلا تاريخ.

(ن)

* النجوم الزاهرة، لابن تغرى بردى ـ دار الكتب ـ القاهرة ـ ١٩٦٣م.
* نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، للشريف الإدريسى ـ عالم الكتب ـ بيروت ط(١)ـ ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.
* نكت الهميان، للصفدى، (ط) مصر.
* نهاية الأرب فى فنون الأدب، لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ـ دار الكتب المصرية ـ ١٩٢٣م.
* النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير ـ تحقيق محمود الطناحى وطاهر أحمد الزاوى ـ القاهرة ١٩٦٣م.

(و)

* وصف إفريقيا، للحسن الوزان ـ نشر دار الغرب الإسلامى.
* وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، لعلى بن عبد الله السمهودى ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ ط(٣) ـ ١٤٠١هـ ١٨٩١م ـ دار إحياء التراث ـ بيروت.
* الولاة والقضاة، للكندى ـ بيروت ١٩٠٨م.
* وفيات الأعيان، لابن خلكان ـ تحقيق إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٧١م.

* * *

فهرس موضوعات الجزء الثانى

الموضـــــــوع الصفحة

الموضـــــــوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضــــــوع	الصفحة

الموضـــــوع | الصفحة

* * *